نشوء وسقوط

الدولة الصفوية



إعداد

كمال السيد

نشوء وسقوط
الدولة الصفوية

دراسة تحليلية

إعداد

عباس حسن الموسوي

كمال السيد



تستند هذه الدراسة في الغالب إلى المجموعة التاريخية الكبرى حول تاريخ ايران والعهد الصفوي للشيخ رسول جعفريان

نشوء وسقوط
الدولة الصفوية

- إعداد: كمال السيد
- الناشر: باقيات
- الكمية: ١٠٠٠ نسخة
- المطبعة: سرور
- الطبعة: الأولى
- تاريخ الطبع: ٢٠٠٥م ـ ١٤٢٦هـ.ق
- القطع وعدد الصفحات: وزيري ـ ٣٦٨ صفحة

شابك : ٥-١٦-٩٦٣٥-٩٦٤

عنوان الناشر: ايران ـ قم ـ شارع معلم ـ رقم ٤٤ ـ تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي

رقم ١١٦،١١٧ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤





بسم الله الرحمن الرحيم

(وَ تِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

آل عمران/ ١٤٠

شمس الدولة الصفوية أشرقت في أردبيل ، وتألقت في تبريز، وسطعت في قزوين واشتد سطوعها في اصفهان لتنطفئ بعد قرنين من الزمان

المقدمة

كان من الممكن اعتبار الصراع الصفوي العثماني جزءً من الملفات التاريخية التي تراكم عليها غبار النسيان. وكان يمكن أيضاً أن تكون هذه الدراسة إسهاماً في حقل الدراسات التاريخية لفهم اعمق ووعي أكثر حول الدولة الصفوية التي تعرضت منذ نشوئها لحروب مدمرة وصراع مصيري مرير.

وإثر انتصار الثورة الاسلامية في ايران ثم قيام الطاغية والدكتاتور صدام بشن حربٍ شاملة على ايرن طالت ثماني سنين عجاف جرّت على العراق الويلات وما تزال آثارها باقية حتىٰ الآن.

إثر ذلك العمل الجنوني قام نظام البعث الساقط بتوجيه العديد من الرسائل الجامعية نحو تشويه التاريخ الايراني بالتركيز على العهد الصفوي. غير أن التاريخ والحقيقة يشهدان على أن قيام الدولة الصفوية كان اسهاماً كبيراً في الحضارة الإسلامية فقد شهدت ايران في ظل المذهب الامامي ومدرسة أهل البيت أول تجربة لحكم القانون لم يكتب لها الاستمرار بسبب شراسة التحديات الخارجية وبخاصة الصراع مع الدولة العثمانية في الغرب والدولة الاوزبكية في الشرق وتحالف هاتين الدولتين من أجل القضاء على الكيان السياسي للدولة الفتية بل والقضاء على قاعدتها الفكرية، وفيما يخص الدولة العثمانية فقد مارست ابشع اساليب القهر والبطش وارتكبت مذابح مروعة وكان السلاطين يحصلون على فتاوى جاهزة من المؤسسة الدينية التي وصل بها التعصب إلىٰ اعلان ان قتال الشيعة يعدل في ثوابه سبعين مرّة قتال الكفار!!

ومعروف جداً بواعث تبني الامبراطورية العثمانية للمذهب الحنفي كقاعدة فكرية لأنه المذهب الوحيد الذي يجيز لغير العربي بالحكم؛ من هنا يمكن ان نفهم محاولات العثمانيين للقضاء على الشيعة والتشيع وقيامها باكبر دعاية في العصر الحديث ضد الشيعة.

أجل كل هذا يمكن أن يدرج ضمن الملفات التاريخية التي خبا تأثيرها واستحالت جمراتها المشتعلة ذات يوم إلىٰ مجرّد رماد إلاّ أن ما حصل بعد سقوط نظام حزب البعث في العراق واكتشاف المقابر الجماعية التي هزت ضمير الرأي العام في العالم وكشفت له محنة الشيعة ابان حكم حزب البعث لم يهز حتىٰ شعرة واحدة لدى المجاميع شبه القبلية القاطنة في غرب العراق فقد اعتبرت سقوط الطاغية طعنة لها وبدأت تعيد مسلسل القتل والذبح بحق الشيعة بأساليب ارهابية بشعة ولقد صدم الكثيرون بهذه الوحشية التي لا حدود لها.

ولم يقتصر الأمر على سنة العراق في الغرب الذين راحوا يتبجحن بالعروبة والقومية العربية وهم من أصول تركية بل امتد الحقد إلىٰ ما هو ابعد من حدود العراق إلىٰ سوريا والاردن وفلسطين واجزاء من السعوديه وحتىٰ المغرب العربي.

لقد ظهر جلياً وجود اسلام أموي حاقد يشتمل على مساحة فكرية ونفسية لا أنسانية عنصرية تشكل خطراً على مستقبل البشرية. أن المعركة التي يخوضها الشعب العراقي ضد الارهاب اليوم هي معركة اخلاقية وجزء من الصراع الأبدي بين الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والنور والظلام، والإنسان وجنود الشيطان. وهي معركة حريٌّ على العالم اليوم ان يقف مسانداً لهذا الشعب المقهور وأن يمد يد العون له للخروج من محنته.

خلاصة لفصول الدراسة

الفصل الأول: «ارهاصات وظروف التأسيس»

ويرصد هذا الفصل ظروف تأسيس الدولة الصفوية والمشهد الايراني العام بعد انهيار الدولة الايلخانية، وتمزق البلاد الىٰ حكومات اقليمية محلية والتىٰ خلقت اوضاعاً ثقافية متناقضة ومتصارعة في كثير من الاحيان ولذا جاء قيام الدولة الصفوية ليكون احدى الحوادث الكبرى في تاريخ ايران إذ أعادت الوحدة السياسية للبلاد.

وقد قام الصفويون بخطوة مثيرة جداً باعلان المذهب الامامي مذهباً رسمياً للبلاد؛ على أن هذا التحول لم يكن قد نجم عن فراغ فقد سبقه مسار هادئ من الدعوة الىٰ مذهب أهل البيت؛ إذ ظهر منذ وقت شيوخ من الصوفية يؤمنون بالائمة الاثني عشر لينتشر بين أهل السنة وان كانوا فقهياً يتبعون المذهب الشافعي.

المؤشرات الأولىٰ لظهور الصفويين تعود الىٰ آذربيجان على شواطئ بحر قزوين في اطار حركة صوفية ذات رموز شيعية استمدت بعض افكارها من «الغلاة» الذين واجهوا طرداً شديداً من أئمة أهل البيت: فانتقلوا الىٰ المناطق الجبلية الممتدة من سوريا فالعراق وحتىٰ ايران وراحوا يبثون أفكارهم هناك؛ وقد اكتسبت طريقة الشيخ صفي الدين الاردبيلي شعبية واسعة كما وساعدت القبائل التركمانية ذات النفوذ السياسي والتي تكنّ أعمق الإجلال للإمام علي (عليه السلام) ازدهار هذه الحركة الكبيرة بما تنطوي عليه من طاقة سياسية؛ ذلك ان الحركات الصوفية آنذاك وبما تبدو عليه الصوفية من موقف سلبي ازاء الحياة المادية الاّ أنها كانت تنطوي على طاقة سياسية كبرى تؤهلها لتشكيل حركة سياسية

وقد ظهر ذلك جلياً في قبائل التركمان المريدين لأسرة الشيخ صفي الدين اذ سرعان ما نبذوا «الخرقة» وارتدوا «بزة» القتال ليدخلوا حمأة الصراع المسلح الذي انتهى الىٰ قيام الدولة الصفوية.

يتألف هذا الفصل من الفقرات التالية:

- مشاهد ما قبل الظهور
- آسيا الصغرى... هبوب الأفكار
- هجرة الأتراك من الأناضول
- دخول المسرح السياسي
- اتحاد القبائل التركية
- القز لباش
- اسماعيل أول ملوك الصفوية
- اعلان المذهب الشيعى مذهباً رسمياً
- التحدي الاوزبكي
- بدء الصراع الصفوي العثماني
- معركة تشالدران
- آثار المعركة في مسار الدولة
- ديوان خطايي

الفصل الثاني: عهد الاستقرار والازدهار

حكم شاه اسماعيل الأول ربع قرن (٩٠٥ - ٩٣٠) هـ وأعقبه شاه طهماسب (٩٣٠ - ٩٨٤) هـ وهذه المدة الطويلة التىٰ تجتاز نصف قرن كانت عهداً للاستقرار والازدهار.

شهدت السنوات الخمسين وبالرغم من الصراع الداخلي بين الأمراء، والصراع مع الدولة العثمانية الاّ أن الدولة الصفوية ثبتت أركانها بقوة.

ومن المؤكد أن بصمات الشيخ والعالم والمحقق الإمامي الكبير الكركي واضحة في ذلك

من خلال اضفاء المشروعية على حكم غير المعصوم.

فالشاه طهماسب الذى بلغ العشرين من عمره في سنة «٩٣٩ هـ » أصبح ملكاً تقياً ومتمسكاً بالشريعة وبدأ وبشكل جاد حملة لتطبيق الدين في واقع الحياة الاجتماعية وكانت حملة حقيقية بدأت من البلاط نفسه.

واتسمت هذه الفترة بعودة السلام بين الدولتين العثمانية والصفوية، وانتشار المذهب الإمامي والحضور الفاعل للفقهاء الإماميين في بلاد الحكم.

وفقرات هذا الفصل كما يلي:

- بدء النزاع داخل المنظومة القزلباشية
- انتقال مركز الحكم الىٰ مدينة قزوين
- المسألة الأوزبكية... استمرار الخطر
- الصراع العثماني الصفوي.... حرب وسلام
- العلاقات الخارجية... الغرب والشرق
- المؤسسة الدينية
- الهجرة العاملية الىٰ ايران
- دور المحقق الكركي في قوّة الحكم الصفوي
- شخصية طهماسب واثرها في مشروعية الحكم الصفوي
- نهضة الترجمة من العربية الىٰ الفارسية
- المؤسسات المدنية والثقافية

الفصل الثالث: رياح الأزمة

مايزال جسد شاه طهماسب مسجىً على الأرض عندما بدأ الصراع حول خلافته؛ وقد عم الرعب العاصمة بعد اكثر من نصف قرن (٩٣٠ - ٩٨٤ هـ) من حكومة طهماسب الذي اتسم بالتدين والالتزام بحدود الشريعة.

غير ان مصير الخلافة وهوية خليفته على عرش السلطنة ظل غامضاً.

كان هناك ثلاثة مرشحين لخلافته من بين أولاده أولهم حيدر ميرزا وكان محل اهتمام والده وقد اوكل اليه مهام كثيرة.

الثاني اسماعيل ميرزا وكان حينها سجيناً في قلعة «قهقهة» وكان فيما يبدو أقل حظاً في قوة ترشيحه ومحمد ميرزا الابن الأكبر لطهماسب وكان ذات يوم ولياً لعهده.

ويشاء القدر أن يتولىٰ العرش بعد صراع عنيف ودامي اسماعيل ميرزا ليصبح شاه اسماعيل الثاني. فبدأ عهده بتصفية الأمراء وتحولت قزوين في تلك الفترة الىٰ مسرح لعمليات دموية رهيبة. ولم يتوقف مسلسل الاغتيال والتصفية الجسدية والقتل حتىٰ بعد وفاة اسماعيل الثاني. ولكن مساره بدأ ينكفئ على المقربين للشاه الراحل اذ طالت عجلة القتل ابن الشاه البالغ من العمر عاماً واحداً! وفي هذه الفترة خسرت الدولة الصفوية أراض شاسعة جداً لصالح الدولة العثمانية.

فقرات الفصل:

- صراع في العاصمة
- شاه اسماعيل الثاني
- شاه اسماعيل بين التشيع والسنن
- خدا بنده... السلطان الضعيف
- اندلاع الصراع داخل المنظومة القزلباشية
- المسألة الاوزبكية... سقوط خراسان
- انتهاك معاهدة السلام... التوسع العثماني
- سقوط جورجيا
- سقوط تبريز

الفصل الرابع: البطل القومي

لقى ولي العهد الرسمي حمزة ميرزا مصرعه بخنجر دلاكه وكان ولي العهد حينها سكراناً وظلت اسباب الاغتيال غامضة وذلك في ٢٤ ذي الحجة ٩٤٤ هـ وقد ألقى الحادث بظلاله القائمة على مستقبل الدولة الصفوية وكادت القلاقل والفوضى تعصف بالبلاد؛ لكن كل شيء عاد الىٰ الهدوء بعد ظهور شخصية عباس ميرزا الذي أصبح شاه عباس الأول وقد اضطر شاه سلطان محمد ميرزا للتنازل عن الحكم وإن وضع هذا التنازل في اطار طبيعي على أساس عجز الأخير عن تحمل اعباء الحكم، وانتهى بذلك ولو بشكل ظاهري الصراع بين أمراء القزلباش وكاجراء احتياطي أُرسل معظم المعارضين منهم الىٰ قلعة أَلموت.

وقد استعادت الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس استقرارها بل وازدهرت كما استطاع الصفويون استرداد الاقاليم التي خسرتها فيما مضى وتم تحرير العديد من المدن والحواضر الهامة.

فقرات الفصل:

- مصرع ولي العهد
- البحث عن بطل
- سقوط المدن الكبرى
- انشاء مؤسسة عسكرية جديدة
- الجبهة الداخلية
- الصراع مع الأزبك
- علاقات العثمانية الصفوية
- تحرير الاراضي المحتلة
- العلاقات الخارجية

الفصل الخامس: المشهد الثقافي والحضاري

ويبحث الفصل ما وصلت اليه ايران من نهضة عمرانية وتحولات ثقافية اضافة الىٰ دراسة المؤسسة الشيعية ورموز الإمامية كالشيخ البهائي وميرداماد وملا صدرا وشعراء تلك الفترة.

فقرات الفصل:

- اصفهان... عاصمة جديدة
- المدارس والمساجد
- الاحتفالات الشعبية
- شخصيات العصر
- شعراء العصر

الفصل السادس: ملوك وعلماء

يتعرض هذا الفصل لعهد صفي شاه وسجله المليء بالجرائم التي تجعله أقسى ملك صفوي على الاطلاق... انتحل اسم أبيه القتيل وبدأ مسلسل الجريمة ليأتي على كل أفراد العائلة الصفوية ولم تسلم امرأته وحتىٰ ابنته من القتل.

وقد واجهته مصاعب داخلية وأخرى خارجية تعامل معها بطريقته الخاصة الىٰ أن وافاه الأجل ليخلفه على العرش ابنه شاه عباس الثاني وهو في العاشرة من عمره.

وقد شهد عصره استئناف لحركة الازدهار في العمران والثقافة.

فقرات الفصل:

- الذئب الاغبر
- مصاعب ومشكلات
- تشكيل المجلس الفقهي
- العلاقات الخارجية
- شخصيات العصر

- شعراء العصر

الفصل السابع: الصراع الفكري

يصف الفصل الاحداث التي تلت وفاة عباس الثاني وطريقة استخلاف ابنه صفي الذي حكم البلاد سنة واحدة وقد كانت بداية مشؤومة اضطرت شخصيات البلاد الصفوي المتنفذة الىٰ اقتراح في تجديد مراسم التتويج وتبديل اسم الملك صفي الىٰ سليمان وحدث ذلك بالفعل بحلول السنة الايرانية الجديدة ليمتد حكمه الىٰ ثمانية وعشرين سنة.

فقرات الفصل:

- شاه من جناح الحريم
- ملك ضعيف ووزير قوي
- اصفهان نصف العالم
- الصراع الفكري

الفصلان الثامن والتاسع: نحو السقوط

يتعرض الفصلان للجيل الأخير من الدولة الصفوية ومؤشرات الانحطاط والسقوط حيث السلطان حسين آخر ملك صفوي، كما ويصف الفصلان تنامي الخطر الأفغاني وتهديده الوجود الصفوي والاحداث التي انتهت بسقوط العاصمة اصفهان بعد حصار افغاني شديد وطويل.

ويبحث الفصلان أيضاً أسباب زوال الدولة الصفوية.

فقرات الفصلين:

- حكومة سلطان حسين
- لتحولات السياسية
- العلاقات الخارجية
- انشطة التبشير

مدخل عام

لم تكن ايران قبل ظهور الحركة الصفوية التي أفضت الىٰ قيام دولة قوية وانطلاق حضارة لم تكن قبل ذلك قد شهدت نهوضاً حقيقياً ككيان سياسي له استقلاليته. ولقد كانت ايران قبل ذلك الوقت جزءً من العالم الاسلامي الكبير لاتؤطرها أية أطر سياسية، بالرغم من احتفاظها بكيان اجتماعي ووجود تقاليد وعادات هي بقايا حضارة ومدنية جعلت الايرانيين يشعرون بقدر من الاعتداد بالنفس والىٰ أن يفخروا بما حققوه من تقدم وازدهار وخاصة ما حصل في ظل الدولة العباسية.

لقد لعب الايرانيون دوراً في تحقيق امتداد تاريخي للحضارة الاسلامية وما وصلت اليه المدنية الاسلامية. بعد ظلّت شمس الحضارة الاسلامية تسطع في تلك البقعة من العالم الىٰ أن هبّت عاصفة المغول والتتار ليجتاحوا ايران والعالم الاسلامي بأسره.

ومنذ ذلك الوقت وحتىٰ ظهور الدولة الصفوية أصبحت ايران أشبه بالكرة يتقاذفها أمراء أتراك أو مغول باستثناء ومضة نور شعت في شمال شرق ايران وبالتحديد في اقليم خراسان، عندما قامت دولة السربداران فوق رقعة جغرافية محدودة ولمدة زمنية محدودة لم تتجاوز النصف قرن.

وفي غمرة الصراعات العنيفة من أجل السيطرة وحروب النفوذ والاقتتال حول المزيد من الأسلاب والمطامع، كل هذا شجع على ظهور تيارات صوفية تتعالىٰ في سلوكها عن كل ما هو دنيوي هابط، سواء تمثل ذلك في جاه عريض ومنصب كبير أو في لباس فاخر.

واذن فيمكن تفسير الزهد في هذه الفترة وإن بدا نوعاً من الانزواء والانسحاب من الحياة، يمكن تفسيره بانه موقف اجتماعي ضد كل تلك الشهوات، شهوة السلطة وشهوة

الثراء وشهوة النفوذ.

ومن هنا اكتسب المتصوفة قداسة كبيرة كالتي حازها الشيخ صفي الدين الاردبيلي الذي اصبح كبير النفوذ بسبب الاحترام والقداسة التي يتمتع بها بين القبائل التركية التي تمتد من أردبيل في ايران الىٰ الاناضول في تركيا.

لقد كان الشيخ صفي الدين صاحب طريقة صوفية قُدّر لها أن تنتشر في ايران وشرق الاناضول، وعندما توفي الشيخ وخلفه على زعامة الخانقاه حفيده خواجه علي، سنجد أن هذه الحركة الصوفية سوف تنفتح على المذهب الشيعى، حيث يمثل الإمام علي(عليه السلام) رمزاً مقدساً؛ وشيئاً فشيئاً بدأ الالتحام بين هذه الحركة الصوفية والمذهب الإمامي بشكل ادى الىٰ تشكيل دولة ثرية وجيش قوي.

وبالرغم من كل الاخطاء التي حصلت في الدولة الصفوية ولكن يتوجب الاعتراف بنقاط عديدة منها ان الدولة الصفوية لم تكن دولة برغماتية ذات اطماع سياسية أو قومية محضة، لقد كانت الدولة الأولىٰ التي سخرت امكاناتها من أجل الدعوة الىٰ المذهب الإمامي ولم تمارس الدولة في كل مراحلها أية سياسة في التمييز العرقي إذ فتحت ذراعيها لكل المهاجرين وبخاصة المضطهدين في بلدانهم لأسباب مذهبية، ولعل في الهجرة العاملية دليل ساطع على ذلك.

كما إن وجود اعداد كبيرة من النصارى الأرمن واليهود تعيش حياتها حرّة يعكس مدى التسامح الديني السائد يومذاك، هذا ومن الثابت تاريخياً تحالف العثمانيين مع الاوزبك في الشرق من أجل القضاء على الدولة الصفوية لاسباب طائفية لا أكثر ومارست الدولة العثمانية خلال صراعها المرير مع الصفويين كثيراً من الدعاية الطائفية المكثفة والظالمة من أجل القضاء على الدولة الصفوية، بل وحتىٰ المذهب الإمامي.

لانريد هنا الدفاع عن الدولة الصفوية وتبرير أخطائها خاصة في محاولات التحالف مع العالم الاوربي ضد الامبراطورية العثمانية والتي عدّها بعضهم طعنة غادرة[١].

غير ان من التعسف بمكان ان نلخص قيام دولة شيعية طعنة غادرة ومؤامرة ضد

---

[١] شريعتي التشيع العلوي والتشيع الصفوي: ص ٧٢.

الامبراطورية العثمانية مع ان الأخيرة شنت حملات اضطهاد واسعة وعلى مدى عشرات السنين استهدفت تصفية الوجود الشيعي في كل مكان يمكنها أن تبطش به.

ومن غير الموضوعية ان يتهم قادة الصفوية بأنهم شخصوا هذا الأمر بدقة فنفذوا من خلال ذلك الىٰ أعماق الوجدان الشيعي ليشيدوا نظامهم السياسي، علماً بأن ايران لم تكن قبل قيام الدولة الصفوية تدين بمذهب أهل البيت باستثناء نقاط محدودة.

وعندما قرر شاه اسماعيل اعلان المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة حاول بعض المسؤولين في بلاطه ثنيه عن ذلك معتبرين هذا القرار مغامرة خطيرة لاتعرف عواقبها، بل ان هذا القرار كلف الدولة الصفوية الكثير، فقد وجدت نفسها بين فكي كماشة الاوزبك المتعصبين في الشرق والعثمانيين المدججين بالسلاح في الغرب.

ومن هنا سنتفهم محاولة نادر شاه (١١٦٠ هـ) انقاذ ايران من مخاض هذا الصراع الدامي بسلخ ايران من هويتها الشيعية واعادتها الىٰ المحيط السني المتلاطم، والذي يهددها بالغرق في طوفان التعصب الطائفي.

من هنا أجد من اللازم أن نقرأ هذه الحقبة التاريخية كما هي بعيداً عن المصادرات والأحكام المسبقة.

ولقد حاولت جهد الامكان أن اتحرى في هذه القراءة من خلال تصوير التجربة التاريخية للصفويين بدءً من العوامل التي أدت الىٰ ظهورهم والاسباب التي أودت بمجدهم لتبقى من بعدهم آثار هي بقايا أشعة من شمس بزغت في أردبيل وتألقت في تبريز وسطعت في قزوين واشتد سطوعها في اصفهان لتضي مساحات مترامية الاطراف من العالم الاسلامي ثم تنطفئ بعد قرنين من الزمان.

وهذه الدراسة التاريخية التي ترصد مسار الدولة الصفوية، تكتسب اهميتها من خلال الدور الهام التي لعبه الصفويون في تكوّن ايران الحديثة سواء في هويتها والازدهار الكبير في الفنون والآداب والصناعة الذي تحقق من خلالها.

وينهض الهيكل العام للدراسة على تسعة فصول تناول الفصل الأول منها ارهاصات وظروف التأسيس والمشهد الايراني العام الذي أعقب زوال الحكم الايلخاني وتمزّق البلاد الىٰ دويلات وحكومات اقليمية خلقت أوضاعاً ثقافية متناقضة ومتنافرة.

ولذا جاء ظهور الحركة الصفوية الصوفية حدثاً كبيراً في التاريخ الايراني من خلال ولادة كيان سياسي موحد يستند الىٰ قاعدة مذهبية جديدة.

سوف نشهد ظهور قبائل تركمانية تدين بالولاء والحماس لطريقة الشيخ صفي الدين الاردبيلي وهو حماس سيتخذ شكل القداسة باعتبار أن الشيخ هو المرشد الروحي العام لهذه القبائل التي ستتحد في اطار قوة عسكرية عرفت بـ «القزلباش» أو ذوي الطرابيش الحمر، وظهر بجلاء أن هذه الحركة الصوفية تنطوي على طاقة سياسية كبيرة أهّلها لتكوين دولة كبرى في وقت قياسي

وسرعان ماولدت دولة جديدة ذات قاعدة مذهبية لاتنسجم مع المحيط الاقليمي وادى اعلان شاه اسماعيل الأول مؤسس الدولة الدولة المذهب الشيعى الاثني عشري مذهباً رسمياً في البلاد الىٰ اثارة مخاوف الامبراطورية العثمانية في الغرب كما اثار حفيظة الاوزبك في الشرق، وسرعان ما وجدت الدولة الصفوية الفتية نفسها تخوض حروباً مصيرية في حدودها الشرقية والغربية.

وجاءت معركة تشالديران الفاصلة حيث الحق العثمانيون أول هزيمة ساحقة بالصفويين حطمت غرور شاه اسماعيل الذي قاد جيوشه محققاً انتصارات كبيرة متلاحقة تمكن فيها من القضاء على دولة الخروف الأبيض وعلى دولة المشعشعيين[١].

وتطرق الفصل الثاني الىٰ عقود الاستقرار والازدهار في ظل حكومة شاه طهماسب، حيث شهدت البلاد هجرة العلماء العرب من الشيعة الىٰ الدولة وملء الفراغ الحقوقي والإداري لتصبح الدولة الصفوية دولة مؤسسات.

فيما استعرض الفصل الثالث عهد ما بعد طهماسب ودخول البلاد في أول أزمة سياسية وتدهور الأوضاع بشكل راح يهدد مستقبل الدولة بالخطر خاصة بعد تجدد الصراع مع الامبراطورية العثمانية.

وفي غمرة هذه الظروف الحالكة لقي ولي العهد حمزة ميرزا مصرعه في ظروف غامضة، وهذا ما عقّد الاوضاع بشكل ينذر بتمزق البلاد وكادت القلاقل تعصف بالنظام الصفوي،

[١] انظر ملاحق الدراسة في آخر الكتاب.

ولكن ظهور شخصية عباس ميرزا فجأة الذي أصبح فيما بعد شاه عباس الأول أعاد الىٰ البلاد هدوءها من جديد.

وبالرغم اتسام العهد الجديد بشي من العنف والبطش بالمعارضين ولكن ذلك ساعد على استتباب الأمن واستعادة هيبة الدولة واستطاع الشاه الجديد استرداد جميع الاراضي التي وقعت تحت الاحتلال العثماني والاوزبكي.

أصبحت اصفهان عاصمة الدولة وتألقت هذه المدينة لتصبح في طليعة مدن الشرق بعد ان ازدهرت فيها الثقافة والعمران والفنون واصبح شاه عباس شخصية اسطورية وبطلاً قومياً. وفي غمرة الصراع مع العثمانيين حاول الشاه من أجل تخفيف الضغوط الخارجية والتهديدات العسكرية التحالف مع أوربا لتكوين جبهة ضد الامبراطورية العثمانية خاصة وان الاخيرة لم تكن تألوا جهداً في التحالف مع الاوزبك بغية القضاء التام على الكيان الصفوي.

وبسبب الدعاية المكثفة التيٰ مارسها العثمانيون ضد المذهب الإمامي والحرب الباردة يمكن تفهم عدم الشعور بالحساسية من تحركات الشاه عباس في تعزيز علاقاته الخارجية مع الدول الاوربية، لقد كان ذلك سعياً من أجل البقاء، فالحرب مع العثمانيين لم تكن حرب حدود، بل كانت حرباً من أجل الوجود.

وبعد رحيل شاه عباس الأول دخلت البلاد مرة أخرى في أزمات متعددة بعد أن نعمت بالاستقرار زهاء نصف قرن، ظهر بشكل جلي الانقسام داخل المؤسسة الدينية، كما تعرضت المؤسسة العسكرية أيضاً الىٰ التصدع، وبدأت الحرب بين الفقهاء من أهل الشريعة مع المتصوفة من أهل الطريقة. ووقفت الدولة بشكل و اضح الىٰ جانب الفقهاء وتعرض المتصوفة الىٰ حصار، وفي بعض الاحيان الىٰ اضطهاد وظهر علماء دين نفعيون أثروا على حساب الشرائح الاجتماعية الاخرى. ودخلت البلاد مرحلة من الانحطاط الاخلاقي والترف وظهرت اعراض المرض في جسم الدولة خاصة في عهد شاه سلطان حسين الذي لم يكن مؤهلاً من الناحية الادراية والسياسية فانهار الحكم الصفوي مع أول زوبعة من الشرق عندما هاجمت القبائل الافغانية اصفهان ولم يصمد القزلباش الذين فقدوا هيبتهم العسكرية وانضباطهم وحماسهم منذ فترة طويلة. لقد اجتمعت عوامل عديدة ادت الىٰ انهيار الحكم الصفوي بعد تجربة تاريخية جديرة بالدراسة واستلهام الدروس والعبر.

الفصل الأوّل

ارهاصات وظروف التأسيس

(٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ)

الأسرة الصفوية من الأسر ذات النفوذ الصوفي الكبير حيث ينتشر اتباعها في ايران والديار العثمانية، وقد اكتسبت قوتها من تأييد وحماس القبائل التركمانية التي تقطن آسيا الصغرى.

ويمكن اعتبار هذه الأسرة وريثة الحركة الشيعية السربدارية فبالرغم من تصوفها فقد عرفت بميولها الشيعية وجنوحها نحو التدخل في السياسة. وقد تبلور كل ذلك في شخصية صفي الدين زعيم الأسرة، كما أن تألقها ومن ثم نجاحها في تشكيل كيان سياسي قوي مدين للظروف الثقافية والاجتماعية؛ حيث التصوف كان يحظى بالقداسة لدى المجتمع الايراني؛ خاصة في الفترة التي أعقبت الاجتياح المغولي لايران الأمر الذي أدى الى أن يكون للتصوف طاقة سياسية قادرة على بناء كيان قوي ودولة كبيرة.

المشهد الإيراني قبيل ظهور الصفويين

عندما نلقي نظرة على الخارطة السياسية لجغرافية إيران الحديثة ومناطق الجوار سنجد بقايا التيموريين يحكمون خراسان والىٰ جوارها دولة الخروف الأسود (قره قينلو) تبسط نفوذها من يرفان شمالاً الىٰ بغداد جنوباً مروراً بقزوين شرقاً والموصل غرباً وكذا مدينة تبريز في مركز البلاد، أما دولة الخروف الأبيض فيمتد نفوذها جنوب البحر الأسود من أرض روم في الشمال الشرقي وسيواس في الشمال الغربي الىٰ ماردين جنوباً مروراً بديار بكر.

وفي اقليم خوزستان (جنوب ايران) نهضت الدولة المشعشعية التي أسسها محمد بن فلاح حيث تمكن من جمع العشائر العربية في العراق وايران ليقاوم بها النفوذ التركماني واستمرت دولته سبعين عاماً.

وبطبيعة الحال كان النزاع العسكري على بسط النفوذ فوق الأرض هاجس الجميع، من أجل تعزيز وتوسيع وأيضاً الدفاع عن مناطق النفوذ.

وهذا التمزق السياسي الىٰ جانب غياب التجانس والانسجام الثقافي، كان يقود الىٰ المزيد من التشرذم وعدم الاستقرار وبالتالي قاد الحضارة الاسلامية الىٰ المزيد من التدهور والانحطاط.

وبالرغم من أن التصوف وجنوح المجتمع الاسلامي الىٰ تقديس التصوف، بكل ما يحمله من سلبية ازاء الحياة، كان السبب الرئيس وراء تدهور المدنية الاسلامية الا انه سوف ينجح في اقامة دولة قوية، عندما دخل ميدان السياسة، بما يمتلكه من طاقات سياسية كبيرة استطاعت وفي وقت قصير وقف حالة التداعي والتدهور في رقعة كبيرة من الوطن الاسلامي ليقيم دولة قوية، وحّدت الأرض والانسان تحت راية واحدة وحددت اتجاهاً

فكرياً مكن الانسان المسلم في ظلاله من استئناف حركته الابداعية وتقدم البلاد وازدهارها.

ولعل في طليعة التحولات التي شهدتها ايران في العهد الايلخاني وفترة السيطرة التركمانية هو انتقال النفوذ السياسي الىٰ مدينة تبريز والتي تألق اسمها منذ اجتياح المغول وقضائهم على الدولة الخوارزمية في ايران.

ففي تلك الفترة حيث ايران تعاني من التمزق السياسي والثقافي، كان هناك وعلى مقربة من مدينة تبريز وبالتحديد مدينة أردبيل شيء ما يجري في ثبات وهدوء.

ولقد كانت خطوة ذكية عندما نقل الصفويون مركز حكومتهم الىٰ تبريز الأمر الذي منحهم نوعاً من المشروعية الجغرافية في بسط نفوذهم على مناطق شاسعة في ايران في وقت قياسي.

تعدّ مدينة أردبيل من المدن العريقة في اقليم أذربيجان وقد تألق اسمها في عصور تاريخية، تعاقبت على ايران بما في ذلك الفتح الاسلامي، وكانت هذه المدينة تتمتع بأهمية فائقة بحيث سنجدها في حالة تنافس دائمة مع مدينتين آخريين مراغة وتبريز على قيادة الاقليم، وقد عدّها المقدسي في القرن الرابع الهجري من اكبر المدن الاذربيجانية.

وفي فترة الشيخ صفي الدين الاردبيلي الذي ولد في قرية «كلخوران»، سنة ٦٥٠ هـ لم تكن أردبيل تتمتع بمركزها السياسي فحسب بل واهميتها الدينية حيث الشيخ صفي الدين يتربع على كرسيه كمرشد يقصده الآلاف من مريديه لتصبح أردبيل مهوى القلوب والافئدة وتكتسب المدينة بذلك اسماً جديداً هو «دار الارشاد»، ويصبح «خانقاه» الشيخ كعبة يحج اليه الآلاف للإصغاء الىٰ تعاليمه وارشاداته والتبرك بزيارته ولقائه.

امتاز اقليم اذربيجان عموماً باستقباله للمهاجرين من العرب وقد استقر في أرضه العرب بعد الفتح الاسلامي؛ ومع ان تنامي الهجرة يشكل في العادة تهديداً للهوية الاّ ان السكان احتفظوا بتفوقهم العددي والثقافي وظلت اللغة الآذرية هى السائدة كأحد مكونات اللغة الايرانية العريقة بالرغم من التأثير الواضح للغة التركية في تشكيل مفرداتها.

وبعد هجوم السلاجقة على ايران شهدت ايران وآسيا الصغرى تدفقاً تركياً من تركستان في شمال بحر الخزر ومناطق القفقاز؛ حيث موجات الهجرة التركية تتدافع صوب

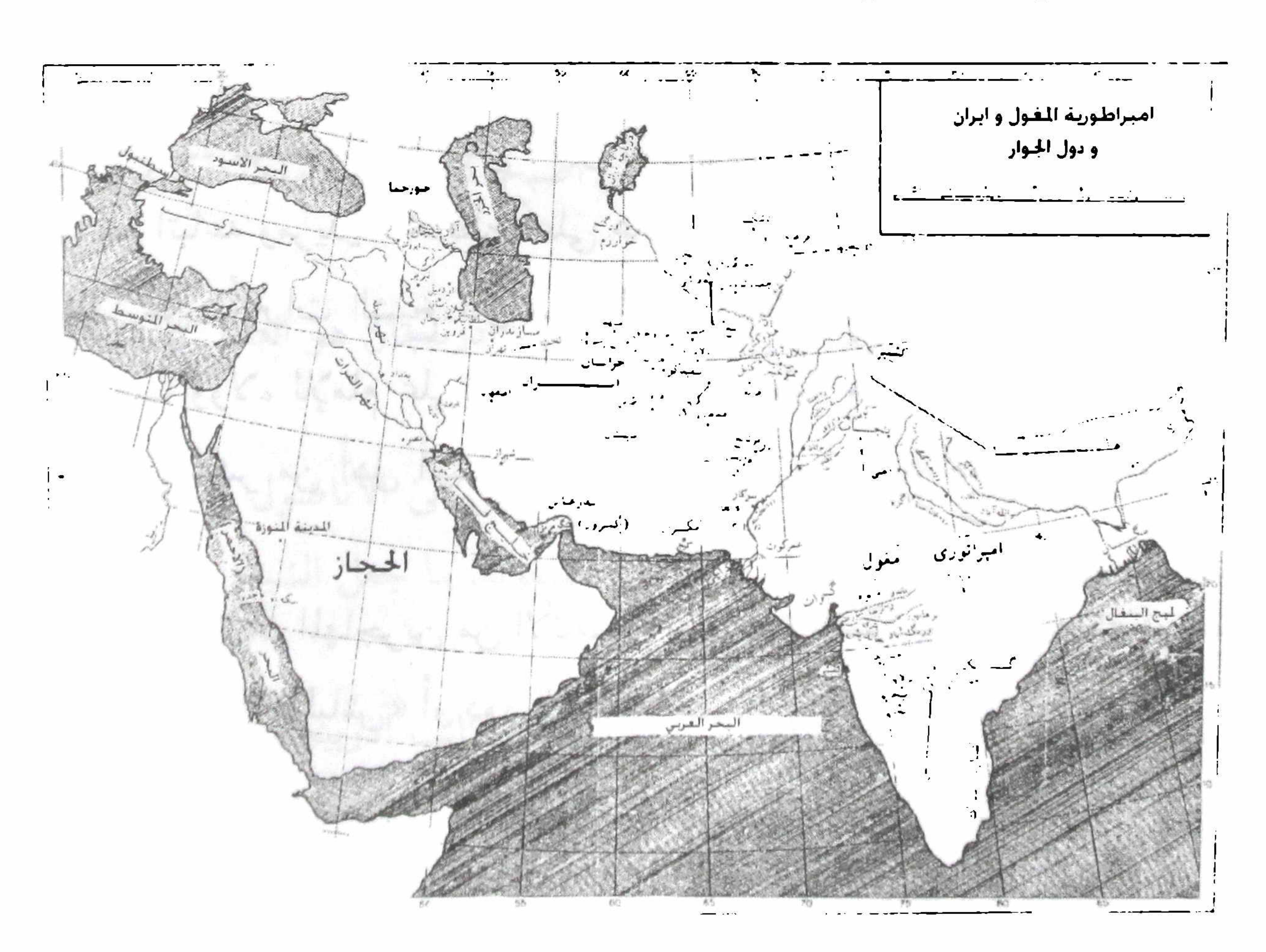
الاناضول لتنهض دولة السلاجقة التي دامت قروناً من الزمن.

على أن أعداداً ضئيلة من الاتراك المهاجرين كانت تتجه نحو آذربيجان لتستقر هناك متعايشة مع الفرس والتاجيك.

ومع زوال السلاجقة تعززت العلاقات وأصبحت اكثر قوة بين اقليم آذربيجان وآسيا الصغرى في ظل الحكم الايلخاني؛ ومع سقوط هذا الحكم انفتحت الطريق أمام بعض القبائل الاناضولية لدخول المسرح السياسي في ايران.

وفي العهد الجلائري اتجهت قبائل التركمان وبخاصة قبائل الخروف الأسود «قراقوينلو» واعقبتها قبائل الخروف الأبيض «آق قوينلو» نحو الشرق لتبسط نفوذها على أقليم آذربيجان والمناطق المركزية من ايران.

وقد شهدت هذه الفترة الكثير من القلاقل التي تزامنت مع تدفق تركي كبير احدث تغييراً أساسياً في التركيبة السكانية في الطابع الثقافي للاقليم لصالح الاتراك، وأصبحت اللغة الآذرية احدى لهجات اللغة التركية وذابت بعض الاجناس غير التركية في العرق التركي ذوبان حبات الملح أمام أمواج القبائل التركمانية النازحة من آسيا الصغري.



آسيا الصغرى... هبوب الأفكار

عاشت في المناطق الجبلية الممتدة من سوريا الىٰ سلسلة جبال زاغروس في ايران مروراً بالاناضول أقوام عديدة، تأثرت بنحو وآخر بالتشيع العلوي بجذوره التي تعود الىٰ القرن الثالث الهجري، حيث كان بعض غلاة الشيعة يبثون سمومهم في تلك المناطق الجبلية بعد أن واجهوا طرداً شديداً ولعناً من قبل أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

وبعد أن أحكم الفاطميون قبضتهم على مصر ووصل دعاتهم الىٰ تلك المناطق النائية تشكلت اتجاهات فكرية جديدة نسبت الىٰ أصحابها ولاتمت بصلة الىٰ الأفكار الاصلية؛ وقد ساعدت البيئة الجبلية على استمرارها بعيداً عن تأثيرات المدن بما تمتلكه من اشعاع فكري.

وقد اندمجت بعض الاتجاهات الفكرية هذه ببعض الطرق الصوفية. ثم جاءت هجرة العلويين على دفعات وكان اهمها تلك الهجرة التي وقعت في مطلع القرن الخامس الهجري بعد ظهور مذهب النصيرية؛ والهجرة التي جاءت اثر الضغوط العثمانية في مطلع القرن العاشر الهجري.

وقد أصبحت آسيا الصغرى في القرنين السابع والثامن الهجريين مركزاً أساسياً للتشيع العلوي ومع بدء نشاط الشيخ صفي الدين الاردبيلي انتظم معظم الشيعة في تلك المناطق ليكونوا من اتباعه ومريديه، محافظين على علاقاتهم بأردبيل خانقاه الشيخ المرشد.

وبعيداً عن تأثيرات الشيخ فان التركمان من قبائل الخروف الأسود تجمعهم عقائد شيعية وحب وولاء للإمام علي(عليه السلام)وكانت خطبة حكمهم في بغداد تبدأ بتمجيد الأئمة الاثني عشر من أهل البيت(عليهم السلام)كما ضربت نقود تحمل أسماء الأئمة(عليهم السلام).

وقد كوّن الاتراك المهاجرين من الأناضول نواة القوة العسكرية الضاربة للصفويين التي أطلق عليها اسم «القزلباش» أو ذوو القبعات الحمر.

العلويون

ينتشر العلويون في المناطق الجبلية في ايران غرب البلاد في سلسلة جبال زاغروس وفي تركيا وقد يربو عددهم اليوم في تركيا وحدها على العشرين مليون وتشيع هؤلاء فَقَدَ شكله، الاّ صورة باهتة جداً وميل الىٰ الغلو. وبالرغم من تمسكهم بالولاء للائمة الاثني عشر(عليهم السلام) الاّ ان حياتهم خالية من كل ما يمت الىٰ الشريعة والفقه والعمل بالاحكام الشرعية.

والعلويون الموجودون في سوريا ينحدرون من أصل عربي وماتزال ملامح سكان الاصقاع الشامية كحوران والبلقاء وسكان الشوف وجبال اللاذقية يحتفظون بانسابهم العربية[1].

وقد ساعدت المعاملة القاسية التي يلقاها العلويون الاتراك من الدولة العثمانية على نزوحهم الأمر الذي اضطرهم الىٰ التوجه صوب الشرق وبالتحديد الىٰ آذربيجان وأردبيل، حيث مقر المرشد الاكبر صفي الدين الذي كان يتمتع بالقداسة حياً والذي اصبح قبره مزاراً يؤمه الآلاف من مريديه. وقد انتبهت الدولة العثمانية فيما بعد الىٰ خلو مناطق واسعة من الاناضول فقطعت الطريق على المهاجرين وانتابت العثمانيين هواجس من مخاطر هذه الهجرة، بعد تنامي الخطر الصفوي خاصة بعد أن أصبح المرشد العام ملكاً له جيوشه وقوّاته ودولته الرسمية.

ومن المؤكد جداً ان هجرة الاتراك الاناضول الىٰ آذربيجان هو العامل الأكبر في قيام الدولة الصفوية.

وتعد زيارة الشيخ جنيد حفيد الشيخ صفي الدين الىٰ الاناضول ناجحة جداً وقد كشفت عن عمق الولاء الذي تتمتع به الأسرة الصفوية، ما جعل الشيخ يطمئن الىٰ عمق ومساحة التأييد الشعبي التي يستند اليها.

وفي تلك الفترة التي شهدت تبلور الزعامة الصفوية كانت آذربيجان قد ذابت في المحيط التركي تماماً واكتسبت ملامح مغايرة لجذورها وغلب عليها الطابع الجديد كأقليم تركي.

---

(١) محمد كرد علي، خطط الشام: ج١ ص ٧١

وحتىٰ الأسرة الصفوية هي الأخرى ذابت في هذا المحيط، بالرغم من سعيها فيما بعد في تثبيت جذورها العربية القرشية بانتسابها الىٰ سلالة حمزة بن الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) (توفي مسموماً في سجون هارون الرشيد سنة ١٨٣ هـ) وان تسميتهم بالمشايخ كان تقية[١].

ويبدو أن ادعاء هذا النسب حصل مؤخراً في عهد الشاه طهماسب على أيدي مؤرخين محسوبين على البلاد الصفوي.

وللانصاف فان قداسة الشيخ صفي الدين لم تأت جرّاء ادعاء نسب شريف بل جاءت نتيجة لقداسة يحظى بها التصوف آنذاك، وبما امتاز به الشيخ من زهد وتقوى ونزاهة وما نسبت اليه من كرامات وخوارق وحتىٰ خرافات. وقد زاد من قداسة الأسرة هو استمرار ابنائه واحفاده على ذات النهج الذي خطه لنفسه.

وقد قام «خواجه علي» حفيد الشيخ بخطوة ايجابية مستفيداً من علاقته الطيبة مع تيمورلنك، بدعوة الأخير الىٰ اطلاق أعداد كبيرة من الأسرى الاتراك كان تيمورلنك قد ساقهم الىٰ آذربيجان، بعد الحاقه هزيمة ساحقة بالسلطان العثماني بايزيد الأول في واحدة من أكبر المطاردات العسكرية في التاريخ.

وقد وقع الأخير أسيراً في قبضة تيمورلنك الذي سجنه في قفص حديدي الىٰ أن مات[٢]، كما أجبر زوجته أن توزع انخاب النصر عارية، قد دفعت هذه الحادثة بالسلاطين العثمانيين الىٰ اتخاذ الحريم في قصورهم وعدم اتخاذ زوجات بشكل رسمي.

وهؤلاء الأسرى الاتراك وقد نالوا الحرية على يد خواجه علي وبالرغم من انتمائهم الىٰ المذهب السني أصبحوا في طليعة مريدي الأسرة الصفوية ومن المستبسلين في الدفاع عنها حتىٰ أنهم حاربوا أبناء جلدتهم ابّان الصراع العثماني الصفوي[٣].

ومن دون شك فان العامل الحاسم في تكوّن الدولة الصفوية يعود الىٰ العنصر التركي وحماسه وولائه لشيوخ الصفوية، التي تنامت قدرتها الروحية بعد الاجتياح المغولي للشرق

---

[١] تشكيل شاهنشاهي صفوي: ٤٤/٥٠.

[٢] رسول جعفريان / تاريخ ايران اسلامي: ج٣ از يورش مغولان تازوال تركمانان، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

[٣] تشكيل شاهنشاهي صفوي: ص ٦٤ - ٦٧.

الاسلامي.

فلاعجب اذن أن نرى التركية لغة البلاط الصفوي، حتىٰ بعد انتقال العاصمة الىٰ مدينة اصفهان الفارسية الثقافة واللغة.

ومن هنا يمكن اعتبار الدولة الصفوية امتداداً للدولة التركمانية، فالقادة والقوات المسلحة تتألف من الاتراك الذين هاجروا الىٰ ايران قبل وبعد قيام الدولة الصفوية مع الاشارة الىٰ وجود عدد ضئيل من العناصر الفارسية والتاجيك بدأت هي الأخرى بالتنامي.

ومن اللافت للنظر غياب حالات التمييز العنصري على المستوى الرسمي والشعبي إذ سنجد تشجيعاً على هجرة العلماء العرب من لبنان الىٰ العراق[١] واسناد مناصب حساسة لعناصر عربية لاتجيد غير العربية في التفاهم مع مؤسسات الدولة[٢].

ولقد كان اجراءاً سياسياً حكيماً في تعزيز الجبهة الداخلية والوقوف بوجه التهديدات العثمانية في الغرب والاوزبك في الشرق، إذ سنجد التفافاً حول المذهب الشيعى وحمايته من العدوان.

ان أوّل خطوة في طريق ظهور الدولة الصفوية تعود في الواقع الىٰ الشيخ جنيد الذي وجد قاعدة شعبية واسعة في الاناضول والتي تنتمي في الغالب الىٰ الشيعة العلويين، وباعتبار الشيخ وارثاً لصفي الدين جده الاكبر، ومن هنا وجد الشيخ أرضية مناسبة ليقوم بمحاولة ناجحة في دمج التصوف بالتشيع ليتألق اسم الإمام علي(عليه السلام)ويرتفع لواء التشيع له فوق خانقاه الأسرة الصفوية؛ وعلى هذا يمكن القول ان شيعة الاناضول هم الذين نقلوا التشيع الىٰ خانقاه صفي الدين[٣] .

أصبح الشيخ جنيد زعيماً كبيراً في تلك الانحاء بعد التفاف آلاف المريدين حوله ثم تضاعف نفوذه بعد زواجه من أخت «أوزون حسن» حاكم تلك الديار ومؤسس دولة الخروف الأبيض، ولم يلبث الشيخ جنيد أن قرر الرحيل الىٰ أردبيل مصطحباً الآلاف من اتباعه ومريديه (عشرة آلاف) ولكنه سيلقى مصرعه في الاشتباكات مع الشراكسة في

---

[١] المصدر السابق.

[٢] جعفر المهاجر / الهجرة العاملية الى ايران في العصر الصفوي: ص ١٢١ - ١٢٦.

[٣] الشيبي / الفكر الشيعي والزعامات الصوفية: ٤٠٠ - ٤٠٧.

القفقاز. غير ان الأسرة الصفوية بماتتمتع به من قداسة كانت في تألق مستمر، فما إن قتل الشيخ جنيد حتىٰ حلّ مكانه نجله الشيخ حيدر والذي ولد بعد شهر من مصرع والده.

وهذا ما يشير الىٰ ما للخانقاه من قداسة عميقة في نفوس تلك القبائل التركمانية.

ان قيام الشيخ جنيد بقيادة عشرة آلاف من اتباعه صوب القفقاز لنشر الدين الاسلامي هو اعلان رسمي في دخول الخانقاه المسرح السياسي كما ظهر جلياً ان خانقاه الأسرة الصفوي ينتمي الىٰ التشيع.

قام اوزون حسن خال حيدر بدور الوصاية وتغلب على أعدائه من قبائل الخروف الأسود التيموريين ليصبح حاكماً لاقليم آذربيجان.

لقد أصبح الظرف مواتياً ليصطحب ابن اخته حيدر الىٰ أردبيل ويجلسه على كرسي الخانقاه باعتباره المرشد.

وقد سار السلطان حيدر على نهج والده وقطع شوطاً في الاتجاه السياسي إذ قام على سبيل المثال بتمييز اتباعه بزي جديد وبخاصة القبعة الحمراء أو القلنسوة ما جعل العثمانيين يطلقون على اتباعه بـ «ذوي الرؤوس الحمر».

لقد ظهر أن الطريقة الصفوية في التصوف تنطوي على طاقة سياسية كبرى آخذة بالتنامي يوماً بعد آخر، خاصة بعد أن أصبحت القبعة الحمراء بشقوقها الاثني عشر التي تشير الىٰ عدد الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) رمزاً يلهب الحماس في نفوس مرتديها؛ كما أصبح حيدر ذلك الفتىٰ الشجاع الباسل رمزاً لجيش لايقهر لن يقنع بأقل من تشكيل دولته المستقلة[١].

كان دخول الشيخ حيدر أو السلطان المسرح السياسي بقوة واضحاً من خلال ادامته نهج والده الشيخ.

وبدأ عملياته العسكرية في شمال القفقاز ضد الشراكسة المسيحيين وكان هدفه الاساس الثأر لوالده من حاكم شيروان «شيروانشاه» ولكن تطوراً خطيراً حصل بعد وفاة خال حيدر وهو اوزون حسن اذ خلفه على الحكم ابنه السلطان يعقوب وقد قام الأخير وبسبب

---

[١] حبيب السير: ٣ / ٤٢٥ - ٤٣٠.

مخاوفه من احلام حيدر التوسعية بنجدة شيروانشاه.

وقد استبسلت القوات الصفوية التي عرفت بالقزلباشية في القتال ولكن مصرع قائدها الشجاع (٢٨ عاماً) بسهم ومن ثم اسره وقتله جعل القوات الصفوية والحركة بشكل عام تنكفئ الىٰ الوراء وتتراجع.

لقد قتل حيدر كما قتل والده من قبل وكشفت هذه الواقعة (٨٩٣ هـ) للرأي العام تدخل متصوفة أردبيل في السياسة... لقد تحولت الخرقة وهي شعار التصوف الىٰ بزّة للقتال أو كما اشيع في حينها: «من خرقة التقوى الىٰ بزّة تريق الدماء»[١].

ولم تؤثر الدعاية المضادة للحركة الصفوية اذ انبروا للدفاع عن حركتهم وتبريرها بنشر المذهب الحق وهو مذهب أهل البيت والفرقة الناجية.

وبعد مصرع حيدر ألقي القبض على نجله يار علي وسيق مع أخويه ابراهيم واسماعيل البالغ من العمر عاماً واحداً ووالدتهم الىٰ سجن في اصطخر باقليم فارس ليمضوا هناك اربع سنوات ونصف فيما كانت عيون متصوفة أردبيل ترنوا الىٰ يار علي خليفة مرشدهم.

وخلال هذه الفترة كانت الأزمات تعصف بدولة الخروف الأبيض، لقد توفي السلطان يعقوب دون حسم لمشكلة خلافته ودار صراع مسلح بين نجله وحفيده انتهى بانتصار الحفيد وجلوسه على دست الحكم في تبريز. ومن اجل القضاء نهائياً على غريمه قام رستم الحفيد باطلاق سراح السجناء الأربعة معوّلاً على وقوفهم الىٰ جانبه في الصراع مع «بايسنقر»نجل السلطان الراحل.

وصل يار علي مدينة تبريز ليجد عشرات الآلاف من مستقبليه واتباعه واستطاع في فترة وجيزة تشكيل قواته الباسلة ليلحق هزيمة ساحقة بقوات «بايسنقر».

وقد أثار هذا الانتصار الحاسم مخاوف «رستم» بل أصابه بالرعب ما جعل يار علي يقرر الفرار الىٰ أردبيل ولكن قوات رستم التي كانت تطارده استطاعت اللحاق به فاشتبك معها.

وعندما شعر بدنو نهايته سلم أخويه لدى أحد انصاره الأوفياء لايصالهم الىٰ أردبيل.

---

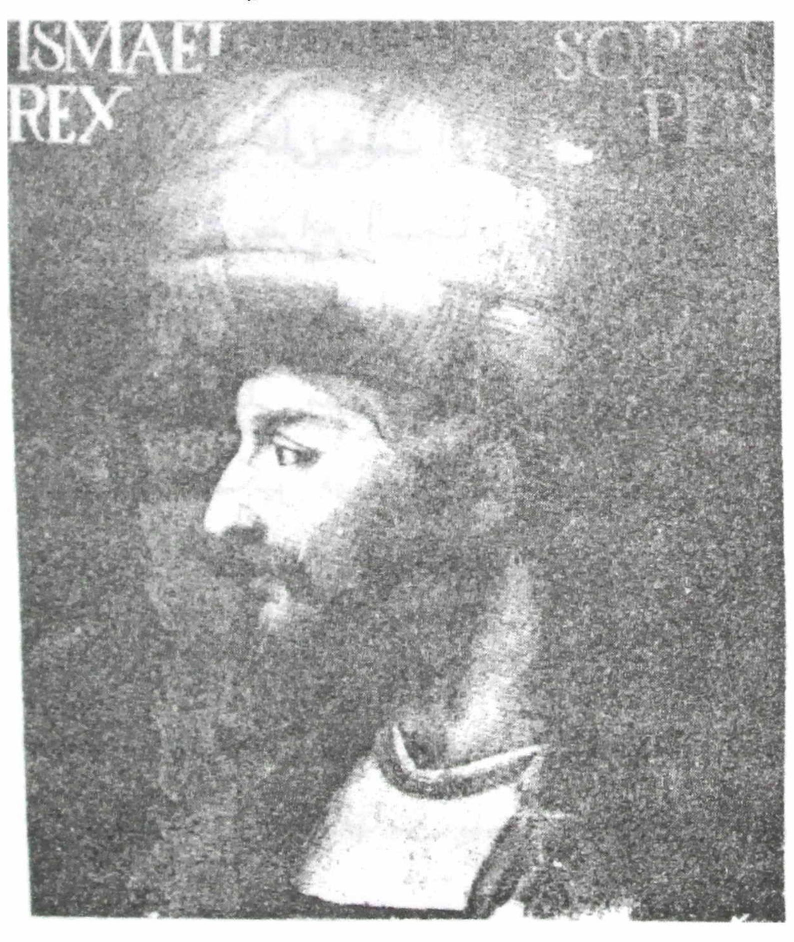
[١] احسن التواريخ حسن روملو: ٣٠ - ٥٠.

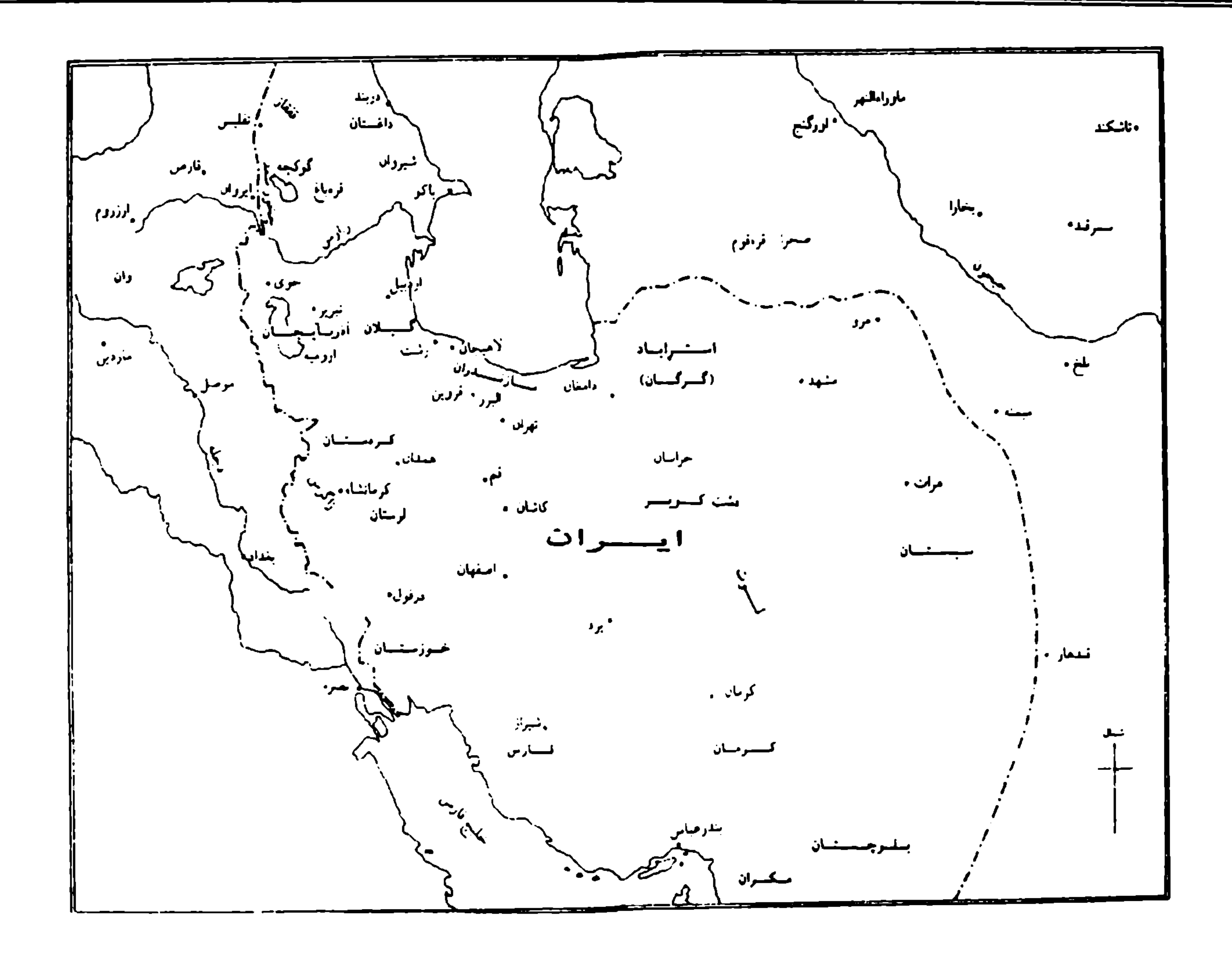
كان اسماعيل الذي سيصبح أول ملوك الصفوية في السابعة من عمره تحدق به الاخطار في مخبأه ولذا نُقل عبر طريق جبلي وعبر الغابات الكثيفة الىٰ مدينة رشت ومنها الىٰ لاهيجان في أقليم «جيلان» وقد استقبل الفتىٰ استقبالاً طيباً عكس احترام تلك الاصقاع لخانقاه أردبيل.

ونزل اسماعيل ضيفاً في حماية حاكم المدينة ومالبثت رسل سلطان الخروف الأبيض ان وصلت تطالب به؛ فاقسم حاكم المدينة بان اسماعيل ليس على أرضه.لقد كان اسماعيل في الحقيقة يتدلىٰ بحبل مشدود بأغصان شجرة وانطلت الحيلة على رسل السلطان فعادوا من حيث أتوا.

مكث اسماعيل في لاهيجان حتىٰ سنة ٩٠٥ هـ وأمضى تلك الاعوام في تعلم القراءة والكتابة والقرآن الكريم وفنون الحرب والقتال، وعندما أصبح في الثالثة عشرة من عمره آن الأوان لعودته الىٰ مدينة أردبيل.

وقد قدّر لهذا الفتىٰ الشجاع أن يقوم بخطوتين مثيرتين للغاية، أولاهما تأسيس دولة قوية جديدة استطاعت أن توحد ايران تحت راية واحدة وهذه الراية هي الخطوة الثانية وهي اعلانه المذهب الإمامي الاثني عشري مذهباً رسمياً في البلاد ومع كل هذا فان اسماعيل الذي سيكون أول ملك صفوي شاعر له ديوان معروف بـ «خطايي» ينظم أشعاره بالتركية والفارسية ومايزال حاضراً في المكتبة الايرانية بطبعات جديدة وانيقة. ويعتبر هذا الديوان مصدراً رائعاً للتعرف على مواقفه وافكاره وشخصيته الانسانية.





اسماعيل أول ملوك الصفوية

في منتصف شهر محرم الحرام عام ٩٠٥ هـ يصل اسماعيل مدينة أردبيل ليجد حاكماً قوياً ليس من السهل مواجهته وبعد مداولات مع المقربين جداً تبلورت فكرة نشر الدين الاسلامي الحنيف في جورجيا، الأمر الذي يسوّغ تعبئة الانصار والمتطوعين من أجل الجهاد، ولم تكن هذه الخطوة ابتكاراً بل يمكن القول أنهااستمراراً لنهج والد اسماعيل وجده اللذين لقيا مصرعهما في الحروب والمعارك.

وخلال بضعة أشهر على اعلان الفكرة تدفق سيل المريدين المتحمسين نحو أردبيل، وتحرك اسماعيل ذو الثلاثة عشر ربيعاً يتبعه جنود أقوياء نحو الأناضول من أجل تعبئة المزيد من القوات واستطاع في مطلع عام ٩٠٦ أن يجمع حوله سبعة آلاف مقاتل من القزلباش ليقودهم صوب شيروان حيث استعد حاكمها وعدوّه اللدود شيروانشاه بجيش يتألف من ٢٦ ألف جندي.

وبالرغم من تفوق الجانب الآخر فقد تحمل هزيمة ساحقة بينما دخل القزلباش التاريخ السياسي والعسكري بنصر مؤزر، سيكون الخطوة الاولىٰ في تأسيس الدولة الصفوية القوية.

وهذا النصر الكبير الذي احرزته القبائل التركية الملتفة حول الزعيم الفتىٰ بما له من مواهب ذاتية وبما أحاطته من هالة التصوف الاردبيلي في تلك الفترة الحساسة سوف يسجل بطبيعة الحال للمذهب الإمامي الاثني عشري فقد عرف القزلباش بقلانسهم التي ترمز الىٰ الأئمة الاثني عشر(عليهم السلام).

هذا التجمع من القبائل التركية القاطنة في الاناضول أو المنحدرة منه قدر له ان تحمس لخانقاه الشيخ صفي الدين ووارثيه بحيث اصبح في اقصى درجات الاستعداد للفداء والتضحية، وقد أصبحت طاعة القزلباش لملوك الصفوية مضرب الامثال.

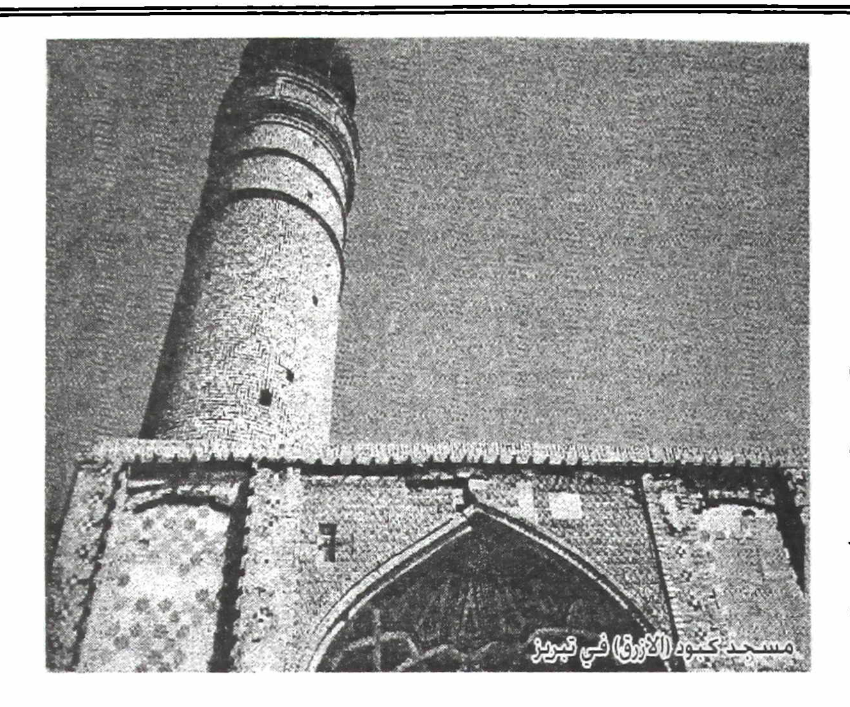
ان عدد القبائل التركية التي التفت حول اسماعيل الصفوي يناهز الثلاثين وفي طليعتها: روملو، استاجلو، شاملو، تاكلو، ذو القدر وافشار، التي استطاع أحد رجالها طرد الافغان المحتلين واعادة المجد الصفوي بعد سقوط اصفهان ولكن التاريخ كان قد قال كلمته، وكذا يمكن ذكر قبائل صغيرة من قبيل عربگيرلو، سعدلو، بزجلو، بهارلو، وقرمانلو، والقاجار الذين حكموا ايران فيما بعد وانتهى حكمهم في الربع الأول من القرن العشرين.

من هنا يمكن القول ان القبائل التركية ذات الولاءات والميول الشيعية هي النواة الاساس في الدولة الصفوية قبل أن تلتحق بها العناصر الفارسية والتاجيكية والعربية.

وفي عام ٩٠٧ هـ سجل القزلباش بقيادة ربما اصغر قائد عسكري عرفه التاريخ نصرهم الآخر على دولة الخروف الأبيض التي آن لها أن تختفي من الخارطة السياسية، لقد ظهر زعيم جديد في تلك المنطقة زعيم يتمتع بحب وتقديس جنود بواسل وشجعان يتسابقون الىٰ الموت من أجل تنفيذ أوامره.

أصبح اقليم آذربيجان في قبضة اسماعيل الذي اتجه الىٰ تبريز بهيبتها السياسية، وهناك تربع على سدة الحكم لتجري مراسم التتويج لملك يناهز عمره الآن خمسة عشرة سنة فقط.. وبذلك سجّل التاريخ ظهور دولة جديدة هي الدولة الصفوية.

الاعلان المثير!
المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة


مسجد كبود (الأزرق) في تبريز

تصوّر المدوّنات الصفوية في منتصف القرن العاشر الهجري مشهد الاعلان المثير واعتبار المذهب الشيعي هو المذهب الرسمي والوحيد في الدولة، كما ذكرت المدوّنات ان الملك الشاب اجتمع ليلة الجمعة بأركان دولته وبحث معهم هذه المسألة وقد أثار بعضهم مخاوف حقيقية جرّاء هذا الأمر الخطير، فأكثر من ثلثي سكان تبريز هم من أهل السنة وقد تحدث ردّة فعل شعبية ترفض وجود ملك شيعي.

ولكن الملك حسم المسألة في صبيحة الجمعة وطلب من خطيب شيعي بارز ارتقاء المنبر في مسجد جمعة تبريز وقرأت الخطبة باسماء أئمة أهل البيت (عليهم السلام).

وعندما ارتفع أذان الصلاة دوّت كلمات أشهد أن علياً ولي الله وحي على خير العمل من فوق منائر المسجد ومن ثم من كل مساجد البلاد واستقبل أهالي مدينة قم العريقة في تشيعها هذا الاعلان بفرح كبير.

وقد اقترن - وهو أمر مؤسف - هذا الاعلان بتنامي ثقافة سلبية هي ثقافة السب واللعن للخلفاء الثلاثة[١] ولكن الدارس لحيثيات الصراع العثماني الصفوي وحتىٰ الصراع الصفوي الاوزبكي ان هذه الثقافة جاءت فيما يبدو ردّ فعل لحملات الاضطهاد العثماني الذي استهدف الشيعة علماء واناس بسطاء والفتاوى التي صدرت بتكفير الشيعة تؤيد ذلك.

ويعزو بعض المؤرخين اقدام الشاه اسماعيل على هذه الخطوة المثيرة الىٰ ايمانه العميق بأهل البيت(عليهم السلام).

فقد اقسم الفتىٰ والملك المتوّج حديثاً على أنه سيعالج الأمر بالسيف اذا تطلب الأمر.

---

[١] روملو، أحسن التواريخ: ص ٨٤ - ٨٧.

ويبدو من خلال مؤشرات عديدة ان هناك أرضية مساعدة على هذا التحول المذهبي المثير. إذ أنّ هناك نوع من التسنن الاثني عشري الذي تغلغل في ايران؛ بحب عميق لأهل البيت(عليهم السلام) وفقه شافعي؛ ومعروف عن الشافعي في آرائه حول أهل البيت وما يكنّه الإمام الشافعي من حب لآل محمد(صلى الله عليه وآله) فقد اشتهر عنه قوله:

إن كان رفضاً حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي

ومن الضروري الاشارة الىٰ مسألتين هما التعايش الصميمي بين التصوف والتشيع ونفوذ أحدهما في الآخر والىٰ ظهور وتبلور مذهب سني يتسم بطابع شيعي.

ولعل هذا الاتجاه جاء نتيجة للتعايش السلمي بين المذاهب الاسلامية في ايران منذ القرن الثامن الهجري.

ومن الواضح ان التوجه الصوفي الذي تنامى في ايران بعد الغزو المغولي كان له الأثر الكبير في تلطيف الأجواء بين مختلف المذاهب، ذلك ان المتصوف يرى لقاء الله هو الهدف المنشود وبالتالي فليس في اختلاف الطرق والمذاهب ثمة أثر.

وقد شهد التشيع والتسنن تقارباً كبيرا في تلك الفترة ويعود السبب في ذلك الىٰ حب أهل البيت(عليهم السلام) الذي يشترك فيه الجميع.

وشيئاً فشيئاً أصبح التصوف تابعاً للتشيع ومنقاداً له ولكن التشيع الذي تزعم المسيرة سيسوده اتجاه متطرف يحاول دفع الولاء والحب لائمة أهل البيت(عليهم السلام)الىٰ مستويات متطرفة جداً تخرجهم من مصاف البشر وتجعلهم كأنصاف آلهة.

وسوف نجد هكذا تشيع ينجح في تشكيل دولة في إقليم خوزستان جنوب غرب ايران هي الدولة المشعشعية بزعامة محمد بن فلاح المشعشعي التي انتهت مع قيام الدولة الصفوية.

وعلى كل حال يمكن القول ان الاعلان المثير نجح نجاحاً باهراً ولم يحدث ردة فعل شعبية كما كان متوقعاً.

وقد ذهب الشاه اسماعيل الىٰ ما هو أبعد من اعلان المذهب الشيعي مذهباً رسمياً للدولة بل طرح فكرة التولي والتبري التي ستكون النواة في تكوين التشيع بالملامح الصفوية[١].

---

[١] تاريخ جهان آرا: ١ / ٣٠ - ٤٥.

ان جذور التشيع الصفوي هي اناضولية بلا ريب وهو التشيع المتطرف كما ذكرنا، كما لم يكن لخانقاه أردبيل اي تراث فقهي، ولذا برزت الحاجة الىٰ اعتماد قاعدة فقهية شيعية كما لا يمكن العثور عليها في تبريز.

ولهذا اتجهت الأنظار الىٰ الخارج والىٰ العراق بالتحديد هذا من جانب ومن جانب آخر استقبل الشيعة الذين امضوا قروناً في ظروف من التقية والتقية المكثفة قيام دولة شيعية بالبهجة والفرح.

وبالرغم مماسببه هذا الاعلان من استعداء دولة كبرى بحجم الدولة العثمانية في الغرب والاوزبك في الشرق فقد ساعد الانتماء المذهبي الجديد في تعزيز الجبهة الداخلية في البلاد التي بدأت تتوحد شيئاً فشيئاً.

مسار العمليات العسكرية

في فترة وجيزة كانت المدن والحواضر الايرانية تتساقط الواحدة بعد الاخرى في نهاية سريعة للحكومات المحلية أمام تقدم فرق القزلباش الذين اكتسبوا هيبة في نفوس خصومهم وأعدائهم.

كانت همدان في طليعة المدن التي خضعت لاسماعيل بعد هزيمة وريث ما تبقى من دولة الخروف الأبيض (آق قويونلو) وفرار السلطان مراد ابن يعقوب الىٰ شيراز.

ولم يترك الشاه اسماعيل لغريمه فرصة لالتقاط الانفاس فطارده الىٰ شيراز التي استسلمت دون مقاومة بعد فرار مراد الىٰ بغداد.

مقبرة الشعراء في مدينة تبريز اول عاصمة صفوية

وبعد هذا النصر اتجه اسماعيل نحو مدينة قم ليستقبل بحفاوة بالغة؛ وخلال اقامته في هذه المدينة التي ستحظى بأهمية بالغة في العهد الصفوي، تناهت الىٰ

اسماع الشاه اسماعيل أنباء عن مؤامرة لاغتياله يخطط لها امراء بعض المدن التي لم يتم اخضاعها حتىٰ الآن وفي طليعتها «سمنان» و «فيروز كوه» وتم اخضاع تلك المناطق الشاسعة من الشمال الايراني بعد معارك ضارية.

كما تم اخضاع مدينة يزد ما جعل شاه اسماعيل يتطلع الىٰ خراسان فاندفع نحو مدينة طبس غير انه واجه مقاومة شديدة اجبرته على العودة الىٰ اصفهان واعادة النظر في خططه.

وسوف نجد ان قرار شاه اسماعيل كان صائباً ذلك ان دولة فتية تزامن قيامها مع دولة الصفويين قد نهضت على انقاض بقايا الدولة التيمورية.

هذه الدولة التي بدأت بالظهور بعد احتلال سمرقند وسقوطها بيد شيبك خان الاوزبكي وهو من احفاد جنكيزخان وفي مدة وجيزة وبعد احتلاله مدينة بخارى أصبح يحكم اجزاء واسعة من التركستان ومناطق ما وراء النهر هذه الدولة أصبحت تهديداً مصيرياً للدولة الصفوية.

ففي عام ٩١٣ هـ سقطت خراسان بيد الدولة الاوزبكية الفتية التي تتبنىٰ المذهب الحنفي وتتعصب له بشدة، وقد اتخذت هذه الدولة سمة الهجوم فاندفعت القوات الاوزبكية الىٰ جنوب خراسان وحتىٰ كرمان.

كان شاه اسماعيل يراقب عن كثب ما يجري في الشرق ولكي يستكمل انتصاراته اتجه الىٰ بغداد التي استسلمت له في عام ٩١٤ وأصبحت كربلاء والنجف جزء من امبراطوريته.

ان المدونات التاريخية تشير الىٰ تحرش واضح وسافر من الاوزبك بالدولة الصفوية.

وهناك رسالة[١] من شيبك خان الىٰ شاه اسماعيل تتضمن اهانات لايمكن تحملها من زعيم ظافر يتزعم قوة عسكرية ضاربة بمستوى القزلباش التي طارت شهرتهم في الشرق والغرب.

وعندما انتشرت اخبار زحف الجيش الصفوي باتجاه خراسان فرّ حكام الولايات الشيبانيون في دامغان واستراباد الىٰ هرات وحتىٰ شيبك خان في هرات فضل التراجع الىٰ مرو.

---

[١] حسن روملو، أحسن التواريخ.

وقد دخلت قوات شاه اسماعيل مدينة مشهد التي تضم مرقد ثامن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) وهذا الانجاز له دلالات خاصة لدولة رفعت شعار المذهب الإمامي الاثني عشري ويرتدي جنودها قبعات ترمز بوضوح الىٰ عدد الأئمة الاطهار(عليهم السلام).

ومن مشهد واصل القزلباش تقدمهم باتجاه سرخس والىٰ مرو معقل الدولة الاوزبكية.

وقد اصطدمت طلائع شيبك خان الاوزبكي بالقوات الصفوية التي تحملت هزيمة مرة فيما استمر الجيش الصفوي بالتقدم نحو مرو.

وهناك دارت معارك استمرت سبعة أيام وتظاهر اسماعيل بالتراجع والتقهقر ما أغرى القوات الاوزبكية المتحصنة بالمدينة بالخروج ومطاردة القوات الصفوية التي أمعنت في تراجعها وانسحابها التكتيكي الىٰ حد عبور سياه رود (النهر الاسود) وجر القوات الاوزبكية للقتال في فضاء مفتوح.

واشتبك الجيشان في ملحمة عظيمة ليسجل القزلباش نصراً ساحقاً وتمزق جيش شيبك خان شر ممزق وقد لقي الأخير مصرعه تحت حوافر الخيول وأحذية الجنود واحتز رأسه ليرسل الىٰ الامبراطور العثماني بايزيد في رسالة تحدي واضحة.

ونصب شاه اسماعيل حكامه على هرات ومرو وبسط نفوذه على مناطق ماوراء النهر (ميمنة وفارياب و...) بل وتلقى من تيمور سلطان نجل شيبك خان وحاكم سمرقند بعض الهدايا في محاولة لتلطيف الاوضاع المتفجرة.

وامضى شاه اسماعيل فترة اصطياف في مدينة هرات وارتكب اولىٰ اخطاء الصفويينن في الانتقام من بعض أهل السنة ممن تورطوا فيما مضى بارهاب الشيعة وتصفيتهم وكان في طليعة من لقي مصرعه في تلك الحوادث «شيخ الاسلام هراتي» الذي قتل بأوامر شخصية من شاه اسماعيل.

وستكون هذه الخطوة الخاطئة والخطيرة فاتحة لاتبشر بالخير لفتن طائفية خاصة بما يرتبط بالصراع الصفوي العثماني.

وكان يجدر بزعيم الدولة الصفوية ان يتجنب إقحام الاتجاه المذهبي في الصراع السياسي ذلك ان الايمان بفكرة ما والتعصب لها مهما بلغ من صوابيتها يجب الاّ يشوش على الرؤية

والاعتراف بالآخر واحترامه خاصة في مسائل عقيدية.

في عام ٩١٨ حصل اصطدام بين الاوزبك والصفويين الذين يقودهم امير يار احمد اصفهاني الملقب بالنجم الثاني، وقد دفعه غروره بانتصاره في بلخ واحتلاله لها الىٰ تحمل هزيمة مرة حيث أُسر في المعارك قرب بخارى ثم قتل وانفتحت الطريق أمام الاوزبك الىٰ استرداد مناطق واسعة وحاولوا استعادة هرات دون جدوى.

وهذا ما دفع بشاه اسماعيل الىٰ استرداد خراسان فتحرك من اصفهان - التي اصبحت عاصمة موقته - بجيش جرار نحو مشهد وفرّ الاوزبك المحتلون منها الىٰ بخارى وسمقرند ولكي يعزز من الاستقرار في خراسان قام شاه اسماعيل بمساعدة بابرشاه الذي نجح في تأسيس الحكم المغولي في الهند والذي استمر حتىٰ سنة ١٨٥٧ م عندما قرر الانگليز انهاء الحكم البابري واعتبار الهند (درة التاج البريطاني).

الصراع الصفوي العثماني


الجيش الانكشاري العثماني

يستطيع دارس تلك الحقبة التاريخية ان يستنتج بداهة وحتمية الاصطدام الدامي الذي سيقع في سهل تشالديران في المنطقة، التي تقع الىٰ الشرق من تركيا وجنوب جمهورية آذربيجان في حدودها على نهر آرس.

ان الدولة العثمانية التي وصلت الىٰ ذروة مجدها السياسي والعسكري بفتح القسطنطينية عاصمة الروم البيزنطيين في جمادى الاولىٰ ٨٥٧ هـ مايس ١٤٥٣م بعد ستة اسابيع من حصارها وبعد ٩٠٠ محاولة لفتحها في تاريخ الاسلام.. هذه الدولة المترامية الأطراف والتي تطرح نفسها كوريث شرعي وحيد للخلافة الاسلامية العباسية، لايمكن أن تغض الطرف عما يجري في ايران.

يكفي أن نعرف أن تسمية الجيش الصفوي بـ «القزلباش» هي تسمية عثمانية لنعرف

مدى جدية الصراع بين الدولتين.

واذا لم يكن الاختلاف المذهبي بين الدولتين هو السبب الاساس في الصراع الذي انفجر في تشالديران فانّه سيكون المبرّر الوحيد لدى الدولة العثمانية لتنفيذ برنامجها التوسعي في الشرق، غير غافلين بطبيعة الحال عن التهديدات الخطيرة التي يشكلها شيعة الاناضول لسلاطين آل عثمان.

فمايزال شرق الاناضول غير خاضع للدولة العثمانية وماتزال هذه المنطقة مسرحاً خصباً للدعاية الصفوية ومن ثم مصدر للقلاقل وعدم الاستقرار.

وفي عهد السلطان بايزيد الثاني الذي حكم حتىٰ سنة ٩١٨ هـ كانت هناك حالة من التعايش السلمي بين الدولتين بالرغم من وجود حالة من الحرب الباردة والدعاية والدعاية المضادة، غير ان صعود السلطان سليم الأول يعد بداية لتصعيد النزاع بين الدولتين؛ فسليم الأول الذي تتقدم جيوشه باتجاه القضاء على حكم المماليك في مصر والحجاز؛ بدأ يفكر بشكل جاد في حسم مشكلة الأناضول ومع ابناء جلدته الاتراك الذين ينتمون الىٰ غير مذهبه.

ولاشك ان الدعاية الصفوية الناجحة في شرق الاناضول قد اثارت مخاوفه وشكلت هاجساً مقلقاً.

ولايغيب عن بال العثمانيين ما لأتراك الاناضول من مريدي اسرة الشيخ صفي الدين الاردبيلي من دور حاسم في قيام الدولة الصفوية. وماتزال الدعاية الصفوية تمتلك تأثيرات بالغة الخطورة، خاصة بعد انضواء العتبات المقدسة في العراق تحت نفوذ الصفويين؛ وقد تنامت هجرة الاتراك الاناضول نحو الدولة الشيعية الجديدة، الأمر الذي دفع العثمانيين - الذين التفتوا الىٰ الفراغ السكاني في الأناضول - الىٰ تشديد المراقبة على الحدود ووقف ظاهرة الهجرة في تلك المنطقة التي يشكل الشيعة فيها أربعة أخماس السكان.

قام العثمانيون باجراءات تعسفية من قبيل نقل الشيعة الىٰ غرب حدودها في الجنوب من اليونان ربما لصنع حاجز بشري بوجه اليونانين في اجراء يذكر بما قام به العباسسيون من

نقل عشرات الآلاف الهنود فيما عرف بالتاريخ بـ (الزط) الىٰ حدودها مع الروم[١].

وقد أشار شاه اسماعيل في الرسائل المتبادلة بينه وبين السلطان سليم الأول الىٰ حجم القاعدة الشعبية التي تتمتع بها الأسرة الصفوية في الاناضول[٢].

وبالرغم من حملات الاضطهاد التي نظمها العثمانيون بحق الشيعة ومحاولة ابادتهم فقد استمر التيار الشيعى بالمقاومة مادفع العثمانيين الىٰ استصدار فتاوى بتكفير الشيعة.

وقد صدرت بالفعل فتاوى تفوح برائحة الدم وأقدم السلطان سليم الأول على أول مذبحة في عهده، اذ تم قتل أكثر من ٤٠/٠٠٠ انسان في مذابح نفذت سنة ٩١٩ هـ كما أوعز السلطان سليم الأول الىٰ ترتيب احصاء سكاني لضبط اسماء الشيعة في سجلات تشمل من الاعمار ٧ - ٧٠ سنة.

وقد قمعت مقاومة الشيعة في تلك المناطق بالحديد والنار وقتل آلاف الابرياء وسبيت نساؤهم وبناتهم وأولادهم[٣].

بررت الدولة العثمانية لنفسها شن الحرب على إيران الصفوية على أساس كونها القيم على المذهب السني ولأن انتماء ايران المذهبي الجديد يعد نوعاً من الخروج والارتداد، لانه انتماء الىٰ مذهب افتىٰ علماء السنة في الدولة العثمانية بكفره.

ويبدو ان السلطان سليم الأول كان يعد لمعركة مصيرية حاسمة فقد حشد ما يناهز الـ ١٢٠/٠٠٠٠ جندي مجهزين بالعربات العسكرية وبسلاح المدفعية التي أحسن الجيش الانكشاري استخدامها في حروبه وفتوحاته، اضافة الىٰ ما قام به من دعاية ضد الشيعة وملكهم اسماعيل الصفوي، بل واعتبر قتال الشيعة في سلم الأولويات قبل جهاد الكفار[٤].

وفي مقابل هذا الاستعداد الكبير لم يستعد الصفويون ولم يقوموا بأية دعاية ولافي الدفاع عن عقائدهم المذهبية واستنكار فتاوى التكفير التي صدرت بحقهم.

ويبدو ان شاه اسماعيل الذي لم يذق طعم الهزيمة حتىٰ الآن لم يكترث بالاستعدادات

---

[١] تاريخ الطبري / حوادث السنوات من ٢٢٠ - ٢٢٨.

[٢] شاه اسماعيل الأول ص ٤١٢.

[٣] المصدر السابق ص ٣٩٨.

[٤] المصدر نفسه، ص ٥٤٤.

العثمانية الكبيرة، فقد اكتفى بتعبئة قواته القزلباش المؤلفة من ٢٠/٠٠٠ مقاتل وقادهم لمواجهة الجيش العثماني الجرار.

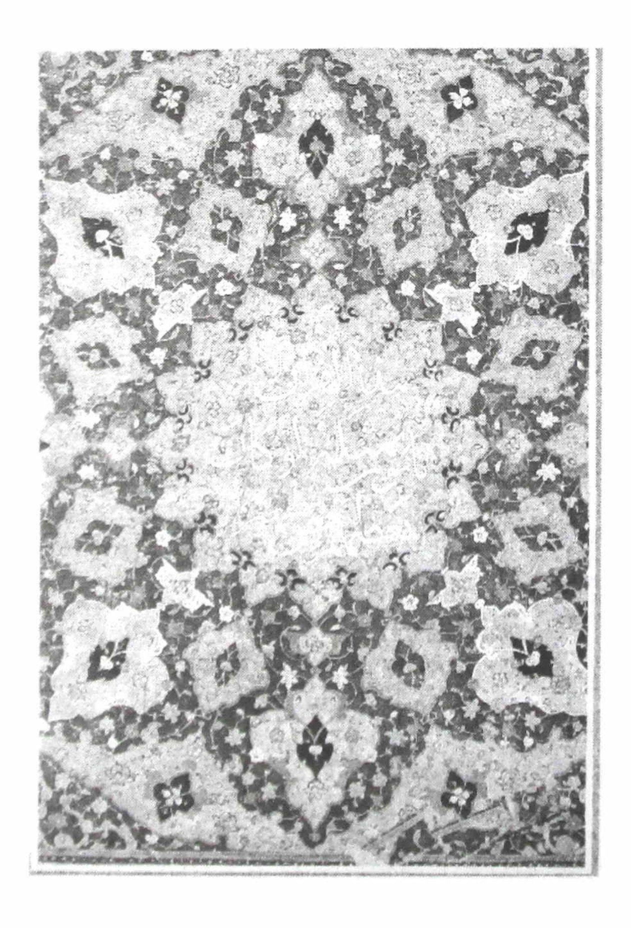
وحدث ما كان متوقعاً، ففي سهول تشالديران الىٰ الغرب من تبريز؛ وفي الثاني من رجب ٩٢٠ هـ دارت واقعة من أشرس المعارك في تاريخ الصراع العثماني الصفوي، وراحت المدافع العثمانية تحصد جنود القزلباش الذين اعتبروا هذا السلاح منافياً للفروسية.

وبالرغم من استبسال الجيش الصفوي فقد بات واضحاً تفوق الجيش التركي واسفرت الاشتباكات عن سقوط ما يقارب الألفين من القزلباش والثلاثة آلاف من الانكشاريين.

وشعر شاه اسماعيل بعدم جدوى المقاومة فاستغل حلول الظلام لترتيب انسحاب لقواته.

وأصبحت تبريز ساقطة عسكرياً وسرعان ما دخلها الجيش العثماني بعد أسبوعين.

لقد دقت معركة تشالديران اسفين الصراع المرير بين الدولتين والذي سيستمر عشرات السنين رغم بعض اتفاقيات السلام. كانت خطط سليم الأول ترتكز على الاستقرار في تبريز واتخاذها قاعدة عسكرية للتوسع في ايران غير ان الجيش الانكشاري لم ترق له الحالة وابدى بعض القادة استياءهم من شن الحرب على اخوة لهم في الدين والعقيدة رغم الاختلاف المذهبي في بعض الأمور، بل انهم نعوا على السلطان المذابح التي نظمت بحق الشيعة في الاناضول[1].



هذا المنطق الذي يتناقض مع الطرح الرسمي في تبريرات الحرب ضد الصفويين يكشف عن حالة من التسامح المذهبي لدى الناس لولا السياسة والاطماع السياسية الرخيصة التي تفعل المستحيل من اجل تحقيق بعض الاهداف حتىٰ لو ادى ذلك الىٰ اقتتال اخوي.

---

(١) رسول جعفريان، تاريخ تشيع در ايران: ٧٦٥ - ٧٦٧.

نبتت ـ كما جاء في بعض المدونات ـ سهام في خيمة السلطان سليم الأول كانت تحمل رسالة شديدة اللهجة تطعن الىٰ حدٍّ ما في شرعية الحرب مع الصفويين أو تشير الىٰ عدم جدواها على الأقل.



كان الاستنكار لهذه الحرب واضحاً جداً مع رفض الاستمرار فيها وفق منطلقات مذهبية واهية وغير مقنعة. ان الاطماع التوسعية هي وراء الحرب التي شنها العثمانيون على الدولة الصفوية، وقد حققوا أهم اهدافهم وهي السيطرة النهائية على الاناضول وتأمين حدودهم الشرقية من أية تهديدات صفوية محتملة.

لقد تحمل الجيش الصفوي خسائر جسيمة وقتل بعض كبار القادة والمسؤولين، وفي طليعتهم صدر البلاد[1] وهو أرفع منصب في المؤسسة الدينية ذات النفوذ القوي والمتنامي.

أمضى السلطان سليم الأول اسبوعاً في تبريز قبل أن يعلن عزمه على العودة الىٰ استانبول العاصمة لتعود تبريز الىٰ الدولة الصفوية مرة اخرى، وقد تضعضع مركزها كعاصمة للدولة الىٰ حدٍّ ما.

ولكن الأثر الذي احدثته معركة تشالديران في شخصية شاه اسماعيل سيكون جرحاً لن

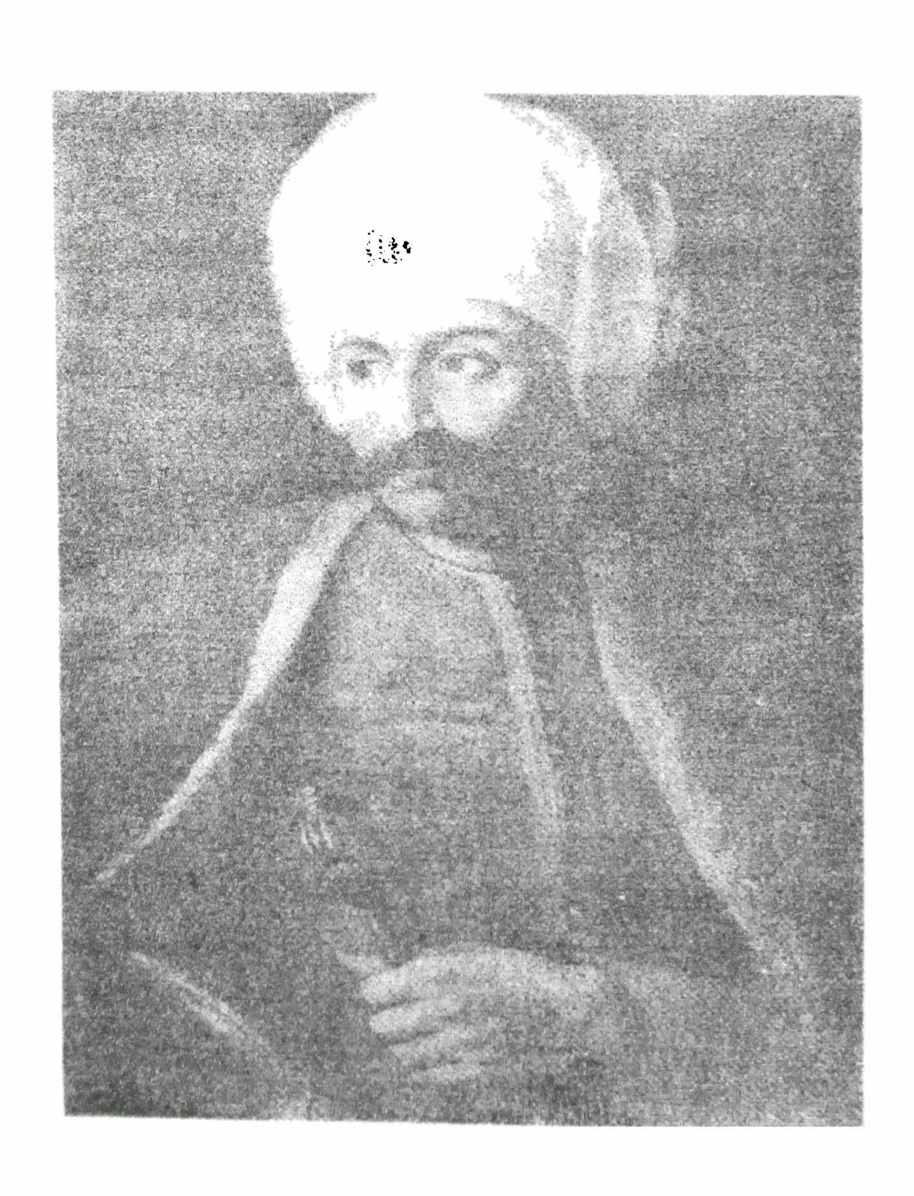
---

[1] قتل في معركة تشالديران سيد شريف **الشيرازي** الذي شغل منصب صدر الدولة في عهد شاه اسماعيل وهو منصب مالي واداري اكثر منه منصب ديني **وقد شغل** سيد شريف بن تاج الدين هذا المنصب سنة٩١٩ هـ ليلقى مصرعه بعد عام في معركة تشالديران.

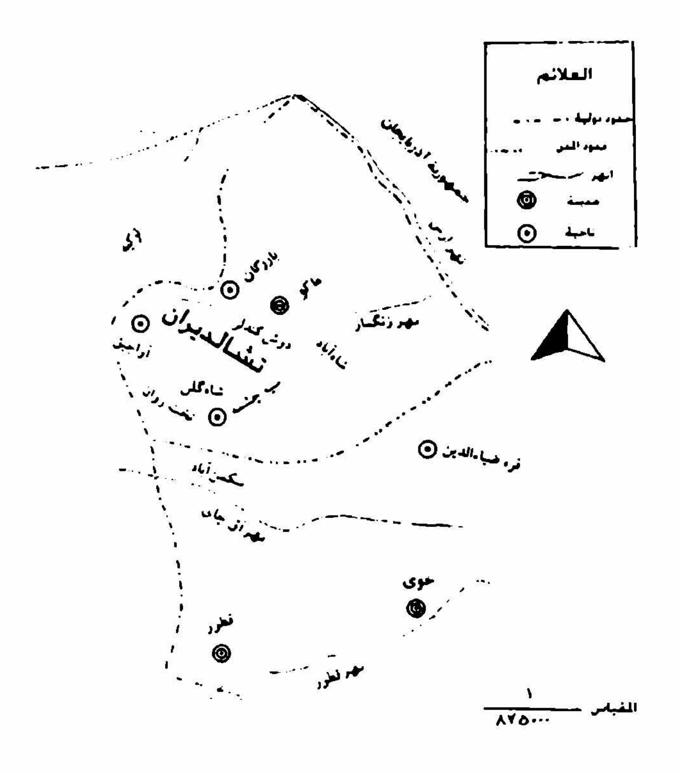
يندمل.

لقد ذاق مؤسس الدولة الصفوية ولأول مرة مرارة الهزيمة، بعد كؤوس النصر التي عبَّ منه منذ أن قاد جنوده وهوفي الثالثة عشر من عمره؛ أما الآن فهو في الثامنة والعشرين من عمره يقف على اعتاب الثلاثين حزيناً الىٰ حدٍّ ما وقاسياً أيضاً، كان همه الحفاظ على مكتسباته خلال عقد ونصف من سنوات حكمه وسيتعامل بكل حزم وقسوة مع أية بادرة للتمرد تحدث هنا وهناك.

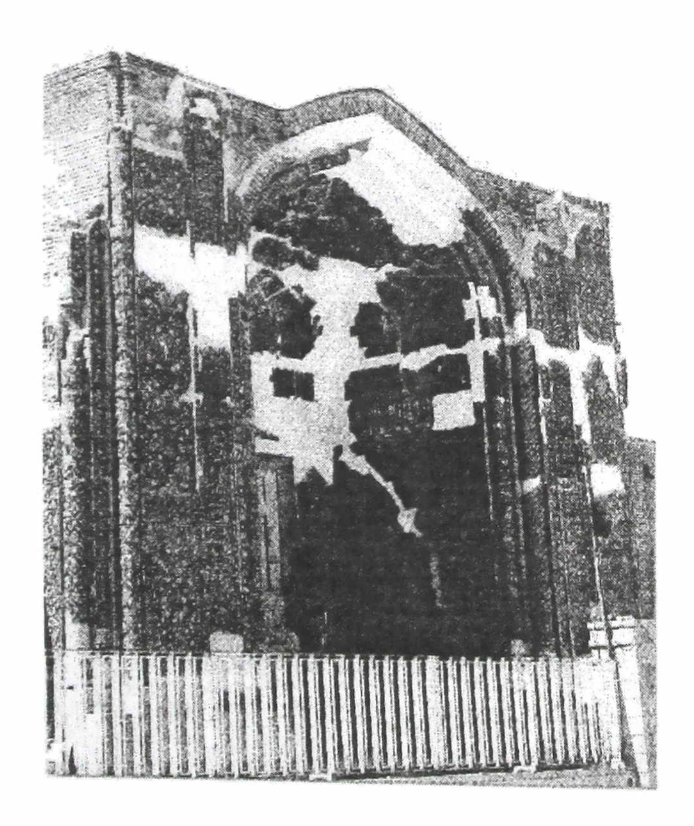
وفي سنوات حكمه العشر بعد معركة تشالديران فقد شاه اسماعيل روح المبادرة في سياسته العسكرية وراح يمضي كثيراً من أوقاته في اللهو والصيد وحتىٰ شرب الخمر، ربما في محاولة لتناسي مرارة الهزيمة التي تجرّعها في تشالديران تلك المعركة التي حطمت كبرياءه كقائد موهوب.



السلطان العثمانی سلیم الاول



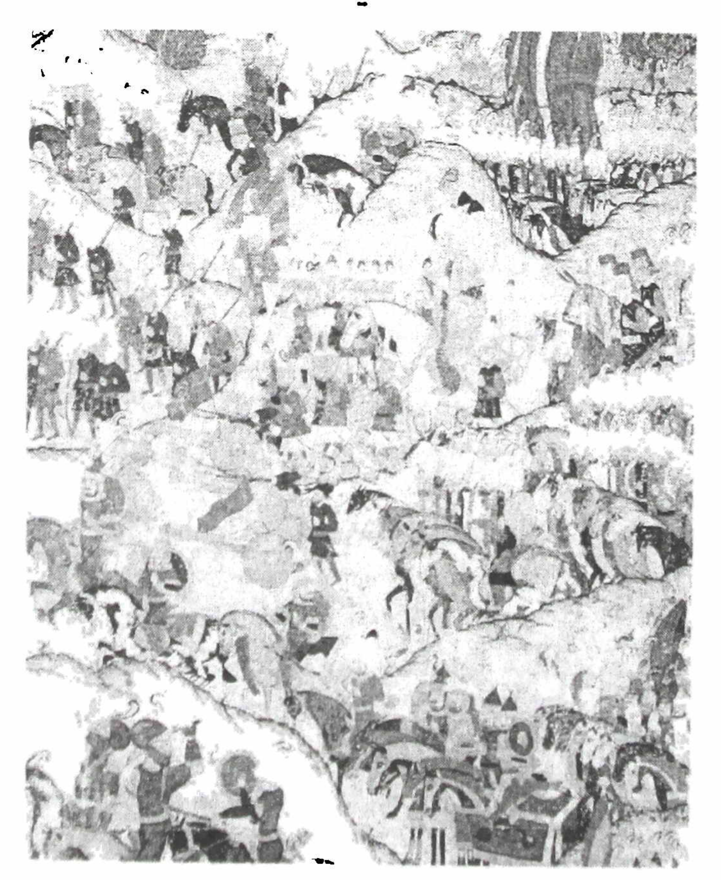
فی هذه المنطقة حدث الاصطدام المسلح بین الدولتین الصفویة والعثمانیة



مسجد کبود (الازرق) فی مدینة تبریز

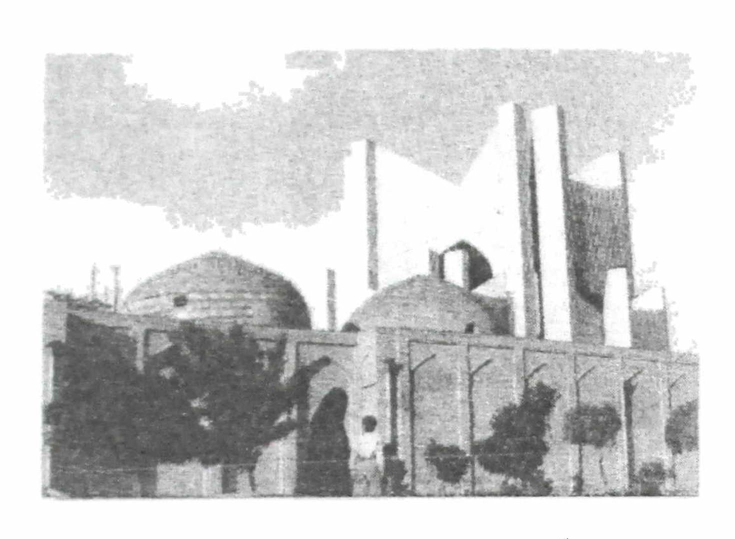


السلطان العثماني سليمان الكبير



جيوش العثمانيين فى الجبهة الاوربية فى عهد السلطان سليمان

ديوان خطايي



يعد هذا الديوان افضل مصدر للتعرف على شخصية شاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية، ذلك ان اشعاره التي تعكس ما يموج في نفسه من خلجات ومشاعر وأفكار سوف ترسم بوضوح ابعاد شخصيته. واصحبت قصيدته المعروفة بـ «دوازده امام» أو الأئمة الاثنا عشر باللغة التركية - وهي لغة الديوان - نشيداً للفرق الصوفية الشيعية في تركيا كالبكتاشية، حيث يعد شاه اسماعيل معلماً ومريداً، ومايزال ديوانه (خطايي) شائعاً ومعروفاً في الاوساط الأدبية التركية والايرانية. ويضم الديوان ألفاً واربعمائة بيت تحت عنوان دهنامه (الرسائل العشر).

واضافة الىٰ اشعاره باللغة التركية فله قصائد ومقاطع باللغة الفارسية تؤكد معرفته بهذه اللغة.

وقلما يصادف الدارس للتاريخ سواء في الشرق أو الغرب قائداً حظي بهذه القداسة لدى جنوده وشعبه، بل وحتىٰ الاجيال التي تلت عصره؛ وماتزال بعض الفرق الصوفية في تركيا وآذربيجان وفي بلاد البلقان تتغنىٰ باشعاره.

وبالرغم من توفر ظروف استثنائية ساعدت على نجاح اسماعيل الصفوي في تأسيس دولة جديدة واعلانه المذهب الشيعي مذهباً رسمياً وحيداً، من قبيل تنامي الصوفية وتمتعها بالقداسة منذ الهجوم المغولي على ايران وانتعاشها أيضاً في حملات التيموريين؛ وكذا بروز الأسرة الصفوية وطريقتها ذات الطابع الشيعي، ولكن يجب الاّ ننسى ما تمتعت به شخصية اسماعيل من هالة القداسة أولاً لانه وريث الأسرة بعد مسلسل القتل الذي تعرضت له، وكذا ايمان من حوله بأنه ينتسب الىٰ شجرة الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله).

وقد ساعدت مواهبه الذاتية **من قبيل** شاعريته وفروسيته وشجاعته وذكائه على تعزيز التفاف القزلباش حوله، أولئك **الجنود الشجعان** الأوفياء الذين التفوا حوله ليقودهم من نصر الىٰ آخر والىٰ تأسيس دولة قوية **جديدة** تمتد من خراسان شرقاً الىٰ العراق غرباً ومن

آذربيجان شمالاً الىٰ خوزستان وفارس وكرمان جنوباً.

مؤسسات الدولة الجديدة

بالرغم من أن ازدهار التصوف قام على اضمحلال المدنية الإسلامية أو عدّ مؤشراً قوياً على افول الحضارة الاّ ان التصوف في أخريات الشيخ صفي الدين وما تلا ذلك بدأ وبسبب تنامي مريديه وتزايد حجم أوقافه يكتسب نفوذاً واسعاً لينضوي على طاقة سياسية كبيرة، ظهرت بشكل واضح في عهد الشيخ جنيد ووارثيه الىٰ أن ظهرت بقوة في عهد اسماعيل مؤسس الدولة.

ومن الطبيعي لهذا الإرث العريق الذي يمتد الىٰ مئتي عام والذي تحول في منتصف القرن التاسع الهجري الىٰ تنظيم وحركة سياسية وقوات مسلحة أن ينجح في بناء الدولة فوق الأرض التي هيمن عليها عسكرياً.

وقد كانت المؤسسة العسكرية حين قيام الدولة في ذروة قوتها وانضباطها حيث القزلباش العمود الفقري للدولة. وقد امتد نفوذهم القوي الىٰ مفاصل الدولة فكبار القادة والضباط كانوا منهم حكام الولايات والاقاليم ومن الطبيعي أن امراء القزلباش الذين يتم تنصيبهم حكاماً كانوا يصطحبون معهم بعض رجال قبائلهم لتعزيز نفوذهم وسلطتهم، وحال اندلاع الحرب فان هؤلاء الحكام ورجالهم يكونون في طليعة الجيش.

ويعد أمير الأمراء أكبر منصب عسكري في الدولة الصفوية في فترة تأسيسها، وبالرغم من ان الاتراك كانوا يمثلون أركان الدولة من خلال استحواذهم على المناصب الحساسة ولكن شيئاً فشيئاً بدأ كبار المسؤولين في الدولة باسناد المناصب الادارية والمالية الىٰ التاجيك الايرانيين مع احتفاظهم بالمناصب السياسية والعسكرية.

وقد نجح التاجيك في قيامهم بالشؤون الوزارية لانهم كانوا الشريحة المثقفة في البلاد.

ويمكن القول ان الدولة الصفوية التي كانت تحمل ملامح تركية واضحة قد بدأت تكتسب ملامح ايرانية بسبب نفوذ الثقافة الإيرانية ونجاح التاجيك في اعمالهم ونشاطهم الوزاري والادراي فهم عماد المؤسسة الادارية أو المؤسسة المدنية التي تحمل على عاتقها تمشية الشؤون الادارية، حيث تبرز الوزارة كأعلى عنوان ترتبط بها مقاليد ادارة الدولة والديوان الاعلى، الذي يشرف عليه شخص ثم تأتي المؤسسة الدينية ذات النفوذ المتنامي وتعد الصدارة في قمة الهرم لهذه المؤسسة.

وعادة ما تسند الصدارة الىٰ فرد ايراني ينتسب الىٰ السادة ويكون على اطلاع كافي في حقول علمية رائجة وفي طليعتها الفقه والكلام.

ان الشؤون الدينية تدار من قبل (الصدر) وفي طليعتها الاوقاف الواسعة التي تصنع أو تؤدي الىٰ خلق نفوذ سياسي ومركز اجتماعي.

وتعد الصدارة في الدولة الصفوية أرفع منصب ديني ومن المناصب الحساسة في دولة رفعت شعارات دينية بل وتأسست وفق مبررات مذهبية.

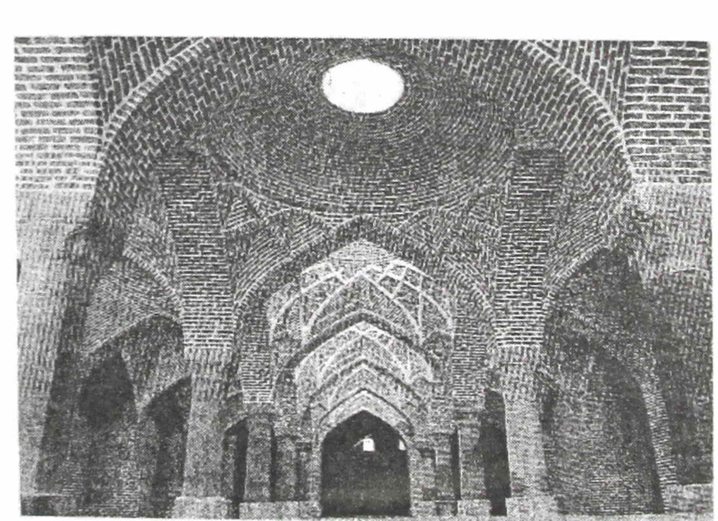
ويتمتع الصدر برتبة أمير وذلك لاشتراكه في المعارك والحروب وقد اشير الىٰ مصرع الصدر؛ سيد شريف شيرازي في معركة تشالديران والذي اعتبر خسارة كبرى.

ويعين الصدر لاعتبارات سياسية لتعزيز نفوذ الدولة الصفوية.

ويعتبر الصدر رئيساً للسلطة القضائية على اساس أن المحاكم في المدن الصفوية هي محاكم دينية يرأسها قضاة الشريعة، ومع كل هذا فان الطابع العام للصدارة هوطابع مالي واداري وليس طابعاً دينياً[١]. ويلي منصب الصدارة في المؤسسة الدينية منصب شيخ الاسلام والقاضي، وكان شيخ الاسلام يدعى أيضاً «آخوند» أيضاً وقد يسند المنصبان الىٰ شخص واحد.

غير ان منصب شيخ الاسلام يعد أكثر اهمية من القاضي ذلك ان شيخ الاسلام مسؤول عن النشر الديني وتبليغ الشريعة واليه يعود قبض الضرائب الدينية والحقوق الشرعية كالخمس والزكاة وتعيين المتصدين لأدارة الاوقاف؛ كما ان شيخ الاسلام وعبر مكاتبه يقوم باصدار السندات الرسمية والقانونية للممتلكات اضافة الىٰ وظائف أخرى عديدة[٢].

وخلاصة القول ان عهد شاه اسماعيل هو عهد تأسيس، فالحركة الصوفية الصفوية تطورت الىٰ حركة سياسية؛ ثم حمل اتباعها الملتهبون حماساً وايماناً السلاح ليؤسسوا دولتهم التي تمكنت من بناء مؤسساتها الدينية والمدنية، وقد أعقب ذلك ازدهار في الحياة الاقتصادية وبدء نهضة عمرانية وحركة فنية وبهذه المناسبة تجدر الاشارة الىٰ علماء «هرات» وقد استقدمهم الشاه من هناك الىٰ تبريز ثم الىٰ قزوين ليؤسسوا حركة فنية سوف تزدهر بمرور الايام.



من آثار الصفويين في تبريز

---

(١) ساختارنهاد وانديشه دين در ايران، ص ٩٤٤/ بالاستناد الى نظام قضائي عصر صفوي ويلم فلور، ص ١١٤.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢٢ - ١٢٧.

وقد شهدت مدينة قم واصفهان نهضة عمرانية لاهتمام شاه اسماعيل بهاتين المدنيتين الأولىٰ لثقلها الديني والمذهبي والثانية باعتبارها عاصمة مؤقتة وربما باعتبارها قاعدة عسكرية، خاصة في فترة النزاع العسكري الذي انفجر مع الاوزبك وبعد نكبة تشالديران اصبحت اصفهان منتجع الشاه الذي جرح كبرياؤه بشدة.

وفي عام ٩٣٠ وفي الثانية والثلاثين من العمر توفي شاه اسماعيل تاركاً على العرش نجله طهماسب الذي يناهز العاشرة من عمره. ومرّ كل شيء بهدوء بسبب نفوذ القزلباش المتحمسين للعرش الصفوي وللأسرة الصفوية. وهكذا انطوت الفترة التأسيسية ليبدأ عهد جديد من حياة الدولة الجديدة.

الفصل الثاني

عهد الاستقرار والازدهار

(٩٣٠ ـ ٩٨٤ هـ)

الى أكثر من نصف قرن امتدت حكومة طهماسب (٩٣٠ - ٩٨٤) وكانت فترة للازدهار والاستقرار في الدولة الصفوية، وبالرغم من الصراع الداخلي الذي انفجر داخل المؤسسة العسكرية القوية (القزلباش)، وبالرغم من التصادم مع الدولة العثمانية واستمرار الصراع مع الاوزبك الا ان الدولة الصفوية استطاعت أن تثبّت أركانها بقوة.

ولاشك انّ لشخصية طهماسب والتزامه حدود الشريعة وتدينه، الاثر الكبير في استقرار مؤسسات الدولة، التي شهدت الهجرة العربية وتسنم المهاجرين مراكز حساسة في البلاد.

وبسبب العداء الاوزبكي والعثماني للدولة الصفوية بدأت الأخيرة بالاستجابة لمحاولات تطبيع العلاقات مع الغرب يدفعها الى ذلك هاجس البقاء والاستمرار وهو نفس السبب الذي دفع الغرب من أجل التخفيف من الضغط والتوسع العثماني. ولكن العلاقات مع الغرب لم تتطور، خاصة بعد توقيع معاهدة سلام مع الدولة العثمانية؛ فاتجهت الدولة الصفوية الى بناء جبهة داخلية قوية تستند الى قاعدة مذهبية جديدة وشجعت على اللغة الفارسية من أجل بناء كيان مستقل له هويته.



بدء النزاع داخل المنظومة القزلباشية

بسبب نفوذ المؤسسة العسكرية (القزلباش) وسيطرتها التامة على مفاصل الدولة؛ فقد مرّ تربع صبي في العاشرة من العمر على عرش الدولة مروراً طبيعياً وهادئاً؛ ولايغيب عن البال كيف كان شاه اسماعيل وهو في الثالثة عشرة من عمره يقود جنوده في الخارطة السياسية الىٰ أن تمخضت وولدت دولة مترامية الاطراف.

ومن الطبيعي وبعد مرور ربع قرن على تأسيس الدولة أن تحدث حالة من التنافس بين القبائل التركية القوية التي تشكل بمجموعها منظومة القزلباش.

لقد تقرر أن يكون ديف سلطان روملو وكيلاً عن الشاه ما اثار حفيظة منافسه كابك سلطان استاجلو وقد حاول الأخير تعبئة آراء القزلباش ضد «وكيل شاه» متخذاً من مدينة تبريز قلعة للتمرد.

ولكن ديف سلطان سرعان ما قضى على المتمردين حيث تشكل قبيلة استاجلو العمود

الفقري للتمرد وقد هزم المتمردون عام ٩٣٢ هـ وفر زعيمهم الىٰ اقليم جيلان في شمال ايران لتعبئة قواته من جديد وقيادتهم نحو مدينة أردبيل التي سقطت بعد مقاومة .

وبعد أن اجرى كابك سلطان استاجلو مراسم الزيارة لعميد الأسرة الصفوية وزعيم الطريقة، ومن أردبيل انطلق لاحتلال العاصمة التي صمدت بوجه الهجوم وبعد اشتباكات ضارية تكبد المهاجمون خسائر فادحة واسفرت المعركة عن هزيمة المتمردين.



ويُعد هذا الصراع الدامي أول تصدع خطير في منظومة القزلباش والتي شهدت اقالة كثير من قادتها وحذف دورهم السياسي؛ وقد شهدت هذه الفترة البدايات الأولىٰ لدخول عناصر ليست تركية وبالتحديد من التاجيك الىٰ داخل المنظومة القزلباشية لتتسنم مناصب حساسة؛ مثل وكالة الشاه كما حدث ذلك مع ميرزا شرف قاضي نجل قاضي جهان (٩١٢ - ٩٦٨) حيث اصبح «وكيل شاه» ردحاً من الزمن.

وبالرغم من استمرار التوتر في الحدود مع الدولتين الاوزبكية والعثمانية الذي تواكب مع تنامي وتعزيز العلاقات بين الدولتين المعاديتين للوجود الصفوي.. بالرغم من كل ذلك فقد اتجهت الدولة الصفوية الىٰ تعزيز مركزيتها ونفوذها وبناء جبهة داخلية قوية.

فقد شهد العقد الأوّل من حكومة طهماسب والنصف الأوّل من العقد الثاني تحركات مكثفة للقضاء على القلاقل وحركات التمرد في المدن والاقاليم الحدودية.

لقد كانت وفي عهد شاه اسماعيل حالة من الاستقلالية في الحكم ناجمة عن سعة الصلاحيات الممنوحة لحكام الاقاليم. وعادة ماينتهز بعضهم الازمات التي تمر بها الدولة لاعلان الانفصال، كما حدث في المناطق الحدودية في الشمال الايراني وفي كردستان.

وقد استطاعت حكومة طهماسب ان تفرض الهدوء والاستقرار في أنحاء الدولة واصبح للعاصمة دوراً مركزياً ومحورياً في ادارة شؤون البلاد.

انتقال مركز الحكم الى مدينة قزوين

ان تاريخ ٩٦٢ هـ لايمكن ان يعد التاريخ الحقيقي لانتقال العاصمة الىٰ مدينة قزوين؛ ذلك ان اجراءات أساسية اتخذت قبل عشر سنوات من هذا التاريخ مهدت فيما يبدو لانتقال العاصمة.

ففي عام ٩٥١ أوعز شاه طهماسب ببناء مؤسسات للدولة في مدينة قزوين وفي طليعتها مساكن فخمة تحيط بها الحدائق الغناء مخصصة للسفراء ومبعوثي الدول الاجنبية وتعد تلك الاثار من روائع العهد الصفوي[١].

ان موقع قزوين في مركز البلاد تقريباً واتجاه الدولة الىٰ تثبيتمركزيتها يمكن أن يكون وراء هذه الخطوة.

ولعل وجود نسبة كبيرة من أهل السنة يمكن أن يكون وراء خطوة شاه طهماسب لتعزيز الوجود الشيعي في هذه المدينة بشكل هادئ.

اذ تشير بعض الأشعار الىٰ وجود السنة في قزوين وقد شبههم الشاعر بالكتّان الذي سيتلف بعد شروق البدر (شاه طهماسب) وفق معتقدات اسطورية حول اشعة البدر التي تخرق الأقمشة المصنوعة من الكتان.

وقد واكب انتقال العاصمة الىٰ مدينة قزوين انتقال شخصيات ثقافية ودينية بارزة.

وقد عرف عن طهماسب اهتمامه واحترامه للعلماء حتىٰ ان والد الشيخ البهائي (الشيخ حسين بن عبدالصمد المتوفي سنة ٩٨٤ هـ) والذي وصل اصفهان سنة ٩٦١ هـ نزل ضيفاً على الشاه في العاصمة قزوين سنة ٩٦٣ هـ بناء على دعوة شخصية من شاه طهماسب نفسه، بل وعيّن بمنصب شيخ الاسلام للعاصمة الجديدة[٢].

ومن المؤكد أن وجود علماء في مستوى الشيخ حسين سيكون لهم دورهم في نشر المذهب الشيعي المذهب الرسمي للدولة واضفاء الطابع الشيعي على عاصمة البلاد.

---

[١] قاضي احمد قمي، خلاصة التواريخ (يوثق الكتاب وقائع العهد الصفوي حتى سنة ٩٩٩ هـ).

[٢] أمل الآمل: ج١ ص ١٥٧، رياض العلماء ج ٢ ص ١٢٠.

المسألة الاوزبكية... استمرار الخطر

انتهز الاوزبك بقيادة عبيدخان موت شاه اسماعيل الخصم اللدود فقاموا باجتياح اقليم خراسان سنة ٩٣١ هـ وغادر جيش جرار مدينة بخارى زاحفاً صوب هرات وقد قاوم القزلباش مقاومة شديدة واستعصى فتحها على المهاجمين وعادوا من حيث أتوا.

ولكن التصدع الذي حدث في المؤسسة العسكرية الصفوية في الصراع الداخلي شجع الاوزبك على الهجوم واجتياح خراسان مرة أخرى.

قاد عبيدخان الاوزبكي قواته تاركاً هرات خلف ظهره ومتجهاً نحو طوس التي سقطت بعد حصار دام شهوراً وخلال مدة الحصار لم تصل أية تعزيزات من العاصمة، وفعل الجوع فعله في المحاصرين واستسلمت المدينة.

وواصلت القوات الاوزبكية نحو استراباد فسقطت هي الاخرى. وفي عام ٩٣٣ هـ عادت القوات الغازية بعد تعيين حكام اوزبكيين في المناطق المحتلة.

وما لبثت التعزيزات العسكرية أن وصلت من تبريز وتم تحرير استراباد، وفي بسطام اصطدمت جيوش الدولتين ودارت الدائرة على قوات الدولة الصفوية التي انسحبت الىٰ فيروز كوه.

ونفذت القوات الاوزبكية مذابح بحق الشيعة وفق فتاوى صدرت من علماء السنة هذه الفتاوى التي عادة ما تصدر بعد سقوط المدن واحتلالها.

ولعل هذه الظاهرة المؤسفة هي التي دفعت مدينة مثل هرات أن تبدي مقاومة شديدة مستبسلة في الدفاع.

وقد استمر حصارها سبعة شهور واستعصى احتلالها على عبيدخان ذلك القائد الاوزبكي العنيد.

ووصلت أنباء زحف الجيش الصفوي الذي استعاد مدينة دامغان المحتلة ومصرع حاكمها الاوزبكي؛ هنالك قرر عبيدخان فك الحصار والعودة الىٰ بخارى.

ان الحملات العسكرية المتكررة للاوزبك على خراسان سلبت هذا الاقليم أي احساس بالاستقرار ودفع بكثير من سكانه الىٰ الفرار الىٰ المناطق المجاورة.

وبسبب انشغال البلاط الصفوي بالنزاعات الداخلية داخل المنظومة القزلباشية وبعض حركات التمرد تراجع الاهتمام باقليم خراسان.

ولكن ما أن اطلت سنة ٩٣٥ هـ حتىٰ زحف طهماسب على رأس جيش كبير لتثبيت دعائم الاستقرار في خراسان التي تكتسب أهمية بالغة بسبب وجود ضريح الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) ثامن أئمة أهل البيت(عليهم السلام) هذا من جهة، ومن جهة أخرى يعد أقليم خراسان تاريخياً جزءاً لاينفك من ايران.

ومن هنا اكتسبت مدينة هرات أهمية بالغة باعتبارها مركز الاقليم والقلب النابض فيه[١].

وخلال التقدم لاستعادة المدن المحتلة في الاقليم حدث الاصطدام الملحمي في مدينة «جام»؛ ذلك ان حشود الاوزبك بلغت عشرين ضعفاً.

وكان عبيد خان قد اصطحب معه ٤٠ عالماً من أهل السنة يدعون له بالنصر.

واستبسل الجيش الصفوي في القتال وبخاصة الحرس الخاص لطهماسب ما الهب روح الحماس في القوات الصفوية الذين نفذوا هجمات جريئة، أجبرت الجيش الاوزبكي على التراجع والفرار ولقي الاربعون عالماً مصرعهم جميعاً.

ولكن مع عودة الشاه الصفوي، عادت قوات الاحتلال الاوزبكي الىٰ مشهد ثم سقطت مدينة هرات وجرت مذابح بحق سكانها من الشيعة، بل اتهم كثير من اثرياء السنة بالتشيع لقتلهم طمعاً بأموالهم.

وقد استغل عبيدخان الاوزبكي العامل الطائفي في تبرير حملاته العسكرية على خراسان وارتكاب المذابح بالسكان الابرياء.

وارتكبت القوات الصفوية نفس الاعمال الوحشية اثر سقوط المدن الخراسانية، ففي عام ٩٣٩ تمت استعادة مدينة استراباد وقتل جميع السكان الاوزبك فيها.

واستمرت القلاقل في اقليم خراسان بسبب الصراع الدامي والرهيب بين الدولتين حتىٰ سنة٩٤٦ هـ بموت عبيدخان وانفجار قلاقل داخلية في عمق الدولة الاوزبكية فنعمت

---

[١] ظلت مدينة هرات مركز خراسان وجزءً من ايران حتى منتصف حكم ناصر الدين شاه القاجاري...

خراسان بقدر من الهدوء والاستقرار.

الصراع العثماني الصفوي... حرب وسلام

ظل الصفويون ينظرون بقلق الىٰ حدودهم الغربية وقد القت معركة تشالديران بظلالها القاتمة على البلاط الصفوي، غير ان الهدوء كان سائداً في المناطق المتاخمة للدولة العثمانية خاصة بعد سقوط شرق الاناضول بأيدي العثمانيين.

ويبدو أن السنوات الأولىٰ من حكومة طهماسب شهدت انشغالاً كاملاً بالشأن الداخلي فيما كان العثمانيون منصرفين تماماً الىٰ التوسع في اوربا الشرقية مطمئنين الىٰ حدودهم مع الدولة الصفوية المنهمكة في اصلاح أوضاعها الداخلية وصراعها المرير مع الاوزبك.

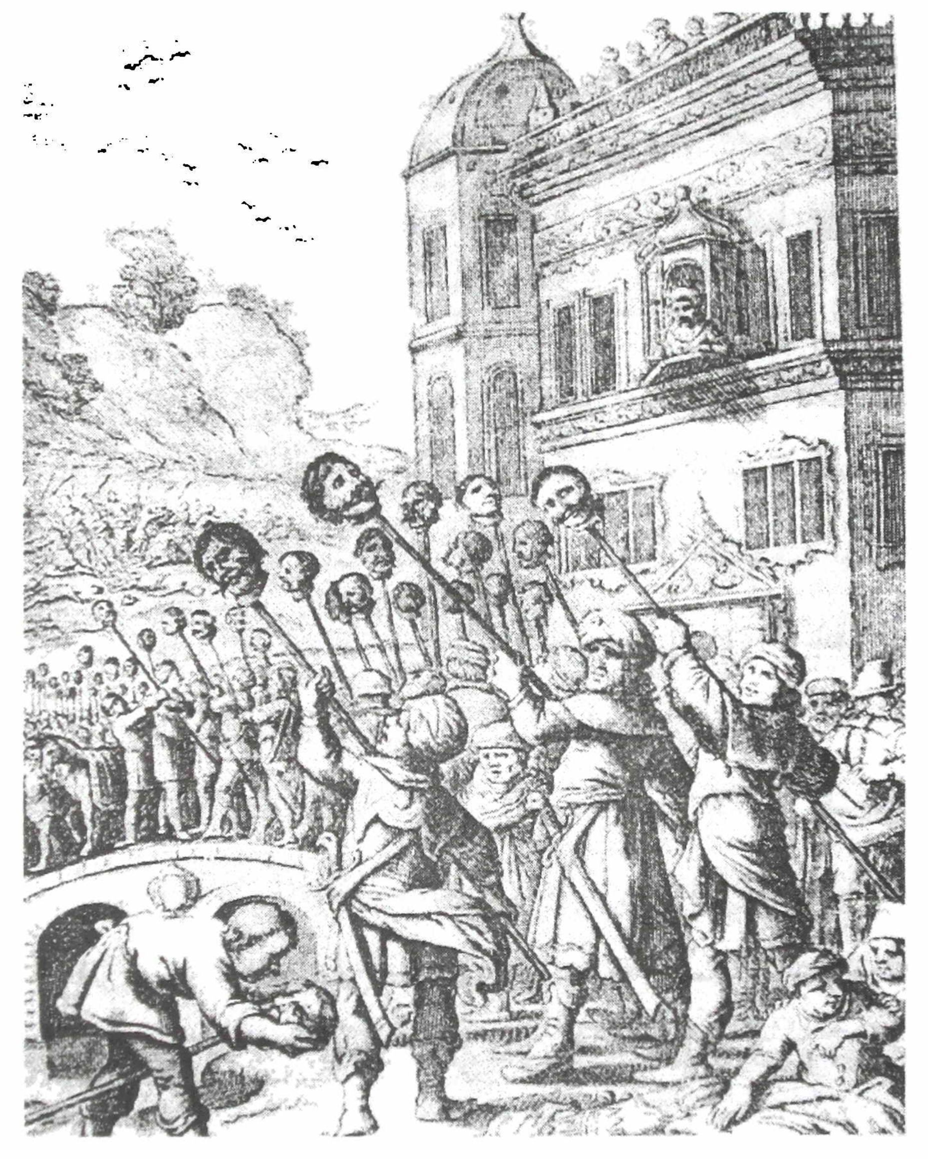


وفي عام ٩٣٨ هـ حدث تطور على صعيد العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية؛ عندما أقدم حاكم آذربيجان ومن أجل الاستحواذ على الحكم باللجوء الىٰ السلطان العثماني سليمان القانوني ليعود معه خمسون ألف جندي ولكنه أخفق في مساعيه.

واستغلت الدولة العثمانية انشغال طهماسب وقواته في السيطرة على خراسان فحركت قطعات عسكرية من جيوشها ومن القزلباش المنشقين الىٰ آذربيجان، وهذا ما دفع شاه طهماسب الىٰ مغادرة خراسان والتوجه نحو تبريز.

وقد فعلت الأراجيف والشائعات ونفاق البعض في جيش طهماسب فعلها وكانت ذكريات من الهزيمة التاريخية في تشالديران ماتزال تلقي بظلالها القاتمة على القوات الصفوية التي كانت تتخاذل كلما اقتربت من تبريز.

غير ان قوى الطبيعة قامت هذه المرّة بنجدة الجانب الصفوي اذ انهمرت الثلوج بشكل كثيف وعرقلت تقدم القوات العثمانية ونفقت الحيوانات التي تحمل المؤن والعتاد الحربي، كما لقي كثير من الجنود مصرعهم ما جعل السلطان سليمان يغير من وجهته فاتجه الىٰ بغداد التي سقطت دون مقاومة تذكر.



وفي عام ٩٤١ اعاد سليمان القانوني المحاولة لاحتلال اقليم آذربيجان.

وعندما اصطدمت قواته بطلائع من الجيش الصفوي ورأى عن كثب بسالة القزلباش الذين لم يتهيبوا ضخامة الجيش العثماني وهجماتهم الصاعقة وانزالهم خسائر بقواته. صرف نظره عن مواصلة التقدم وعاد الىٰ العاصمة استانبول.

وتقدم شاه طهماسب نحو قلعة «وان» حيث تتحصن قوات عثمانية فسقطت، كما انزل هزيمة بالتعزيزات العسكرية التي ارسلها السلطان سليمان القانوني لنجدة قواته، وهكذا تمكن الصفويون من تأمين حدودهم مع الدولة العثمانية في آذربيجان الىٰ حين.

وفي عام ٩٥٤ حدث تطور أكثر خطورة عندما أقدم «القاص ميزرا» الصفوي الاخ غير الشقيق لشاه طهماسب على حركة انفصالية خطيرة والاستقلال بحكومة شيروان. وكان شاه طهماسب قد عينه حاكماً عليها بعد القضاء على امرائها.

وعندما زحف الجيش الصفوي قام الأخ العاق بارسال امه وابنه وتقديم الاعتذار للشاه

الذي قبل اعتذاره وصدر عفو بشأنه.

في عام ٩٥٤ هـ سقطت مدينة البصرة جنوبي العراق بأيدي العثمانيين، وأقدم القاص ميرزا على تنفيذ خطوته الانفصالية ودارت معارك ضارية بين الانفصاليين والقوات الصفوية بقيادة شاه طهماسب انتهت بانتصار الأخير.

والتحق كثير من الانفصاليين بالجيش الصفوي فيما فرّ القاص لاجئاً الىٰ الباب العالي في استانبول.

ونصب شاه طهماسب ابنه اسماعيل ميرزا حاكماً على شيروان.

وكان في لجوء أمير صفوي بهذا المستوى فرصة ذهبية للدولة العثمانية التي لاتنفك تعمل وتطمح للاطاحة بالدولة الشيعية، ومن هنا فان لجوء القاص الصفوي الاخ غير الشقيق وتأكيداته للسلطان بقاعدته الشعبية الواسعة في ايران واستقبال الناس له في حالة الحاق هزيمة بالجيش الصفوي حرّك الاطماع التوسعية لدى السلطان العثماني.

وفي عام ٩٥٦ هـ تحرك الجيش العثماني بقيادة السلطان سليمان مصطحباً القاص ميرزا نحو تبريز.

واتبع شاه طهماسب سياسة الأرض المحروقة في طريق الجيش العثماني فقد اضرمت النار بالمزروعات والغلال وطمرت الآبار والقنوات الجوفية.

وقد اصطدم الجيشان بالقرب من تبريز وبسبب التفوق الهائل للجيش العثماني انسحب الجيش الصفوي الىٰ مدينة «اهر» وهكذا سقطت تبريز.

وأقام الجيش العثماني معسكراته في جرنداب، ولم تكن اقامة هادئة فقد توالت الغارات التي يشنها القزلباش من كل صوب، في الوقت الذي كان الجيش الصفوي يعيد تنظيم قدراته استعداداً للهجوم الكبير.

وقد خلقت هذه الظروف اوضاعاً غير محتملة ما دفع بالسلطان العثماني على اتخاذ قرار العودة.

وكانت العودة مصحوبة بحالة من التوجس وما انفكت الغارات تطارد مؤخرة القوات المنسحبة وتكبيدها بعض الخسائر.

وكانت سرعة الانسحاب قد بلغت أقصى ما يمكن بحيث كانت القوات تقطع أكثر من

عشرين كيلومتراً في اليوم الواحد.

واندفعت القوات الصفوية بالتقدم حتىٰ مدينة ارزنجان وتم تصفية الخونة وعملاء الدولة العثمانية أو طردهم من مناطق سكناهم الىٰ خارج الحدود.



السلطان العثماني سليم الاول

واتجهت القوات الصفوية الىٰ الشمال الغربي في اقليم كردستان ما دفع القاص ومعه خمسة آلاف من جنوده بالانسحاب من هذا الاقليم متجهاً الىٰ همدان ومنها الىٰ قم والىٰ كاشان معولاً على دعم شعبي، وكانت القوات الصفوية تطارده ففر الىٰ اصفهان حيث واجه مقاومة من أهلها فاتجه الىٰ اقليم فارس في الجنوب الغربي من ايران، وفي منتصف الطريق غير مساره متجهاً الىٰ مدينة بغداد.

وقد حمّل السلطان سليمان مسؤولية فشل الحملة العثمانية القاص ميرزا فأمر بامتثاله في العاصمة، ولكن الأمير الصفوي المنشق امتنع، فما كان من السلطان الغاضب إلاّ أن كلف فرقة عسكرية لإلقاء القبض عليه؛ ففر الىٰ كردستان ليصطدم مع الجيش الصفوي فتم القاء القبض عليه وسيق الىٰ البلاط الصفوي وأمر شاه طهماسب باعتقاله في قلعة قهقهة في شمال آذربيجان ليموت فيها بعد شهور.

توقيع معاهدة سلام

لقد دقت تشالديران اسفين الصراع بين الدولتين وسرعان ما اتخذ هذا الصراع طابعه الطائفي.

وكانت الدولة العثمانية ما انفكت تتحرش بجارتها من خلال غارات تشن من ارضروم وكانت المدن الحدودية تتعرض باستمرار الىٰ غارات متوالية، الأمر الذي دفع بشاه طهماسب عام ٩٥٩ هـ الىٰ القيام بحملة تأديبية. قام طهماسب بتقسيم قواته الىٰ مجاميع

صغيرة ونشرها على الحدود لشن غارات على القلاع الحدودية وقد الحقت هذه الهجمات خسائر وأضرار كبيرة بالحاميات العثمانية.

كما اصطدم الجيش الصفوي بقيادة شاه طهماسب بقوات عثمانية من ارض روم وتكبد الجانب العثماني خسائر بشرية كبيرة وكان نصراً كبيراً للدولة الصفوية.

قام السلطان سليمان بقيادة رابع حملاته العسكرية على ايران؛ جدير ذكره هنا ان الجانب العثماني في الصراع كان هو المهاجم والتزمت الدولة الصفوية الجانب الدفاعي، اذ لم يكن الصفويون قادرين على تعبئة قوات يمكنها مهاجمة دولة كبرى لها امكانات عسكرية كالدولة العثمانية.

غير ان صمود الصفويين دفع الدولة العثمانية الىٰ التفكير بالسلام وهو رغبة أكيدة لدى الدولة الصفوية.

وتكشف حرب الرسائل ـ اذا صح التعبير ـ عن رغبة البلاط الصفوي بحل النزاع بالطرق السلمية وتوقيع معاهدة سلام؛ كما توضح اعتراف الجانب العثماني بالأمر الواقع وقبول التعايش السلمي مع جارتهم في الشرق[١].

وقد سبق توقيع اتفاق السلام مبادرات تؤكد حسن النوايا من الجانب الصفوي، فعلى سبيل المثال قام شاه طهماسب باطلاق سراح احد القادة العثمانيين الأسرى «سنان بيگ» والأخير من المقربين لدى السلطان.

وقد حمّل شاه طهماسب القائد العثماني رسالة شفوية مفادها: ان الحروب تؤدي الىٰ الدمار وأنّ السلام يؤدي الىٰ رفاه الناس.

وشهد عام ٩٦١ هـ تبادل رسائل بين الزعيمين.

وتزامن مع صلابة القوات الصفوية واستبسالها في الدفاع ارسال الجانب الصفوي وبالتحديد شاه طهماسب رسائل مفعمة بلغة هادئة، في محاولة لامتصاص الاحتقان لدى الجانب العثماني. واعتبر شاه طهماسب الحرب بين الطرفين اقتتالاً اخوياً وانتقد سياسة والده بالاستجابة لتحريضات المغرضين.

---

[١] عبدالحسين نوايي، شاه طهماسب: ص ١٩٥ - ٢٤٧.

واعتبر نكبة تشالديران مؤامرة ومن دسائس أناس غرّروا بوالده ودفعوه لارتكاب هذا الخطأ الكبير[١].

وافلحت هذه الرسائل ورغبة السلطان العثماني فيما يبدو في السلام بعد يأس من قهر الدولة الصفوية، وصدرت الأوامر بالانسحاب من الاراضي المحتلة، كما أوعز الىٰ حرس الحدود بألاّ يقوموا بأي عمل عسكري معادي لايران مادامت الأخيرة ملتزمة بالسلام وبهذا يعدّ عام ٩٦٣ بداية عهد جديد في العلاقات بين الدولتين، وانتهز شاه طهماسب اكتمال بناء جامع السليمانية في استنبول عام ٩٦٣ هـ ليبعث الىٰ السلطان رسالة تهنئة ويطلب ابعاد المسجد من أجل اعداد وحياكة سجاد ايراني يليق بالجامع الفخم وسوف يسهم شاه طهماسب كما ورد في الرسالة في وضع التصاميم شخصياً وتتضمن الرسالة خبرة الشاه الصفوي ببعض الفنون الإيرانية السائدة يومئذ.

وخلال خمسة أعوام لم يحدث أي تطور على صعيد العلاقات الثنائية بين البلدين؛ فقد عم السلام مناطق الجوار حتىٰ سنة ٩٦٧ هـ عندما ظهرت غيوم تلبّد سماء العلاقات بين الدولتين؛ اذ حدثت ازمة داخل الدولة العثمانية بسبب خلافات حادة بين ابني السلطان العثماني سليم وبايزيد. ومن المؤكد أن الصراع كان حول وراثة العرش العثماني؛ اذ تمت تصفية مصطفى الابن الثالث للسلطان بعد اتهامه بالعمل على الاطاحة بحكم والده.

في عام ٩٦٦ هـ فر بايزيد خارج الحدود مع آلاف من أنصاره.

وفي عام ٩٦٧ هـ استقبل في العاصمة الصفوية قزوين استقبالاً لائقاً ربما في خطوة تذكر بما فعله السلطان العثماني بعد فرار اخو شاه طهماسب «القاص ميزرا» من ايران.

وتبادل الزعيمان رسائل عديدة بشأن هذه المسألة وكان السلطان سليمان يعتبر اعادة بايزيد وتسليمه مطلباً أكيداً لايمكن التراجع عنه.

في عام ٩٦٨ وصل وفد عثماني كبير يتألف من سبعمائة فرد لبحث معاهدة السلام بين الجانبين وقد استغرقت المباحثات عاماً كاملاً وتم توقيع بنود الاتفاق النهائي مع التأكيد على فقرة هي تسليم اللاجئين السياسيين.

---

[١] صفويه از ظهور تا زوال .

وفيما يخص تسليم بايزيد اشترط شاه طهماسب التعهد بعدم الحاق الاذى به.

وقد حاول الجانب الصفوي تبرير هذا الموقف اللا أخلاقي بتسليم فرد لجأ الىٰ حماية البلاط الصفوي بانتقاد مسلك بايزيد وانتهاكه اصول الضيافة والتآمر والسعي لاغتيال شاه طهماسب بدس السم في طعامه.

ويبدو ان الجانب الصفوي كان حريصاً جداً على تعزيز العلاقات بين الدولتين وقد كان في تسليم بايزيد مصلحة كبرى للدولة الصفوية، فأزمة كهذه ربما تعصف بالسلام الذي دام سبعة أعوام.

وقد شهدت العلاقات بين الدولتين تطوراً ايجابياً وتبادل الجانبان ارسال الوفود.

في عام ٩٧٠ هـ وصلت العاصمة الصفوية هدايا السلطان العثماني وكانت عبارة عن نصف مليون مسكوكة ذهبية واربعين حصان عربي وهدايا أخرى.


جانب من الصراع المسلح حول جزيرة هرمز بين الدولة الصفوية و سفن حربية اروبية

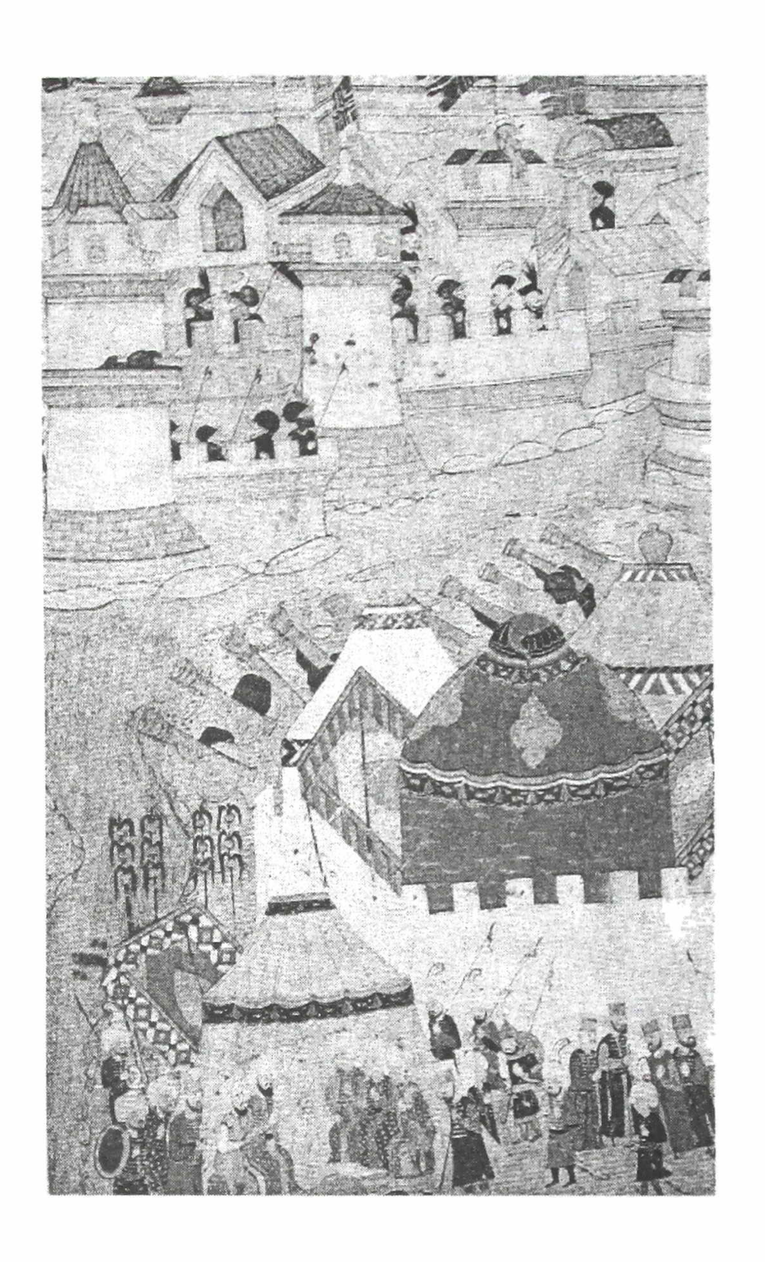
وكان شاه طهماسب حريصاً على تطوير العلاقات الطيبة نحو الأحسن وما انفك يبعث رسائل التهاني بمناسبة انتصار الجيوش الإسلامية في اوربا.

وعندما تربع سليم الأول على العرش في سنة ٩٧٥ هـ اقام السلطان الصفوي في «حديقة السعادة» احتفالاً كبيراً.

ومن أجل تعزيز العلاقات الاخوية بين الجانبين أنشا البلاط الصفوي واحدة من أطول الرسائل الدبلوماسية فقد بلغ طول الطومار سبعين ياردة وجاء نصها في المدونات التاريخية في حدود سبعين صفحة[١].

---

[١] خلاصة التواريخ: ٤٧٨ - ٥٤٤.



حصار الجيش العثماني للعاصمة النمساوية فينّا

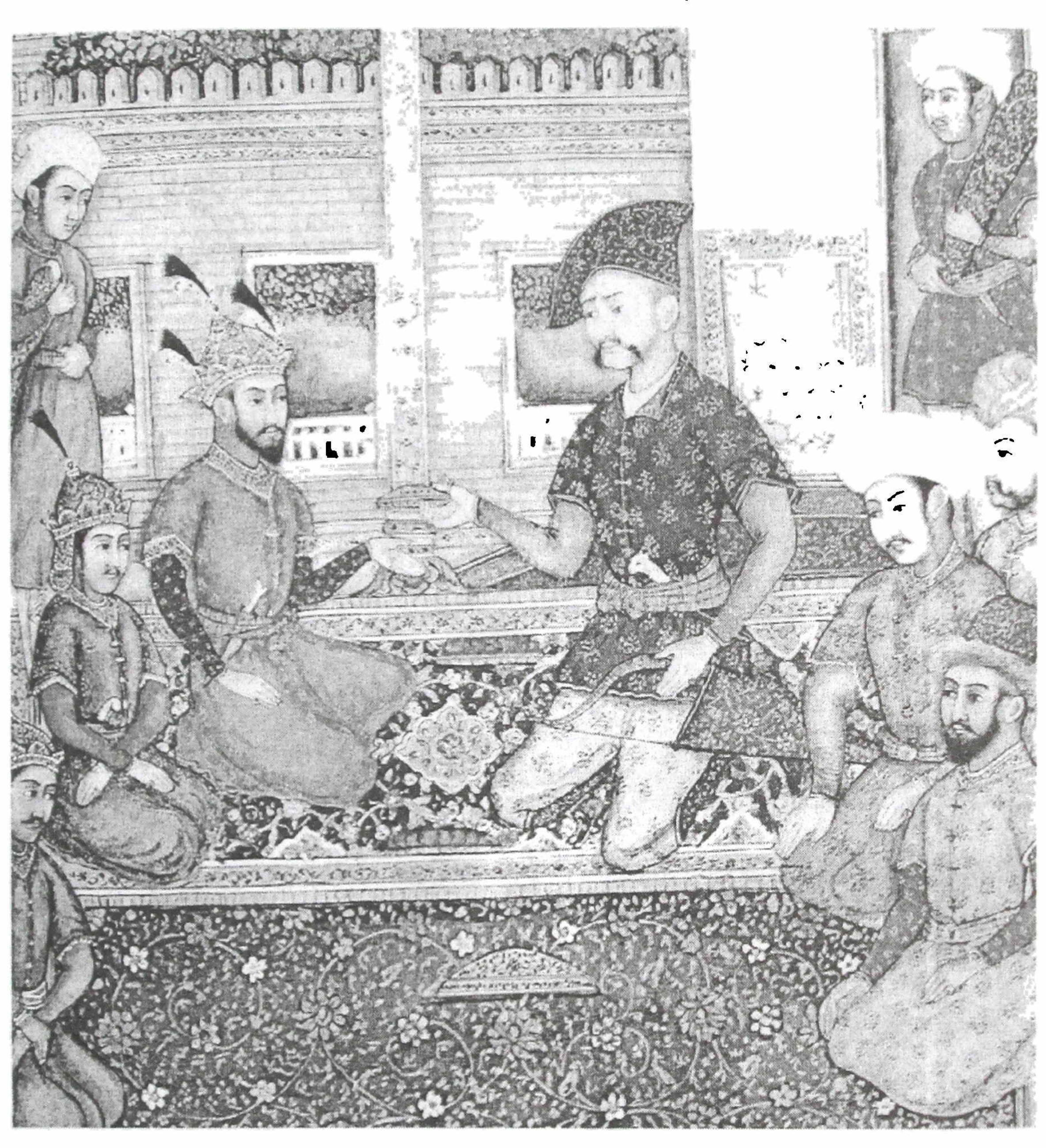
العلاقات الخارجية... الغرب والشرق

عادة ما تكون العلاقات التجارية البدايات الاولىٰ للعلاقات؛ السياسية وهذه العلاقات تمتاز بتأثيراتها الايجابية في تنامي العلاقة السياسية كلما ازداد حجم التبادل التجاري.

وبسبب الصراع الذي احتدم بين الدولة العثمانية والصفوية وكانت الدولة العثمانية القوية تمثل تهديداً مصيرياً للدولة الصفوية حديثة التأسيس اضف الىٰ ذلك التحدى الأوزبكي المتمثل بدولة فتية تزامن ظهورها مع ظهور الدولة الصفوية والهجمات العسكرية المتلاحقة وتنامي العلاقات القوية بين الاوزبك والعثمانيين، كل هذا جعل البلاط الصفوي

يستقبل بعثات أجنبية اوربية خاصة وان الاوربيين كانوا يعانون من الزحف العثماني الذي يمثل لهم تهديداً خطيراً؛ خاصة بعد سقوط القسطنطينية ذلك السقوط التاريخي وما يحمله من دلالات واضحة، وقد كان الاوربيون يسعون جاهدين لتشكيل جبهة تقف بوجه التوسع العثماني والتخفيف من ضغطها العسكري.

وقد كثف العثمانيون هجماتهم باتجاه البلقان متجهين نحو قلب القارة الاوربية.



لقاءات دبلوماسية مع وفود أجنبية

هنغاريا

وبسبب وقوع هنغاريا في منطقة الخطر العثماني بادر ملك البلاد بإرسال سفير خاص يحمل رسالة تتضمن طلباً باقامة علاقات بين الدولتين؛ وحمّل شاه اسماعيل السفير رسالة الىٰ ملك اسبانيا كارل الخامس يقترح عليه تشكيل جبهة لمقاومة الدولة العثمانية.

لم تصل رسالة الملك الصفوي الىٰ اسبانيا الاّ بعد سنوات ولم يأت جوابها الاّ بعد موت شاه اسماعيل بسنوات اي عام ٩٣٦ هـ.

ولم يكن التهديد العثماني هو الهمّ المشترك الوحيد لدى الصفويين واوربا، فقد كانت التجارة تمثل جزءً من شؤون الغرب الاوربي

البرتغال

كان البرتغاليون يمخرون البحار والمحيطات باساطيلهم الحربية التجارية، وفي القرن العاشر الهجري وطأت اقدام البرتغاليين شواطىء الهند ثم شواطىء الخليج العربية والايرانية.

وبسبب سيطرة العثمانيين على العراق وسوريا فقد سدت الطرق التجارية امام الاوربيين.

وفي تلك الفترة بدأ الحوار الاوربي الايراني الذي اندمجت فيه المسائل التجارية والقضايا السياسية، خاصة فيما يتعلق بالتهديد العثماني الذي يعد في طليعة الشؤون ذات الاهتمام المشترك.

كان البرتغاليون قد سلكوا طريقاً تجارياً آخر حيث داروا غرب افريقيا ووصلوا الىٰ شواطىء الهند في مطلع القرن العاشر، كما تمكنوا عام ٩١٠ هـ من احتلال بعض المناطق الساحلية ثم تقدموا نحو مضيق هرمز والسيطرة على هذا المركز التجاري الحساس في سنة ٩١٣ هـ.

واصبح بمقدور البرتغاليين انزال بضائعهم دون دفع التعرفة الجمركية.

ولحاجة الدولة الصفوية الىٰ حليف يقف الىٰ جانبها في الصراع مع العثمانيين ارسل شاه اسماعيل سفيراً الىٰ البرتغاليين، وفي عام ٩١٨ حضر سفير من الجانب البرتغالي، كما ارسل

شاه اسماعيل سفيره الى الحاكم البرتغالي في الهند حول مسألة مضيق هرمز.

وفي الوقت الذي امتنع فيه حاكم هرمز من دفع أية ضريبة للبرتغاليين الذين قاموا بمهاجمته، قامت القوات الصفوية باحتلال البحرين كاجراء ضروري للوقوف بوجه التوسع البرتغالي في هذه المنطقة.

وسقطت هرمز بأيدي البرتغاليين مرة أخرى ووقعوا اتفاقاً مع الدولة الصفوية التي اعترفت بالأمر الواقع، سيما وأنّ الخطر الاساس الذي يهدد وجودها في الصميم هو التهديد العثماني الذي تفاقم خطره في تلك المرحلة.

وفي سنة ٩٢٦ عاد النزاع حول مضيق هرمز الذي ألقى ظلاله على الطريق التجاري بين الجنوب والشمال في ايران.

وقد حاول البرتغاليون حل المسائل العالقة دبلوماسياً وحضر سفيرهم الى تبريز لمناقشة الأمور على أعلى المستويات وقبل أن تدخل المفاوضات مراحلها الجادة توفي شاه اسماعيل وانهمك البلاط الصفوي بحل المشكلات الداخلية وبالصراع الذي احتدم مع الاوزبك في الشرق والعثمانيين في الغرب .

وساد البرود في العلاقات بين الدولة الصفوية والبرتغاليين وكان شاه طهماسب وبسبب تدينه الشديد يكره البرتغاليين الذين قاموا بانتهاك حرمة المساجد وهدم بعضها واحراق المصاحف الشريفة.

وفيما يخص العلاقات مع الانكليز لم يحدث تطور يذكر، سوى حضور مبعوث ملكة بريطانيا في عام ٩٦٩ هـ يحمل رسالة ودية تمهيداً لاقامة علاقات تجارية مع ايران.

وقد فشل اللقاء بسبب الاستقبال الفظ الذي قام به شاه طهماسب للمبعوث الانجليزي.

ويبدو ان عقدة الغرب الكافر كانت تفعل فعلها في طريقة تفكير شاه طهماسب سيما بعد امضاء معاهدة السلام مع الدولة العثمانية.

وبعد سبعة أعوام أي في عام ٩٧٦ وصل وفد انگليزي قابل شاه طهماسب وقد وافق الأخير على ادخال البضائع الانجليزية عن طريق روسيا ف خطوة ربما لمنافسة التجار البرتغاليين وتجار البندقية الذين ينشطون في جنوب ايران، وقد اعفيت البضائع الانكليزية من أية رسوم جمركية.

ولكن العلاقات مع الانكليز سوف تشهد تطوراً ملحوظاً في المستقبل بسبب تردي العلاقات الصفوية مع جارتها العثمانية واحتلال مناطق واسعة من ايران.

وعلى صعيد العلاقات الايرانية مع روسيا لم يحدث أي تطور في عهد شاه طهماسب ولعل أول مبادرة صفوية على هذا الصعيد حدثت في نهاية الالفية الاولىٰ من التاريخ الهجري.

العلاقات الايرانية الهندية

واذا كان للصراع الصفوي العثماني اثره في نوع وحجم العلاقة بين ايران والدول الغربية فان العلاقات مع الهند ستتأثر بالصراع مع الاوزبك.

فالحكم البابري في الهند هو الآخر كان يعاني من الدولة الاوزبكية الفتية ذات الاطماع التوسعية.

كان الاوزبك في الواقع يقاتلون على جبهتين: خراسان مع الدولة الصفوية وفي مناطق ماوراء النهر مع الحكومة المغولية المسلمة بزعامة بابر شاه في الهند.

وعندما هزم الاوزبك امام القزلباش كانت الظروف قد اصبحت مواتية جداً لعقد تحالف بين الحكم البابري والدولة الصفوية وطلب بابرشاه مساعدات عسكرية لدعم قواته التي تقاتل في ماوراء النهر.

وسيطرت قوات بابرشاه بمعونة فرق من القزلباش على كابل ثم على قندهار وسمرقند، وقد وفي بابرشاه بالتزاماته تجاه الصفويين، الذين اشترطوا عليه اعتناق المذهب الشيعي وضرب نقود جديدة تحمل شعار الأئمة الاثني عشر(عليهم السلام).

وقد ذهب امبراطور الهند الىٰ ماهو أبعد من ذلك عندما ارتدى زى القزلباش والقى خطابه في سمرقند افتتحه بتحية الائمة الاثني عشر(عليهم السلام).

وفي الثلاثينات من القرن العاشر الهجري سيطر بابرشاه على مدينتي دلهي واكرا وتحسنت العلاقات بين الدولتين المتحالفتين أكثر فأكثر، وكانت الحملات الاوزبكية على الجانبين تزيد العلاقات قوة واستحكاماً.

وفي عام ٩٣٨ هـ توفي بابرشاه ليخلفه على العرش همايون، ووقع حادث من الصعوبة

تفسيره عندما قام سام ميرزا حاكم هرات ونجل شاه طهماسب بالهجوم على قندهار دون اذن من والده وقد فشل الهجوم وعاد سام ميرزا مدحوراً الىٰ هرات.

واثر ذلك قاد شاه طهماسب قواته القزلباش لاحتلال قندهار التي سقطت بيده ولكن مالبثت أن استعيدت مرة اخرى.

وتداخلت عوامل عديدة عرقية، طائفية لتجعل من قندهار مسألة مقلقة للدولة الصفوية، بل ستكون نهاية الدولة الصفوية على أيدي أهلها من الافغان.

وقد أبدى همايون نوعاً من المرونة فيما يخص مشكلة قندهار ومردّ ذلك يعود الىٰ المساعدات العسكرية الهامة التي قدمتها الدولة الصفوية والدور الحاسم الذي لعبته الأخيرة في اعادته الىٰ العرش بعد هزيمته امام سرشاه الافغاني.

وبناء على نصيحة أحد أصدقاء همايون وكان شيعياً باللجوء وطلب العون من الدولة الشيعية فقد عزم زعيم الهند على السفر الىٰ ايران.

في عام ٩٥٠ وصل همايون مدينة مشهد لزيارة مرقد الإمام الرضا(عليه السلام) قبل التوجه الىٰ العاصمة قزوين.وقد أمر شاه طهماسب بترتيب استقبال كبير لامبراطور الهند لما لذلك من بعد اعلامي هام.

وقد اشترط شاه طهماسب على همايون اعتناق المذهب الشيعى مقابل تقديم العون العسكري وهو ما يذكر بما حصل لبابرشاه والد همايون وقد اضطر الأخير اضطراراً من اجل استرداد ما انتزع منه.

وتحرك اربعة عشر ألف من جنود القزلباش مع همايون صوب قندهار التي سقطت بعد مقاومة. وضمن اتفاق سابق سلمت خزائن المدينة للدولة الصفوية مقابل ذلك، كما سقطت مدينة كابل أيضاً، ويبدو أن هناك اتفاقاً حول الاحتفاظ بمدينة قندهار مدة حياة همايون.

واستمرت العلاقات بين الدولتين تتطور نحو الاحسن حتىٰ بعد وفاة همايون (٩٦٣) هـ وتربع نجله جلال الدين محمد اكبر شاه الذي يعد مثالاً في التسامح الطائفي والمذهبي.

العلاقات مع جورجيا

جورجيا واحدة من المناطق النصرانية المسيحية المتاخمة للحدود مع العالم الاسلامي وكانت فيما مضى وحتىٰ القرون المتأخرة تمثل مسرحاً للعمليات الجهادية. وفي طليعة أهداف الصفويين قبل تأسيس الدولة وهكذا الأمر مع الدولة العثمانية وقد قامت الأخيرة باحتلالها فيما بعد.

تمثل جورجيا للصفويين هدفاً استراتيجياً سواء من الناحية الدينية لنشر الاسلام وعلى المذهب الشيعى وهدفاً اقتصادياً وسياسياً أيضاً.

ولنا أن نتذكر اسماعيل بسنّه الذي يبلغ الثلاثة عشر وحوله قادة القزلباش يخططون بتهيئة اكبر عدد من الجنود تحت غطاء جهاد الكفار في جورجيا، ولقد كان ذلك السبب الرئيسي الذي ادى الىٰ ظهور الدولة الصفوية وبعد اكثر من أربعة عقود من الزمن فكر الصفويون بغزو جورجيا.

لم يكن بمقدور الدولة الصفوية الهجوم على الدولة العثمانية ويبدو انـها قد شطبت على شرق الاناضول تماماً كما انها بحاجة لاستعراض قواتها حتىٰ لاتصبح هدفاً للطامعين، ان جورجيا لاتمثل الهدف السهل ولا المسوغ الشرعي في غزوها لنشر الاسلام فحسب بل يمكنها أن تفرض هيبتها من خلال على الامارات المتاخمة لحدودها الشمالية.

ويمكن أن نضيف الىٰ ذلك هدفاً آخر هو الاستيلاء على اكبر قدر من الغنائم وفي طليعتها فتيات جورجيا الفاتنات.

في عام ٩٤٧ هـ بدأت أوّل حملة على جورجيا وأعقبتها حملة اخرى عام ٩٥٣ هـ والتي حققت الهدف الاخير.

وفي عام ٩٦١ عندما بدأ حوار السلام مع الدولة العثمانية قاد شاه طهماسب حشوده العسكرية المعدة لمقاومة الهجوم العثماني قادها نحو جورجيا ليعود الىٰ عاصمته ومعه أكثر من ثلاثين ألف اسير.

وقد تلا ذلك حملات أخرى وكان الاسرى يتدفقون بشكل مستمر نحو ايران.

وسوف يظهر جيل جديد من الجورجيين يؤثر في الحياة الاجتماعية والثقافية.

المؤسسة الادارية

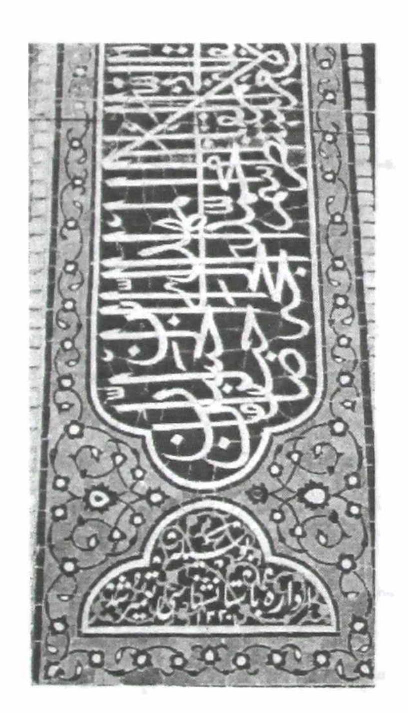
من الصعوبة بمكان تحديد حجم ونفوذ المؤسسات الثلاث: العسكرية والادراية والدينية؛ حيث تنضوي المؤسسة القضائية ضمن الاخيرة ويمكن القول ان هناك حالة من التوازن بين القوى مردّه حاجة كل منها الىٰ الاخرى وانقياد الجميع بشكل وآخر لشخص الشاه الذي يعد رمزاً دينياً ووطنياً خاصة في المراحل ال الاولىٰ من تأسيس الدولة ونموها.

ومن الضروري الحديث ولو بشكل سريع عن المؤسسة الادارية حيث كنا قد اشرنا الىٰ منصب «وكيل شاه» والصراع الذي حدث حوله في السنوات (٩٣٠ - ٩٣٢) وهو مركز مرموق خاصة في حالة كون الشاه مايزال قاصراً.

ولكن هذا المنصب يخفت بريقه مع بلوغ الشاه سن الرشد وتمكنه من ادارة شؤون البلاد؛ ويلي هذا المنصب منصب آخر هو الوزير والمشرف على الديوان الاعلى[١].

واضافة الىٰ وجود وزراء في العاصمة فان المدن الاخرى والاقاليم لها وزراؤها لادارة شؤونها.

اما في المؤسسة العسكرية فان منصب أمير الأمراء هو أرفع منصب عسكري.



وتوجد في المدن تشكيلات إدارية تتألف من محافظي المدن والخلفاء وهم المرشدون الدينيون وقادة التشكيلات العسكرية ورؤساء القبائل، اضافة الىٰ «المستوفي» مدير المالية وضباط ومأموري الضرائب وحرس القلاع التي تعد مراكز حياتية جداً لما تحويه من ذخائر حربية ووقود ومخازن الغذاء وأموال الدولة وكذلك معتقلات خاصة بالشخصيات المهمة من الاجانب كل ذلك توجد مراكز الشرطة وحرس الطرق.

المؤسسة الدينية

يمثل «خانقاه» الشيخ صفي الدين المحور الاساس الذي تنهض عليه الحركة الصفوية وهي تدخل مسرح الاحداث بتلك الطاقة السياسية الكبرى، ولذا فهو يعد النواة الاولىٰ

---

[١] النظام القضائي: ص ٧٥.

للمؤسسة الدينية التي تطورت بسرعة مع تأسيس الدولة.

لقد كان منصب «خليفة الخلفاء» هو أرفع منصب بعد المرشد الكامل الذي يمثله شخص الشاه الصفوي فمسؤولية ايفاد المبلغين الصفويين (الخلفاء) يتحملها خليفة الخلفاء الذي يشبه منصب قاضي القضاة، والمبلغ الديني (الخليفة) هو في الحقيقة ممثل عن المرشد الكامل أو المرشد الاصلي.

ونظراً لقيام الدولة وحاجتها الماسة للفقه (النظام الحقوقي) فقد بدأ شيء من الاتصال بالعلماء والفقهاء والاستفادة منهم في ادارة الشؤون الدينية وما يتصل بالحقوق الشرعية والتشكيلات القضائية.

ويعد منصب «الصدارة» أرفع منصب ديني من الناحية الادارية ونحن نتذكر ماحدث في معركة تشالديران ٩٢٠ هـ وكيف اعتبر مصرع سيد شريف شيرازي (الصدر) خسارة كبرى تركت آثارها في نفس الشاه اسماعيل الأوّل مؤسس الدولة الصفوية.

وسوف تستمر المؤسسة الدينية بالتطور التدريجي حتىٰ أواخر حكم شاه اسماعيل وهو تاريخ وصول الشيخ الكركي الىٰ ايران بدعوة من شاه اسماعيل.

ان وصول الكركي ولقاءه شاه طهماسب وتسنمه منصب شيخ الاسلام الذي سيكون أعلى منصب ديني في الدولة هو بداية المرحلة الثانية في التطور الكبير للمؤسسة الدينية؛ ومن أجل فهم الظروف التي ساعدت على حدوث هذا التطور من الضروري ان نلم وبشيء من الايجاز بالنظرية الشيعية حول اشكاليات السلطة السياسية والحكم.

وفقاً للنظرية الامامية الشيعية ان التعيين الالهي هو المصدر الوحيد في شرعية الحكم والسلطة السياسية، وان آية حاكمية تفتقدهذا الاساس هي حاكمية غير شرعية وسلطة مغتصبة، وهذا يعني أن أية ولاية لاتستند الىٰ ولاية الله عزوجل هي الطاغوت.

ولدى الشيعة أيضاً ان مسألة التعيين الالهي انتهت مع نهاية الغيبة الصغرى ونهاية فترة النواب الاربعة سنة ٣٢٩ هـ ومن هنا فان الشيعة يعطون حق الحاكمية الىٰ الامام المهدى الغائب ويعتبرون الحكام بشكل عام مغتصبين ما لم يقدموا تبريراً مشروعاً ومنطقياً لشكل من اشكال الارتباط بالسلطة الشرعية.

وبسبب ظروف الغيبة وتحول الشيعة الىٰ أقلية محاصرة ومضطهدة برز دور العلماء

والفقهاء الاماميين كمرجعيات دينية وفي بعض الفترات قضائية ايضاً لتنظيم العلاقات بين افرادهاوالعلاقات مع المحيط السني المتلاطم.

وتستند مرجعية الفقهاء والعلماء وزعامتهم الىٰ ركنين: الأوّل احاطتهم العلمية بشؤون الشريعة والفقه ولذا يتحتم على الناس البسطاء مراجعتهم كأصحاب اختصاص، والركن الثاني والاهم هي التوصية التي تنسب الىٰ الامام المهدي في الرجوع الىٰ افراد يمتازون بمقومات علمية واخلاقية[١].

ان الافراد الذين تتحقق فيهم هذه المقومات يكتسبون وكالة من الامام المهدي على نحو ما.

كما أن الفهم السائد لماهية الامامة لدى الشيعة لها أبعاد فكرية وروحية قبل ان، تكون سياسية، غير ان هذه الابعاد لابد وأن يكون لها افرازات سياسية ما، ادت فيما بعد الىٰ نشوء أرضية مساعدة على ظهور النظرية السياسية التي تقول بحكومة الفقيه مع غض النظر بطبيعة الحال عن أُطر وحدود هذه الحكومة.

ولعل رجوع الشيعة في مشكلات القضاء الىٰ مرجعياتهم كان له الدور الابرز فيٰ نشوء أو تبلور النظرية السياسية الشيعية في فترة الغيبة الكبرى.

لقد كان هناك حالة من الضغط الاخلاقي على الذهن الشيعي البسيط في أن حكومة غيرالمعصوم هي مظهر من مظاهر حكم الطاغوت الذي لايجوز الركون اليه على الاطلاق[٢].

وبالرغم من بقاء الشيعة وعلى مدى قرون طويلة اقلية لكنها اصبحت اقلية لها كيان متماسك وقوي وله ثقله في حركة التاريخ.

ومع انتشار التشيع وثقل مراكزه في بعض الحواضر الاسلامية برزت الحاجة الىٰ وضع حلول لاشكالية العلاقة مع حكام الجور وامكانية تشكيل دولة شيعية.

---

[١] اما في ا لحوادث الواقعة فارجعوابها الى رواة حديثنا... من كان مخالفاً لهواه مطيعاً لامر مولاه فاللعوام أن يقلدوه.

[٢] «اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ» البقرة: ٢٥٧.

ومنذ ثورة سيدنا الحسين(عليه السلام) سنة ٦١ هـ ومأساة عاشوراء برز اتجاهان في الكيان الشيعي؛ اتجاه زيدي وقد انضوى تحته ماعرف بـ «اصحاب السيف» وهو الاتجاه الثوري الذي يدعو الىٰ الحركة المسلحة وتشكيل دولة شيعية وقد اندلعت ثورات عديدة بعد ثورة زيد بن علي«رض» سنة ١٢١ هـ تلتها ثورة ابنه يحيىٰ بن زيد؛ واستطاعت هذه الحركة الثورية أن تؤسس الدولة الزيدية في شمال ايران حيث ظل الاتجاه والمذهب الزيدي في اقليم جيلان الىٰ عهود متأخرة الىٰ ان وهذا مايفسر كثرة قبور الأئمة الزيدية في اقليم جيلان واقليم مازندران.

ولكن القول انه حتىٰ بعد قيام الدولة الصفوية واعلان المذهب الاثني عشري مذهباً رسمياً في البلاد ظل الزيديون على مذهبهم وحصل بسبب ذلك بعض الحوادث.

وبعد الغزو المغولي وجنوح المجتمع الايراني الىٰ التصوف كانت هناك حالة من التعايش السلمي بين المذاهب.

ولم يعد هناك من فرق بين زيد وعمرو حسب تعبير أحدهم ومادام الجميع يتبعون الصوفية[1].

اما الاتجاه الآخر فهو ماعرف بـ «اصحاب الامامة»[2] وهم الشيعة الامامية الاثني عشرية؛ وهذا الاتجاه لم يكن يجوّز الثورات المسلحة ضد سلاطين الجور. وبالرغم من محورية الفقيه والتأكيد على نفوذه ومرجعيته الا ان حالة من العلاقة مع السلطان الجائر يمكن تطبيعها بحسب اقترابه من العدالة وانفصاله عنه واحترامه لحقوق الامة وبخاصة الطائفة الشيعية ولهذا كان هناك حالات من توظيف التقية والتقية المكثفة.

وبالرغم من التشديد على منع كل اشكال التعاون مع حكومات الجور، ما يجعل هذا التعاون وسيلة لتكريس الظلم والجور فان هناك مسوغات للتعاون اذا كان ذلك يؤدي الىٰ التخفيف من حالات الظلم وانصاف المظلومين.

ان قصة استمرار علي بن يقطين وبتجويز من الامام موسى بن جعفر(عليه السلام) في حكومة الرشيد مشهورة جداً بالرغم من ان الامام قد منع صفوان الجمال مثلاً من اكراء

---

[1] رسائل خان احمد الجيلاني: ص ١٣٨ - ١٤١.

[2] اخبار البلدان، ابن الفقيه الهمداني: ص ٣٠٢ - ٣٠٧.

هارون الرشيد جماله ولغرض اداء الحج وبالرغم من الامام نفسه توفي مسموماً في سجون هارون الرشيد سنة ١٨٦ هـ.

وقد استمرالتعاون والعمل في حكومات جائرة حسب النظرية الشيعية. حتىٰ في عصر الغيبة انطلاقاً من الإرث الفقهي وما حصل في عصر الأئمة، ولعل اسرة النوبختي في الغيبة الصغرى مثال بارز على ذلك[1].

كما مهد الفقه الشيعى الىٰ تسويغ استلام الهبات والهدايا والأموال من السلاطين اذا لم يكن في ذلك مفسدة واضحة.

فإذا كان الأمر كذلك مع سلاطين الجور فأن التعاون مع السلطان العادل حيث المصلحة العامة المتحققة جراء ذلك ستكون اكثر مما يجعل منها (مسألة التعاون) تصل حد الوجوب.

وسيتخذ مفهوم السلطان العادل معنىٰ كونه شيعياً بعدأن تم وصم السلطان السني بالجور بشكل عام.

ولكن يبقى السؤال دون جواب محدد من الذي يضع مقياس العدالة، وما هو المعيار أساساً في ذلك؟

ومن الطبيعي ان يكون الفقهاء وفقاً لتسلسل الولاية الذي تبلور فيما بعد المرجعية في ذلك.

ومن هنا برز مفهوم عدالة الفقيه كشرط الىٰ جانب فقاهته في مسألة المرجعية واكتساب المشروعية في سلطته.

وظهرت في القرن الخامس الهجري نظرية جديدة لتبرير التعاون مع الحكومات غير الشيعية انطلاقاً من كون الفقيه هو في ذاته نائب للامام المعصوم حيث يكتسب شرعيته اساساً من الامام الغائب وحينئذ سيكون لتعاونه مع اجهزة الدولة الجائرة وفي اطار تتحقق فيه المصلحة العامة والمشروعية بعدان ظاهر وباطن؛ فالظاهر انه قبل منصباً مسنداً اليه من قبل السلطان الجائر اما في الباطن فانه قد اسند اليه من قبل الامام المعصوم: «من تأمر على الناس من أهل الحق بتمكين ظالم له، وكان أميراً من قبله من ظاهر الحلال، فانما هو امير في

---

[1] راجع وسائل الشيعة الحر العاملي: ج١٧، ص١٨٩ - ١٩٣، وانظر النهاية للشيخ الطوسي: ص ٣٥٠ - ٣٦٠.

الحقيقة من قبل صاحب الأمر الذي سوغه في ذلك واذن له فيه، دون التغلب من اهل الضلال ذلك «انـها في المعنىٰ من قبل الامام وصاحب الامر وإن كانت على الظاهر الذي لانقر به كأنها من قبل غيره»[١]، وسيكون للعقل دور كبير في اضفاء الشرعية على هذا النوع من التعاون إذ لو كان في هذا العمل قبح لما قام النبي يوسف(عليه السلام) بتقديم اقتراحه من اسناد منصب اليه: قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم[٢].

وتصل نظرية التعاون مع اجهزة الحكم الىٰ حد الوجوب في حالة اقتراح الدولة على فقيه يجد في نفسه الاهلية في أداء وظيفته «فهو نائب عن ولي الأمر (عليه السلام)ومأهول له لثبوت الاذن منه واحبائهم (عليه السلام) لمن كان بصفته في ذلك ولا يحل له القعود عنه»[٣].

هذه الافكار التي ظهرت في العصر البويهي واسست حالة من التعاون بين العلماء والاجهزة الرسمية هي التي مهدت للتعاون الفريد فيما بعد بين المؤسسة الدينية والحكم الصفوي.

وقد حصل هذا بالرغم من قيام الدولة الصفوية على اساس فكر صوفي حيث المرشد الكامل هو أعلى مقام فيها ثم اندمج مع منصب الملك أو الشاه ثم يليه الخلفاء وهم المبلغون الذين يمثلون المرشد والشاه فيما بعد.

وهذا ما يفسر الطاعة العمياء للقزلباش لشخص اسماعيل قبل تأسيس الدولة وبعده.

وقد اشرنا الىٰ مرحلتين في تعاون المؤسسة الدينية مع الدولة الصفوية وما ذكرناه يمثل المرحلة الاولىٰ، فيما المرحلة الثانية بدأت بشكل واضح مع وصول الكركي ايران قادماً من العراق وقبوله منصب شيخ الاسلام في العاصمة الصفوية الثانية «قزوين»، ويعود تاريخ هذا التحول الىٰ البدايات الاولىٰ من حكم الشاه طهماسب وهو الثلاثينات من القرن العاشر الهجري.

ومن خلال هذه الخلفية التي تعود بجذورها الىٰ القرن الخامس الهجري والتجربة التاريخية التي حصلت مع حكم آل بويه وخلال كل ذلك سنجد ابتهاجاً لدى العلماء بقيام

---

(١) المفيد، المقنعة: ص ٨١٢.

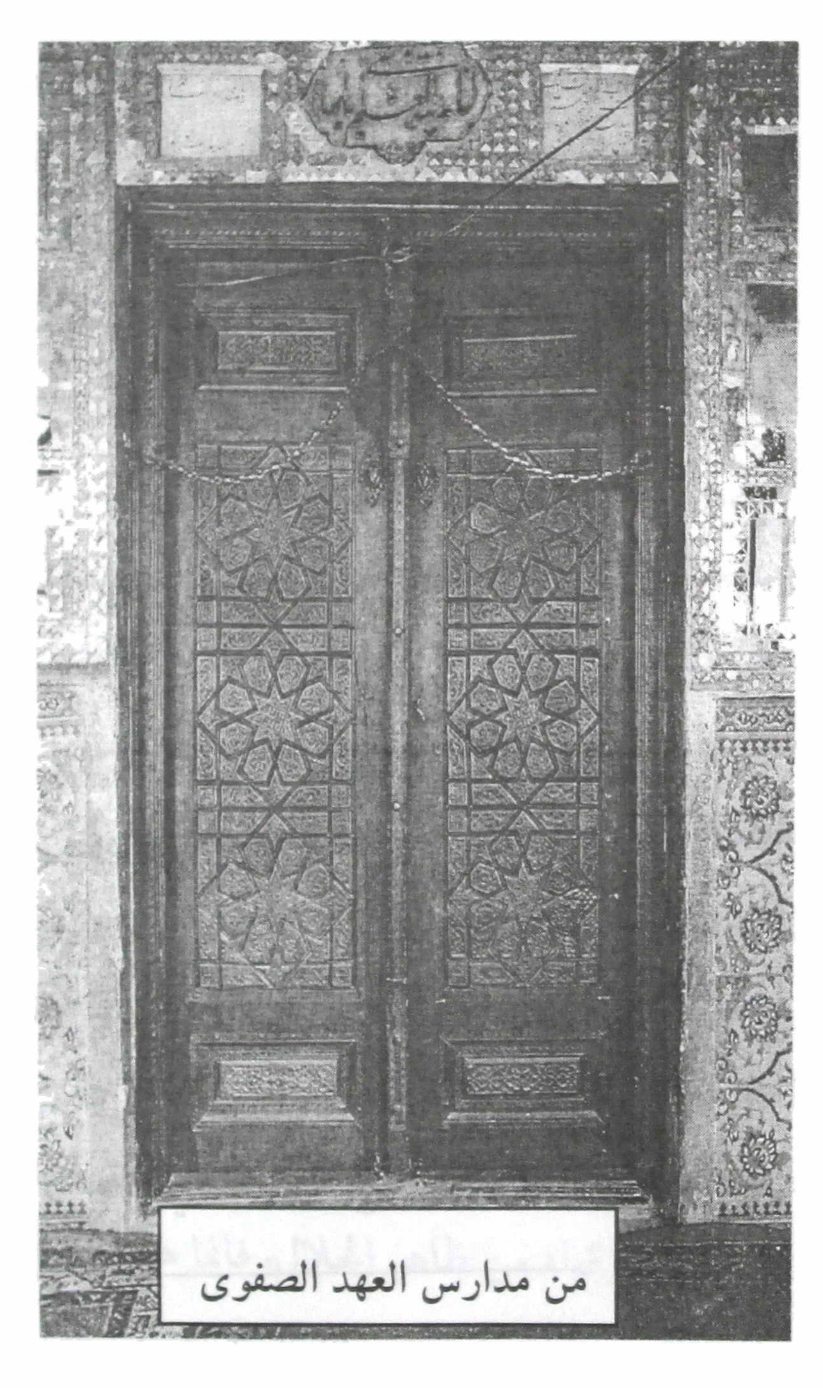
(٢) يوسف: ٥٥

(٣) ابو الصلاح الحلبي، الكافي في الفقه: ص ٤٢٠ - ٤٢٥.

الدولة الصفوية وسنجد أن التعاون مع اجهزة الدولة سيبلغ الذروة سواء من خلال التفسير الذي اشرنا اليه بقبول المنصب باعتباره من الامام وان جاء في الظاهر من الحاكم أو اعتبار السلطان نائباً عن الفقيه.

ذلك انه وفي كل الاحوال يمكن القول ان عصور التقية والتقية المكثفة قد انتهت واصبح للشيعة كيان سياسي ودولة.

وقد ساعد العداء والعدوان المستمر من الاوزبك ومن العثمانيين وسعيهم الحثيث في الاطاحة بالدولة الشيعية على دفع العلماء الىٰ الدفاع عن الدولة الصفوية التي لم تدخر جهداً في الدفاع عن المذهب الشيعي ونشره.


من مدارس العهد الصفوى

وفي رأيي ان تديّن شاه طهماسب والتزامه حدود الشريعة وتشدده في مسألة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ووقوف الكركي الىٰ جانبه ساعد على تثبيت الدولة الصفوية كثيراً.

واذا كان العلماء قد وجدوا في الدولة الصفوية حامياً لهم وللشيعة من الاضطهاد الذي يتعرضون له في الديار العثمانية وما وراء النهر، فان الدولة نفسها اكتسبت نوعاً من الشرعية.

غير اننا سنجد ان حماس العلماء والفقهاء سيتراجع بسبب ممارسات غير مشروعة شهدها البلاط الصفوي فيما بعد، ولكن التعاون ظل مستمراً في أُطر محدودة وشهد بعض الازمات.

الهجرة العاملية الى ايران

تبقى الهجرة واحدة من اعرق الظواهر الاجتماعية في تاريخ الانسان ويكفي ان نقول ان التاريخ الاسلامي تاريخ هجري، فعندما غادر النبي(صلى الله عليه وآله) مكة بعد سنوات الاضطهاد والحصار والمعاناة ووصل الىٰ مدينة يثرب بدأ تاريخ جديد ليس للجزيرة العربية وحدها بل والعالم بأسره.

ان الهجرة العاملية حدث كبير أثّر في مسار الدولة الصفوية أعمق الأثر بل واثر في المسار الفقهي للمذهب الشيعى وكان ذلك خطوة هامة جداً في المسارين معاً.

كانت ايران في بدء الدولة الصفوية أرضية جاهزة ومناخ مساعد للتفاعل مع الافكار التي حملها المهاجرون.

وبالرغم من اعلان المذهب الشيعى الاثني عشري مذهباً رسمياً في البلاد الاّ ان الفراغ الفقهي والحقوقي الهائل لم يكن من السهل ابداً ملئه لولا وفود المهاجرين والكفاءات العلمية التي جاءت من العراق ولبنان. انّ «عاملية» الهجرة لاتعود الىٰ ان المهاجرين جاءوا حصراً من جبل عامل في لبنان؛ ففي المهاجرين عراقيون هم اعلام خفاقة في الفكر الامامي غير ان القادمين الىٰ ايران كانوا قد مروا من جبل عامل ونقلوا معهم التراث الفقهي الامامي الذي تبلور في تلك الفترة، فالشهيد الأوّل محمد بن مكي والشهيد الثانى زيد الدين الجبعي العاملي والأوّل كان على علاقة مع ايران عندماظهر الىٰ الوجود كيان شيعي في سبزوار إبّان الحكم الايلخاني فيما يعرف في التاريخ بدولة السربداران، وقد كان آخر زعمائها طلب من الشهيد القدوم الىٰ ايران، ولكن الاخير اعتذر وارسل الىٰ الدولة كتابه الفقهي الشهير اللمعة الدمشقية والتي شرحها الشهيد الثاني وماتزال حتىٰ اليوم في طليعة مواد المنهج الدراسي في الحوزات الشيعية في ايران وخارجها.

علي بن عبدالعالي الكركي

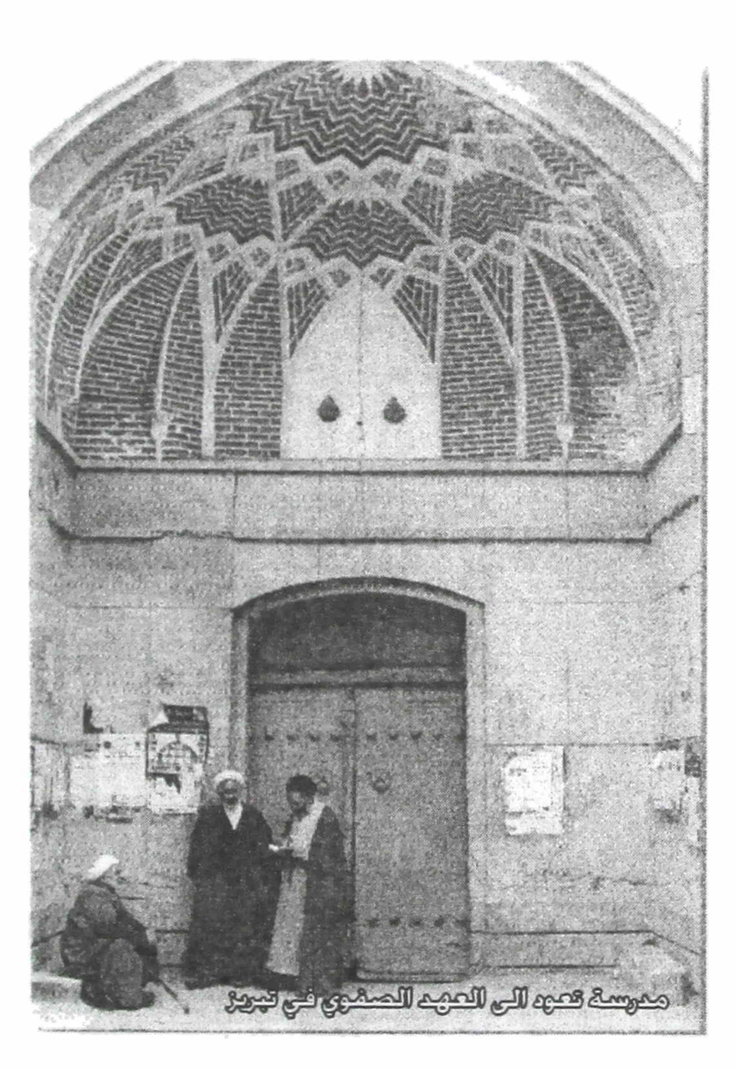
ينسب الشيخ المحقق الكركي الىٰ بلدة لبنانية من كرك نوح من ضواحي «زحلة».

لايعرف تحديد تاريخ ميلاده وان كان بعض الدارسين يرجح أن تكون في سنة ٨٧٠ هـ أما وفاته فهي على وجه التحديد في عام ٩٤٠.

ولابد لمن يقرأ سيرته ان تتداعى في ذهنه سيرة الشهيد الأوّل محمد بن مكي من خلال البيئة التي نشأ فيها والحوادث المثيرة الىٰ عصفت في عصرهما. تنقل في مدن الشام ومصر قبل ان يتوجه الىٰ العراق حيث المراكز الشيعية هناك تراقب عن كثب قيام الحكم الصفوي الجديد.

عرف الكركي بشخصيته القوية، وفيما كان شاه اسماعيل يقود جنوده من نصر الىٰ آخر وهو في نظر القزلباش المرشد الكامل والملك الذي لايسأل عمايفعل انتقد الكركي شاه إسماعيل مؤسس الدولة على المجزرة الطائفية التي ارتكبها في مدينة هرات في سنة ٩١٦هـ.

كان الكركي يرى في الحوار بديلاً عن السيف وقد كان واثقاً تمام الثقة من قوة حجته وأدلته وكان يتصور ان بامكانه نشر المذهب الامامي في مناطق ماوراء النهر بقوة الدليل العلمي.


مدرسة تعود الى العهد الصفوي في تبريز

وان اراقة الدماء على هذا النحو المؤسف سوف يقضي على امكانية الحوار[١]، ولعل هذا الموقف الناقد قد حدّ من التطرف المذهبي الذي كان يموج في نفس شاه اسماعيل الأوّل.

اتخذ الكركي من مدينة كاشان وهي احدى المراكز الشيعية مقراً له وراح يرسي دعائم المؤسسة الدينية الجديدة، ويبدو ان هناك صورة ما لإتفاق غير معلن بين شاه اسماعيل والشيخ الكركي، فالدولة الصفوية في أمس الحاجة لدعم من علماء الشيعة والاخيرون كانوا في حاجة لمن يوفر هم أجواء آمنة بعيدة عن الاضطهاد وممارسة

[١] مستدرك الوسائل: ٣ / ٤٣٢.

اسلوب التقية.

ويمكن القول ان جوهر ذلك الاتفاق هو الشرعية مقابل النفوذ، وقد راح الكركي وبحرية تامة يدير ويرشّد النشاط الديني في كل البلاد الصفوية وكان متحمساً لنشر المذهب الامامي بطريقته الخاصة.

وقام الكركي ضمن نشاطه لأسلمه الحياة الايرانية بتدريس رجالات الدولة وفي طليعتهم الوزير.

وبلغت ميزانيته سبعين الف دينار سنوياً حيث الدينار يساوي مثقالاً من الذهب.

وكان يتمتع باستقلال تام في موارده المالية وحاول من خلال دورات فقهية مكثفة ملء الفراغ الفقهي والحقوقي الذي تعاني منه مؤسسات الدولة، ويبدو، ان نشاطه الواسع وبروزه كشخصية كبرى في ايران قد اثار مخاوف الكثيرين وفي طليعتهم شاه اسماعيل نفسه. أن رجلاً بوزن الكركي وقوة شخصيته سيكون منافساً في النفوذ يحسب له الف حساب.

ولاشك ان افكاره التي حملها من ميراث فقهي ولد في لبنان فيما يخص سلطة الفقهاء هي وراء تلك المخاوف وما افرزته من ضغوط وتحديات استجاب الكركي لها بطريقة ايجابية عندما غادر ايران عائداً الىٰ العراق وبالتحديد الىٰ مدينة النجف الاشرف.

هذه الخطوة امتصت كل الاحتقان الذي نتج عن وجوده ونشاطه الواسع وتأتي خطوته هذه نوعاً من الانسحاب التكتيكي لسلطة الفقيه امام سلطة الشاه التي تنطوي هي الاخرى على بعد ديني صوفي خاصة فيما يتعلق بشخص شاه اسماعيل الذي احاطته هالة من نسب شريف وزعامة الاسرة الصفوية التي وصلت ذروة مجدها بتأسيس الدولة.

وبعد وفاة شاه اسماعيل الأوّل حدثت بطبيعة الحال تغيرات قوية فقد ترك الرجل فراغاً ادى الىٰ انفجار الوضع داخل المنظومة القزلباشية ذات النفوذ القوي.

ذلك ان منصب «وكيل الشاه» في وجود شاه قاصر يعني نفوذاً كبيراً وواسعاً.

وقد نشأ وريث العرش نشأة تختلف عن مؤسس الدولة فقد كان شاه طهماسب مثقفاً ومتعلماً، بل وفناناً ومتديناً جداً.

وقد ادرك مبكراً حاجة دولة فتية مثل الدولة الصفوية الىٰ شخصية علمية كبرى في مستوى الكركي يمكن أن يوحّد البلاد من اقصاها الىٰ اقصاها في وجه الاطماع التوسعية

الاوزبكية والعثمانية على حد سواء.

هذه الرؤية مهدت الطريق لعودة الكركي الذي صعب عليه فيما يبدو أن يترك ما بناه معرضاً للانهيار.

كانت عودة الكركي عودة مظفرة قوية جداً فقد استصدر من شاه طهماسب بياناً يجعله اكبر مسؤول في الدولة بعد الشاه، وهذا النص الكامل لـ «فرمان» الملك الصفوي:

بسم الله الرحمن الرحيم

«استناداً الىٰ الحديث الصحيح الصادر عن الامام الصادق(عليه السلام) انظروا الىٰ من كان منكم قد روى حديثنا أو نظر في حلالنا وحرامنا وعرف احكامنا فارضوابه حكماً فاني قد جعلته حاكماً، فاذا حكم بحكم فمن لم يقبله منه فانما بحكم الله استخف وعلينا ردّ.. وهو راد على الله وهو على الشرك».

وواضح ان مخالفة حكم المجتهدين، ووارث علوم سيد المرسلين ونائب الائمة المعصومين(عليهم السلام)، لايزال كاسمه العلي علياً عالياً، ولايتابعه، فانه لامحالة مردود وعن مهبط الملائكة مطرود، وسيؤاخذ بالتأديبات والتدبيرات العظيمة.

كتبه طهماسب بن شاه اسماعيل الصفوي الموسوي[١].

وتكشف السطور الاخيرة من هذا النص الشأن والمنزلة التي يتبوأها الفقيه.

ويبدو من ظاهر النص على الاقل تجاوزاً لاشكالية الحكم في غياب المعصوم فهناك نوعاً من المشروعيه استناداً الىٰ نص مروي عن الامام الصادق يمنح الفقيه ولاية شرعية على الأمة وسيكون له من الصلاحيات ما يجعله متنفذاً في شؤون الدولة والحاكم الفعلي فيها[٢]، بحيث سنجده يقوم بعزل الأمير منصور الدشتكي عن منصب الصدارة وهو ارفع منصب في الدولة الصفوية بعد الشاه وقد نصّب مكانه تلميذه معز الدين محمد الاصفهاني ليعزله وينصب مكانه اسد الله الشوشتري[٣].

وقد اثار هذا النفوذ حفيظة بعض كبار القادة القزلباش ولكن كيف يتأتى لهم مواجهة

---

(١) روضات الجنات: ٣٩١.

(٢) أحسن التواريخ: ١٨٥ - ١٩٢.

(٣) المصدر السابق: ٣١٢ - ٣١٥.

الكركي الذي يتحدث ويتصرف باعتباره نائباً للامام المعصوم.

ويشاء القدر أن تظهر شخصية علمية تنتمي الىٰ بيئة اخبارية تنكر الاجتهاد ولاترى في الفقيه سوى انه راوية للحديث والفتوى عن المعصوم؟!

ظهر القطيفي الشيخ ابراهيم منتقداً الكركي على لقائه الشاه الصفوي وعدَّ ذلك منقصة؛ وبالرغم من أن القطيفي كان أحد تلامذة الكركي لكنه اندفع في غمرة تلك الحوادث في اثارة المشكلات بوجه الشيخ المحقق، لقد كان يسعى الىٰ دحض آراء الاخير، ولكن شاه طهماسب كان متحمساً للشيخ ومبهوراً بشخصيته العلمية بحيث اصدر فرماناً ملكياً أقوى من سابقه يعزز من نفوذ الكركي في الدولة.

وبدأ التآمر للاطاحة بالشيخ يتخذ صوراً أكثر خطورة وجرت محاولة لاغتيال الكركي ولقي قائد العملية مصرعه، وبدأت المخاوف تساور شاه طهماسب من انقلاب المؤسسة العسكرية ضده بعد أن وصلته تقارير تحذر من انفجار الوضع.

وفي النهاية وجد شاه طهماسب نفسه مضطراً لابعاد الكركي الىٰ العراق بطريقة مهذبة فقد صدر اذن رسمي او رخصة تسمح للشيخ الكركي بالسفر الىٰ العراق والاقامة هناك، ويبدو أن شاه طهماسب كان يعمل على تمهيد الامور لعودة الشيخ الكركي الىٰ ايران مرّة اخرى.

كانت هناك حاجة متقابلة وقائمة بين الدولة الصفوية والمؤسسة الدينية، فالدولة الصفوية تعتبر نفسها حامية المذهب الشيعي وأنها تعمل على نشره والتمهيد لظهور الامام المهدي، وبما ان الكركي هو نائب الامام بحسب البيان الرسمي للدولة فان الوضع الطبيعي يقتضي وجوده في ايران.

ومن تلك اللحظة لم يصدر عزل لشيخ الاسلام وانما سمح له بالسفر الىٰ العراق.

وقد قام شاه طهماسب وفي خطوة لاعادة الشيخ فيما يبدو بابعاد القطيفي من ايران.

وفيما كانت الامور تتجه لصالح الشيخ اذا به يموت في ظروف تدعو الىٰ التأمل، لقد أغمض الشيخ عينيه في الثامن عشر من ذي الحجة ٩٤٠ هـ، والمثير ان الشيخ حسين بن عبدالصمد والد الشيخ البهائي كان يصر على تسمية الكركي بالشهيد الثاني وكذا محمد بن علي الجزيني وهو تلميذ الشهيد الثاني كان يعد الكركي من جملة الشهداء.

وقد توالت هجرة علماء جبل عامل واستمرت بعد وفاة الشيخ الكركي، فقد عاد الىٰ ايران بعد وفاة استاذه (الكركي) في النجف ليستأنف نشاطه الديني، وعلي ابن هلال الكركي المعروف بالشيخ علي المنشار الىٰ أن ظهرت على مسرح الاحداث شخصية عاملية جديدة هي حسين بن عبدالصمد والد الشيخ البهائي والمتوفي سنة ٩٨٤ هـ.

واستمر مسلسل الهجرة العاملية ليبلغ مئة عالم من البقاع وجبل عامل ومايزال لقب العاملي من الالقاب المعروفة في ايران اضافة الىٰ لقب يشير الىٰ اصل لبناني وهو «جزيني» نسبة الىٰ بلدة جزين.

ان الكركي بثقله العلمي ولاشك كان له دور كبير في ارساء الحكم الصفوي، لقد كان في طليعة المجتهدين ألف كتابه الكبير جامع المقاصد للدولة الصفوية وأثنىٰ في مقدمته عليها واصفاً اياها بـ «الدولة العالية السامية القاهرة الباهرة الشريفة المنيفة العلية العلوية الشاهية الصفوية الموسوية، أيدها الله تعالىٰ بالنصر والتأييد، وقرن أيامها بالخلود والتأييد، ولازالت جباه الملوك والسلاطين معفرة على اعتابها ورؤوس العتاة والمتمردين من الجبابرة ملقاة على أبوابها ولازال الدهر ساعداً على مايطلب في أيامها الزاهرة من اقامة عمود الدين، والقدر موافقاً لما يرام في ازمنتها الباهرة من اعلاء معالم اليقين بمحمد وآله الاطهار المعصومين.

أحببت ان أجعله (الكتاب) تحفة أؤدي بها بعض حقوقها عندي ووسيلة لاستحصال الدعاء لها على مرور الاعصر، وذلك غاية جهدي»[١] وفي مقابل هذا الحماس الملتهب للدولة كان شاه طهماسب وفي «فرمانيه» يعتبر الشيخ الكركي الحاكم الفعلي لايران لانه نائب الامام وان اصل الملك انما هو له[٢].

فالمحقق الكركي يعتبر باعث النهضة الشيعية في ايران ومجدد المذهب وواضع الأسس الشرعية الدستورية لدولة الصفويين[٣].

وكتاب جامع المقاصد هو المادة الدستورية التي اعتمدتها الدولة الصفوية والمصدر

---

(١) جامع المقاصد، المقدمة: ص ٦٦ - ٦٧، ط آل البيت لاحياء التراث.

(٢) البحراني، لؤلؤة البحرين: ص ١٥٢.

(٣) جامع المقاصد، مقدمة التحقيق.

القانوني لها والكتاب في حقيقته شرح الشيخ الكركي لكتاب قواعد الاحكام للعلامة الحلي (٧٢٦ هـ).

ويُعدّ الكركي أول من أسس لصلاة الجمعة على نطاق واسع في ايران الشيعية ممهداً الطريق لخلفه الذي جاء بعد ربع قرن تقريباً (الشيخ حسين بن عبدالصمد) ليفتي بوجوب اقامة صلاة الجمعة في عصر الغيبة.

كما ويعد الشيخ الكركي أوّل من تحدث وبهذه السعة عن نظرية نيابة العلماء للائمة(عليهم السلام)ودافع عن صلاحياتهم الواسعة ونفوذهم السياسي والقيادي.

واجه الكركي وبشدة ما يمكن أن نطلق عليه بـ «المنبر الخرافي» حيث يقوم حكواتيون بسرد قصص خيالية عن أئمة أهل البيت وقد راجت في تلك الفترة قصص خرافية كان الامام علي(عليه السلام) محورها والحمزة ومحمد بن الحنفية وحتىٰ أبو مسلم الخراساني.

وقد افتىٰ الكركي بحرمة هذا الاسلوب الذي كان مسلياً لشعب لايمتلك جهاز اعلامي يشبع ظمأه الأدبي والتاريخي؛ وبالطبع لم يتوقف الاسلوب الحكواتي بالرغم من تراجعه الىٰ حدٍّ ما، ويشعر المرء بالدهشة عندما يجد الشيخ الكركي يواجه اتجاهاً قوياً مثل الاتجاه الصوفي حيث المؤسسة الصوفية وحركتها هي وراء قيام الدولة الصفوية، فكيف تسنىٰ له ان يقف بوجه التصوف؟!

ومعروف عن الكركي انه لا يجامل في هكذا قضايا؛ لقد وقف بشجاعة بوجه شاه اسماعيل وانتقده على خطوته بقتل شيخ الاسلام السني في مدينة هرات في وقت كان شاه اسماعيل يمثل رمزاً دينياً مقدساً وفاتحاًكبيراً ومؤسساً لدولة قوية.

وها هو الآن يعلن أن التصوف خطر على الفقه الشيعي، وبالرغم من نفوذ المتصوفة في تلك الحقبة، الاّ ان الشيخ نهض لإصلاح المؤسسة الدينية بشن الحرب ضد التصوف بحيث سنشهد تراجعاً للصوفية أمام تقدم الاصلاح الديني.

ولعل هذا الموقف ضد التصوف ألب عليه أعداءً انضموا الىٰ الجبهة التي كانت تتآمر عليه من أجل تصفيته أو ابعاده، وقد حصل لها ذلك.

شخصية طهماسب واثرها في مشروعية الحكم الصفوي

يعتبر شاه طهماسب مثالاً للملك المتدين وللمرء أن يتصور شاباً في العشرين من عمره يعلن توبته في مراسم دينية في مشهد الامام علي بن موسى الرضا(عليه السلام)ثم يبدأ عهده الجديد بخطوة لاتقل اثارة عما قام به والده مؤسس الدولة باعلان المذهب الشيعى المذهب الرسمي في بلاد ينتمي سكانها الى المذهب السني.

لقد قام طهماسب باعلانه المثير بتنصيب الشيخ العربي المهاجر والذي لايجيد التحدث لا بالفارسية ولا بالتركية شيخاً للاسلام والحاكم الحقيقي للدولة الصفوية باعتباره نائباً للامام المهدي، حيث رسالة الدولة الصفوية العمل على تمهيد الظروف لظهوره(عليه السلام).

وهذا الاعلان المثير جاء بعد اعلان توبته والتزامه حدود الشريعة في كل ما تنص عليه.

عرفت الاسرة الصفوية قبل تشكيل الدولة بتدينها الشديد وأما جنوحها الى التصوف فلأنه أصبح في تلك الفترة وبخاصة بعد الغزو المغولي والحكم الايلخاني رمزاً للقداسة والزهد والتقوى.

وبعد تشكيل الدولة كانت المؤسسة الدينية لها هيبتها ونفوذها.

ولكن البلاط الصفوي لم يبق في مأمن من بعض التقاليد التي تخالف الشريعة الاسلامية وقد عرف البلاط الصفوي في فترة مبكرة شرب الخمر وبخاصة بعد معركة تشالديران التي كان لها انعكاسات سلبية في شخصية شاه اسماعيل.

وقد ساعدت تصورات خاطئة على تجاوز حدود الشريعة في داخل البلاط وبخاصة شرب الخمر الذي أصبح من أساسيات التقاليد الملكية.

فهناك تصورات شعبية سائدة آنذاك تعتبر شرب الخمر من قبل الملك أمراً طبيعياً وربما تضيف التصورات الشعبية أمراً آخر هو باعتباره من السادات اي من ذرية النبي(صلى الله عليه وآله) التي يمكنها ارتكاب بعض الذنوب، وهذه التصورات الشعبية الخاطئة اشار اليها رحالة أجانب مروا بايران في تلك الفترة[١].

يُعد عام ٩٣٩ هـ نقطة مضيئة في تاريخ الحكم الصفوي كان شاه طهماسب قادماً من

---

[١] رسول جعفريان، صفوية در عرصة دين وسياست، المجلد الأوّل: ص ٣٦٩.

مدينة هرات متجهاً الىٰ مشهد حيث ضريح الامام علي بن موسى الرضا(عليه السلام)، وهناك يرى شاه طهماسب سيدنا محمد(صلى الله عليه وآله) في عالم الرؤيا يأمره باجتناب المعاصي.

وفي جلسة حضرها الوزير والقادة تحدث الشاه عن رؤياه واقترح بعضهم اجتناب بعض المعاصي والاقتصار على «شرب الخمر لانه من ضرورات السلطنة».

ولكن شاه طهماسب حسم الجدل بموقف حازم باعلانه التوبة عن جميع المعاصي وبدأ حملته لمكافحة كل اشكال الانحراف بدءً من البلاط نفسه.

ولايستبعد بعض المؤرخين ان يكون ذلك قد حصل بسبب تأثير الشيخ الكركي[١].

وقد وصل الأمر بشاه طهماسب وانطلاقاً من تشدده في مكافحة شرب الخمر أن أمر بقتل أحد القادة العسكريين بسبب سكره، كما اغلقت الحانات وبيوت الدعارة[٢] وأماكن القمار .

ولم تمر هذه الاجراءات دون ردود فعل فقد هجا أحد الشعراء (حيرتي توني) الشاه وفرّ الىٰ مازندران حيث ظل مختفياً عن الانظار الىٰ أن كتب قصيدة في مديح الامام علي(عليه السلام) فوجدت طريقها الىٰ قلب طهماسب الذي عفا عنه.

ومن خلال دراسة سيرته وسياسته وتجربته في ادارة الدولة والتي ذرفت على نصف قرن من الزمن نجد الرجل جاداً في أسلمة الحياة الاجتماعية والثقافية وفق مبادىء المذهب الامامي.

وقد أخذت مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مساحة واسعة من سياسة الاجهزة الرسمية بدءً من البلاط نفسه[٣].

لقد اصدر الشاه فرامين عديدة تأكيداً على مكافحة كل ما يسيء الىٰ الشريعة، بل تناول ذلك حتىٰ في مراسلاته مع السلطان سليمان القانوني[٤].

وقد اصبحت هذه المسألة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) هاجس الملك التقي الذي

---

[١] المصدر السابق: ٣٧٢.

[٢] كانت تدعى (بيوت اللطف).

[٣] خلاصة التواريخ، القاضي أحمد القمي: ج ١ ص ٥٩٦ - ٦٠١.

[٤] اسناد مكاتبات سياسي ايران: ص ٢٢٤ - ٢٢٦.

ما انفك يعلن ولاءه للشريعة الاسلامية والتزامه بحدود الدين ويحاول جهد ما يمكن دفع المجتمع الايراني للالتزام بها.

وقد وقف شاه طهماسب يدعم المؤسسة الدينية بكل ما أوتي من قوة، ولم يلتفت لاي اعتبار قومي بل كان يقف الىٰ جانب علماء الدين ضد المقربين منه.

كان يؤمن ايماناً راسخاً بان الفقيه الشيعى هو من ينوب عن الامام المهدي بحق وله وحده الحق في الملك والحكم، ولذا فوّض الشاه الكركي في عزل ونصب من يشاء من مسؤولي الدولة.

لقد كانت ثمة تفاهم كامل بين المؤسسة الدينية والشاه ولايمكن تفسير هذا التفاهم على اساس مصلحي.

ولعل الكركي نفسه كان يعتبر الشاه نائباً للفقيه في تطبيق الشريعة في واقع الحياة.

وظل شاه طهماسب وفياً لافكاره اذ سنجده يعيّن تلامذة الشيخ في منصب مشيخة الاسلام.

ولم يكن الشاه حرّ التصرف وفق مايرى ويريد لقد كان يوازن خطواته بحساب دقيق ولم تكن المؤسسة العسكرية وقادة القزلباش يروق لهم تصرف الشاه.

ويمكن لمن يلقي نظرة على حياة حسين بن عبدالصمد المتوفي سنة ٩٨٤ هـ أن يكوّن فكرة عن وجود صراع على نحو ما واستمراره بين فقهاء الشيعة الذين هاجروا الىٰ ايران بدعوة من الاخيرة وأمضوا جزءً من حياتهم في بناء مؤسسة دينية وفق المذهب الامامي.

واذا ما اعترفنا بوجود ذلك الصراع يمكننا أيضاً ان نلمس صراحة موقف شاه طهماسب وسعيه للموازنة بين طرفي الصراع مع تعاطفه الواضح مع المؤسسة الدينية في مشروعها الاصلاحي.

في عام ٩٦٥ هـ اقدمت الدولة العثمانية على ارتكاب ثاني أكبر اخطائها في سياستها الطائفية عندما تمت تصفية الشيخ زين الدين الجبعي العاملي الذي عرف تاريخياً بالشهيد الثاني.

وبسبب علاقة الشيخ حسين بن عبدالصمد باستاذه وهي علاقة خاصة ومميزة فقد أختفى بعد الحادث ليظهر على المسرح الايراني عام ٩٦٨ هـ وقد ظهر انه فرّ الىٰ ايران

فوراً وأقام في اصفهان ثلاث سنوات وقابل شاه طهماسب في عام ٩٦٨ فعينه الأخير شيخاً للاسلام في قزوين.

وتكررت معاناة الكركي مع الشيخ حسين بن عبدالصمد الذي ترك قزوين الىٰ مشهد ومنها الىٰ هرات؛ ذلك ان المدينة الاخيرة ذات الاكثرية السنية اشبه ما تكون بالمنفى لموقعها القصي والبعيد، وفي عام ٩٨٣ هـ ترك ايران بعد اربعة عشر سنة من الاقامة فيها وبذريعة الحج، لانه وبعد انتهاء موسم الحج توجه الىٰ البحرين وارسل الىٰ ولده الشيخ البهائي الذي بقي في هرات رسالة جاء فيها: «إن أردت الدنيا فارحل الىٰ الهند وإن أردت الآخرة فاتبعني وإن لادنيا ولا آخرة فابق في أرض العجم»[1].

وأمام صمت[2] المدونات التاريخية المعاصرة لتلك الحقبة عن الكشف أو الاشارة الىٰ الاسباب التي حدت بالشيخ الىٰ أن يدير ظهره لايران ويموت بعد عام واحد أيضاً، كما حصل ذلك للكركي من قبل أمام هذا الصمت، أثار الباحث الاستاذ جعفر المهاجر مسألة ذات مغزى، فقد استسخف التبريرات السطحية التي أرادت تفسير مغادرة الشيخ ايران وعدم العودة اليها:

«ان الأمر لم يكن على هذه المثابة من البساطة، بل انه على صلة بالظروف السياسية في ايران من جهة كما يتصل بمسلك الشيخ ابن عبدالصمد من الجهة الاخرى خصوصاً خلال الفترة التي امضاها في مشهد، فقد قيل أن الشاه طهماسب كان يأمر واليه في خراسان بأن يُحضر ولده - أي ولد الشاه محمد خدابنده الشاه فيما بعد - الىٰ مجلس الشيخ لسماع درسه ووعظه، وبأن يُنفذ فتاواه وأحكامه وانه سعى الىٰ اقامة صلاة الجمعة التي كانت شروطها موضع خلاف بين علماء المِلّة وتركت وهجرت مدة مديدة من جمع كثيرمن المؤمنين واذا كان امر الشاه ذاك يذكرنا بفرمان الشاه طهماسب بحق الكركي، فان سعي الشيخ حسين الىٰ اقامة صلاة الجمعة في جمع كثير من المؤمنين ذو دلالة مناسبة، ذلك ان صلاة الجمعة عند الامامية ليست صرف عمل عبادي فردي من حيث المبادرة اليه، بل انها لا تجب وجوباً

---

[1] رياض العلماء: ٢/٢٤٦.

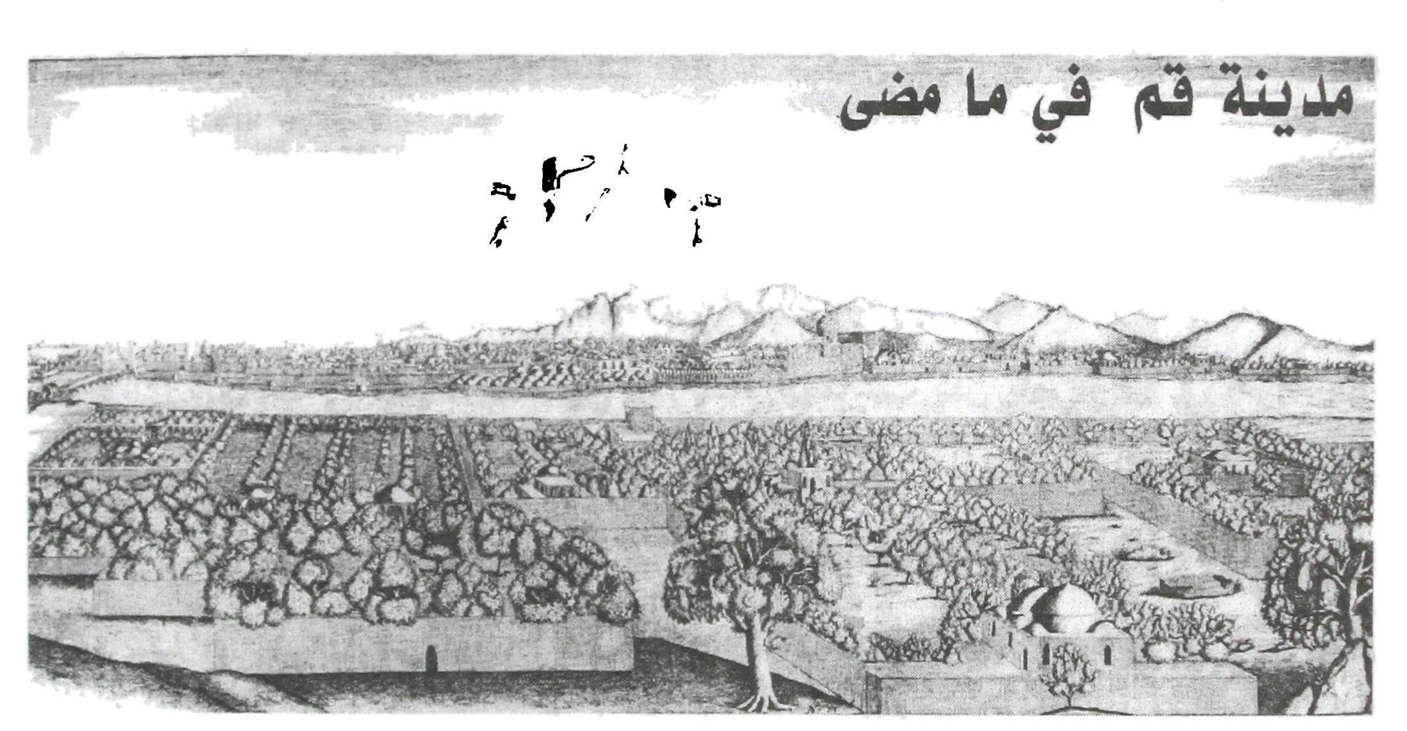
[2] وقد استمر هذا الصمت للمؤرخ الايراني حتى الآن فلم تشر المؤلفات المعاصرة التي اهتمت بالدولة الصفوية الى ذكر سبب مغادرة الشيخ لايران ومرّت على ذلك مروراً طبيعياً.

عينياً إلاّ بشروط من جملتها «السلطان العادل» والعدالة هنا مفهوم يتصل بالشرعية، وليس بمسلك السلطان، اذن فهي ذات ملمح سياسي واضح يتصل بدوره بمفهوم «ولاية الفقيه»، كان الشيخ الكركي يحرص على اقامتها»[١]

وهذا ما أثار مخاوف المؤسسة القزلباشية ذات النفوذ التي نجحت في التخلص من الكركي.

ان انتقال الشيخ الىٰ هرات كان خطوة من الشاه لانهاء الصراع الذي خفتت حدته اكثر من ثلاثة عقود، وقد يئس الشيخ وهو في هرات من عودته؛ فلجأ الىٰ ذريعة الحج ليغادر ايران دون عودة.

ويمكن للدارس أن يتفهم ظروف شاه طهماسب التي تضطره الىٰ اتخاذ اجراءات كهذه، فالدولة الصفوية ماتزال تواجه تهديدات خارجية وإن نعمت في العقدين الاخيرين باستقرار تام.



حركة الترجمة من العربية الى الفارسية

كان لتأسيس دولة شيعية في محيط سني افرازات عديدة وقد خلق ذلك اوضاعاً ثقافية جديدة.

وعلى الصعيد السياسي نجم عن ذلك أجواء متأزمة خاصة الوضع الدولي؛ فقد حاول

---

[١] الهجرة العاملية الى ايران في العصر الصفوي، جعفر المهاجر: ص ١٤٨ - ١٤٩.

العثمانيون وسعوا للاطاحة بالحكم الصفوي وفي الشرق كان الوضع لايقل خطورة.

ان اعلان المذهب الشيعى مذهباً رسمياً وما استلزم ذلك من سعي لملء الفراغ الفقهي والدستوري من خلال دعوة العلماء الشيعة من مراكزهم وبدء ظاهرة الهجرة العربية العاملية على الخصوص وما خلفته من اوضاع جديدة في بناء المؤسسة الدينية، كل هذا كان كافياً لتبدأ نهضة للترجمة من العربية الىٰ الفارسية واكبتها حركة تأليف باللغة الفارسية لاطلاع المجتمع الايراني على مذهب أهل البيت(عليهم السلام).

وقد أدى ذلك الىٰ تألق العلماء والمترجمين والمؤلفين خاصة في الحقل الفقهي، وقد قابل ذلك انحسار للنشاط الأدبي وانزواء للشعراء وقد هاجر كثير منهم الىٰ الهند.

وعلى صعيد اللغة فقد تألقت الفارسية بالرغم من أن لغة حكام البلاط الصفوي وكما هو معروف هي اللغة التركية وان لغة اساطين المؤسسة الدينية هي العربية.

ولعل الصراع العثماني الصفوي الذي بدأ مع بدء قيام الدولة ومشروع الصفويين في توحيد ايران على اساس مذهبي جعلهم أو سوّغ لهم انتخاب اللغة الفارسية امعاناً في بلورة الكيان الجديد وفق ملامح تختلف عما هوسائد في شرق البلاد وغربها وبخاصة جيرانهم في الغرب حيث التصنيف القومي يعدّهم ابناء جلدة واحدة.

ان اللغة جزء هام جداً في تكوين هوية مستقلة وفي قيام كيان متميز له ملامح مختلفة عن غيره.

ويبدو ان بدء حركة الترجمة كانت أيضاً بإيعاز من الشيخ الكركي فقد قام تلميذه علي بن الحسين الزواوي المتوفي سنة ٩٤٧ هـ بأول خطوة في هذا المضمار وقد كرس الاخير جهوده في ترجمة كتاب شهير هو «كشف الغمة في معرفة الأئمة»[١].

وكانت حركة الترجمة قد تركزت على ترجمة عقائد الشيعة الامامية ثم امتدت لتشمل كتب الفقه والكتب الثقافية العامة، وخاصة لكتاب ايرانيين من قبيل كتاب الحيوان للدميري[٢]، ويعد الزواوي رائد الترجمة من العربية الىٰ الفارسية، قد سمي كتابه الأول المترجم الآنف الذكر: «ترجمة المناقب» وبالرغم من أن العنوان كما هو واضح عربي أيضاً

---

[١] الهجرة العاملية الى ايران في العصر الصفوي، جعفر المهاجر: ص ١٨١ - ١٨٢.

[٢] المصدر السابق: ص ١٨٢.

ولكننا سنجد استخداماً واسعاً للمفردات العربية، سوف يستمر وينمو حتىٰ بعد زوال الحكم الصفوي ومجيء القاجار ونهاية القاجار على يد الانگليز وظهور الحكم البهلوي، حيث بدأت نعرات قومية واتجاهات لادينية سعت الىٰ سلخ ايران من انتمائها الاسلامي وحاولت بعث التاريخ الساساني واللغة الفارسية من خلال احياء المفردات الفارسية القديمة واحلالها محل المفردات العربية وبخاصة مايتعلق بالمفردات المستخدمة رسمياً في المؤسسات الادارية للدولة، ثم اتسعت بتشجيع من الاجهزة الرسمية لتصل أمواجها الىٰ الحقل الثقافي والأدبي.

لقد اشير الىٰ هجرة الشعراء الىٰ الهند بسبب اتجاه الدولة نحو اسلمة الحياة الاجتماعية في ايران وفق المذهب الشيعي، ولكن هذا لايعني نهاية الشعراء والشعر الفارسي، فلقد كان مؤسس الدولة وكما ذكرنا شاعراً مايزال ديوانه المعروف بـ «خطايي» في واجهات المكتبات الايرانية.

غير ان الشعر الفارسي لم يجد رعاية كافية وقد انبرى بعض الشعراء الىٰ مديح شاه طهماسب وابنته پريخان خانم ولكن الشاه وبدل أن يغدق عليه الجوائز قدم له نصيحة مفادها ان يتجه الىٰ مديح أئمة أهل البيت المعصومين.

واندفع الشاعر «محتشم كاشاني» الذي يعد من أبرز شعراء الحقبة الصفوية الىٰ أن يتغنىٰ بالامام الحسين في مرثية تعد حتىٰ اليوم من روائع الشعر الفارسي.

وقد اصبح قبر الشاعر المتوفي سنة ٩٩٦ هـ مزاراً يقصده الناس في مدينة كاشان، حيث نشأ الشاعر[١] وتوفي، وقد أشرنا الىٰ شاعر آخر هو «توني حيرتي» الذي هجا الشاه بعد اغلاق حانات الخمور.

ويمكن الاشارة الىٰ شاعر ثالث هو «وحش بافق».

وقد وجدت الحركة الادبية وبالخصوص الشعر نافذة لها في حقل جعلها تتنفس ملء صدرها؛ إذ سنجد وبعد النهضة العمرانية التي بدأت بشكل جاد في عهد طهماسب وبالتحديد بعد توقيع معاهدة سلام مع الدولة العثمانية.

سنجد ان الشعر الفارسي ابدع في وصف الآثار العمرانية وبخاصة الاماكن الملكية، حيث

---

[١] محتشم كاشاني من مواليد مدينة قم في قرية نراق.

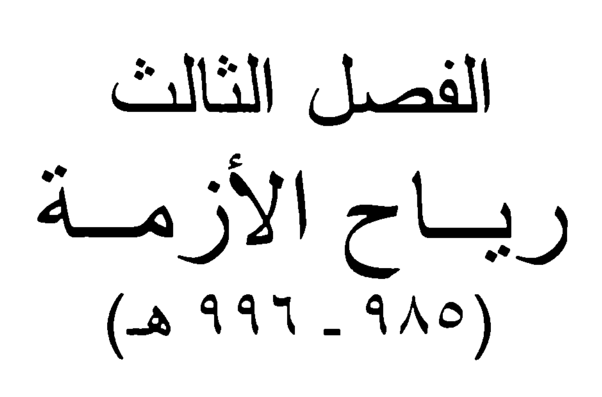
العمارة الفخمة والفسيفساء وقصور الامراء بحدائقها الغنّاء.

فالمؤرخ والشاعر عبدي بيگ شيرازي له ما يعرف بـ «المثنوي» وهي قصيدة طويلة تتالف من ١١٧٠ بيت تدور حول الابنية السلطانية في قزوين وقد سمى قصيدته: «دوحة الازهار» تطرق فيها الیٰ قضايا الفن والعمران والجمال؛ ونجد فيها وصفاً للشوارع والحدائق وشرفات القصور والايوانات المزينة بالرسوم، حيث الرسوم هي الاخرى لوحات فنية رائعة تصور رموز اسطورية في التاريخ الايراني من قبيل اسطورة فرهاد وشيرين وهي قصة الحب التي اشتهرت وتناقلتها الاجيال وعبرت الحدود أيضاً واصبحت رمزاً للحب الطاهر وإحدى مفردات الشعر الفارسي قديماً وحديثاً.


حياكة السجاد النفيس مهارة اشتهر بها الايرانيون

وعلى أية حال اذا كان عهد شاه اسماعيل هو عهد تأسيس وبناء الدولة الصفوية فان عهد طهماسب وبخاصة الفترة التي تلت عقدين من حكمه، هو عهد الاستقرار والازدهار للدولة الصفوية والتي ستستمر قرناً ونصف بعد رحيل ثاني ملوك الصفوية شاه طهماسب الذي حكم أطول فترة (٥٤) سنة، وسيذكره التاريخ كملك نبيل تقي قلما نجد له نظيراً بين ملوك العالم قديماً وحديثاً.

في ليلة الثلاثاء الخامس من شهر صفر سنة ٩٨٤ هـ أغمض شاه طهماسب عينيه ليودع ليس مملكته فحسب بل الدنيا بأسرها في عمر ذرّف على الستين.



الفصل الثالث

ريـــاح الأزمـــة

(٩٨٥ - ٩٩٦ هـ)

ما يزال جسد شاه طهماسب مسجىً على الأرض عندما بدأ الصراع حول خلافته وقد عم الرعب العاصمة الصفوية بعد حوالي نصف قرن من الاستقرار.

ولايوجد تفسير يوضح الاسباب التي جعلت طهماسب لايحسم مسألة خلافته على العرش.

كان هناك ثلاثة مرشحين من بين أولاده؛ أولهم حيدر ميرزا وكان محل اهتمام والده وقد أوكل اليه مهام كثيرة، والثاني اسماعيل ميرزا وكان حينها سجيناً في قلعة قهقهة شمال آردبيل العاصمة الروحية للصفويين، ومحمد ميرزا الابن الاكبر لطهماسب وكان ذات يوم ولياً لعهده.

ويشاء القدر ـ بعد صراع دام وعنيف ـ آن يصبح اسماعيل ميرزا (المعقد نفسياً) والمدمن على المخدرات الملك الثالث ليصبح شاه اسماعيل الثاني، فبدأ عهده بتصفية الأمراء من الاسرة الصفوية حتى الذين لم يبلغوا الحلم بعد.

وتحولت قزوين في تلك الفترة الى مسرح لعمليات دموية رهيبة ولم يتوقف مسلسل الاغتيال والقتل والتصفية الجسدية حتى بعد وفاة شاه اسماعيل (اغتيالاً) كما تشير جميع الدلائل؛ ولكن مسار القتل بدأ ينكفىءباتجاه المقربين من الشاه السفاك، إذ طالت عجلة القتل ابن الشاه البالغ من العمر عاماً واحداً وفي هذه الفترة خسرت الدولة الصفوية وبسبب انهماكها في أزماتها الداخلية أراض شاسعة جداً لصالح الدولة العثمانية وتحولت خراسان الى مسرح للعدوان الاوزبكي المستمر.

صراع حول العرش

يمثل العقدان الاخيران من حكومة شاه طهماسب عهد الاستقرار التام والازدهار اذ استقرت المؤسسات الحكومية بما في ذلك الدينية في حالة من التوازن واقتسام النفوذ والسلطة وقد نعمت الدولة الصفوية بمرحلة من الرخاء والأمن.

ولكن ما إن أغمض شاه طهماسب عينيه مودعاً الدنيا، حتىٰ هبت رياح الأزمة بشكل عاصف واجتاحت العاصمة الصفوية موجات من الشعور بالرعب، ذلك ان كل شيء قد بات ممهداً أمام مغامرات القادة العسكريين الطموحين؛ ولا توجد فرصة أفضل من هذه؛ حيث مسألة الخلافة على العرش يلفّها الغموض التام.

وكان من الوارد جداً أن تتعرض القصور ومنازل علية القوم وبيوت العلماء لغارات محتملة جداً.

ولعل الحقبة الطويلة التي حكمها شاه طهماسب تركت آثاراً في نفسية المجتمع ما أدى غيابه الىٰ إحداث فراغ مدمرسرعان ما انقلب الىٰ شعور بالخوف ربما بسبب صراعات كانت قد خمدت ولعلّها تنبعث من جديد.

كان وجود شاه طهماسب يمثل مركز الثقل في معادلات التوازن بين مؤسسات الدولة.

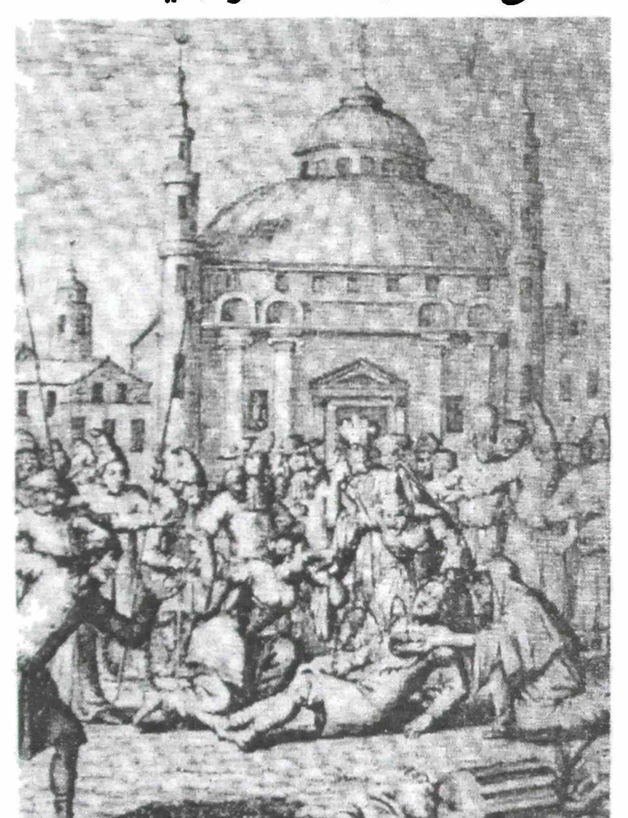
وفيما كان جسد شاه طهماسب مسجىً انفجر النزاع حول العرش وبرز تياران رئيسان على مسرح الصراع، تيار ينادي بزعامة حيدر ميرزا وقد بدا ان الحظ يحالفه فهو موجود في العاصمة وفي القصر الملكي، وتيار يعمل لزعامة اسماعيل ميرزا الذي مايزال سجيناً في قلعة قهقهة، غير ان وقوف پريخان خانم الىٰ جانب ميرزا اسماعيل ومصرع حيدر ميرزا بعد بضعة ساعات فقط من توليه العرش حسم الصراع لصالح اسماعيل ميرزا الذي غادر القلعة على رأس جيش من انصاره متجهاً الىٰ قزوين.

ولكن پريخان خانم التي كانت تتزعم تيار المناصرة لاسماعيل ميزرا حسمت الأمور بسرعة داخل القصر الملكي حيث الشاه مسجىً وخلال الاشتباكات أصيب السيد حسين

الكركي بسهمين وكان يجلس عند رأس الجسد المسجى لملك حكم أكثر من نصف قرن وهو الآن مستغرق في هدوء وصمت فيما كانت الأرض تهتز تحت أقدام المتصارعين، كما لاحت السهام أكفان الرجل.

وسرعان ماعاد الهدوء المشوب بالحذر والخوف مدينة قزوين وهي تتطلع الىٰ شاه اسماعيل الثاني يدخل العاصمة على رأس آلاف الجنود.

ها هو الآن يمتطي صهوة جواده يحفه آلاف المسلحين من جنوده، رجل في الأربعين من عمره، أمضى نصف عمره في السجن أدمن خلالها على المخدرات، ينظر بعين مشككة وبنفسية معقدة الىٰ كل من حوله، يختلف تمام الاختلاف عن اخيه القتيل.



كان حيدر ميرزا الذي دفن مع والده شاباً متديناً يصوم يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع، يمضي جزءً من أوقاته في مجالس العلماء، يؤدي صلاة الصبح في وقتها ويعد هذا استثناءً في حياة الأمراء وكان على طهور دائم.

وكان من الممكن أن يكون عهده استمراراً لنهج ابيه ولكن كانت للأقدار كلمتها.

مسلسل القتل والاغتيال

لعل الجميع أصيبوا بحالة من الذهول تشوبها خيبة أمل وهم يرون انساناً مريضاً معقداً مدمناً على المخدرات يتربع على عرش السلطنة، تموج في اعماقه الاحقاد والاضغان وتزدحم في رأسه الشكوك.

كان مصرع حيدر ميرزا بداية مخيفة لمسلسل القتل الذي كاد يبيد الأسرة الصفوية.

بدأ شاه اسماعيل عهده بقتل الأمراء من معارضيه أو ممن يظن بهم ظن السوء.

كان الرجل ولاشك مريضاً ولغ في دماء اخوته وبني عمّه وربما بدأ الذين يحيطون به يتوجسون منه خيفة؛ فلا أحد يدري متىٰ يحين حينه ويتدحرج رأسه.

ولد شاه اسماعيل الثاني في مدينة قم عام ٩٤٣ هـ من أم تركمانية من قبيلة تعرف بـ «موصللو» ولعل القبيلة كما يوحي الاسم تقطن أو تنحدر من مدينة الموصل شمال العراق.

امضى أحد عشر عاماً في كنف ابيه، وفي عام ٩٥٤ سمي حاكماً على شيروان فتوجه بمعية «گوكجه سلطان».

تعلم هناك فنون القتال ورافق والده في بعض حروبه وتجلت شخصيته العسكرية عندما اسندت اليه قيادة القزلباش في المعارك مع اسكندر باشا في ارض روم عام ٩٥٩ هـ واذن فقد كان في السادسة عشرة من عمره عندما الحق بالقوات العثمانية هزيمة مرة وقد عزز هذا النصر من مكانته لدى شاه طهماسب ومسؤولي البلاط الصفوي.

ومن ذلك الحين طرح كأحد المرشحين لخلافة والده .

وبمناسبة زواجه أقيم له احتفال كبير جداً، ويبدو من خلال بعض المؤشرات انه كان صعب المراس عنيداً وينطوي على قدر من الكراهية ازاء المحيطين له؛ ويرى بعضهم ان تأثيرات تربوية رسخت في نفسيته اثناء طفولته، ذلك ان الذي تولىٰ تربيته رجل عرف بازدواجيته ونفاقه، كان لمير مخدوم شريفي ظاهر شيعي براق وباطن سني، كان الرجل منافقاًيطمح الىٰ سلخ الدولة عن مذهبها الجديد، واعادة الناس الىٰ المذهب الشافعي؛ ومن هنا حاول استغلال شاه اسماعيل الثاني الذي كان معقداً وحاقداً على أبيه فأراد أن يناقض سيرة والده في كل شيء.

وقد سيطر عليه هاجس القتل ولم يعد للعفو في قاموسه الدموي من معنىٰ.

وعندما حسمت مسألة الخلافة لصالحه لم يكن امام قبيلة «استاجلو» التي ناصرت اخاه حيدر من مفر سوى طلب الصفح فبادروا الىٰ القصر الملكي في حالة من الاستسلام الكامل؛ ولكن الشاه أمر بنهب ممتلكاتهم وتجريدهم من كل شيء، وكان الشاه قبل دخوله قزوين قد أمر بسمل عيون بعض زعاماتهم.

وبعد أيام من حكمه أمر بتصفية أخويه مصطفى ميرزا وسلمان ميرزا فتم اغتيالهما في إحدى الليالي المظلمة ودفنا.

ووقعت حوادث شغب قام بها أكراد نازحون من ديار بكر ويعدون من مريدي الصوفية، فأرسل شاه اسماعيل قوة عسكرية قمعتهم بشدة وسقط منهم مئات القتلى بين

الخمسمائة والألف.

واستثمر شاه اسماعيل الحادث على نحو أكثر بشاعة عندما اتهم بعض الأمراء من الاسرة الصفوية بمسؤوليتهم عن الحادثة وصدرت أوامره باعدام بعض الامراء ومن بينهم ثلاثة من اخوته، وثلاثة من أبناء عمه، ولم يسلم من القتل حتىٰ الطفل ذو السبعة أعوام، وربما توسط بعضهم لانقاذ من صدرت بحقهم أحكام الاعدام فسملت عيونهم وقد سملت عينا علي ميرزا وهو اخو الشاه فبلغ عدد القتلى من اخوته ستة وسملت عينا السابع.

وكانت مشاهد القتل ماتزال تستعر في اعماقه وسقط رأس أخ له آخر هو ابراهيم ميرزا وكان الاخير شاعراً ولم تثبت في حقه أياً من الاتهامات التي وجهت اليه.

ولم يسلم من القتل من اخوته سوى محمد ميرزا الذي سيكون الشاه الرابع وكان ضريراً فلم يلحقه أذى لا هو ولا أولاده الا واحداً منهم اغتيل في طهران، غير ان شاه اسماعيل كان يدبّر في قتله.

لقد نجح في قتل أحد أولاده وها هو الآن يرسل جلاديه الىٰ هرات لاغتيال عباس ميرزا (الذي سيصبح شاه عباس الكبير) المولود في سنة ٩٧٩ هـ كان ذلك في رمضان؛ وأراد سفير الموت اغتيال عباس ميرزا بعد انتهاء شهر رمضان ومالبثت الانباء أن وصلت باغتيال شاه اسماعيل نفسه في ١٣ رمضان ونجا عباس من القتل بإعجوبة.

وحتىٰ اخته پريخان خانم التي يعود لها الفضل في تربعه على العرش الصفوي جردت من كل امتيازاتها ومرت بضائقة مالية شديدة.

هذه السياسة الهوجاء كشفت للجميع ان شاه اسماعيل انما هو رجل معقد ومريض وقد فقد توازنه، كانت الرؤوس تسقط كل يوم وتسمل العيون وحدث تمزق كبير في الدولة بسبب ذلك وهو أمر ينذر بالخطر.

وحاول بعض القادة العسكريين افتعال ازمة خارجية لامتصاص الخلافات الداخلية فاقنعوا شاه اسماعيل في مهاجمة الدولة العثمانية، وكان شاه اسماعيل يكن لها عداءً ولم يكن راضياً عن ابرام معاهدة السلام.

ولكن العثمانيين حطموا الهجوم وسددوا للمهاجمين ضربة ساحقة مازاد من نفور الجميع من شاه اسماعيل.

وحدثت ازمة قوية بعدها اتضحت للجميع ميول الشاه الصفوي الجديد نحو التسنن وسعيه الىٰ محو اسماء الأئمة من العملة النقدية، وقد واجه جراء ذلك مقاومة شديدة من العلماء، كما ظهرت بوادر للثورة لدى بعض القبائل التركمانية المتحمسة للتشيع للاطاحة بالشاه السني الحاقد.

وفسّر اجراؤه بتوقيف مهاجمة الخلفاء الثلاثة ولعنهم ضمن تلك الميول ومحاولته اعادة التسنن الىٰ البلاد.

وبدأت المؤسسة العسكرية (القزلباش) تشعر بالنفور والكراهية ازاء زعيم الاسرة الصفوية والذي يفترض ان يكون حامياً للتشيع ومرشداً للكل.

ولعل أول ضربة تلقاها شاه اسماعيل الثاني هو انفجار الغضب العام تجاه مير مخدوم شريفي مربيه ومستشاره الأول في سياسته، وقد أخذ الاخير على عهدته مسؤولية اعادة الاوضاع المذهبية الىٰ ماكانت عليه قبل قيام الدولة الصفوية، وربما لأول مرة منذ عقود من الزمن تقف المؤسسات الدينية والعسكرية في خندق واحد للضغط على الشاه لاقالة واعتقال مير مخدوم شريفي وقد حصل ذلك واعلن ان الاخير هو المسؤول الأوّل عن الفتن التي ألّمت بالبلاد بعد وفاة شاه طهماسب وألقي في السجن.

وبعد هذا النصر الذي احرزته القوى المقاومة والتي بدا أنها لن تكتفي به وتعمل أو تطمح الىٰ ما هو أكبر منه بالقضاء على الشاه نفسه، كان هناك فيما يبدو من يخطط لاغتيال الشاه.

وفي الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٩٨٥ هـ وبعد جولة ليلية قام بها شاه اسماعيل الثاني في عاصمته وقد تعاطى تلك الليلة كمية كبيرة من الأفيون، أوى الىٰ فراشه في غرفة وكان معه شخص آخر، ونام الشاه ولكنه لم يستيقظ.

وقد أيد مرافقه فكرة اغتياله عندما اشار الىٰ ان علبة الأفيون التي يستخدمها الشاه كانت قد فتحت من قبل مجهول.

ولابتهاج الجميع بهذه النهاية لحاكم شرير حكم عاماً واحداً وقتل المئات من الناس أُغلق التحقيق في مسألة موت الشاه الغامض بل ان ملفاً لم يفتح لذلك أساساً.

وأنصبّ الاهتمام على انتخاب ملك جديد ولم تكن مهمة شاقة بسبب التصفيات الدامية

التي اجتثت معظم المرشحين مما جعل مسألة انتخاب من سيخلف العرش مسألة سهلة.

واتفقت المؤسسة العسكرية على تسمية سلطان محمد ميرزا المعروف بـ «خدابنده» (عبدالله) شاه للدولة الصفوية.

وكان الرجل الذي يكاد يكون ضريراً حاكماً في شيراز، وعلى وجه السرعة ارسل اركان البلاط الملكي من يحيط خدابنده بالنبأ السار وحصل الذي زف هذه البشرى على لقب خان وهو امتياز كبير يومئذ.

وبدأت زوجة الشاه الجديد (مهد عليا) تتصرف كملكة وكان الرجل الضرير فيما يبدو خاضعاً لنفوذها وتحولت شيراز الىٰ عاصمة للبلاد اذا بدأت الفرامين تصدر بالعزل والنصب ولم يكن ذلك ليرضي «پريخان خانم» ابنة شاه طهماسب فبرز خلاف شديد ستكون له نتائج مرة بعد حين.

كانت پريخان خانم وبمعاونة خالها الشركسي تدير شؤون البلاط في قزوين وكانت هي الاخرى تعزل وتنصب من تشاء في الوقت الذي بدأت فيه «مهد عليا» تحاول ان تمسك بزمام البلاد.

وقد أدى هذا الاختلاف الىٰ انقسام حاد في المنظومة القزلباشية وسيمتد هذا الانقسام الىٰ مفاصل الدولة الرئيسية.

في الثالث من ذي الحجة عام ٩٨٥ هـ وصل الشاه الجديد عاصمة الصفويين الثانية (قزوين) أي بعد شهرين من توليه العرش وفي فترة وجيزة صدرت ثلاثة أوامر باغتيال ثلاثة أفراد اغتيل اولا «شمخال» وهو سكرتير پريخان خانم اذ استدرج الىٰ خارج المدينة وتمت تصفيته، اما الشخصية الثانية فهي پريخان خانم أخذت الىٰ منزل خليل خان وخنقت ليلاً واعطيت أموالها الىٰ خليل خان، ولكن يبقى تصفية طفل رضيع له من العمر سنة واحدة فقط أمر لايمكن تفهمه حتىٰ لو كان أبوه شاه اسماعيل الثاني.

كانت «مهد عليا» فيما يبدو امرأة قاسية تريد أن تمسك الحكم بقبضة من حديد.

اطلقت على سبيل المثال رجلاً كان سجيناً في اصطخر هو خان أحمد الگيلاني ومن السجن الىٰ العرس إذ زوجته احدى بناتها واعادته الىٰ حكومة اقليم گيلان الىٰ الشمال من العاصمة قزوين، ثم عينت خادمها مسؤولاً عن الديوان الملكي.

وعلى هذا فان كل الذين اسندت اليهم مناصب في العهد الجديد لابد وأن يكونوا قد كوفئوا على خدماتهم للسلطان محمد خدابنده وزوجته المتنفذة وأولادها[١].

وعموماً فان هناك نوعاً من الانقسام للمدن الايرانية بين القبائل التركمانية التي تشكل بمجموعها المنظومة القزلباشية ذات السطوة في البلاد وكان الهدف من هذا التقسيم ارضاء المؤسسة العسكرية.

ولكن ذلك سيؤدي بطبيعة الحال الىٰ تمزيق الولايات الكبرى الىٰ ارخبيل مؤلف من عشرات المدن الصغيرة، وما يتبع ذلك الىٰ ايجاد أرضية للتنافس ومن ثم الصراع بين القبائل التركمانية التي تتطلع باستمرار الىٰ تعزيز نفوذها.

وقد ارهق هذا الاقتسام لمدن البلاد الخزينة المركزية وحمّلها نفقات باهضة ومايزال حكام المدن من بين زعماء القزلباش فيما الاجهزة الادارية والكوادر التنفيذية تتألف من عناصر غير تركية ومعظمها من التاجيك.

تصدع المنظومة القزلباشية

استمر التمزق الذي اصاب المؤسسة العسكرية ابان ازمة عام ٩٨٤ حول مصير العرش الصفوي بالتطور من سيء الىٰ أسوأ وقد عمقت الحوادث وسياسة شاه اسماعيل الثاني الدموية الخلافات والاحقاد بين زعماء القزلباش.

وقد اضعفت التصفيات التي طالت رؤوس كبيرة من القزلباش هذه المؤسسة.

ومازاد الطين بلة هو محاولات «مهد عليا» الانفراد بالحكم ومعاملتها غير اللائقة لامراء القزلباش وسيطرتها ونفوذها على زوجها الشاه ومرشد الكل، ما جعل القزلباش ينفرون من زعيمهم الضعيف.

هذه المؤشرات الخطيرة في تراجع ولاء القزلباش للاسرة ستكون لها مضاعفاتها في دفع البلاد الىٰ ازمة حقيقية.

---

[١] اسند منصب الصدارة «رئاسة المؤسسة الدينية ادارياً» الى مير شمس الدين محمد كرماني بسبب ما قدمه من خدمات جليلة للشاه خدابنده اثناء سفر الاخير من هرات الى شيراز وسلم الى كرماني هذا وهو من السادات قصر پريخان خانم التي اغتيلت مطلع العهد الجديد.

ومن الواضح ان ايران في تلك السنوات كانت تقف على اعتاب مرحلة من الفوضى بسبب السياسة الجديدة التي لاتخضع لمنهجية محددة.

كانت المناصب توزع جزافاً وتسند الىٰ اناس فاشلين وبدأ زعماء القزلباش يعملون لحساباتهم الشخصية والقبلية وبدأت الرشوة تصبح ظاهرة طبيعية ومألوفة في حياة حكام المدن واصحاب النفوذ.

وبسبب التقسيم الاداري القبلي للبلاد كانت الخزانة تعاني عجزاً في الانفاق ما عرضها الىٰ الافلاس في غضون فترة قصيرة وتصاعدت حمى النزاع بين زعماء القزلباش وفي رؤوس بعضهم طموحات انفصالية؛ كما انبعثت من جديد حركات العصيان والتمرد التي خمدت أيام الاستقرار في العقود الاخيرة من حكم الشاه طهماسب.

وبدأت مظاهر التمزق تتضح أكثر فأكثر وما حرك الاطماع التوسعية لدى العثمانيين والاوزبك؛ وفي تلك السنوات كان العثمانيون يعدون العدة للانقضاض على اقليم آذربيجان في الغرب فيما كان الاوزبك يستعدون للانقضاض على اقليم خراسان في الشرق..

وفي خضم تلك الاخطار كانت بعض الولايات في البلاد تتحرك من اجل اعلان التمرد والانفصال.

ان نذر الانهيار تلوح في الافق مالم يحدث تطور يوقف حالة التداعي التي تعصف بالبلاد.

ومن المؤكد ان كبار القادة العسكريين في القزلباش كانوا يتداولون وجوه الازمة التي تهدد مصير الدولة الصفوية.

ويبدو ان اتفاقاً قد حصل بين الامراء القزلباش حول تقرير مصير المرأة العنيدة التي تمادت في عنادها واستبدادها.

في عام ٩٨٧ وقع حادث ادى الىٰ تفجير الاوضاع ليطفح الكيل ذلك ان «مهد عليا» التي تنتمي الىٰ الاسرة المرعشية في اقليم مازندران كانت ابنة حاكم هذا الاقليم قبل ان تتزوج من محمد ميرزا ولي عهد شاه طهماسب يومها وتنتقل الىٰ شيراز مع زوجها لحكومة تلك المدينة العريقة.

هذه المرأة كانت تنظر الىٰ اقليم مازندران باعتباره جزءً من ارث ابيها ولذا تعتبر ابن

عمها الذي يحكم هذا الاقليم مغتصباً لارثها! ولذا يتوجب انتزاع الاقليم منه وهل هناك من فرصة افضل وهي ملكة البلاد والحاكم الفعلي.

وتحركت فرق القزلباش امام اصرارها وعنادها صوب مازندران، ولكن قائد الحملة العسكرية وبدل أن يتوسل بالقوة دخل في مفاوضات مع حاكم الاقليم الذي ابدى تجاوباً ومرونة ورضي بتسليم القلعة في مقابل تعهدات وقسم غليظ بعدم تعريض حياته للخطر.

ولكن مهد عليا وقبل ان يصل الجيش الصفوي العاصمة عائداً من مهمته ارسلت حرسها الخاص للقبض على ابن عمها وتصفيته، وكشف هذا الحادث سوءة خدابنده وضعفه امام زوجته التي تسوس الحكم سياسة هوجاء لاتحمد عقباها.

كان مقتل هذه الرجل الذي وصف بالصلاح القشة التي قصمت ظهر البعير لقد طفح الكيل ولم يعد هناك مكان للصمت امام هذا الوضع من الفوضى.

الىٰ جانب هذه المشكلة التي انتهت نهاية خلفت في نفوس القزلباش وكثير من الناس طاقة سلبية الىٰ جانب هذه الازمة كانت هناك ازمة تتطور هي الاخرى وتتجه نحو التعقيد وهي ازمة مفتعلة ونابعة من عناد مهد عليا وتصرفاتها التي تتصف بالرعونة التي وضعتها في موقع التصادم وجه لوجه مع القزلباش.

فاقليم مثل خراسان كلف الدولة الصفوية ثمناً باهضاً للاحتفاظ به، يتوجب ان يوليه البلاط أهمية بالغة من خلال اسناد حكومته والتي مركزها مدينة هرات الىٰ امير صفوي حتىٰ لو كان صغيراً في السن وتلك هي سياسة القزلباش حيث ولاؤهم دائماً للاسرة الصفوية ورموزها.

وقد عيّن عباس ميرزا والذي نجا من القتل في مسلسل الاغتيالات الدامي حاكماً على هذا الاقليم الاستراتيجي حيث علي قلي خان شاملو الشخصية القزلباشية البارزة يدير حكومة الاقليم، وفي عام ٩٨٧ طلبت مهد عليا من علي قلي خان شاملو احضار ولدها عباس ميرزا الىٰ قزوين ولكن الرجل لم يستجب بسبب الظروف الحساسة التي تستدعي وجود امير صفوي.

وتعقدت الازمة بسبب اصرار الطرفين كلاًّ على موقفه.

وطلبت مهد عليا من حسين خان والد علي قلي خان التوسط لحل المشكلة واقناع

ولده بتنفيذ امرها.

ولكن الاخير اخفق في مهمته وهو موقف بدا في نظر زعماء القزلباش منطقياً وحياتياً.

وهنا عمدت مهد عليا ومن دون التفكير بعواقب الامور الىٰ تجنيد حاكم مشهد ضده ما ينذر بحدوث حرب اهلية، ولكن كل شيء هدأ فجأة بعد سبعة عشر يوماً من مصرع حاكم اقليم مازندران إذ اقتحم عدد من القزلباشية المدججين بالسلاح البلاط متجهين الىٰ مهد عليا لتلفظ انفاسها الأخيرة تحت ضغط كف غليظة من اؤلئك المهاجمين وذلك في غرة جمادى الثانية سنة ٩٨٧.

وقتل في الحادثة مجموعة من المازندرانيين الذين استخدمتهم مهد عليا في البلاط، وفي اصيل ذلك اليوم الدامي تم جمع جثث القتلى لتوارى التراب.

ولوقف تداعيات الاقتحام الذي يحدث لاول مرة تجمع القزلباش واعلنوا وفاءهم للشاه الذي بُرئت ساحته من كل ما حصل.

وبحضور جميع علماء الدين اقسم القزلباش على الوفاء للعرش الصفوي وان ما حصل كان لمصلحة الدولة والعرش؛ وقد عفا خدابنده اذ لم يكن بمقدوره ان يفعل غير ذلك.

وعاد الهدوء الىٰ العاصمة وكان هدوءً من النوع الذي يسبق العاصفة فيما يبدو.

وقد بدأ نذير العاصفة بهجوم الاوزبك على خراسان التي نعمت بالهدوء والاستقرار طويلاً، فالدولة الصفوية بسطت نفوذها باقتدار في هذا الاقليم كما ان الاوزبك كانوا منشغلين بحروب داخلية.

وبسبب التطورات في ايران حاول الاوزبك استغلال التمزق الداخلي بالهجوم على المدن الخراسانية ونهبها وبث الرعب فيها تمهيداً لاحتلالها.

في عام ٩٨٦ قاد جلال خان الاوزبكي جيشه صوب نيسابور وسبزوار واسفراين ونهب ما فيها من الماشية ثم اتجه الىٰ مشهد ولكن حاكم مشهد مرتضى قلي سلطان كان قد عبأ قواته من قبل لمطاردة المغيرين فاتجه نحو مدينة جام.

وبالرغم من النقص في قواته وعدم وصول امدادات وتعزيزات من العاصمة اشتبك مع الاوزبك في معارك ضارية استمرت يومين واستطاع في النهاية من الحاق هزيمة ساحقة وقتل اكثر من الف وخمسمائة جندي حمل رؤوسهم نحو مشهد ليصنع منها منارة في ميدان

المدينة.

ولكن بذرة الفتنة التي زرعتها «مهد عليا» بتحريض حاكم مشهد على حاكم هرات كانت قد نبتت وتطور الاختلاف الىٰ نزاع عسكري منذراً بوقوع حرب أهلية.

وقد وقعت هذه الحوادث في وقت كان العثمانيون قد انتهكوا معاهدة السلام وبدأوا زحفهم لاحتلال اراضي الدولة الصفوية.

كان حاكم هرات يعتبر نفسه الرابح في الصراع مادام في قبضة الأخير عباس ميرزا وحاول المصالحة مع حاكم مشهد مرتضى قلي خان ولكن الاخير رفض ذلك واصفاً خصمه بانه معارض للشاه.

وانفجر الصراع عندما زحفت قوات عسكرية من هرات متجهة صوب مشهد وقد هزم حاكم مشهد في المواجهة وانكفأ نحو المدينة متحصناً داخل قلعتها التي تعرضت للحصار.

واستمر الحصار مدة اربعة اشهر واستعصت على المحاصرين الذين قرروا العودة الىٰ هرات بعد احتلال بعض المدن الخراسانية التابعة الىٰ حكومة مشهد.

وقد ألقت هذه الحوادث بظلالها القاتمة على قزوين العاصمة ووصلت الدولة الصفوية في عام ٩٨٨ هـ الىٰ اسوأ حالة من التردي والضعف.

وانقسم القزلباش في قزوين الىٰ فريقين متناحرين احدهما يتألف من قبائل شاملو واستاجلو التي اختارت الدفاع عن عباس ميرزا كولي للعهد والفريق الآخر يتألف من قبائل اخرى في طليعتها تكلو يقف الىٰ جانب حمزة ميرزا الموجود في العاصمة.

وامتد الانقسام والتصدع الىٰ داخل البلاط وتطور الصراع وسقطت بعض الرؤوس.

وبدا واضحاً عجز الشاه عن فعل أي شيء لوقف مسلسل التمزق .

وفي عام ٩٨٩ هـ قرر حاكم هرات اعلان عباس ميرزا ملكاً على خراسان وفي غمرة التمزق ظهر رجل في مناطق كهگولية ومن مناطق جبيلة وهو رجل مشعوذ استغلّ شبهة بشاه اسماعيل الثاني لينتحل شخصية الاخير وقد التفت حوله بعض القبائل اللورية وكلف الدولة الصفوية الكثير واستمر صداع الرأس اكثر من أربعة اعوام الىٰ أن تم القضاء عليه.

سقوط جورجيا

وعلى صعيد العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية حدث تطور خطير اذ أقدم العثمانيون على أعمال استفزازية في خطوة لتمزيق معاهدة السلام التي مرّ عليها عشرون عاماً.

وبدأت الاستفزازات بتحريض وتشجيع الاكراد الذين يقطنون بين اذربيجان وبحيرة وان.

وبدأت الهجمات تستهدف خوي وسلماس وقتل حاكم تلك الديار واربعمائة من افراده وأسر نسائهم واطفالهم؛ وحمل المغيرين رؤوس القتلى الىٰ السلطان العثماني مراد الثالث. وشجع سقوط تلك المناطق بأيدي الاكراد أقواماً اخرى على شن الغارات التي وصلت الىٰ مهاجمة مدينة مراغة، وانتابت سكان شيروان فكرة الانفصال وطلبوا العون من السلطان العثماني، ماوفّر أرضية لأن يقوم العثمانيون بهجوم شامل وغادر جيش مؤلف من مائة الف جندي استنبول باتجاه شيروان والىٰ جورجيا.

بعثت الدولة الصفوية برسالة ودية الىٰ السلطان العثماني تضمن استيضاحاً حول نقض معاهدة الصلح.

وقبل أن تصل رسالة الجانب الصفوي الىٰ استنبول كان الجيش العثماني قد اجتاز الحدود الدولية متوغلاً في الاراضي الجورجية.

عبأت الدولة الصفوية على وجه السرعة جيشاً من القزلباش في اذربيجان وبدأوا هجومهم وقد احزر القزلباش انتصارات أولية ولكنه مني بهزيمة مرة وتبدد الجيش الصفوي الاذربيجاني.

وواصل الجيش العثماني تقدمه واحتلال القلاع في الطريق الىٰ تفليس مركز جورجيا وسقطت جورجيا كلها وتلتها شيروان واعلن سكان الاقليم الاخير ولاءهم للسلطان العثماني.

وهاجم التتار من شمال الخزر حدود الدولة الشمالية وانزلوا خسائر كبيرة بالارواح في صفوف القوات الصفوية المتمركزة هناك.

واغار التتار على منطقة قره باغ وفيما كانت الامور تتطور من سيء الىٰ أسوأ وصلت البلاط الصفوي رسالة من الدولة العثمانية وكانت هذه المرة موقعة من جانب الصدر الاعظم العثماني يحذر فيها نظيره الصفوي من مغبة أية محاولة لاسترداد الاراضي المحتلة وان على ايران ان ترضخ للأمر الواقع وتوقيع معاهدة سلام جديدة.

ومع عجز الجانب الصفوي من استعادة ما خسره من أراض واسعة الا انه بعث برسالة شديدة اللهجة الىٰ الدولة العثمانية واشتملت على تهديد ضمني باستخدام القوة لتحرير الاراضي المحتلة.

وتلت تلك الرسالة رسالة من الجانب العثماني كان فيها نوعاً من المرونة وقد بدأ التتار كما ذكرنا آنفاً حملاتهم على القزلباش الذين مازالوا يتمركزون في اجزاء من شيروان.

وقام الجيش الصفوي بالتقدم نحو شيروان ولكن النقص في الامدادات حال دون تحقيق الهدف النهائي وعاد الجيش الىٰ قرة باغ.

وجرد العثمانيون حملات عسكرية وسقطت مناطق اضافية من شيروان بأيدي المهاجمين.

وبالرغم من فشل هجوم التتار حلفاء الدولة العثمانية في احتلال كامل شيروان ووقوع قائدهم غازي خان في اسر القزلباش بالرغم من هذا النصر فان شيروان سقطت كلياً واصبحت خاضعة للنفوذ العثماني.

لقد كان استغراق الدولة الصفوية في مشكلات داخلية وتصدع المنظومة القزلباشية السبب في ضعف الحكومة المركزية وبالتالي سقوط هيبة الدولة الصفوية فاصبحت عرضة للعدوان الخارجي وانحسار نفوذها في اقاليم اصبحت جزء لايتجزأ من الدولة الصفوية.

ومن هنا كان العثمانيون يراقبون عن كثب ما يجري داخل البلاط الصفوي وتطورات الصراع الداخلي وبخاصة في خراسان التي استحالت الىٰ معضلة خاصة بعد اعلان حاكم هرات تنصيب ميرزا عباس شاه للدولة.

وقد انطوت هذه الخطوة الخطيرة على امكانية انفصال خراسان عن الدولة الصفوية أو تحول الدولة الواحدة الىٰ كيانين متناحرين وتضاءلت احتمالات حل المشكلة عن طريق المفاوضات.

ومارس اعتماد الدولة (وزير البلاط الصفوي) ضغوط على الشاه لمجابهة الوضع في خراسان عسكرياً وان يقود الشاه بنفسه مصطحباً ولي عهده ميرزا حمزة الحملة العسكرية وغادر الشاه عاصمة الدولة متجهاً نحو الشرق بالرغم من الاوضاع الخطيرة على الجبهة الغربية للبلاد؛ حيث الجيش العثماني مستمر في قضم الاراضي كلما سنحت له فرصة مناسبة.

وحانت فرصة ذهبيةواقترح الوالي العثماني في شيروان المحتلة على سلطانه أن يستمثر هذه الفرصة في انشغال البلاط بالازمة الخراسانية واجتياح اقليم اذربيجان وتحرك جيش عثماني جديد لتسقط مدينة يرفان وتمركزت فيها قوات عسكرية عثمانية بعد أن طردت منها بقايا القوات الصفوية.

تطورات الوضع في خراسان

كان اعلان ميرزا عباس ملكاً في خراسان قد قطع الطريق على امكانية ترتيب مصالحة.

ولم يتعرض أي من المؤرخين في الاشارة الى اسباب وقوف ميرزا عباس ضد والده الشاه ولعل الانشقاقات داخل الاسرة الصفوية وما حصل من حوادث دامية وبخاصة في عهد شاه اسماعيل جعل هذه الظاهرة طبيعية؛ فأمراء القزلباش الطموحين كانوا يبحثون عن النفوذ وعادة ما تجد هذه الطموحات اصداءً في نفوس الامراء من الاسرة المالكة.

ويبدو ان شهوة النفوذ والسلطة قد أعمت الجميع عن رؤية الاخطار الخارجية وبخاصة جارتهم القوية التي تترقب أية فرصة للانقضاض على الدولة الصفوية.

عبأت الحكومة المركزية اكبر ما يمكن من قواتها العسكرية للزحف نحو خراسان.

اختبأ مرشد قلي خان وراء اسوار قلعة «تربه جام» وحوصرت القلعة ستة أشهر وبعد مفاوضات سلم مرشد قلي نفسه مقابل تعهدات.

بقيت مدينة هرات حيث يكمن الخطر الجاد، خرج جيش من هرات لمواجهة القزلباش ولاول مرة يحدث اصطدام بهذا العنف والدموية، وفي المعارك سقط مسؤولون في حكومة خراسان غير الرسمية وفرّ علي قلي خان نحو هرات كما تمكن ميرزا عباس من الفرار اليها ايضاً.

وقام وزير الشاه باعدام كثير من الاسرى ما اثار غضب القزلباش الذين ساءهم هذا الاقتتال الاخوي، والانكى من كل هذا تدخلات الوزير التاجيكي وقتله اسرى من ابناء جلدتهم.

وقرر القزلباش قتل الوزير الذي تجاوز وظائفه المدنية ليتدخل في الشؤون العسكرية.

ولقي الوزير مصرعه على أيدي القزلباش وفي غمرة تلك الاحداث وصلت انباء الهجوم العثماني على اذربيجان وهنالك شعر الجميع بالخطر وجلسوا للمصالحة مع علي قلي خان شاملو حاكم هرات وتم تصالح زعماء القزلباش الذين اشتبكوا فيما بينهم بالأمس.

وعندما انسحبت القوات الحكومية من اجل تعبئة الوضع لمواجهة العثمانيين واستعادة مدينة يرفان، راح حاكم هرات يوسع من نفوذه بهدوء واستطاع النفوذ الىٰ مشهد باقناع حاكمها الجديد بمغادرة المدينة.

وهكذا اصبحت خراسان في قبضته بالرغم من تعرقل مشروع نصب ميرزا عباس ملكاً للعرش الصفوي الىٰ حين.

عاد الشاه العاجز الىٰ عاصمته يجر اذيال الخيبة من خراسان مؤملاً نفسه استعادة يرفان وراح القزلباش يعدّون العدة للتوجه الىٰ الجبهة الشمالية الغربية، فيما انصرف ولي العهد الرسمي حمزة ميرزا في قزوين الىٰ ملذاته وراح يكرع كؤوس الخمرة المعتقة ومعه القيان الحسان، بل والىٰ ممارسة الشذوذ الجنسي مع الغلمان.

وانطلقت قوات القزلباش نحو أردبيل ومنها الىٰ تبريز بعد ان وصلت أنباء عن نية العثمانيين بمهاجمة المدينة.

وحدثت ازمة جديدة في تبريز بعد ان صدر امر بعزل حاكمها الذي رفض الاستجابة واعتصم بقلعته وبعد مفاوضات سلم امير خان نفسه لينقل مع عشيقته الىٰ سجن قهقهة شمال أردبيل.

وانفجر نزاع مسلح بين فرق القزلباش واصبحت اكثر تصدعاً من ذي قبل وكان انصار امير خان وراء الازمة، فصدر أمر بتصفية امير خان وقد ترك ذلك الحادث مضاعفاته في تشديد الخلافات داخل المؤسسة العسكرية.

وانفجر نزاع عسكري في خراسان هذه المرة داخل المجموعة القزلباشية المؤيدة لعباس

ميرزا؛ واشتبك الفريقان في منطقة سوسفيد وعاد الصراع من جديد بين مشهد وهرات.

قام مرشد قلي خان حاكم مشهد وزعيم قبيلة استاجلو بهجوم ساحق وتمكن من اختطاف ميرزا عباس والانطلاق به نحو مشهد، واسقط في يد خصمه حاكم هرات الذي كان يعوّل على هذه الورقة كثيراً فعاد الىٰ هرات.

وفي أردبيل وفيما كانت القوات الصفوية تستعد للتقدم نحو يرفان وصلت انباء عن زحف الجيش العثماني الجرار نحو تبريز.

واطلق الشاه صيحات الاستغاثة الىٰ المدن والاقاليم الايرانية وقد حدث ذلك في سنة ٩٩٣ هـ.

إنّ تبريز معقل الصفويين لقرن من الزمن معرضة للاجتياح، الدين، المذهب في خطر!!

وذهبت صيحات الاستغاثة ادراج الرياح وتقاعس القزلباش في المدن والاقاليم عن الاستجابة وكانت حجتهم غدر الحكومة بزعمائهم وكان آخرهم اميرخان.

وطرحت خطتان للدفاع عن مدينة تبريز الاولىٰ تكرار لخطة طهماسب في سياسة الأرض المحروقة حيث تخلى المدينة من سكانها ومن كل ما يمكن ان تكون له فائدة للجيش المهاجم وخاصة الغذاء والعلف واغلاق الطرق.

والخطة الثانية ابقاء السكان للدفاع عن المدينة باسناد من القزلباش واستحسنت الخطة الاخيرة.

وفيما كان الجيش العثماني المجهز بالمدفعية يواصل تقدمه كان سكان تبريز يحكمون دفاعاتهم في الازقة والشوارع، كانت تبريز تعيش أوج نموها وازدهارها الاقتصادي، ذلك ان طهماسب اسقط عنها الضرائب ضمن سياسة تشجيع المدن ذات الاغلبية السنية للانتماء الىٰ المذهب الشيعى.

وفي مطلع عام ٩٩٤ هـ وصل الجيش العثماني الجرار مدينة تبريز وبدأت المدفعية تدك دفاعات المدينة التي أنهارت بسرعة واندفع الجنود العثمانيون الىٰ قلب المدينة والىٰ ميدان صاحب آباد.

وبدأ فرار السكان من المدينة برغم اعلان العفو العام ذلك ان الايرانيين جربوا من قبل مثل هذه الاعلانات؛ كانت هناك فتاوى جاهزة باستباحة دماء الشيعة.

وقد كانت عدم ثقة السكان في مكانها فما ان استقر الجيش العثماني في المدينة واحكم مواقعه صدر أمر عثماني باستباحة المدينة.

وارتكبت مذابح لاعد لها ولقي ثمانية آلاف من سكان المدينة البالغ عددهم مئة الف مصيراً دامياً على أيدي الجنود المحتلين. كان بين القتلى عدد من السادة والعلماء والصالحين ولم يسلم من القتل حتىٰ الاطفال الرضع، كما سبيت مئات الفتيات والنساء وقدر عددهن بسبعة آلاف امرأة. ونصب المحتلون سوقاً لبيعهن وتحولت تبريز التي كانت أجمل المدن الايرانية الىٰ خرائب واطلال، وكانت جثث القتلى ممدّدة في الازقة الشوارع.

ورثا بعض الشعراء مدينة تبريز وشبهت مأساة أهلها بمأساة كربلاء.

وقد بلغت قسوة القائد العثماني انه اصدر امره باستباحة المدينة وقتل سكانها في شهر رمضان المبارك حتىٰ انه اتهم بالجنون.

وقام الجيش الصفوي بهجومين لتحرير المدينة انتهيا بالفشل؛ وفيما كان يستعد لشن هجوم ثالث وصل نبأ هلاك القائد العثماني عثمان باشا وعزم القائد الجديد جمال باشا على الانسحاب.

كانت خطة العثمانيين بناء قلعة قوية الاستحكامات للاحتفاظ بتبريز كمدينة محتلة، ولم يكن في نيتهم ضم المدينة الىٰ الدولة العثمانية ضمن مشروعها التوسعي.

ولو كان الامر غير ذلك ما اقدموا على تدمير المدينة وتحويلها الىٰ انقاض وبناء قلعة قوية جداً في قلب تبريز من اجل الابقاء على حالة الاحتلال.

حاول القزلباش في هجومهم الثالث لاحتلال القلعة استخدام المدفعية التي تستخدم ربما لاول مرة ولكنهم اخفقوا لنقص في تصنيعها وجرح بعض الرماة اثناء اطلاق قذائفها.

واندلع خلاف بين اركان القزلباش ولجأ بعضهم الىٰ قلعة العثمانيين.

وحاولت قبيلة تكلو في ضواحي قم وساوة انتهاز الفرصة فتحرك محاربوهم لنجدة الشاه وكان هدفهم الحقيقي السيطرة على تبريز لتعزيز نفوذهم على حساب نفوذ قبيلتي شاملو واستاجلو؛ وخلال مفاوضات مع الشاه صرحوا بمطالبهم في الحد من نفوذ القبيلتين حيث كلّف نزاعهما في خراسان الدولة ثمناً باهظاً وربمايتكرر ذلك في تبريز.

ولم تفض المفاوضات الىٰ نتيجة ايجابية ولكن قبيلة تكلو كانت قد قررت المضي في

مشروعها والتحقت بها قبائل اخرى في طليعتها قبيلة ذو القدر التي طالبت الشاه بتسليم قتلة امير خان.

وتفاقمت الازمة ولم تفلح مساعي صدر مدينة تبريز مير ابو الولي انجو في تهدئة الاوضاع المتفجرة.

حاول الشاه الاستفادة من نفوذ الصوفية الذين مازالوا يعتبرون الشاه مرشد كل (المرشد العام) وطاعته واجبة دون قيد أو شرط.

وعقد مجلس ضم زعماء الصوفية ورؤساء بعض القبائل الصغيرة وطرح الشاه سؤالاً محدداً:

- ما عقوبة من يخالف مرشد الكل؟

وكان الجواب يؤكل لحمه نياً.

وقد غفل الشاه عن هذه الحقيقة وهو ان استخدام هذا السلاح بات وسيلة قديمة.

لقد تمزقت منذ موت شاه طهماسب هذه القداسة وبعدما وضح لكل ذي عينين حقيقة الامراء الصفويين بل حتىٰ ان الصوفيين انحسرت قداستهم واختلط بجمعهم مشعوذون وشحاذون.

وتطورت الازمة واتخذت بعداً اكثر اثارة فالمتمردون نجحوا في اقتحام مقر الشاه في تبريز واختطاف ابنه الصغير طهماسب ميرزا واصبح بامكانهم ان يطرحوا ولاية العهد لهذا الامير الصغير.

ولذا فقد انسحبوا من اطراف مدينة تبريز متجهين الىٰ وسط البلاد فيما يعرف سابقاً بعراق العجم ووصلوا مدينة قزوين.

ومن اجل قمع هذا التمرد الخطير انسحب الجيش الصفوي من تبريز بعد أن ترك قوات صغيرة لمحاصرة القلعة العثمانية العنيدة.

وقاد حمزة ميرزا الجيش الصفوي لمطاردة المتمردين.

في ربيع عام ٩٩٥ تألف جيش كبير اصطدم مع قوات المتمردين واستخدمت في المعارك البنادق وسقط كثير من القتلى. وحسم الجيش الصفوي هذه الازمة بالقضاء على التمرد ليعود الىٰ تبريز لاحتلال القلعة.

وتزامن هذا التحرك مع تقدم الجيش العثماني نحو تبريز مرة اخرى لحماية القلعة من السقوط.

واستبسل المدافعون عن القلعة وكانت حمم المدافع تسقط فوق رؤوس القزلباش كالمطر.

وعندما اقترب الجيش العثماني بقيادة فرهاد باشا من تبريز أخلى الجيش الصفوي المدينة.

وزودت القلعة بما تحتاجه من ذخائر وتموينات وانسحب الجيش العثماني بسرعة بعد أن اطمأن الىٰ قوة استحكاماتها الدفاعية.

وعرضت الدولة العثمانية السلام مقابل التنازل عن الاراضي المحتلة ويبدو ان الشاه رضخ للأمر الواقع لكنه طلب من الدولة العثمانية انهاء احتلال تبريز والانسحاب من القلعة التي بنوها.

وقد عكس موقف الشاه درجة الضعف التي بلغتها الدولة الصفوية في حكومة خدابنده وولي عهده حمزة ميرزا الحاكم الفعلي للدولة.

وخسرت الدولة الصفوية خلال العقد الاخير ٩٨٥ - ٩٩٥ اجزاء واسعة من أراضيها في الشمال الغربي من البلاد، اضافة الىٰ التطاحن الداخلي والانقسامات الحادة والخطيرة في المؤسسة العسكرية.

كانت الاوضاع الىٰ جانب طموحات بعض المغامرين وعجز الشاه وضعف شخصيته وراء تردي اوضاع الدولة بحيث يمكن استشراف مستقبل الكيان الصفوي الذي يتجه نحو السقوط مالم يحدث تطور مفاجئ يغير من مسار الاحداث وهذا ما حصل.



الفصل الرابع

البطل القومي

(٩٩٦ - ١٠٣٨ هـ)

"لقي ولي العهد الرسمي حمزة ميرزا مصرعه بخنجر دلالكه وكان ولي العهد حينها سكران؛ وظلت اسباب الاغتيال غامضة، وقد القى الحادث بظلاله القاتمة على مستقبل الدولة الصفوية وكادت القلاقل والفوضى تعصف بالبلاد، لكن كل شيء عاد الى الهدوء بعد ظهور شخصية ميرزا عباس الذي سيصبح شاه عباس الأوّل؛ وقد اضطر شاه محمد خدابنده للتنازل عن الحكم لصالح ابنه وان وضع هذا التنازل في اطار عجز خدابنده عن ادارة شؤون الدولة.

وانتهى بذلك ولو بشكل ظاهري الصراع بين قادة المؤسسة العسكرية (القزلباش) وكاجراء احتياطي أُرسل المعارضون لحكومة شاه عباس الى قلعة "الموت" المعلقة في ذرى الجبال.

وقد استعادت الدولة الصفوية في عهد الشاه عباس استقرارها السياسي وازدهرت كما استطاع الصفويون استرداد الاقاليم التي خسرتها في العهد الماضي وتم تحرير المدن المحتلة".

مصرع ولي العهد

فيماكان ولي العهد حمزة ميرزا يستعد للسفر الىٰ اصفهان للاستجمام في تلك المدينة الجميلة والانصراف الىٰ لذائذه؛ اذا به يتعرض لطعنات خنجر سدّدها دلاكه الخاص وكان ولي العهد ليلتها سكران.

وقع هذا الحادث في ٢٤ ذي الحجة سنة ٩٩٤ هـ وألقى الحادث بظلاله المخيفة على مستقبل الدولة، اذ ان ولي العهد كان الحاكم الفعلي للبلاد.

وأصبح ميرزا عباس بطبيعة الحال ولياً للعهد بحكم السن وهذا مادفع القزلباش في العاصمة الىٰ الاعتراض لان ذلك سيقوي من شوكة خصومهم في خراسان حيث يوجد ميرزا عباس هناك؛ ولهذا استجاب الشاه لضغوط القزلباش في العاصمة لينتخب ابنه ابو طالب ميرزا ولياً للعهد واثار هذا الاجراء خلافات بين القزلباش والتحق المعارضون بمرشد قلي خان والوقوف الىٰ جانب ميرزا عباس.

وشيئاً فشيئاً تبلورت جبهة قوية في خراسان واستعدادات لاحتلال العاصمة.

وفقدت الحكومة المركزية سيطرتها على الاقاليم وعمّت الفوضى البلاد.

وارهقت الضرائب التي تضاعفت كاهل الناس الذين راحوا يتذمرون من الفوضى والمصادرات المستمرة لممتلكاتهم.

وفي غمرة الحوادث المزلزلة وصلت انباء عن هجوم الاوزبك ومحاصرتهم مدينة هرات.

وهنا قرر مرشد قلي خان أن يتحرك بمشروعه السياسي في تنصيب ميرزا عباس ملكاً على ايران.

البحث عن بطل

ان الفوضى باتت تهدد الدولة الصفوية بالانهيار التام وهذه فرصة ذهبية لكي ينطلق نحو العاصمة التي ستسلم الأمر لامحالة للامير الصفوي. وتحرك مرشد قلي خان يحمل رسالة من ميرزا عباس الىٰ قادة القزلباش في قزوين مفادها انه سيعمل على وقف حالة الفوضى في البلاد وتحرير الاراضي المحتلة في الشمال والشمال الغربي.

كانت خطوة مرشد قلي خان ذكية جداً، فخراسان مهددة بالسقوط ولايستطيع أن يفعل شيئاً لمواجهة الاوزبك الا بمساعدة الجيش الصفوي المركزي الذي مايزال متمركزاً في اصفهان[١] آنذاك.


مشهد من مدينة اصفهان في عهد شاه عباس الاول

واذن الطريق الىٰ قزوين لن يكون مغامرة عسكرية على كل حال، وفي الطريق التحقت مجموعة من القبائل وفتحت مدينة سمنان أبوابها بوجه القادمين من الشرق.

ويبدو ان الامير الصفوي كان يتمتع بشعبية لابأس بها وانطلقت هتافات في قزوين تنادي بالتأييد لميرزا عباس.

ان ظهور ميرزا عباس في مدينة قزوين كأمير صفوي يتمتع بالوقار بالرغم من شبابه أوحى الىٰ عموم الناس الذين طفح بهم الكيل جرّاء الفوضى وطموحات زعماء القزلباش ان هذا الامير هو بطلهم القومي الذي سيخلصهم مما هم فيه من فوضى وتمزق وانهيار ومن تعسف القادة العسكريين.

ووصلت الانباء المثيرة الىٰ اصفهان فيما كان الجيش يستعد للعودة الىٰ قزوين.

وشعر الشاه ومن معه من القادة العسكريين بحراجة الموقف خاصة عندما اغلقت مدينة قم أبوابها بوجوههم بحجة ساقها حاكم المدينة في ان عموم الناس والقوات المسلحة يسيطرون عليها وهم يهتفون لميرزا عباس وانقسم الجيش الىٰ فريقين لمعالجة الازمة.

فريق يرى الزحف الىٰ قزوين وفريق يرى التوجه الىٰ همدان مؤقتاً. اما الشاه فلم يكن احد يستشيره أو يأخذ برأيه كالعادة، وفيما كان الجدل يحتدم حول الازمة الخطيرة، وصلت رسالة ودية جداً من مرشد قلي خان يطلب من زعيم قبيلة شاملو العمود الفقري في الجيش الصفوي ارسال ممثل له لبحث مستقبل الحكومة الجديدة.

وتضمنت الرسالة دعوة اليه للاتحاد والوقوف صفاً واحداً بوجه العدوان الاجنبي، وانتقد بشدة أداء المسؤولين في العشر سنوات الاخيرة والتي قادت البلاد الىٰ ما وصلت اليه الآن

---

[١] كان الجيش الصفوي قد اتجه نحو اصفهان للسيطرة على القلاقل التي اندلعت في مناطق كرمان ويزد في غمرة الفوضى التي تعم البلاد.

من ضعف؛ وانه لامفر في مثل هذه الظروف الخطيرة من الالتفاف حول زعامة جديدة.

وقد حمل الرسالة سيد حسين الكركي اكبر شخصية دينية في ايران على الاطلاق ويتمتع الكركي بسمعة طيبة جداً في الاوساط الشعبية وله نفوذه القوي في البلاد.

وحصلت استجابة سريعة للنداء ويسلم الجميع للامر الواقع وما حصل يعد في حقيقته انقلاباً عسكرياً ابيض.

لقد بدأ عهد جديد.

هناك مؤشرات عديدة داخل المجتمع الايراني ساعدت على ظهور شخصية جديدة على المسرح السياسي ولعل من ابرزها خيبته من وجود شاه ضعيف وعاجز اصبح العوبة بايدي الطامحين وشخصية مثل ميرزا عباس التي تألقت منذ أن كان في خراسان، تركت انعكاساً حسناً لدى المجتمع الايراني الذي مل من الفوضى وما أدت اليه من مآسي من فقدان مناطق واسعة من الدولة.

في نهاية عام ٩٩٥ عندما وصل الشاه محمد خدابنده مع ابنه ولي العهد ابو طالب ميرزا



واستقبال ميرزا عباس لهما ومعانقته لهما اوحى للجميع ان عهداً جديداً سوف يبدأ في ظل حكومة هذا الشاب الذي تبرق عيناه بأشعة غريبة.

بعد مرور اربعين يوماً قام مرشد قلي خان الذي يتمتع بمنصب وكيل السلطنة باجراء احتياطي وذلك باعتقال الشاه السابق وابنه أبو طالب ميرزا وارسالهما الىٰ قلعة «ألموت» كانت هناك مخاوف من ان يستغل بعض القادة العسكريين وجودهما للقيام بحركة انقلابية مضادة.

ابقى شاه عباس منصب الصدارة لميرزا أبو الولي انجو، كما قرر الزواج من زوجة اخيه القتيل حمزة ميرزا وهكذا بدأ حكم شاه عباس الذي تربع على العرش الصفوي ولما يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

كان شاه عباس الذي عاش تفاصيل الحروب الداخلية يدرك جيداً ان تمزق البلاد يعود الىٰ تناحر القادة العسكريين القزلباش ولذلك راح يخطو بحذر لتصفية رؤوس المؤسسة العسكرية، فيما كان شاه عباس يقترب من العرش يوماً بعد آخر كانت هرات تعاني من حصار شديد.

وعندما تربع شاه عباس على العرش طلب من وزيره (وكيل السلطنة) وحاكم مشهد فيما مضى ان يعمل على ارسال تعزيزات عسكرية لانقاذ هرات من السقوط.

ولكن حاكم مشهد السابق والوزير حالياً والحاكم الفعلي للبلاد سوف لن يفعل ذلك؛ كان يريد القضاء على غريمه القديم حتىٰ لو كان الثمن سقوط هرات تحت سيطرة الاوزبك.



السلطان العثماني محمد الثاني

سقوط المدن الكبرى

سقطت هرات بعد حصار استمر تسعة أشهر وذلك في ربيع الأوّل ٩٩٦ ولقي علي قلي خان شاملو مصرعه بعد أن استبسل في الدفاع عن المدينة.

وكالعادة ارتكب الاوزبك مذابح ضد الشيعة واسروا اطفالهم ونسائهم، بل وصل الأمر انه من كانت له عداوة مع أحد حتىٰ لو كان من أهل السنة أحضر شاهدين يشهدان انه من الشيعة؛ فيصدر القاضي الحنفي في هرات حكمه بحرق المسكين وقتله.

وفي عام ٩٩٧ هـ توجه جيش اوزبكي بقيادة عبدالمؤمن خان نجل عبدالله خان نحو مشهد ومحاصرتها؛ وفيما كان شاه عباس يفاوض العثمانيين حول مسألة السلام، وصلت أنباء الحصار الىٰ قزوين.

عبأ شاه عباس الجيش الصفوي وانطلق نحو خراسان لنجدة المدينة المحاصرة كان الاوزبك قد حاصروا في البداية نيسابور ولكن الحاكم على المدينة بعث برسالة الىٰ قائد الجيش الاوزبكي مفادها ان نيسابور تابعة الىٰ مشهد فاذا استطعتم احتلالها فنيسابور لكم دون حرب.

ووصل الجيش الصفوي مدينة الري وسقط الشاه مريضاً واستمر حصار المدينة اربعة اشهر فيما الجيش الصفوي مايزال متوقفاً في ري، ولم تصل اثناء مدة الحصار اية مساعدات عسكرية الىٰ مشهد.

ولم تشر المدونات التاريخية الىٰ الاسباب الحقيقية لتوقف الشاه في ري وتركها تواجه مصيرها المجهول.

في العشرين من شهر ذي القعدة ٩٩٧ هـ سقطت مدينة مشهد بأيدي الاوزبك.

وجرت كالعادة مذابح بحق الشيعة ولقي كثير من علمائها مصارعهم على أيدي الجنود الاوزبك.

وبلغ عدد القتلى في المذابح الطائفية اكثر من ٥٧٠٠ انسان يعلن الشهادتين ويصلي في اليوم خمس مرات.

وفي طليعة العلماء الذين قتلوا مولانا عبدالله الشوشتري؛ وكان الرجل قد اختبأ بعد سقوط المدينة ولكن الجنود الاوزبك عثروا عليه واسر لينتقل الىٰ بلخ. وتقية اعلن مولانا انه على المذهب الشافعي، ولكن ذلك لم يَشفع له وتم احراقه في احد ميادين بلخ في افغانستان.

سقوط قره باغ

انتهز العثمانيون اشتعال الجبهة الشرقية وانفجار الصراع الصفوي الاوزبكي للتوسع في الشمال الشرقي واحتلال المزيد من أراضي الدولة الصفوية.

سقطت اجزاء هامة من قره باغ وسقطت مدينة گنجة.

وانتهز حاكم بغداد سنان باشا الفرصة وقام بتحريض العرب والاكراد للتوسع في غرب ايران ووصلت قوات عثمانية الىٰ همدان واقليم لرستان وانشغل العثمانيون ببناء قلعة على مقربة من مدينة نهاوند، واشتعلت قلاقل في اقليم گيلان شمال ايران لتشكل جبهة ثالثة.

ولم يعد بمقدور شاه عباس ان يقاتل على ثلاث جبهات في الشرق والغرب والجبهة الداخلية وهى أكثر حساسية بالنسبة له. وقد تفاقم وضع القلاقل في شيراز وكهگيلويه والحركة الانفصالية في گيلان وبؤر التوتر هذه لم تكن وليده العهد الجديد وانما تعود بجذورها الىٰ الايام التي تلت موت شاه طهماسب .

ومازاد الامور سوء في الجبهة الغربية لجوء بعض القبائل – التي كانت ذات يوم جزءً من القزلباش – الىٰ الدولة العثمانية والانخراط في مشروع الاخيرة التوسعي.

ووجد شاه عباس الصفوي نفسه مضطراً للدخول في مفاوضات سلام مع الدولة العثمانية.

وقد استقبل الوفد الصفوي استقبالاً حاراً وكان مطلب الدولة العثمانية الاساسي هو عقد أي اتفاق سلام للاعتراف بالاحتلال العثماني لتبريز والقلاع العثمانية التي بنوها في اطراف نهاوند.

وتعثرت مفاوضات السلام بعد هجوم قبيلة القاجار ـ التي ستحكم ايران بعد سقوط الصفويين – بقيادة محمد خان زياد اوغلي على قلعة گنجه وتحريرها من الاحتلال العثماني

قبل توقيع اتفاق السلام، واحتج العثمانيون واعتبروا ذلك انتهاكاً للاتفاق المبدئي بين الدولتين.

وطلب شاه عباس من زعيم القاجار فك الحصار واخذ مصالح الدولة الصفوية بنظر الاعتبار، واستجاب الزعيم الذي يكنّ احتراماً للزعامة الصفوية وقرر الانسحاب.

وتم توقيع الاتفاق الذي تضمن موافقة الدولة الصفوية على الاعتراف بالاحتلال العثماني، كما وتلتزم الدولة الصفوية بمنع سب الصحابة داخل ايران.

تشكيل مؤسسة عسكرية جديدة

يبدو ان سياسة شاه عباس للسيطرة على الاوضاع ووقف حالة الانهيار والضعف سوف تتركز على الجبهة الداخلية ذلك ان الحصون اذا كانت مهددة من داخلها فانها لن تقاوم التهديدات الخارجية.

وقد اشرنا الىٰ ان شاه عباس يعزو تمزق البلاد وضعفها الىٰ الخلافات الحادة والنزاع المسلح والصراعات التي مزقت المؤسسة العسكرية وهذه الخلافات ماهي الا انعكاس لطموحات قادة مغامرين يبحثون عن المزيد من النفوذ.

ولانه لايملك قوة عسكرية مختصة به فانه استفاد من وقوف مرشد قلي خان حاكم مشهد ووزيره الحالي في القضاء على بعض الرؤوس العسكرية في قزوين والتي تناهض زعامته منذ البداية؛ وقد اتخذ من اغتيال اخيه حمزة ميرزا ذريعة في تصفية بعض الزعامات المعارضة له.

وعندما نفذ بعضهم محاولة فاشلة في اغتيال الوزير مرشد قلي خان استفاد من هذه الفرصة في تصفية عدد كبير منهم ايضاً.

وبعد هذه السلسلة من التصفيات في العاصمة وتحول الوزير الىٰ شخصية ممقوتة جداً وجد شاه عباس فرصة في الانقضاض عليه؛ اذ انتدب بعض أفراد القزلباش لاغتياله. وفي الطريق الىٰ خراسان لاسترداد المدن المحتلة من قبل الاوزبك وقريباً من مدينة شاهرود انقض بعض المسلحين على وكيل السلطنة (الوزير) الذي سقط مضرجاً بدمائه وسقط عدد من اتباعه واعوانه وصودرت ممتلكاتهم ووزعت مناصبهم على القاتلين، كانت هذه الخطوة

أولىٰ الاجراءات من أجل القضاء على ظاهرة النزاع المستمر الذي انغمست في حمأته الفرق القزلباشية؛ ان سقوط بعض الرؤوس الكبيرة كفيل بتقليم أظافر الآخرين.

وسوف نجد ان شاه عباس سيعمد الىٰ الاستفادة من عناصر خارج المنظومة القزلباشية وستشكل مساحة كبيرة من الجيش الصفوي.

في بداية تأسيس الدولة الصفوية لاحظنا كيف اعتمدت الدولة في تشكيل مؤسساتها غير العسكرية على عناصر غير تركية في طليعتها التاجيك الذين عرفوا بتفوقهم الثقافي وتمكنوا من النفوذ في المؤسسات الادارية والمدنية؛ في حين كانت المؤسسة الدينية ذات النفوذ الكبير تعتمد على علماء عرب من العراق وجبل عامل في لبنان.

وفي عهد شاه عباس وصلت الظروف السياسية والحروب الداخلية الىٰ أن يفكر شاه عباس بشكل جاد في استخدام عناصر جديدة وبناء مؤسسة عسكرية اكثر انضباطاً.

وربما من المفارقات ان يستخدم جنود من الاسرى الجورجيين ومناطق القفقاز وتشكلت فرق من الفرسان المسلحين بالنشاب والبنادق، واصبح الجيش الصفوي بعد تشكيل الفرق الجديدة أقوى عدة وأكثر عدداً، وتضاعف عدد القوات ولكن الحرس الملكي الذي وصل عدد أفراده الىٰ اثني عشر الف جندي ظل مكوناً من زبدة العناصر القزلباشية واستحدث منصب جديد هورئيس اركان الجيش (سپسهالار) وهواقرب ما يكون الىٰ منصب امير الأمراء في بداية تأسيس الدولة الصفوية.

الجبهة الداخلية

بدأت الالفية الثانية من التاريخ ومازال الدولة الصفوية تتعرض لهزات عنيفة جراء القلاقل الداخلية والعدوان الخارجي المستمر من الشرق والغرب.

واتجه شاه عباس الىٰ تعزيز الجبهة الداخلية واعادة بنائها قبل مواجهة التهديدات الخارجية.

استشرت الروح الانفصالية في كثير من المدن الايرانية؛ يزد، كرمان، اصفهان، فارس وگيلان.

والىٰ جانب التمرد على الحكومة المركزية كان حكام الاقاليم يتطاحنون فيما بينهم؛ فقد

استطاع يعقوب خان ان يقضي على العديد من الحكام المحليين بما فيهم حاكم يزد واستطاع السيطرة على ثلاثة مدن هامة هي يزد وكرمان وفارس. كان الرجل يعلن ولاءه للحكم الصفوي ولكن بعد ان ثبتت اقدامه جيداً كشف عن نواياه الانفصالية.

في اصفهان بدأ حاكمها يعزز من قدرات المدينة الدفاعية من ابراج وقلاع.

ولكن ما ان سمع بزحف الجيش الصفوي بقيادة شاه عباس نحو يزد وكرمان حتىٰ اعلن استسلامه والتحق بالشاه، ولكنه سرعان ما غير موقفه وتحصن في قلعة اصفهان، واحتفظ برسل شاه عباس رهائن.

وتمكن شاه عباس من اخماد الفتن؛ فيعقوب خان اغتيل مع مجموعة من انصاره واستسلمت المدن التي يسيطر عليها واصفهان هي الاخرى سقطت بعد احتلال قلعتها وتدميرها حتىٰ لا تستغل مرة اخرى في حركة انفصالية في المستقبل.

استمر شاه عباس في تصفية الانفصاليين وزعماء التمرد وكل من تشم منه رائحة المعارضة.

ويبدو ان گيلان هي المنطقة الوحيدة التي ظلّت ترفع لواء العصيان؛ فتحرك الجيش الصفوي الذي نجح في هزيمة قوات خان احمد الگيلاني، وعندما تناهت اخبار الهزيمة الىٰ الاخير فرّ مصطحباً معه اسرته وثروته الكبيرة الىٰ الدولة العثمانية.

وقد رافق تصفية رؤوس المعارضين والطموحين من القادة العسكريين والحكام المحليين سياسة اخرى كشفت عن قسوة الملك الشاب؛ راح شاه عباس يسمل عيون اخوته وبني عمومته من الامراء الصفويين؛ ذلك ان اي امير صفوى يمكن أن يكون مشروعاً لحركة انفصالية، لقد عاش مثل هذه التجربة سنوات مذ كان في خراسان سواء عندما كان صغيراً في هرات وعندما اختطف الىٰ مشهد، ثم رأى نفسه فيما بعد يسير نحو العرش في ظل حركة لاتبعد كثيراً عن الحركات الانفصالية.

من هنا فان سياسة سمل عيون الامراء كانت اجراءً احترازياً للقضاء على أية حركة تعيد ايران الىٰ الفوضى. وعندها نشر الهدوء المشوب بالحذر والترقب والخوف من هذا الملك القوي ظلاله في البلاد وامكن لشاه عباس أن يتنفس الصعداء قليلاً وأن يلتفت الىٰ مصادر أخرى للتوتر داخل البلاد. وفي هذه المرة كان على شاه عباس أن يواجه احدى

فرق الغلاة وهم النقطويون الذين يعدون امتداداً للحروفيين ومؤسس الحروفية التي تعد تلفيقاً بين الفلسفة والتصوف والعلوم الغريبة هو فضل الله الاسترابادي المولود سنسة ٧٤٠ هـ وعاش الاخير حياته درويشاً يتنقل بين مختلف المدن الاسلامية؛ اصفهان ومكة وتبريز وخوارزم ومشهد وكان يدّعي لقاء الأنبياء والائمة في النوم وألّف كتاباً في ما كان يراه في عالم الرؤيا اسماه «نوم نامه» واستقطب كثيراً من الناس البسطاء عندما اعلن قدرته على تفسير الاحلام ثم وصل به الامر ان ادعى درجة الانبياء ثم زعم انه المهدي الموعود وانه خاتم الاولياء وفيه تتجلى الالوهية[1]، وعندما اخمدت الحروفية ظهرت فرقة دينية هي النقطوية فاذا كانت الحروفية تعتمد الحروف في محور افكارها فان النقطوية كماهو واضح تعتمد النقطة وكذا الفرقتين تعودان بجذورهما الىٰ بقايا الاسماعيليين الذين تركزوا في قلعة الموت وفي كاشان.

وقد قام شاه عباس بقتل زعيمهم يوسف تركش دوز، بعد اعتقاله وقتل ثلاثة آخرين ترأسوا هذه الفرقة تباعاً.

ويبدو ان هواجس الشاه من هذه الفرقة هو امكانية من يظهر فيها مدعياً المهدوية التي هي مشروع واضح للثورة ضد الحكم القائم .

وقد ظهر فيما بعدفي اقليم گيلان من ادعى المهدوية وذلك في سنة ١٠٢٩ فاستدرجه الشاه الىٰ مازندران واوعز باغتياله.

وبعث الشاه قوات الىٰ اقليمي لرستان الذي تقطنه قبائل اللر وثقافتهم قريبة من الاكراد وخوزستان الذي يقطنه العرب واستطاع الشاه ان يبسط نفوذه في الاقليمين.

وظهرت حركة انفصالية في اقليم مازندران فتحرك الجيش الصفوي ١٠٠٥ واخمد التمرد بالقوة.

وعندما اطل عام ١٠٠٦ كانت الجبهة الداخلية تنعم بالهدوء التام بحيث راح شاه عباس في عام ١٠٠٧ يتطلع الىٰ الشرق الىٰ المدن المحتلة في اقليم خراسان الاستراتيجي الىٰ مدينة مشهد على وجه التحديد هذه المدينة التي اصبحت لها اهمية فائقة بسبب وجود مرقد ثامن

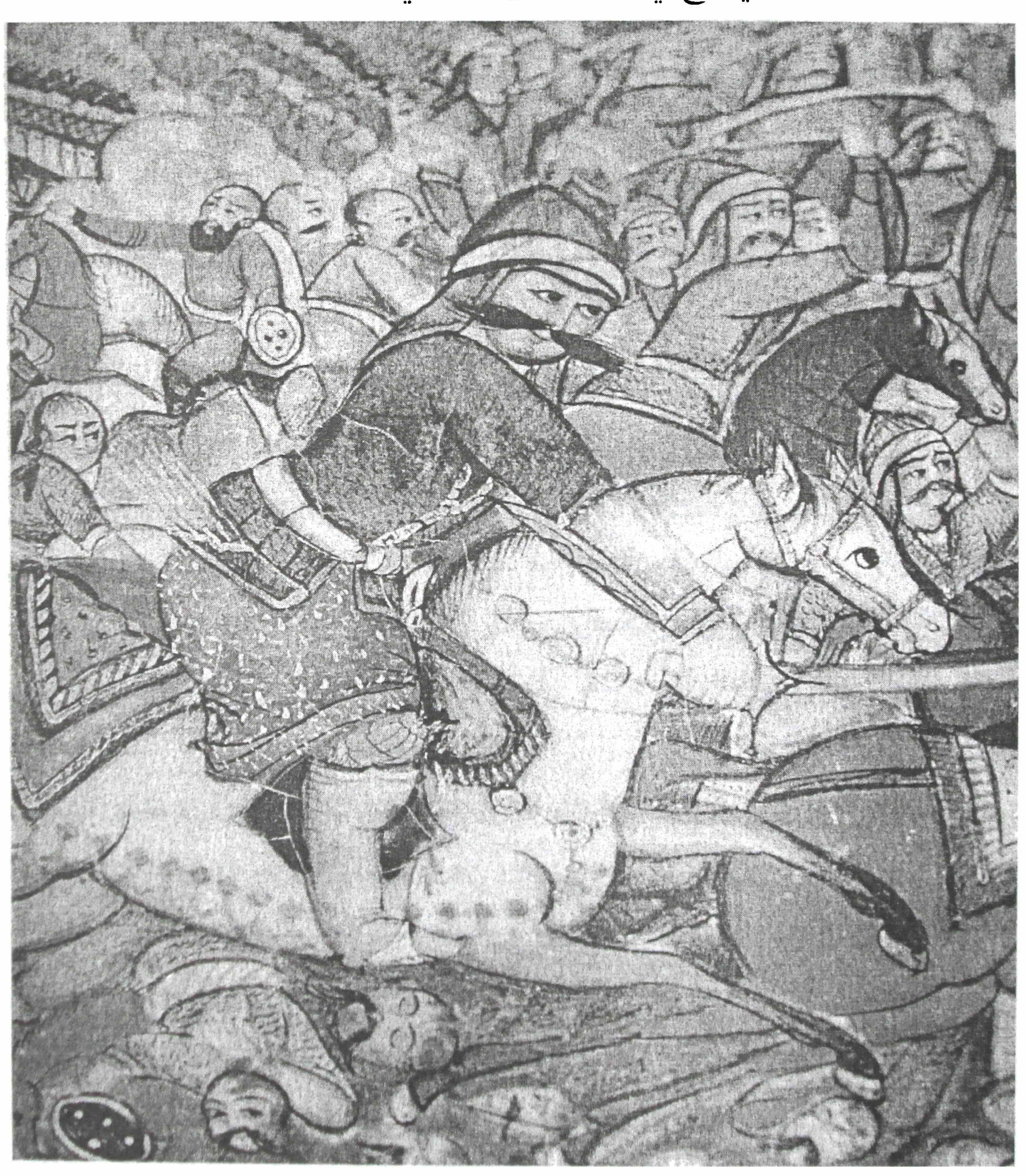
---

[1] تاريخ ايران: ج ٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٩.

أئمة اهل البيت(عليهم السلام).

الصراع مع الاوزبك وتحرير الاراضي المحتلة

كانت أولىٰ الخطى في مواجهة التهديدات الخارجية هي محاولة شاه عباس استعادة وتحرير المدن المحتلة في اقليم خراسان وكان ذلك عام ١٠٠١، ولذا جرد الشاه حملة عسكرية بقيادة فرهاد خان القائد الذي نجح في القضاء على التمرد في گيلان ومازندران فيما بعد.



ومع وصول الانباء الىٰ ماوراء النهر تحرك جيش اوزبكي بقيادة عبدالمؤمن خان نحو خراسان لتعزيز وتوسيع رقعة الاحتلال.

وبسبب التفوق الكبير للجيش الاوزبكي عاد الجيش الصفوي ادراجه نحو قزوين.

قام الجيش الاوزبكي باحتلال مناطق جديدة في طليعتها مدينة اسفراين بعد محاصرة قلعتها الحصينة مدة اربعة اشهر.

وكان واضحاً وكما اشرنا الىٰ ان الشاه لم يكن يتورط بخوض حرب مصيرية مالم يؤمن جبهته الداخلية، ومع هذا فقد كان شاه عباس يعود الىٰ تسخين الجبهة كلما سنحت له فرصة مناسبة.

وفي عام ١٠٠٢ زحف جيش صفوي كبير لمواجهة قوات الاحتلال في خراسان وحاول الاوزبك اقناع الشاه دبلماسياً بالتخلي عن الاراضي المحتلة كما هو الحال في خراسان قبل قيام الدولة الصفوية.

ولما لم تجد هذه الاقتراحات اذناً صاغية فضل عبدالمؤمن الانسحاب الىٰ بلخ ومغادرة خراسان.

وبعد تحرير سبزوار وقتل حاكمها الاوزبكي فرّ بقية الحكام الاخرين الىٰ ما وراء النهر، فيما تجمعت قوات كثيفة من الاوزبك في مشهد لمواجهة الزحف الصفوي.

واقترن ذلك مع فصل الشتاء حيث البرد الشديد والصقيع، ولذا عاد الجيش الصفوي الىٰ قزوين؛ فيما فضّل شاه عباس الانطلاق الىٰ اصفهان لقضاء فصل الشتاء في هذه المدينة التي سيتخذها الشاه عاصمة له.

وانشغل الجيش الصفوي كما تمت الاشارة اليه باخماد الفتن والقلاقل الداخلية حتىٰ عام ١٠٠٦ حيث الاوزبك يعززون باستمرار من وجودهم في اقليم خراسان.

وكان عبدالمؤمن خان ابن عبدالله زعيم الدولة الاوزبكية قد اتخذ من بلخ مركزاً لحكمه وقاعدة عسكرية لادامة حملاته على خراسان.

ويشاء القدر ان ينفجر نزاع بين الاب والابن وقد حاول شاه عباس استثمار الخلاف بارسال سفير الىٰ بخارى ولكن عبدالله خان قد توفي ليتربع على دست الحكم ابنه عبدالمؤمن المعروف بدمويته وقد لقي الاخير مصرعه في عملية اغتيال نفذها اثنان من

جنوده.

وكادت الفوضى تعم البلاد ولكن انتخاب احد القادة السابقين في عهد عبدالله خان للحكم في بخارى اعاد الهدوء الىٰ العاصمة ولكن بلخ كانت تستعد للتمرد.

وفي تلك الاثناء قام احد القادة الاوزبك في خراسان بالسيطرة على اجزاء واسعة من الاقليم، وكان يستعد لاحتلال هرات وكان سكان المدينة بعثوا اليه برسالة مفادها انتخابه للحكم دون حاجة لاراقة الدماء.

وهنا لم يترك شاه عباس هذه الفرصة لتفلت من يده فحرك قواته نحو خراسان باتجاه مشهد؛ وفر الاوزبك لعجزهم عن مواجهة الجيش الصفوي ودخل شاه عباس المدينة بعد عشر سنين من الاحتلال.

وكان دين محمد خان الحاكم الجديد في هرات يسعى جاهداً للدفاع عن الوجود الاوزبكي في خراسان.

وفي مدينة خراسان بعث شاه عباس جيشاً بقيادة فرهاد خان نحو هرات، وتحرك هو على اثره على رأس جيش آخر.

وبعد مداولات داخل هيئة اركان دين محمد خان تقرر مواجهة الزحف الصفوي خارج المدينة.

وحدثت مواجهة عنيفة استطاع الجيش الصفوي بعد قتال مرير ان يلحق هزيمة ساحقة بالأوزبك وقد بلغ عدد القتلى مايناهز الاربعة آلاف جندي وقد جرح قائدهم دين محمد خان حيث لقي حتفه اثناء فراره متأثراً بجراحه.

وما يثير تساؤلات عديدة هو اقدام شاه عباس على قتل فرهاد خان القائد العسكري الموهوب وسيشعر شاه عباس فيما بعد بالندم الشديد وهو امر سوف يتكرر بعد اكثر من ربع قرن عندما أقدم الشاه على قتل ابنه ولي العهد ثم شعوره بالندم

ولعل شكوكه هذه تعود الىٰ عقدة نفسية مترسخة في اعماقه ومن تجاربه الشخصية عندما زجته الاقدار في المؤامرات مذ كان صبياً.

ولاننسى ان والدته مهد عليا كانت قد لقيت مصرعها على أيدي القادة العسكريين.

ان نجم فرهاد خان كان يتألق في ميادين الحروب والمعارك ولعل هذا اثار في قلب الشاه

بعض المخاوف من قيامه بحركة انقلابية.

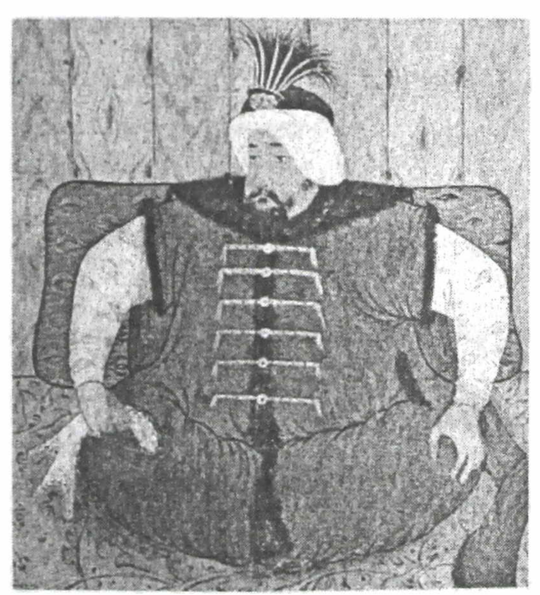
ولاتوجد مبررات كافية لمثل هذه المخاوف ذلك ان أي قائد عسكري لن يقدم على عملية انقلابية مالم يجد أميراً من الأسرة الصفوية يتخذه غطاء لمشروعه.

وعلى اي حال بسطت الدولة الصفوية نفوذها على اقليم خراسان مرة اخرى وعاد شاه عباس الىٰ عاصمته ماراً ببعض المدن الشمالية لترسيخ حالة الاستقرار التي استتبت منذ مدة.

وشهدت الاعوام ١٠٠٨، ١٠٠٩ عمليات عسكرية محدودة في خراسان الهدف من ورائها ترسيخ نفوذ الدولة في تلك الاصقاع. وفي عام ١٠١١ ومن اجل إحكام السيطرة النهائية على اقليم خراسان رأى شاه عباس ان يقود حملة عسكرية الىٰ ما وراء النهر وبالتحديد الىٰ بلح ودحر الاوزبك في عقر دارهم وقد انتصر الجيش الصفوي في المعارك لكنه انسحب بعد ذلك بسبب تفشي الوباء بين افراده.

وهكذا اطمأنت الدولة الصفوية الىٰ قدرتها الدفاعية المحلية وانصرف البلاط الصفوي الىٰ معالجة الوضع في الجبهة الغربية.

ولم يقم الاوزبك بأي عمل عسكري حتىٰ سنة ١٠١٥ عندما حاولوا استغلال الوضع بانشغال شاه عباس في الصراع مع الدولة العثمانية فقاموا بمهاجمة خراسان في حملة عسكرية فاشلة.



احد سلاطين الامبراطورية العثمانية

الصراع الصفوي العثماني وتحرير المدن المحتلة

ان عام ١٠١٢ هـ هو عام استئناف النزاع والاشتباكات بين الدولتين الجارتين وكان واضحاً لدى الدولة العثمانية وهي تمضي قدماً في بناء قلاع حصينة في المدن المحتلة ان الصفويين لن ينسوا مدنهم المحتلة وبخاصة مدينة تبريز عاصمتهم الاولىٰ.

ويبدو ان الاقدار كانت تسير لصالح شاه عباس فقد انفجر نزاع داخل الدولة العثمانية بين السلطان محمد خان الذي تربع على عرش الامبراطورية منذ عام ١٠٠٣ وبين معارضيه الذين استولوا على قلعة نهاوند.

وحاول وفد قادم من بغداد ان يهدئ الوضع المتأزم وينتزع القلعة من قبضة المعارضين فأخفق؛ ورأى الوفد ان يستنجد بالدولة الصفوية التي ارسلت معه تعزيزات عسكرية وسقطت القلعة بأيدى القزلباش الذين طردوا الفريقين المتنازعين.

ولا يوجد تفسير معقول يبرر اتصال وفد بغداد بالدولة الصفوية لضرب المعارضين للسلطان العثماني اللهم سوى كسر شوكة المعارضة التي قد تهدد السلطان نفسه.

وكان شاه عباس يراقب عن كثب النزاع الداخلي المحتدم داخل الامبراطورية العثمانية فقاد جيوشه من اصفهان الىٰ ابواب تبريز في مدة قياسية، بلغت احد عشر يوماً فقط، وبلغت سرعة الجيش الصفوي حدّاً ان العثمانيين في تبريز فوجئوا بالقوات العسكرية القزلباشية.

وفوجىء سكان تبريز الذين نبذوا اسلوب التقية جانباً وراحوا يهتفون بحياة شاه عباس، وظهرت على الفور القبعات القزلباشية التي كان السكان يتفنّنون في اخفائها خوفاً من العقاب العثماني القاسي.

ان دخول الجيش الصفوي الىٰ تبريز ليس عملاً عسكرياً ذا اهمية لان الاساس هو احتلال القلعة والحاق الهزيمة بالجيش العثماني القادم من مدينة مرند.

وحدثت المواجهة خارج مدينة تبريز على بعد عدة كيلومترات منها وحقق القزلباش نصراً مؤزراً ووقع قائد الجيش العثماني علي باشا في الاسر.

وعرض المتحصنون داخل القلعة فكرة التفاوض وليغادروا القلعة بامان.

وبعد مشاورات مع شيوخ المدينة ارتأى شاه عباس تدمير القلعة وكان من المفترض

الاستفادة منها في المستقبل بعد تعزيز دفاعاتها لانها قلعة قوية جداً.

وكعادته ندم الشاه على ذلك وحاول اصلاح خطأه ببناء قلعة جديدة وقلعة أُخرى ايضاً.

وبعد تحرير تبريز من الاحتلال تقدم الجيش الصفوي نحو يرفان ونخجوان حيث سكان تلك المناطق يوالون الدولة الصفوية ولكن العثمانيين ومن خلال قلاعهم القوية فرضوا سيطرتهم فيها مدة عشرين سنة.

ومع وصول الجيش الصفوي، سلم العثمانيون قلعة نخجوان دون مقاومة وتم الاتفاق على مغادرتها، اما قلعة يرفان فقد قويت عزيمة السكان هناك مع وصول انباء تقدم القوات القزلباشية وأمر الشاه عباس ان تنصب مدافع على مشارف القلعة لقصفها واحضرت مدافع اضافية من تبريز واستمر النشاط العسكري لاقتحامها الىٰ نهاية الشتاء واثناء الحصار وصلت الجيش الصفوي تعزيزات عسكرية من جورجيا.

وتحظى يرفان باهمية بالغة لدى البلاط الصفوي، ولاتقل في ذلك عن مدينة تبريز لذلك كان شاه عباس يصر على تحريرها من الاحتلال العثماني.

وفي فجر ٢٨ ذي الحجة ١٠١٢ بدأ الهجوم الصفوي الشامل وسقطت القلعة الجديدة بأيدي المهاجمين، وفيما كانت القوات تستعد لاسقاط القلعة القديمة طلب شريف باشا القائد العثماني الصلح وكان يهدف من وراء ذلك التخفيف من ضغط الهجوم وكسب المزيد من الوقت ريثما تصل تعزيزات عسكرية عثمانية.

وفي ليلة عاشوراء من محرم الحرام من السنة الهجرية الجديدة ١٠١٣ خرجت مواكب العزاء الحسيني والتي كانت ممنوعة في زمن الاحتلال وتصور العثمانيون ان قوات صفوية جديدة قد وصلت فعرض رغبته في السلام الفوري.

ومن المدهش ان شريف باشا العثماني كان اصفهانياً في اصله وبعد أن سقوط القلعة وخروج العثمانيين من يرفان فضل العيش في كنف الدولة الصفوية واعتنق المذهب الشيعى الذي كانت له ارضية في نفسه منذ أيام الطفولة، ولذا ترك اسرته في الديار العثمانية ورحل الىٰ مدينة مشهد المقدسة ليقيم هناك ولم يكن وحده بل رافقه مئة من انصاره.

وواكب العمليات العسكرية في تحرير المدن المحتلة طلب حاكم بغداد العثماني اوزون

احمد باشا الذي اعلن تمرده على السلطان العثماني عوناً عسكرياً من الدولة الصفوية وتسليم بغداد اليها، وتحركت قوات عسكرية من اقليم فارس نحو بغداد ولكن حاكمها تراجع عن قراره السابق؛ فحوصرت المدينة وفي الاشتباكات ظهر تفوق القوات الصفوية وكانت بغداد على وشك السقوط بأيدي الصفويين.

ولكن أوامر شاه عباس بفك الحصار وصلت، بعد تحرير المدن الثلاث الرئيسية، وفيما كان الجيش الصفوي يستعد للمرحلة الثانية من عمليات التحرير وصل مبعوث عثماني يعرض فكرة السلام والمصالحة والاعتراف المتبادل بالخارطة الجديدة، وقد رفض الشاه عباس المبادرة العثمانية وكان يعد العدة لاستكمال عمليات التحرير، ورد الجانب العثماني على ذلك بتجريد حملة عسكرية معززة بقوات كردية من اذربيجان وكان هدف الحملة احتلال مدن مرند وخوي وماكو، وتصدى الجيش الصفوي للهجوم المرتقب ولكن المهاجمين انسحبوا فيما رابط الجيس الصفوي في تلك المناطق مدة من الزمن.

وفي جورجيا غادرت قوات عسكرية لاحتلال شيروان بقيادة كستنديل خان وكان الاخير قد نشأ في البلاط الصفوي وقد طلب من والده واخيه القيام باحتلال شيروان فرفضا وانفجر نزاع مسلح بين الجانبين وتدخل القزلباش لصالح كستنديل خان الذي انتصر على والده واخيه ولقي الاخيران مصرعهما في النزاع وتربع كستنديل خان على حكم جورجيا كولاية تتمتع بحكم ذاتي وتخضع لنفوذ الدولة الصفوية.

وقد استطاع حاكم جورجيا المسلم هزيمة العثمانيين ولكن حوادث شغب حصلت في جورجيا المسيحية التي ترفض أن يكون حاكمها مسلماً، وقد لقي كستنديل خان مصرعه بعد محاولته استرداد زعامته الضائعة.

كانت القوات العثمانية المتمركزة قرب سواحل بحيرة ارومية تمثل تهديداً جدياً لامن اذربيحان ولم يقف شاه عباس مكتوف الايدي بعد ان وصلته تقارير تفيد بوجود استعدادات لمهاجمة تبريز.

ولذا باغت الجيش الصفوي هذه القوات وبددها، وعبأت الدولة العثمانية جيشاً جراراً لاحتلال تبريز واصطدم الجانبان في معارك ضارية ودارت الدائرة على العثمانيين الذين فضلوا الفرار الىٰ ديار بكر.

حتىٰ عام ١٠١٤ ماتزال قره باغ وشيروان تحت السيطرة العثمانية وبعد هزيمة الجيش العثماني الاخيرة تحرك الجيش الصفوي باتجاه قره باغ وذلك في مطلع عام ١٠١٥ هـ وضرب الجيش الزاحف حصاره على قلعة گنجه وعلى مدى اربعة اشهر من الحصار لم تصل نجدة عثمانية الىٰ القلعة واضطر المتحصنون داخلها الىٰ الاستسلام وبعد هذا الفتح قاد شاه عباس جيوشه صوب شيروان وبالرغم من اقتراب فصل الشتاء ضرب الجيش الصفوي حصاره على قلعة شماخي أقوى اقلاع العثمانيين في شيروان وطالت مدة الحصار حتىٰ صفر من سنة ١٠١٦ هـ وحينئذ تمكن القزلباش من النفوذ داخل القلعة وبعد اشتباكات استغرقت عدة ايام رجحت كفة الصراع لصالح الجيش الصفوي وهزم الجيش العثماني وسلم احمد باشا القائد العثماني نفسه وتم تحرير شيروان من السيطرة العثمانية.

ولاننسى أنّ انهماك الدولة العثمانية بمعالجة مشكلة معارضيها التي كانت تتفاقم يوماً بعد يوم ولٰكن الحكومة المركزية تمكنت من تشتيتها ولجأ الثلاثة عشر الفاً من افرادها الىٰ ايران وحلوا ضيوفاً على الشاه في اصفهان.

وحاول شاه عباس توظيفهم في صراعه مع الدولة العثمانية والاستفادة منهم كخط دفاعي في كردستان تحت قيادة القزلباش ولكنهم آثروا العودة الىٰ الوطن وكان عددهم يتضاءل بمرور الزمن.

وعلى صعيد العلاقات بين الدولتين وصل سفير من الصدر الاعظم العثماني مراد باشا لاجراء محادثات مع البلاط الصفوي.

وأجرى السفير محادثات مع الشاه على انفراد اكد فيها على ضرورة الصلح بين الدولتين لان استمرار الحرب بين الدولتين سيكون في صالح اعداء الاسلام والمسلمين.

واشار شاه عباس الىٰ ان انتهاك معاهدة السلام كان من الجانب العثماني في عهد السلطان مراد الثالث، ولكنه اكد ايضاً على ضرورة السلام.

وعاد السفير العثماني بصحبة سفير الدولة الصفوية يحمل رسالة ودية الىٰ السلطان العثماني.

وفيما كانت محادثات السلام جارية وصلت انباء عن هجوم الجيش العثماني بأوامر من مراد باشا الصدر الاعظم العثماني، وعلى وجه السرعة أرسل الشاه فرقاً عسكرية لاحراق

ما يمكن ان يفيد الجيش العثماني وتلا ذلك تقدم الجيش الصفوي وجرت اشتباكات وهزمت القوات العثمانية التي حاولت تدارك هزيمتها بارسال جيش كبير الىٰ تبريز ولم يحدث اشتباك سوى مناوشات محدودة.

وجرى لقاء بين السلطان العثماني وسفير ايران في عام ١٠١٩ وتقرر ارسال مبعوث من الجانب العثماني لترسيم الحدود بين الدولتين.

وفي عام ١٠٢٠ هـ ارسل شاه عباس وفداً رفيع المستوى لاجراء محادثات مع الدولة العثمانية حول السلام وضم الوفد علماء دين كبار وحمل الوفد رسائل من الشاه الىٰ السلطان العثماني والىٰ شخصيات دينية متنفذة تتضمن دعوة للعمل من اجل السلام واصلاح ذات البين والوقوف صفاً واحداً في مواجهة العدو المشترك.

وتمخضت المحادثات عن اتفاق يقضي بتعيين ممثلين عن الجانبين لبحث اتفاق السلام بالاستناد الىٰ معاهدة السلام التي وقعت في عام ٩٦٩ هـ خاصة فيما يتعلق بترسيم الحدود بين الدولتين وتعثرت مسيرة السلام بعد مقتل الصدر الاعظم العثماني ومالبثت الانباء ان وصلت اصفهان حول تحرك الجيش العثماني وانفجار القلاقل في كل من جورجيا وكردستان وفي خراسان عمت الفوضى مع هجوم الاوزبك على مرو. كان هدف القوات العثمانية احتلال يرفان التي حوصرت وراحت مدفعية العثمانيين القوية تمطر قلاعها بشدة ولكن القلعة صمدت بوجه المهاجمين.

وادرك العثمانيون انه لامناص من استئناف مسيرة الصلح والسلام.

ولكن العثمانيون عادوا واصطدموا بالجيش الصفوي وتكبدوا خسائر فادحة بسبب المعارك والبرد وعادوا من حيث اتوا مخلفين وراءهم اربعين ألف ضحية.

ومع مجيء سلطان جديد هو مصطفى واعقبه بعد عام السلطان عثمان انفجر الوضع في اذربيجان والتهبت الجبهة الغربية من جديد وسقطت تبريز ليتمركز الجيش الصفوي في اطرافها.

وكان لابد من حدوث المواجهة حيث اصطدم الجيشان في ملحمة عظيمة كان النصر من حليف الصفويين، الذين هزموا أعداءهم وراحوا يطاردون فلولهم. واوقف شاه عباس عمليات المطاردة ورحبت الدولة الصفوية مرة اخرى باستئناف مسيرة السلام التي انتهت

الىٰ توقيع اتفاق بين الدولتين.

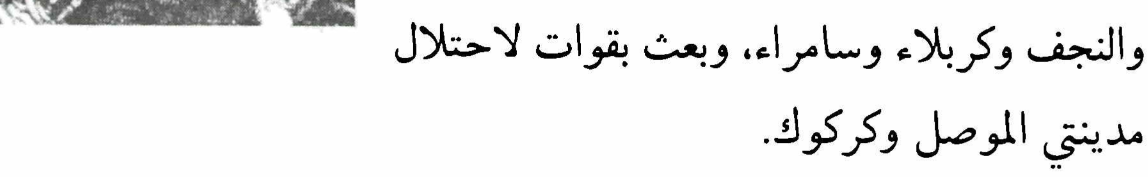
واتجهت الدولة العثمانية بعد ذلك الىٰ الجبهة الاوربية لتواصل تقدمها في تلك القارة.

وتزامن ذلك مع نجاح الحكومة الصفوية في طرد البرتغاليين من مضيق هرمز.

وفي عام ١٠٣١ وفيما كان شاه عباس في مدينة هرات؛ المدينة التي امضى فيها شطراً من طفولته وردت انباء عن حدوث قلاقل في استنبول عاصمة الامبراطورية العثمانية قتل اثرها السلطان عثمان بعد ثلاثة أعوام من حكومته وعودة السلطان مصطفى الىٰ الحكم مرة اخرى.

وافرزت هذه الاحداث وضعاً جديداً في العراق الذي انفصل من الناحية العملية عن نفوذ الدولتين العثمانية والصفوية.

وانتهز شاه عباس هذه الفرصة فحرك قوات نحو بغداد لاحتلالها وقد برر الشاه هذا الاجراء الذي يعد انتهاكاً لمعاهدة السلام ان العراق بشكل عام هو ميراث الدولة الصفوية التي قامت على انقاض دولة الخروف الأبيض التي كانت تحكم العراق[١].



اضافة الىٰ ان العثمانيين يسيطرون على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة ولذا يتعين عليهم ترك العتبات المقدسة في العراق تحت نفوذ الصفويين.

وفتحت بغداد ـ بعد مقاومة ـ أبوابها للشاه الصفوي وبدأ المنبر الشيعى الذي كان صامتاً في ظل العثمانيين في الحديث والخطابة.

زار الشاه العتبات المقدسة في الكاظمية والنجف وكربلاء وسامراء، وبعث بقوات لاحتلال مدينتي الموصل وكركوك.

في عام ١٠٣٤ تمكن العثمانيون من استرداد بغداد بعد حصار امتد ستة اشهر.

---

(١) وفقاً لهذا المنطق يتوجب على شاه عباس ان يتخلى عن خراسان لصالح الاوزبك حيث نهضت دولتهم على أنقاض الدولة الغزنوية التي كانت تحكم خراسان.

المسألة الجورجية

من كل ما أمكن الاشارة اليه نلاحظ ان علاقة الدولة الصفوية بجورجيا نشأت قبل قيام الدولة عندما كانت هدفاً جهادياً للحركة الصفوية الصوفية؛ وبين فترة واخرى كان القزلباش ينفذون اليها بالقوة لتكون تحت نفوذهم واصبحت وفقاً لذلك اقليماً يتمتع بحكم ذاتي بسبب انتماء سكانه الىٰ الدين المسيحي. وقد حدثت لمرة واحدة أن نجح الصفويون في تنصيب حاكم مسلم جورجي هو الامير كستنديل خان الذي اطيح به بسبب ذلك.

وكانت جورجيا أيضاً مصدراً للرقيق فكل الحملات الصفوية التي هاجمت جورجيا لم ترجع الا بآلاف الغلمان والفتيات الحسان.

وبسبب موقع جورجيا الجغرافي فقد كانت تراقب بحذر العلاقات بين الدولتين الصفوية والعثمانية.

وبشكل عام ترى جورجيا نفسها أقرب الىٰ الصفويين منها الىٰ الدولة العثمانية وقد رأينا اسهاماتهم العسكرية الىٰ جانب القزلباش ضد العثمانيين، ذلك انهم يرون الصفويين أقل خطراً من العثمانيين.

وقد اقدم شاه عباس على استخدام الجورجيين في الجيش الصفوي بعد ان كان حكراً على القبائل التركية (القزلباش) الىٰ جانب الايرانيين من اصفهان وغيرها من مدن ايران.

وقد تضاعف عدد الجورجيين في الجيش كما تضاعف عددهم ايضاً في المنازل كخدم وحرس وباتوا يشكلون هاجساً يهدد امن ايران بالخطر فربما يثأرون ذات يوم لبلدهم جورجيا ومعاناتها من الدولة الصفوية، ولكنهم فيما يبدو ذابوا في المجتمع الجديد وفي رأيي ان العقيدة

الاسلامية صهرتهم في بوتقة الدين الجديد ووجدوا معاملة طيبة من قبل الشعب المسلم في ايران تختلف بطبيعة الحال عما شاهدوها أوّل مرة في ظروف الحرب والقتال والغزو.

العلاقات الخارجية

القى الصراع الصفوي مع الاوزبك في الشرق ومع الدولة العثمانية في الغرب والشمال الغربي بظلاله على علاقات الصفويين الخارجية.

فالعلاقات الهندية الايرانية مرت بمراحل من الازدهار الذي وصل الىٰ حد تحالف الدولتين في مواجهة التهديدات الاوزبكية وهي مسألة تحظى بأهمية مشتركة لدى الدولتين. وفي ملابسات اشرنا اليها في الفصل الثاني عندما اقدم شاه طهماسب على احتلال قندهار دخلت العلاقات الهندية الايرانية مرحلة من البرود ولم ترسل الهند ممثلاً عنها للمشاركة في تقديم التعازي عند وفاة شاه طهماسب.

واستمرت العلاقات بهذا المستوى؛ شعور بالحذر وقلق من جانب الحكم البابري في الهند وعدم اكتراث من قبل الدولة الصفوية المشغولة بمعالجة مشكلاتها، ولم تقدم الهند على انتهاز فرصة الفوضى التي عمت ايران في استعادة مدينة قندهار وكابل.

وفي عام ٩٩٥ هـ عندما اجتاح الاوزبك خراسان واصبحوا دولة جوار مع الهند عرضوا على الاخيرة التحالف وشن حرب مقدسة للقضاء على الحكومة الشيعية والسيطرة على طريق الحج.

ولكن اكبر شاه رفض الاقتراح الاوزبكي واقتصر اتفاق الجانبين على استعادة الهند للمدينتين مقابل الموقف الحيادي في الصراع بين الاوزبك والصفويين.

وقد بسطت الهند نفوذها على المدينتين في عام ٩٩٩ هـ وحاول شاه عباس تعزيز العلاقات بين الدولتين بارسال سفيره «يادگار سلطان روملو» الذي يتمتع بشخصية مؤثرة .

ولم يجد الاخير استقبالاً حسناً وظل حوالىٰ سبع سنوات ينتظر الموافقة على استقبال الامبراطور الهندي وكان يهدف من وراء ذلك اسقاط مسألة قندهار من أية محادثات محتملة.

وفي عام ١٠٠٥ ارسلت الهند سفيرها الىٰ البلاط الصفوي حيث شرح بشكل مفصل التغيرات التي طرأت على العلاقات بين الدولتين منذ الاحتلال الصفوي لقندهار.

وفي عام ١٠٠٦ بعث شاه عباس موفداً الىٰ الهند لينقل الىٰ بلاطها نبأ استعادة مدينة هرات من الاوزبك.

واهمل البلاط الهندي استقبال المبعوث الصفوي اربع سنوات وفي عام ١٠١١ ارسلت الهند مبعوثاً الىٰ البلاط الصفوي فيما كان شاه عباس يحاصر مدينة يرفان لتحريرها من الاحتلال العثماني.

وربما من باب المقابلة بالمثل اهمل البلاط الصفوي المبادرة الهندية وبعد ثلاث سنوات ارسل شاه عباس سفيره الىٰ الهند ولكن اكبر شاه كان قد توفي ليخلفه على الحكم ابنه جهانگير.

وفي عام ١٠١٥ هـ هاجم القزلباش الموجودين في هرات قندهار ولكن التعزيزات العسكرية الهندية اجبرت المهاجمين على الانسحاب.

ونفى شاه عباس في رسالة الىٰ جهانگير علمه بالموضوع ويبدو ان الاخير كان متحمساً لاقامة علاقات طيبة مع الدولة الصفوية، وكان أول مؤشر على ذلك تعزيز العلاقات التجارية ووصلت العلاقات بين الزعيمين الىٰ مستوى صميمي جداً.

ولكن هذا المستوى من العلاقات لم يسقط مسألة قندهار من ذاكرة شاه عباس الذي أوفد مبعوثاً الىٰ الهند يحمل الىٰ جهانگير هدايا البلاط الصفوي وقد بحث «زينل بيگ» السفير الصفوي مع زعيم الهند اعادة قندهار الىٰ الدولة الصفوية وهو امر رفضه جهانگير.

وقد رد شاه عباس على ذلك بتعبئة جيش لاحتلال المدينة وذلك في عام ١٠٣١ هـ ، ومع ذلك فقد حافظت الهند على علاقاتها الطيبة مع الدولة الصفوية وهو نوع من الاعتراف بالامر الواقع.

ويمكن القول ان الهند في ظل الحكم البابري لم تمارس سياسة توسعية على غرار الحكم الاوزبكي والدولة العثمانية وحتىٰ الدولة الصفوية.

وعلى صعيد العلاقات الهندية الايرانية كانت الهند تمثل حلماً للمهاجرين الايرانيين وبخاصة الشريحة المثقفة من شعراء وأدباء وفنانين، هذه الهجرة التي كانت لها تأثيرات ثقافية

واضحة في المهجر وقد اصبحت اللغة الفارسية في الهند احدى لغات البلاد الحية.

ويمكن الاشارة الىٰ أن بعض اسباب الهجرة يعود الىٰ السياسة المذهبية واعلان المذهب الشيعى المذهب الرسمي وربما الوحيد اضافة الىٰ سياسة التشدد الديني خاصة الرعيل الأوّل من المهاجرين ثم انضم الىٰ قوافلهم تجار وأفّاقون و ارتسمت صورة ملونة لشبه القارة الهندية في اذهان المجتمع الايراني.

ومن الطبيعي ان تتبلور هكذه صورة مشجعة على الهجرة، فالهند كانت تنعم بالثروة والأمن.

وقد تسنم بعض المهاجرين مناصب رفيعة في الولايات الهندية.

وكان من الطبيعي ان يكون لهذه الهجرة تأثيرات ثقافية.

ومع بدء الالفية الثانية من التاريخ الهجري شهدت ظاهرة الهجرة الايرانية سفر علماء شيعة كان هدفهم نشر التشيع في تلك الديار.

وبالرغم من ان الوجود الشيعى كان محدوداً خاصة في جنوب الهند الا ان التعاون العسكري المشروط الذي حصل في عهد شاه طهماسب واعلان امبراطور الهند اعتناقه المذهب الشيعى، كان له اثر واضح في فسح المجال امام التبليغ للمذهب الشيعى، اضافة الىٰ ان الحكم البابري كان معافي من التعصب المذهبي الذي ابتليت به الدول الاسلامية الاخرى.

وفي تلك الفترة ظهرت كتب نفيسة تعد في طليعة الانتاج المعرفي للشيعة في الهند، بل وحتىٰ خارج الهند، من قبيل كتاب «احقاق الحق وموسوعة مجالس المؤمنين التاريخية الأدبية» وبالرغم من ان كتاب احقاق الحق قد اثار ضجة كبرى في الهند وثارت ثائرة السنة الذين قادوا حملة شعواء على مؤلفه القاضي نورالله ادت فيما بعد الىٰ اعتقاله وتعذيبة حتىٰ الموت، حيث اشتهر في تاريخ الشيعة بالشهيد الثالث بعد الشهيدين الأوّل والثاني.

ومع كل ذلك فقد كان الوجود الشيعى ينمو باستمرار خاصة بعد نفوذ ثقافة الاحتفال بعاشوراء سيدنا الحسين(عليه السلام) في العاشر من محرم الحرام من كل عام، ولهذه الاحتفالات تأثيرها النافذ والقوي في ترسيخ المذهب الشيعى في محيط سني لاينظر بارتياح الىٰ الشيعة.

العلاقات الايرانية الاوربية

ظل الصراع مع الدولة العثمانية هاجس الملوك الصفويين منذ تأسيس الدولة ذلك ان الحروب المتعاقبة بين الدولتين لم تكن حرب حدود وانما كانت حرب وجود بالدرجة الاولىٰ، فقد وصل التناقض السياسي اوجه وجرّ اليه ـ لاهداف سياسية ـ تناقضاً طائفياً مؤسفاً وبسبب انتهازية بعض زعماء الدولتين لم تكن هناك فرصة حقيقية للتعايش السلمي واقامة علاقات اخوية ثابتة ومستقرة.

ومن هنا فقد اشرنا الىٰ ان هذا الصراع القى بظلاله على علاقات ايران الخارجية.

وقد حاول شاه عباس توظيف علاقاته مع اوربا بطريقة يدعم فيها موقفه ضد الدولة العثمانية عدوة ايران اللدودة.

وبسبب المصالح المشتركة بين ايران واوربا التي تعاني هي الاخرى من التهديدات العثمانية؛ فقد جرت حوارات متقطعة بين الاوربيين والدولة الصفوية وكل يبحث عن تحقيق ما يصبو اليه.

وحاول البرتغاليون الاستفادة من الوضع الدولي للتمدد في الاراضي الايرانية الجنوبية واقد اشرنا الىٰ احتلالهم مضيق هرمز وبسطوا نفوذهم في البحرين فاستنجد اميرها بفارس وانطلقت قوة مسلحة من الاقليم لاحتلال البحرين وطرد البرتغاليين وقد حصل ذلك عام ١٠٠٩ وحاول البرتغاليون اعادة سيطرتهم على الجزيرة فاخفقوا.

وبعد هذه الخطوة تقدم القزلباش لاسترداد بندر عباس ولكن الاسطول البرتغالي المرابط في الهند تحرك نحو المنطقة، وصدرت أوامر الشاه بفك الحصار عن الميناء.

في عام ١٠١١ وفيما كان شاه عباس في مدينة مشهد وصل اسقف برتغالي وطلب الاخير من البلاط الصفوي السماح له بالقيام بعمل تبشيري.

وبعد هذا اللقاء حضر وفد بابوي يحمل فيما يحمل ايضاً رسالة من فيليب ملك اسبانيا، وانصبت الحوارات حول العمل التبشيري والتعاون الاوربي الايراني ضد الدولة العثمانية.

وطلب شاه عباس من الاوربيين مواجهة الدولة العثمانية في الوقت الحاضر وارجاء مناقشة القضايا الاخرى الىٰ ما بعد النصر.

وكان الاوربيين يتوجسون من أن تقوم الدولة الصفوية بمصالحة العثمانيين وكانوا

ينشطون في الحوؤل دون ذلك ما أمكن .

وبعد سلسلة الانتصارات التي احرزتها الدولة الصفوية في الجبهة الغربية والشمالية الغربية وتحرير المدن المحتلة لم تبق ثمة اهمية للتعاون مع اوربا وراح شاه عباس يفكر في تحرير شواطىء الخليج الايرانية من الهيمنة الخارجية.

وفي عام ١٠٢٢ تمكنت الدولة من بسط نفوذها على بندر عباس وطرد البرتغاليين.

وفي عام ١٠٢٧ عندما تأكد السلام بين الدولتين الصفوية والعثمانية دخلت العلاقات الاسبانية الايرانية مرحلة من البرود.

وبسبب دخول الانجليز كمنافس تجاري في المنطقة حاول شاه عباس الاستفادة منهم ضد البرتغاليين.

في عام ١٠٣١ حصل تعاون عسكري بين ايران والانجليز لطرد البرتغاليين من مضيق هرمز؛ وكان البرتغاليون قد احتلوا جزيرة قشم لتأمين مصادرهم من الماء العذب.

وهاجم القزلباش القلاع البرتغالية في المضيق براً فيما قامت السفن الحربية الانگليزية بالتقدم بحراً.

واضطر البرتغاليون امام الهجوم الشامل المشترك الىٰ الانسحاب مخلفين وراءهم عشرات المدافع الكبيرة والصغيرة.

وسيطر القزلباش على قلعة هرمز فيما وضع نصف المدينة تحت تصرف الانگليز لبناء مؤسساتهم التجارية وانشاء حاميات عسكرية تنفيذاً للاتفاق المبرم بين الطرفين.

وقد حاول البرتغاليون استعادة المضيق ولكنهم اخفقوا واستطاعوا عن طريق الدبلوماسية الحصول على ميناء صغير بالقرب من بندر لنكه للاستفادة منه تجارياً.

العلاقات الايرانية البريطانية

لم تشهد العلاقات البريطانية تطوراً يذكر منذ الاتصال الذي اشرنا اليه في عهد شاه طهماسب، وفي عام ١٠٠٦ قابل وفد بريطاني شاه عباس في مدينة مشهد وقد ضم الوفد اثنين من الشخصيات الرفيعة وهما الاخوان شيرلي: انطوني وروبرت اللذين قدما الىٰ ايران للسياحة والتجارة.

وبعد أن امضيا سنوات عديدة في ايران عين انطوني شيرلي سفيراً لايران في اوربا فارتدى زي القزلباش وذهب لاداء مهمته.

وكان الاخوان قد اصدرا كتاباً مشتركاً تحت عنوان رحلة الاخوان شيرلي وقد جاء في الكتاب وصف لايران والايرانيين اخلاقهم وعاداتهم وربما بعض تصريحات شاه عباس في لقاءاته معهما ابان الصراع المحتدم في الجبهة الغربية فعلى سبيل المثال صرح شاه عباس قائلاً: في رأيي ان حذاء فرد عيسوي لأفضل من الفرد العثماني.

وشاه عباس نفسه وفي زمن السلام مع العثمانيين كان يعرب عن ارتياحه لانتصار جيوش الاسلام العثمانية على الكفار الملاعين!!

ويبدو ان الانگليز قدموا مساعدات فنية في تطوير سلاح المدفعية الذي استخدم على نطاق واسع في الجيش الصفوي في عهد شاه عباس؛ وقد كان الاخير في علاقاته مع الانگليز وغيرهم من دول اوربا يحاول دفع هذه الدول الىٰ الوقوف في مواجهة الدولة العثمانية التي كانت تحتل اجزاءٍ واسعة من الدولة الصفوية، وهو امر لم يتحقق بسبب عمق التناقضات بينها اضافة الىٰ احساسها بالرعب من الخطر العثماني.

وقد انطلق سفير ايران العجيب (انطوني شيرلي) لاداء مهمته وبصحبته وفد ايراني ليبدأ جولته الاوربية من روسيا الىٰ المانيا ومنها الىٰ روما.

وقد وقع خلاف بين السفير وأحد اعضاء الوفد وهو حسين علي بيگ وانفصل شيرلي عن الوفد الذي ذهب الىٰ اسبانيا وفي طريق العودة تعرض احد اعضاء الوفد وكان من الشخصيات الدينية الىٰ طعنات بالسكين سددها اسقف مسيحي في اسبانيا توفي على اثرها؛ فيما تنصر ثلاثة أعضاء آخرون ليعود السفير بخفي حنين من هذه الجولة.

وشهدت العلاقات الايرانية البريطانية تطوراً ملموساً بعد التحالف العسكري لمواجهة التواجد البرتغالي في مضيق هرمز وقد ادى ذلك الىٰ ان تكوّن بريطانيا موطأ قدم لها على شواطىء ايران في الجنوب وبالتحديد في مضيق هرمز.

العلاقات الايرانية الروسية

كنا قد اشرنا الىٰ ان الصراع الخارجي والقلاقل الداخلية القت بظلالها على علاقات الدولة الصفوية مع هذه الدولة اوتلك، وسنجد ان الحركة الانفصالية التي اشتعلت في گيلان بقيادة خان احمد الگيلاني وكان له علاقات مع الروس.

وقد حاول شاه عباس اقامة علاقات مع روسيا واستثمار العلاقة لصالحه واقترح في رسائله شراء الدروع من روسيا وتحريضها على الدولة العثمانية.

وفي عام ١٠٠٦ هـ حضر وفد روسي مؤلف من ٧٥ فرد وصل منهم ٣٧ العاصمة قزوين اما الباقون فقد ماتوا في الطريق وفي العودة مات ٣٥ منهم ليصل موسكو اثنان فقط.

وشهدت العلاقات نمواً ملحوظاً مع مجيء اسرة رومانوف الىٰ الحكم وهي الاسرة التي استمرت في الحكم حتىٰ ثورة البلاشفة وانتصار الشيوعية في روسيا.

وبالرغم من تحسن العلاقات بين البلدين لكنها ظلت في مستوى محدود جداً علاقات يمكن وصفها بالعادية جداً في اطار تبادل الكلمات الودية في المناسبات او التوسط لصالح جورجيا.

وشهد عهد شاه عباس مؤشرات على بدء علاقات مع دول اوربا واتصلت الدولة الصفوية بالمانيا وهولندا وبولونيا وقد شهدت ايران حضور رحالة وتجار وشخصيات قادمة من هذه الدول وكانوا يقصدون اصفهان التي حظيت بشهرة دولية في العقود الاخيرة من حكم شاه عباس.

النشاط التبشيري

نشط الفاتيكان في تلك الفترة في ارسال مبشرين الىٰ آسيا وافريقيا لنشر الدين المسيحي، ومن الطبيعي ان تحظى ايران باهتمام الفاتيكان، وبطبيعة الحال لم يكن هذا النشاط ليقتصر على مسائل دينية بحتة فقد اختلطت التجارة والاهداف الاستعمارية بالتبشير المسيحي وفيما يخص ايران كانت اهداف بعض الدول المتوجسة من الخطر العثماني أن تُزيد من أوار الصراع القائم بين الدولتين الصفوية والعثمانية والحؤول دون توقيع معاهدة صلح وسلام.

وقد اشير الىٰ اهتمام شاه عباس وهو يواجه الاطماع التوسعية للدولة العثمانية بالامم الاوربية ومحاولة جرها الىٰ خندقه ضد الدولة العثمانية.

وكان للمسيحيين في عهد شاه عباس حضور واضح وتمتعوا بامتيازات ومعاملة طيبة جداً بسبب اهتمام الشاه بهم لاهداف سياسية وربما لشعوره بوجود قواسم مشتركة واعتبار الدين المسيحي في طليعة الاديان السماوية بعد الدين الاسلامي.

واصبح للمسيحيين بسبب اهتمام شاه عباس باقامة علاقات متينة مع الامم الاوربية منزلة ربما لم يحظوا بها على مدى التاريخ الاسلامي.

واصبحت مدينة اصفهان التي كانت تزدهر باستمرار في عهد شاه عباس موطناً للمسيحيين، فقد أمر الشاه ان تخصص مناطق سكنية من المدينة لاستيطان النصارى الأرمن، كما ان الاسرى الجورجيين كانوا يساقون الىٰ هذه المدينة.

ومن الطبيعي ان ينتخب المسيحيون القادمون من اوربا لاهداف تجارية او سياحية مدينة اصفهان لانها عاصمة الدولة وبسبب الوجود المسيحي والاتصال بمؤسسات الدولة وتعزيز علاقات بلدانهم بالبلاط الصفوي.

ويمكن القول ان شاه عباس كان على علاقة وثيقة بالمسيحيين الاوربيين اكثر من رعاياه ولا يمكن الجزم بطبيعة الحال في ماوراء ذلك من اهداف سياسية بحتة او خليط من تلك الاهداف الىٰ حب الاستطلاع في ما عند النصارى من ثقافة دينية ليست لدى رعاياه من الارامنة ولا اسراه من الجورجيين.

غير ان المصالح السياسية المشتركة بالدرجة الاولىٰ هي وراء الاهتمام الصفوي بالعلاقات مع الاوربيين ولذا كان يؤكد على تكوين جبهة مشتركة لمواجهة التوسع العثماني على ايران والقارة الاوربية، وقد صرح شاه عباس مرة ان الدول الاوربية وفي حال اتحادها في الهجوم على الدولة العثمانية فانه سوف يفتح حدود بلاده بوجه المسيحيين وسيكونون احراراً في نشر ديانتهم وبناء كنائسهم وسوف يأمر الجالية المسيحية من الأرمن والجورجيين باتباع الكنيسة الكاثوليكية أسوة بمسيحيي العالم[1].

---

[1] روابط سياسي ايران واوربا در عصر صفوي، عبدالحسين نوايي: ص ١٨ - ٢٠

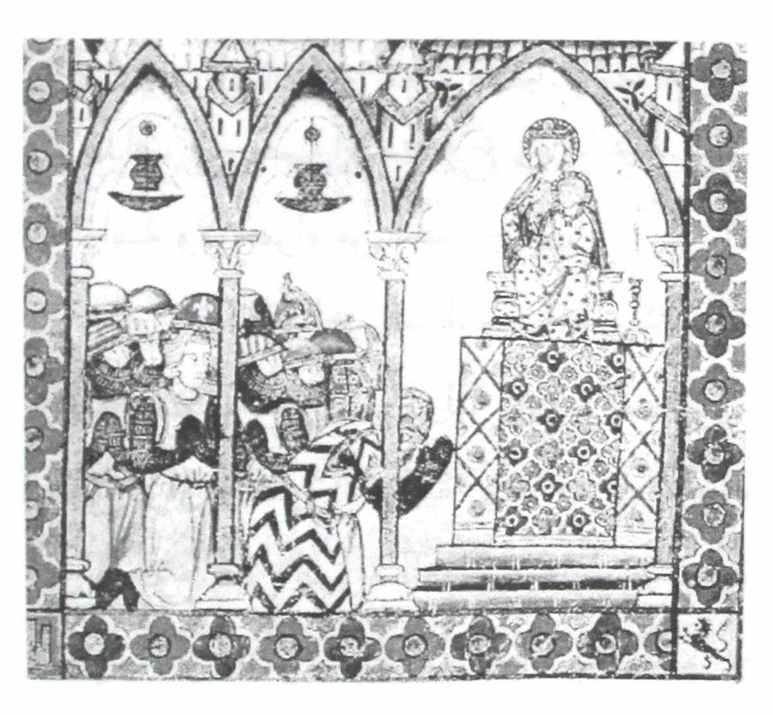
وحرصت الوفود الاوربية على ان يكون من ضمن اعضائها شخصيات دينية وربما تراأس الوفد شخصية دينية مرموقة وهؤلاء كانوا بدورهم يحرصون على تقديم كتب مسيحية الىٰ الشاه ضمن هداياهم للبلاط الصفوي.

وعلى اثر النشاط التبشيري وارتياح شاه عباس لقدوم الوفود المسيحية من اوربا سمح ببناء كنائس في اصفهان وانفقت الدولة من الخزانة العامة على عمليات البناء كما سمحت للمبشرين بممارسة نشاطهم بحرية تامة.

وكان شاه عباس يحرص على الاشتراك او الحضور في الاحتفالات الدينية المقدسة لدى المسيحيين ماجعل الشعب الايراني ينظر اليهم باحترام.

وكما يقال فالناس على دين ملوكهم؛ ومن المؤكد ان شاه عباس كسب ثقة شعبه واصبحت له محبوبية وجلالة لدى الامة الايرانية التي كانت تنظر اليه كبطل قومي استطاع ان يدحر الاحتلال والعدوان في الشرق والغرب وان يسترد هيبة الدولة الصفوية في المنطقة والعالم.

وبسبب هذا الاحترام الذي يلقاه المسيحيون الاوربيون من شخص الشاه وتقبله هداياهم وبخاصة الكتب المقدسة واهتمامه ورعايته لترجمة بعضها للاطلاع عليها عن كثب تصور بعضهم ان لدى الشاه ميولاً لاعتناق الدين المسيحي ولكن هناك ما يبدد هذا التصور وهو العقوبات القاسية التي يتعرض لها الايراني المرتد[١].



وقد اثار النشاط التبشيري فيما يبدو مخاوف بعض العلماء الذين انبروا للرد على المسيحية بشكلها بعد تحريف الانجيل وتعدد نسخه والطعن في سلامة النص الانجيلي.

---

[١] انظر: زندگاني شاه عباس أوّل نصر الله فلسفي: ج٣ ص ٩٦٢ - ٩٦٥.

وفي طليعة من واجه التبشير المسيحي في ايران ميرسيد احمد علوي المتوفي في السنوات ١٠٥٥ - ١٠٥٩ هـ ويعد في طليعة تلامذة ميرداماد بعد ملا صدرا الفيلسوف الشيرازي المعروف، وقد غلب على ردوده حول المسيحية الطابع الفلسفي، ويعده الفيلسوف هنري كوربان من فلاسفة الاشراق[١].

وكان أوّل ردوده على المسيحية صدر تحت عنوان: لوامع رباني در ردّ شبه نصراني (اللوامع الربانية في رد الشبهات النصرانية).

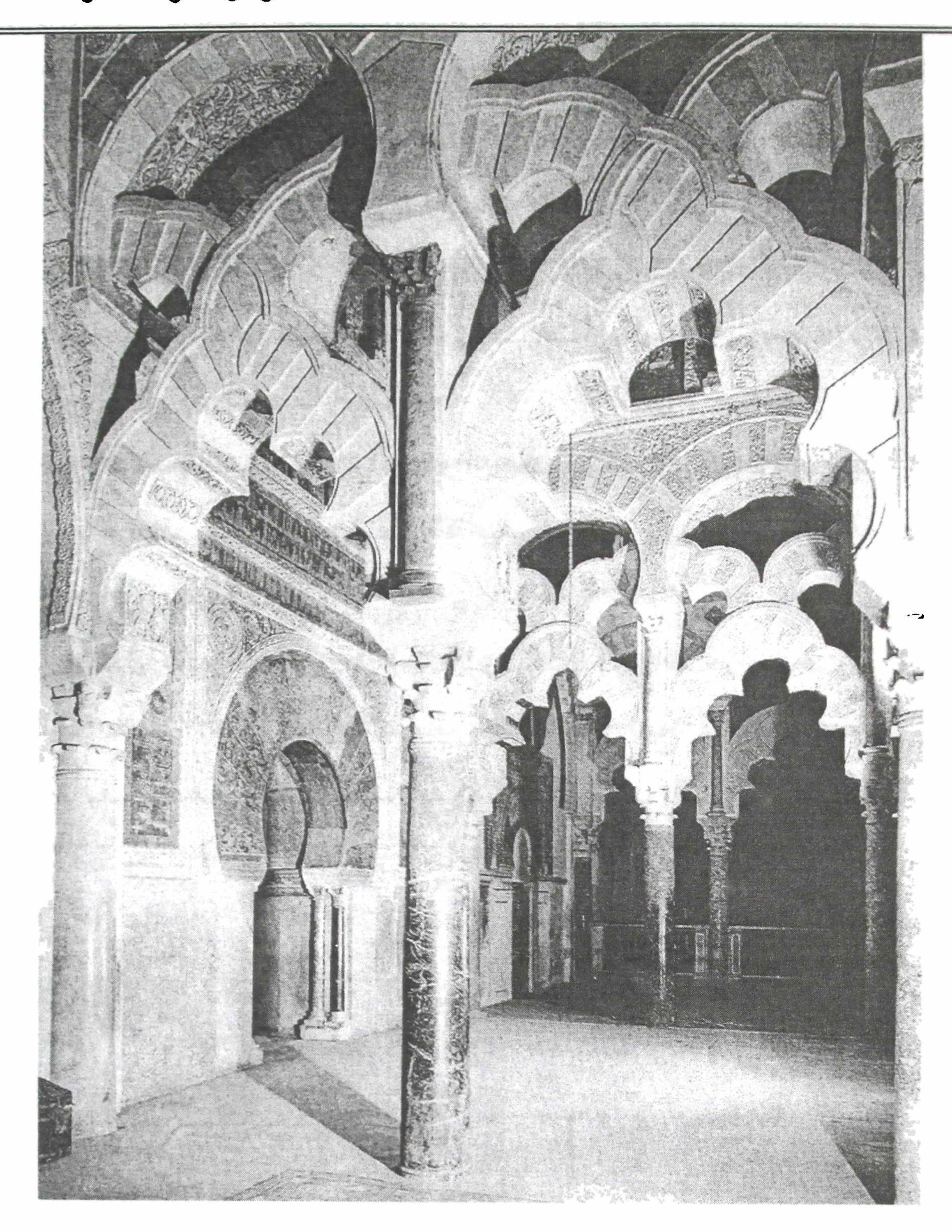
وقد بلغ التسامح الديني وحرية التبشير ان صدرت كتب في تفنيد نبوة سيدنا محمد(صلى الله عليه وآله) وتدافع عن سلامة النص الانجيلي، ويعود تاريخ صدور مثل هذه الكتب الىٰ ١٠٣١ هـ في اصفهان .

وهذا ما تدل عليه النصوص في احد ابرز الكتب التي الفت واستدعت من سيد احمد علوي الردّ عليها، الامر الذي يؤكد سعة الحرية التي تتيح لاجانب ينتمون الىٰ الدين المسيحي تأليف واصدار الكتب التبشيرية كل هذا في وقت بلغت الدولة الصفوية فيه أوج اقتدارها[٢].

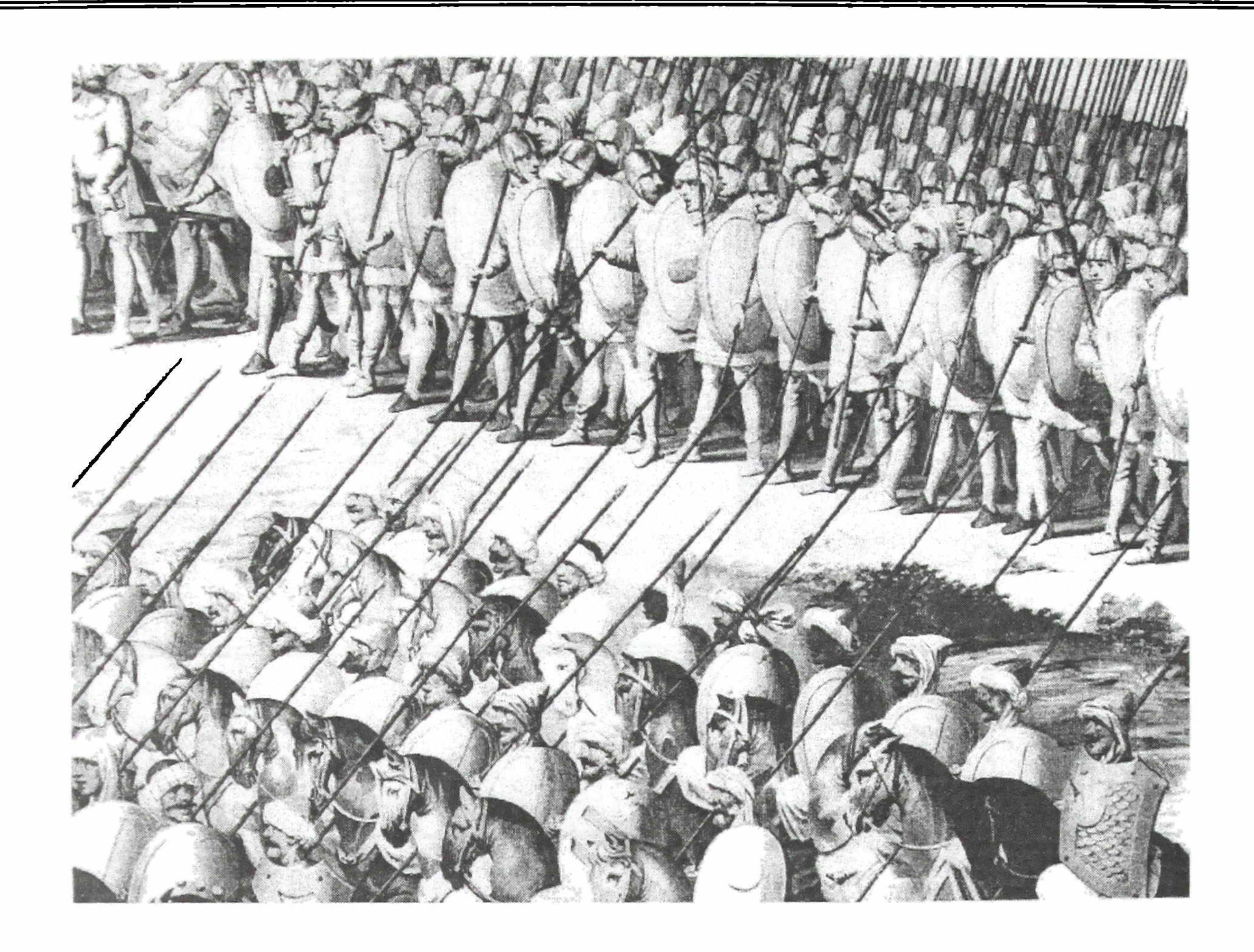
---

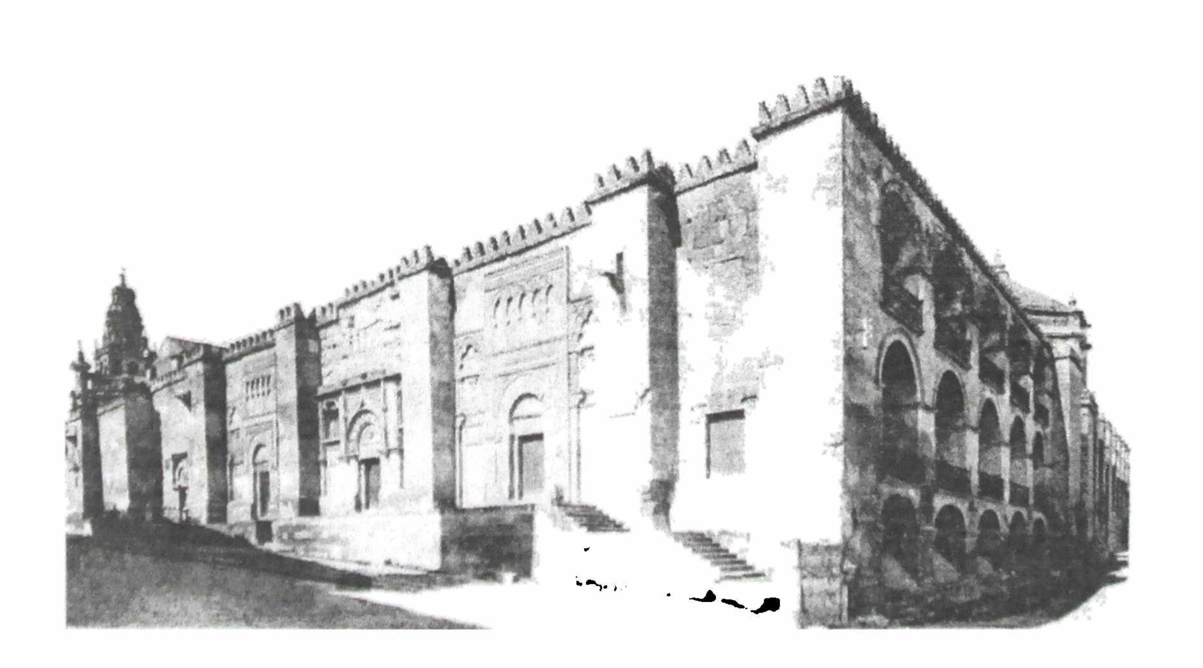
[١] هنري كوربان الفلسفة الايرانية والفلسفة التطبيقية: ص ٦١ - ٦٤.

[٢] زندگاني شاه عباس اول ج٣ ص ٩٧٨



تزامن سقوط قرطبة في الاندلس مع الفتح الاسلامي للقسطنطينية





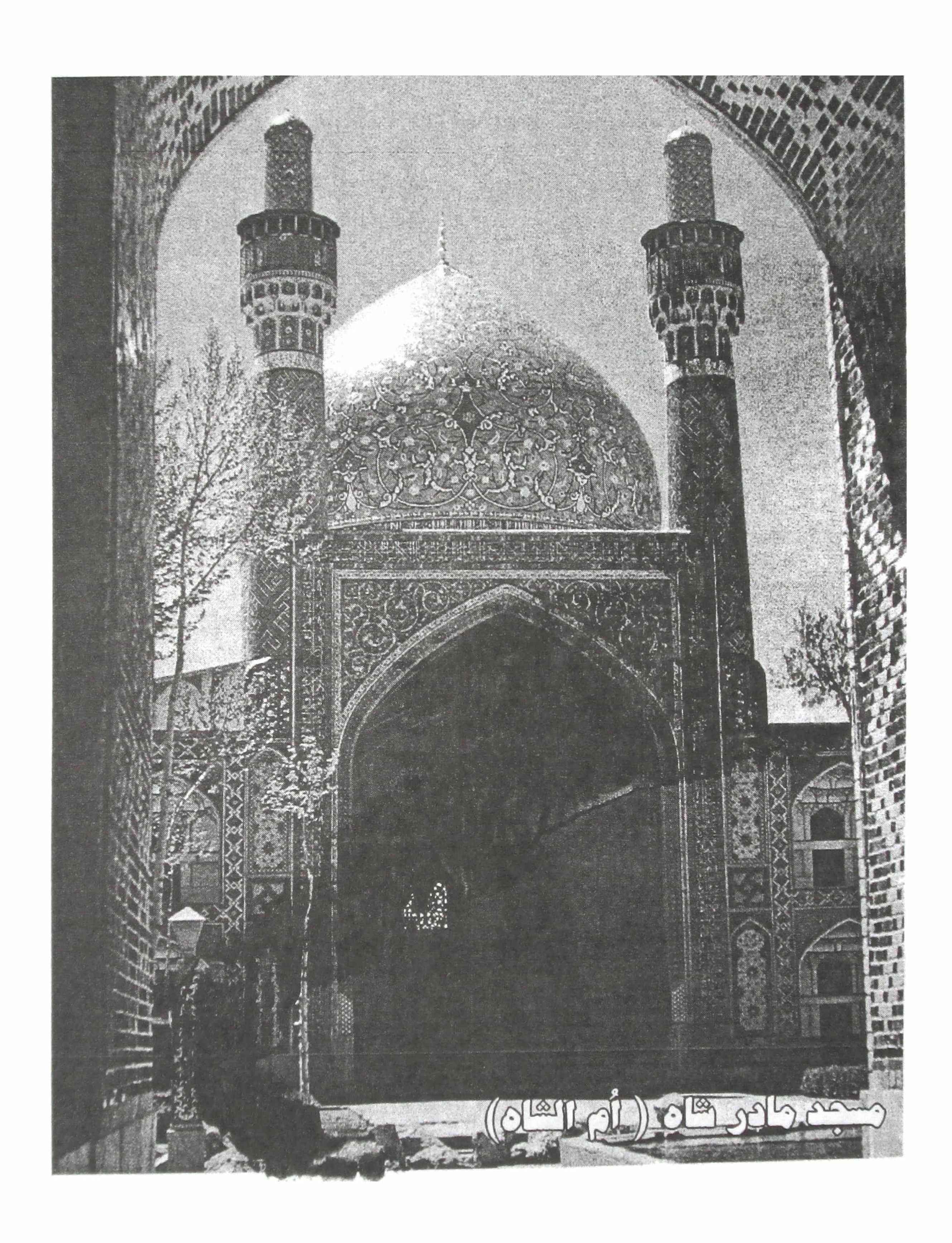
الفصل الخامس

المشهد الثقافي والحضاري

في عهد شاه عباس الأول

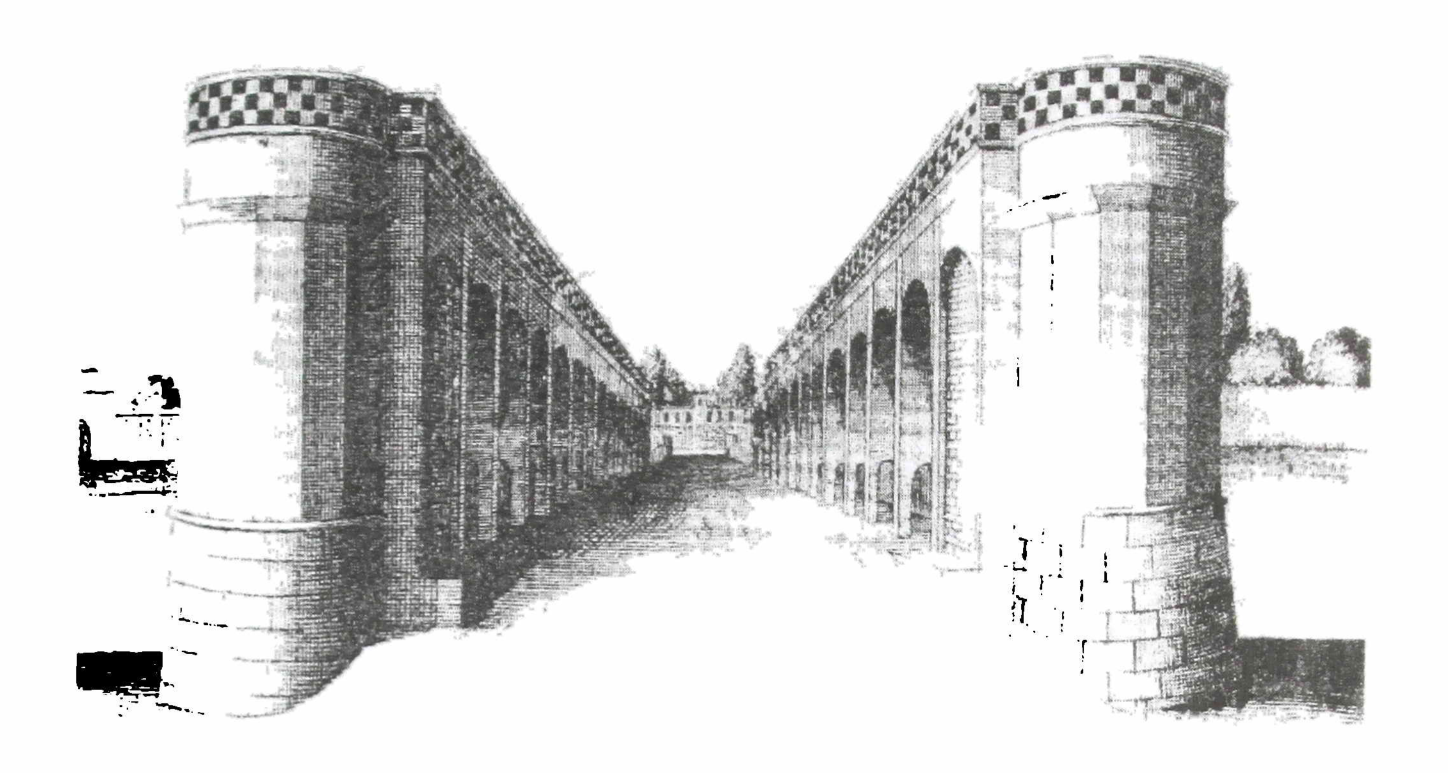
(٩٩٦ ـ ١٠٣٨ هـ)

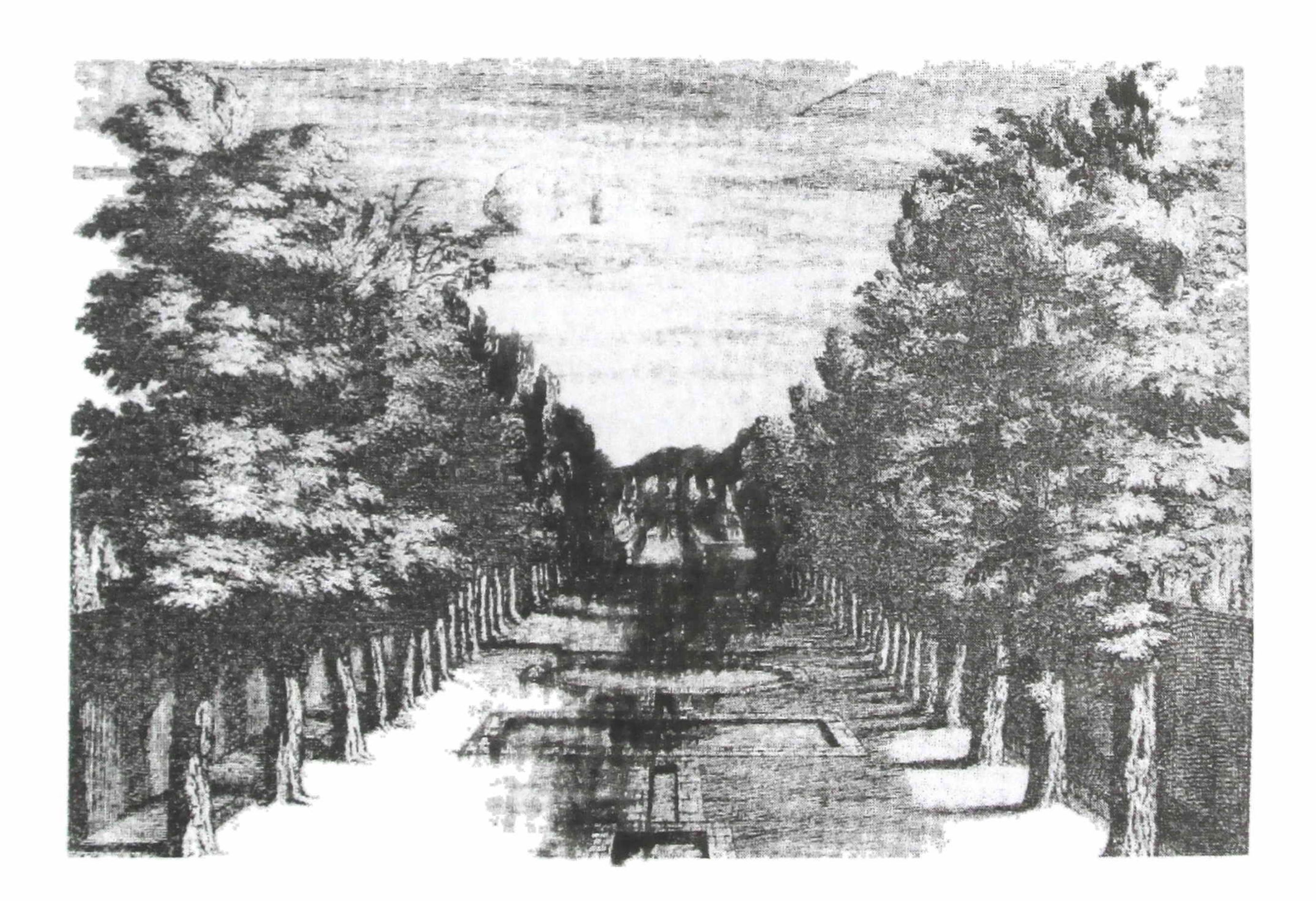
شهدت ايران تطوراً كبيراً وازدهاراً واسعاً في العمران والثقافة وتألقت في تلك الفترة شخصيات علمية وفلسفية، كان لها اثر خالد في الحضارة الانسانية ولعل شخصية مثل البهائي التي نسجت حولها الاساطير لتصبح احد الرموز الشعبية، التي دخلت الوجدان الانساني وكذا شخصية الفيلسوف صدر الدين الشيرازي، الذي احدث ثورة معرفية باكتشافه الحركة الجوهرية مايدلّ على التطور الكبير الذي شهده المجتمع الايراني في تلك الحقبة من تاريخه الطويل.

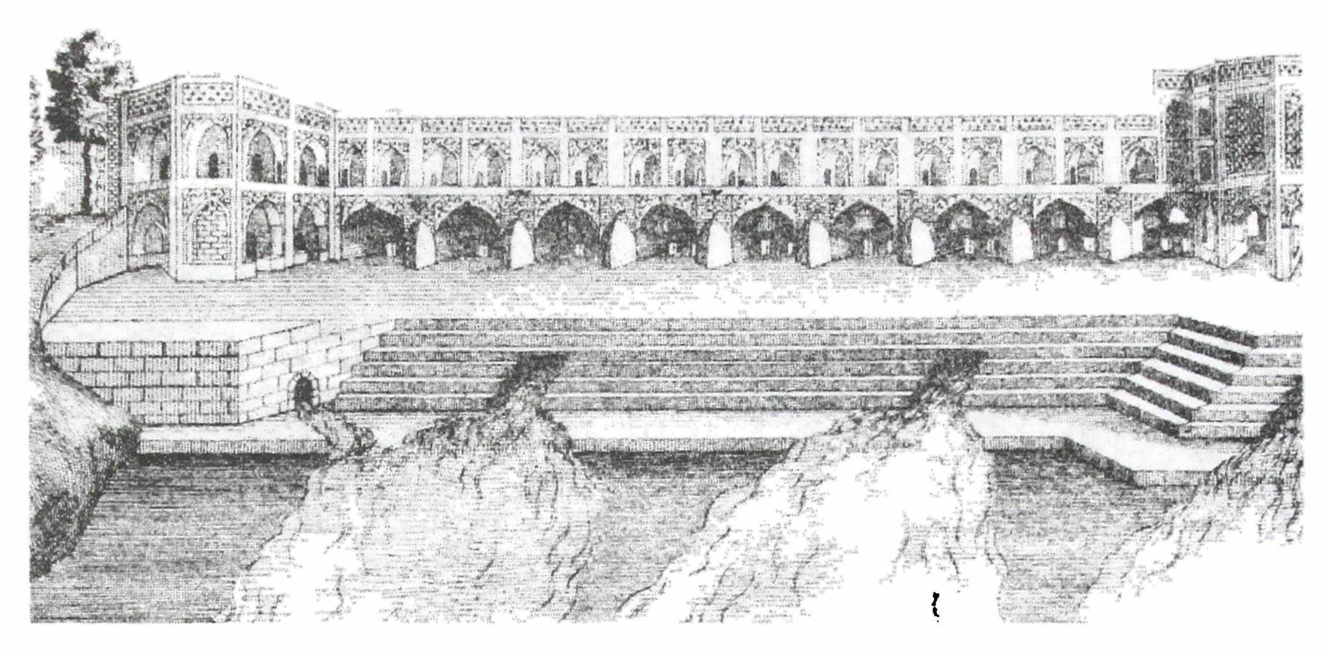


مسجد مادر شاه (أم الشاه)



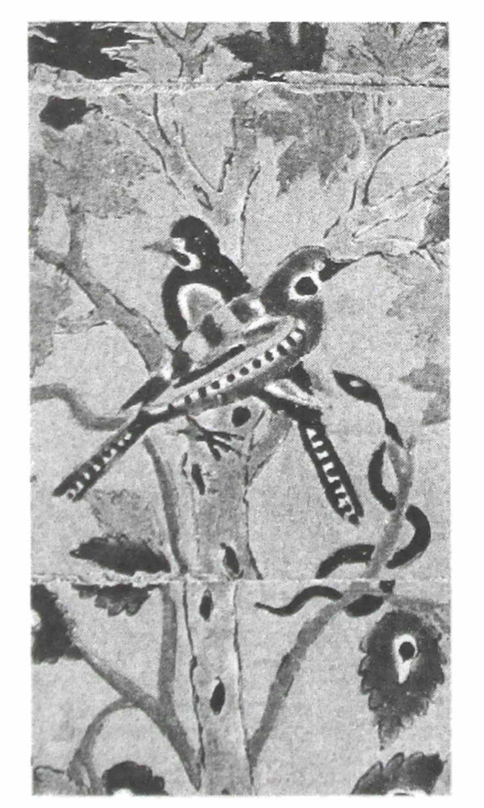






جسر سی و سه پل (٣٣) فی اصفهان

اصفهان العاصمة الجديدة



كانت اصفهان المنتجع الرئيسي للملوك الصفويين وكانت لهم فيها ممتلكات خاصة، وحظيت في عهد شاه عباس منذ بدء عهده باهتمام خاص، فكلما سنحت فرصة انطلق نحوها للاستجمام والنزهة، وشيئاً فشيئاً تبلورت في ذهنه فكرة نقل عاصمته الىٰ تلك المدينة الجميلة، حيث موقعها الجغرافي الرائع وحيث يشق المدينة نهرها الدافق بالمياه الصافية.

في عام ١٠٠٦ كان قرار الشاه لا رجعة فيه وقد توجه الىٰ اصفهان ليشرف بنفسه على اعمال البناء والعمران.

وبدأت عمليات انشاء وبناء مؤسسات الدولة وفي طليعتها بطبيعة الحال القصور والحدائق.

وخارج نطاق المدينة القديمة ومن غرب ميدان نقش جهان[1] وحتىٰ شاطىء النهر (زاينده رود) بدأ البناء الحديث وتأسس سوق جديد في هذا المكان وانهمك المهندسون

---

(١) يدعى اليوم ميدان الامام الخميني

والمصممون في تنفيذ الخريطة الجديدة، وغلبت على المؤسسات الجديدة والابنية الحديثة الحدائق والبساتين التي تحدق بالابنية والقصور المزينة بالذهب وبني جسر جديد يربط بين ضفتي النهر يتألف من ثلاثة وثلاثين منفذ لتدفق مياه النهر (سى وسه پل).

وفيما كانت اعمال البناء تجري على قدم وساق كانت المدينة تشهد تدفق المهاجرين اليها وفي طليعتهم موظفي البلاط والدولة وبدأت هجرة الناس اليها لأغراض التجارة في مدينة ستغدو من أجمل مدن الشرق في تلك الفترة.

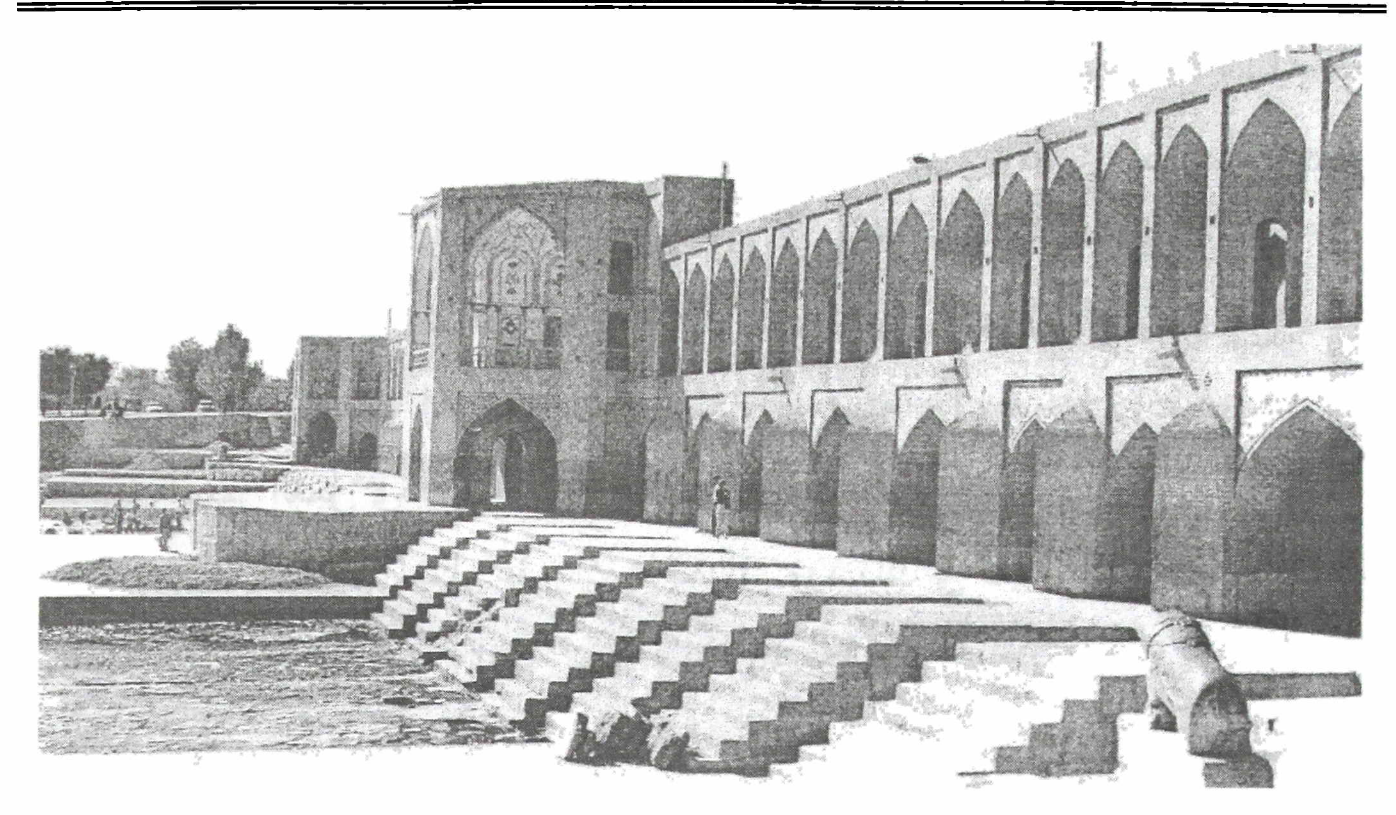
وللاسراع في تنمية المدينة شجع شاه عباس على الهجرة من آذربيجان وبالتحديد من مدينة تبريز وبخاصة الفنانين والمعماريين والصاغة.

وأسكن هؤلاء في حي خاص بهم سمي: عباس آباد، وكان لهذه الهجرة الدور الاساس في نمو المدينة وازدهارها، وبالتالي تنامي معدلات الهجرة والانتقال الىٰ هذه المدينة التي ستبقى عاصمة الدولة الصفوية حتىٰ سقوطها.

وبسبب اشتعال الجبهة الغربية وتزايد اوار الصراع المسلح مع الدولة العثمانية هاجرت اعداد غفيرة من المسيحيين الارمن وقد منحوا أراض على شاطىءنهر زاينده رود لبناء مساكنهم الجديدة.

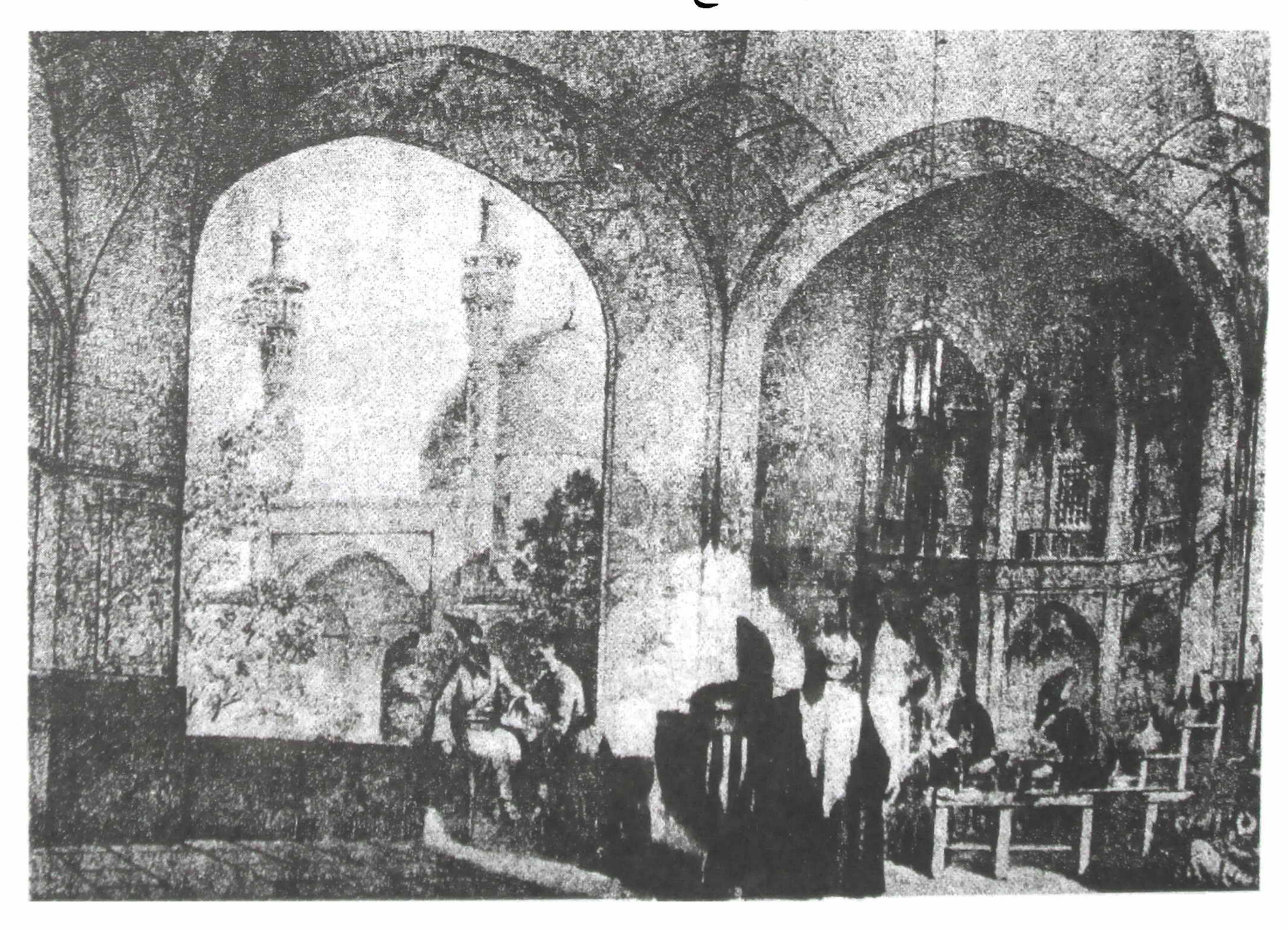
ومايزال الطابع الصفوي غالباً على مدينة اصفهان وماتزال تجتذب اليها آلاف السواح القادمين من نقاط عديدة من العالم.

وفي اطراف ميدان نقش جهان نهضت ثلاثة معالم تاريخية رائعة اولها «الجامع العباسي» و «جامع الشيخ لطف الله» والثالث عمارة «عالي قاپو» اضافة الىٰ مدرسة مولىٰ عبدالله شوشتري.



جسر سى و سه (٣٣) پل على نهر زاينده رود في اصفهان

من روائع العهد الصفوى



الجامع العباسي[1]

ويعد في طليعة المعالم التاريخية في مدينة اصفهان على الاطلاق وقد بني بعد مسجد شيخ لطف الله الذي يحظى بشهرة واسعة.

ينهض المسجد في الجبهة الجنوبية من ميدان نقش جهان وبدأ العمل فيه سنة ١٠١٩ واستغرق من الوقت ستة اعوام واقيمت الصلاة فيه سنة ١٠٢٥ حيث اكتملت اجزاؤه الاساسيةواستمر العمل في تزيينه سنين متمادية.

والمسجد من تصميم المعمار علي اكبر اصفهاني ورد ذلك في كتيبة المسجد وورد اضافة الىٰ ذلك ان المعمار استفاد من آراء الشيخ البهائي في تصاميم المسجد.

وتم الاتفاق على المسجد من أموال شاه عباس الخاصة واهدى ثواب ذلك الىٰ روح جده شاه طهماسب.

وخطوط المسجد وزخارفه وفسيفساؤه من اعمال أبرز الخطاطين في ذلك العصر وهم: علي رضا تبريزى عباسي، محمد رضا امامي وهو تلميذ الأوّل وعبدالباقي تبريزي.

وتزين المسجد آيات القرآن الكريم وروائع الشعر الفارسي الديني، كما ورد في احدى كتائب المسجد حديث الغدير برواية احمد بن حنبل في مسنده.

مسجد شيخ لطف الله

وهو من الابنية الرائعة الذائعة الصيت وتعد فسيفساؤه فريدة من نوعها وشيخ لطف الله عالم عربي من جبل عامل في لبنان وكان على علاقة طيبة مع شاه عباس أقام في مشهد مدة ثم انتقل الىٰ قزوين بعد سقوط مشهد في ايدي الاوزبك ثم رافق الشاه لدى انتقال العاصمة الىٰ اصفهان وكان انتقاله الىٰ العاصمة بناءً على طلب من شاه عباس.

وعند بناء المسجد عيّن الشيخ لطف الله اماماً ومسؤولاً عن الاوقاف وقد استغرق بناء هذا المسجد الفريد ستة عشر سنة من

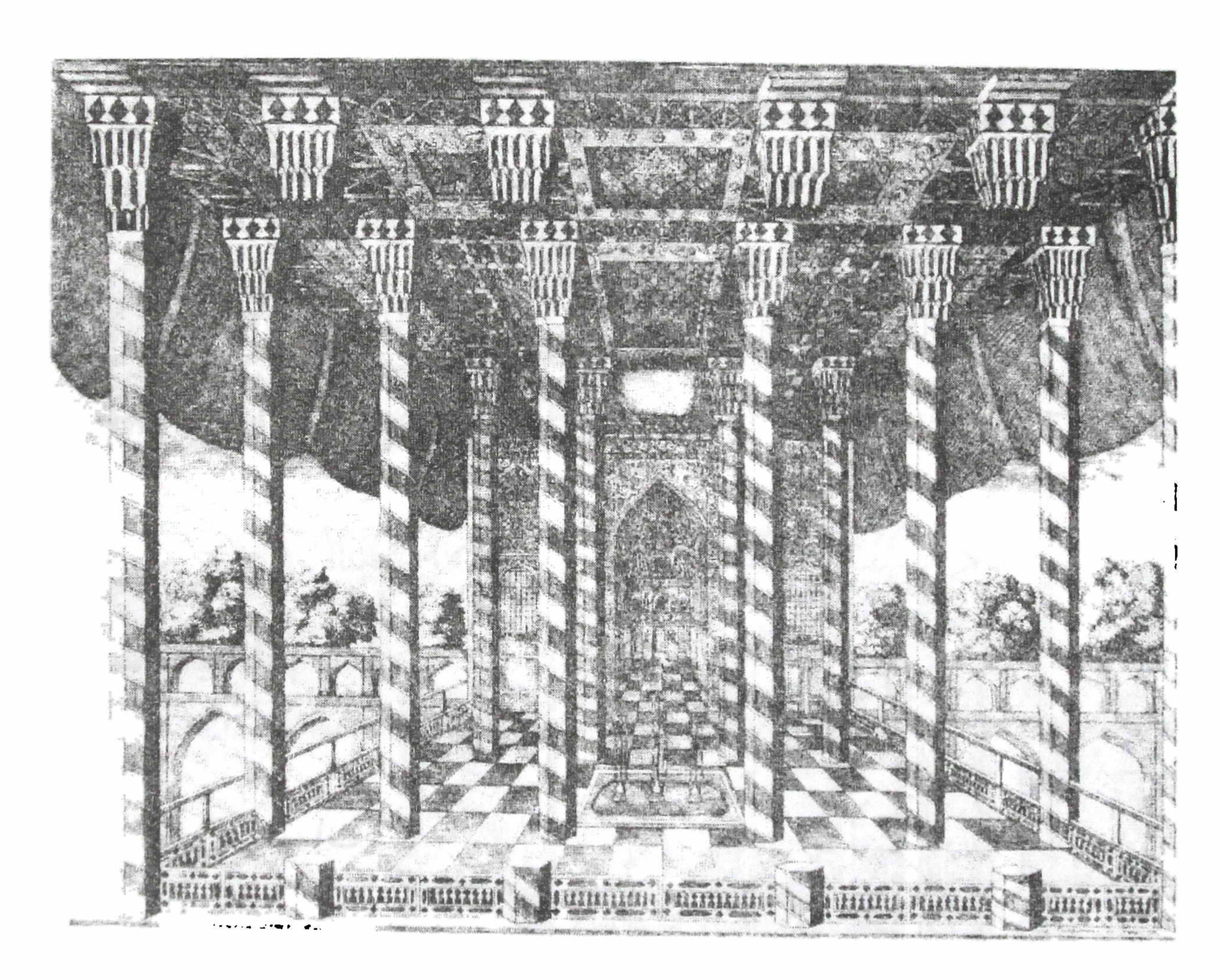
---

[1] يدعى اليوم مسجد امام.

عام ١٠١٢ الىٰ عام ١٠٢٨ والمسجد من تصميم وتنفيذ المعمار الايراني الاستاذ محمد رضا الاصفهاني.

وكان الشيخ لطف الله من العلماء الذين كانوا يعتقدون بوجوب اقامة صلاة الجمعة وهي مسألة اثارت جدلاً واسعاً في ايران وجرت نقاشات طويلة حولها.

وقد بنيت في عهد شاه عباس مساجد عديدة في اصفهان ولكن بقي مسجد شيخ لطف الله الاثر الرائع والخالد بينها وهو الآن من معالم هذه المدينة العريقة.



قصر چهلستون (الاربعون عموداً)

عالي قاپو

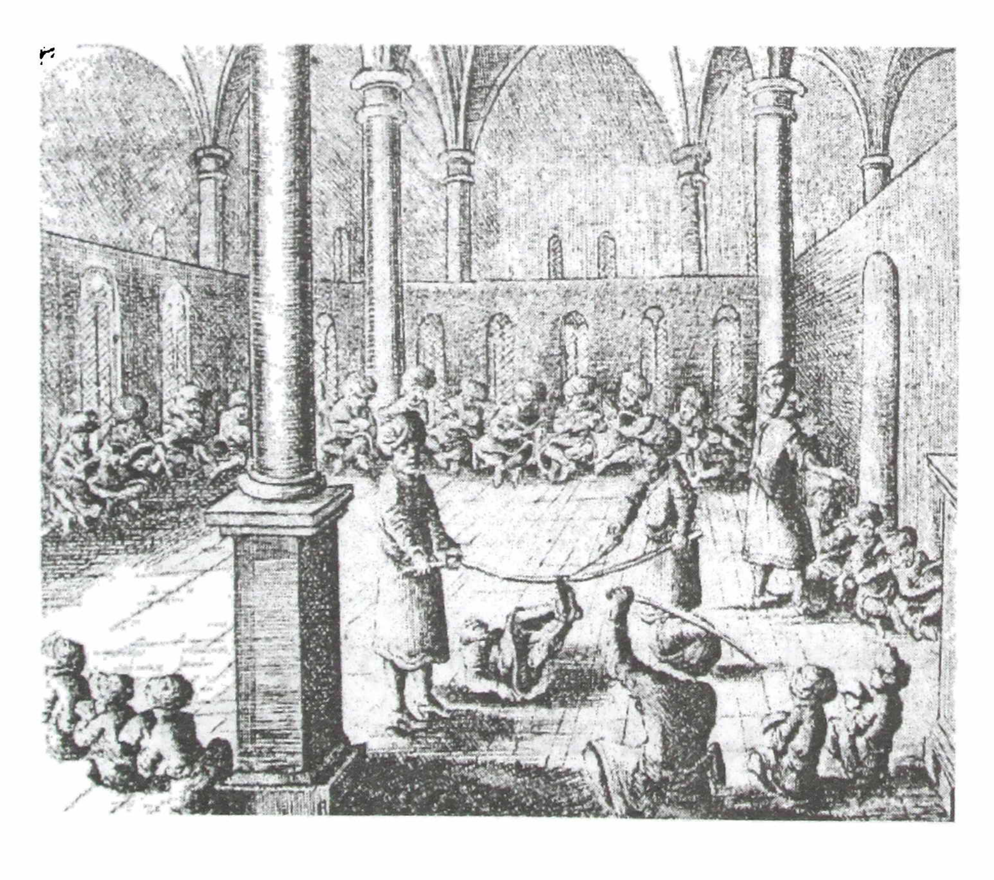
وهو مركز الحكم ومقر البلاط الملكي وقصر السلطنة وهو على غرار الباب العالي في العاصمة العثمانية استنبول وهو يتألف من سبعة طوابق وماتزال آثاره باقية حتىٰ اليوم.



كل طابق من هذه الطوابق مخصص لمسؤول كبير في الحكومة المركزية. وصدر الدولة العام له طابق خاص ورئيس الديوان له طابق بينما الطابق السادس مخصص لضيوف الشاه وخاصة الوفود الاجنبية، كما ويشاركهم في هذا الطابق الموسيقيون والمطربون.

ولكي يضفي شاه عباس قداسة على هذا المكان فانه جلب احد أبواب القصر الكبير هذا من مرقد سيدنا علي بن ابي طالب(عليه السلام) بعد أن ابدله بباب جديد ونصب الباب الذي جيء به من النجف الاشرف في مدخل القصر.

مدرسة ملا عبدالله الشوشتري



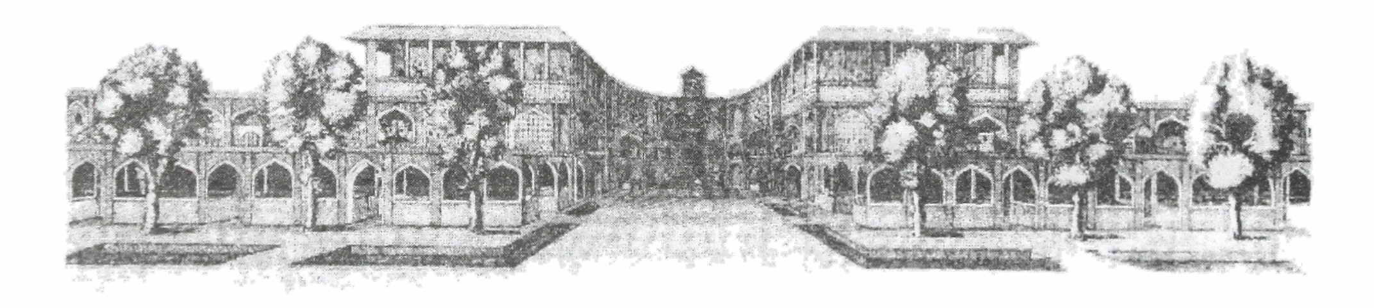
وهي من المؤسسات التي انشئت في عهد شاه عباس وبأوامر منه ضمن مشروعه العمراني واتخاذه اصفهان عاصمة للدولة الصفوية، وتقع هذه المدرسة في الجهة الشمالية الشرقية من الميدان (نقش

جهان) وسميت هذه المدرسة باسم عبدالله الشوشتري وهومن كبار العلماء في عهد شاه عباس لتكون محلاً لتدريسه.

والملا عبدالله الشوشتري من خريجي حوزات النجف الاشرف الدينية وقد اقام في النجف الاشرف وكربلاء مدة ثلاثين سنة، تتألف المدرسة من طابقين ويضم كل طابق عديداً من الحجر والغرف يتخذها الطلبة محلاً لسكناهم مدة دراستهم.

وشق للمدرسة فرعاً من النهر الذي يخترق العاصمة (زاينده رود) اضفى على المدرسة مزيداً من الروعة والجمال.

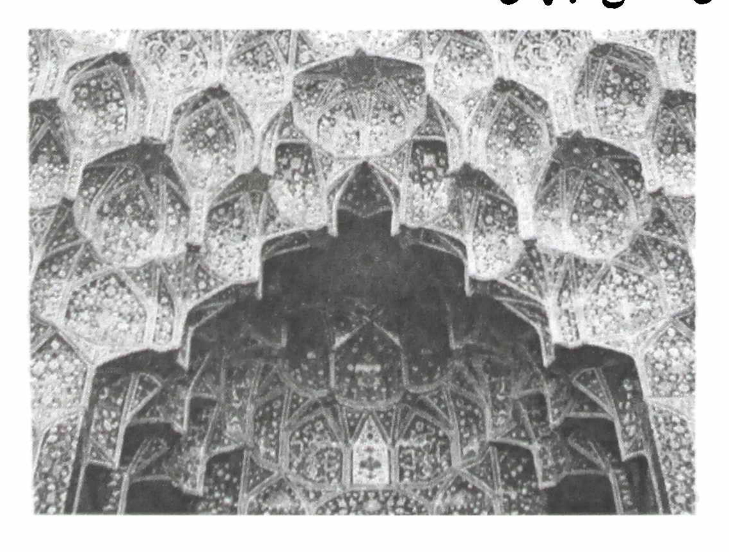
واضافة الىٰ هذه المدرسة تم انشاء مدارس غيرها في هذه الفترة ايضاً، فهناك المدرسة النورية التي سميت باسم نور الدين محمد وتقع في (بازار اصفهان) بالقرب من الجامع العتيق، وماتزال قائمة حتىٰ اليوم وماتزال ايضاً جزءً من الاوقاف منذ ذلك الوقت.





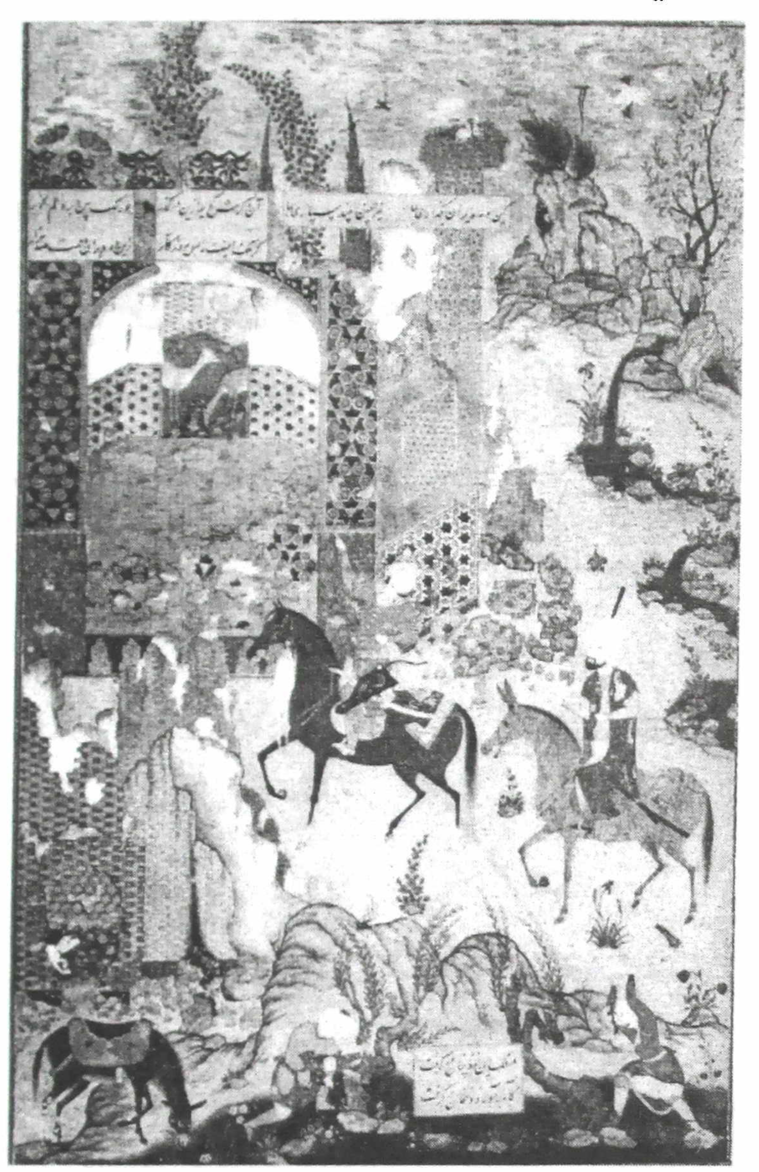
ميدان نقش جهان

الاحتفالات الشعبية



كان عيد النيروز ومايزال في طليعة الاعياد التاريخية الايرانية، وماتزال امم اخرى الىٰ جانب الامة الايرانية تحتفل به؛ حيث كل شعب يمارس احتفالاته

وفقاً لموروثه الخاص وتتركز هذه الاحتفالات في منطقة آسيا الصغرى.



ودراسة لتاريخ العصر العباسي في أواخر العصر الأوّل والعصر الثاني تفضي الىٰ هذه النتيجة حيث الدارس يجد بلداً مثل العراق وبالتحديد بغداد عاصمة الدولة والحضارة يحتفل بـ (النيروز) وقد تبنته الدولة بشكل رسمي في بعض الفترات.

واهتمت الدولة الصفوية باعياد الربيع وبالرغم من ان التاريخ المعتمد كان التاريخ الهجري القمري[1] الا ان احتفالاها بالربيع يوحي دائماً ببدء عام جديد.

ولم يحتفل الايرانيون في العصر الصفوي بالاول من محرم الحرام باعتباره بدء لعام هجري جديد، ذلك ان محرم الحرام وحتىٰ صفر يمثل موسماً حزيناً لايران الشيعية، ويشعر كثير من الايرانيين بالحرج الشديد عندما يصادف عيدالنوروز (النيروز) أيام محرم الحرام كما هو الحال في هذا العام ١٤٢٥ الذي يصادف بدء العام الهجري الشمسي الجديد ١٣٨٣.

وقد اهتم شاه طهماسب بعيد النوروز وكان يحتفل به كل عام على مدى نصف قرن من حكومته.

وفي عهد شاه عباس تضاعف الاهتمام والاحتفال بهذا العيد القومي والىٰ جانب هذا الاحتفال كان شاه عباس يحتفل بما يدعى: «آب پاشان» الذي يعني رش الماء؛ وكان اهل

---

[1] تعتمد ايران في الوقت الحاضر التاريخ الهجري الشمسي فان ١٤٢٥ هـ.ق يقابله ١٣٨٣ هـ. ش.

بغداد في العصر العباسي الثاني يحتفلون برش الماء بعضهم على البعض أوّل يوم اربعاء من النوروز من أيام الاحتفال بعيد النوروز[١].

وهناك احتفال آخر يجري في الاسواق ليلاً وذلك بسد منافذ السوق ليلاً في الأوّل من شهر اسفند وهو آخر شهر من فصل الشتاء ويضاء السوق حتىٰ يصبح الليل نهاراً، وتجلس فتيات في الدكاكين بدل آبائهن وهن في أحلى زينة ويرشقن المفتونين بسهام الحب.

وقد اكتسب الاحتفال بالنيروز قداسة لدى الشيعة بمرور الايام وحاول بعضهم ان يؤسس له دينياً بروايات مسندة الىٰ ائمة اهل البيت(عليهم السلام) ونجد في بعض كتب الزيارة ادعية بهذه المناسبة.

ولكن الامام الخميني المعروف بشجاعته قال كلمة الفصل ربما في ثالث أو رابع احتفال بعيد نوروز: ان هذا العيد هو عيد وطني وليس عيداً دينياً؛ ولكنه اعطى مسوغاً للاحتفال به والدعاء على اساس تفتح الزهور ودبيب الحياة في الطبيعة بما يذكر بالبعث والنشور وبعث الموتى من القبور.

وتجد للنوروز ذكراً حتىٰ في المصادر الشيعية القديمة يدل على ذلك حجم الروايات الواردة فيه والمسندة عن سيدنا علي(عليه السلام) (من لا يحضره الفقيه ج٣ ص ٣٠٠)، ومع ذلك لا يمكن التعويل عليها ولعل اشهر رواية ما نسب الىٰ الامام الصادق(عليه السلام) برواية عن المعلى بن خنيس: اذا كان يوم النيروز فاغتسل والبس انظف ثيابك وتطيب باطيب طيبك وتكون ذلك اليوم صائماً فاذا صليت النوافل والظهر والعصر فصل اربع ركعات، تقرأ في أوّل ركعة فاتحة الكتاب وعشر مرات انا انزلناه»[٢].

ويبدو انه اكتسب اهمية خاصة عندما تبنته الدولة العباسيةولكن مايزعزع كل هذا هو ماجرى في زمن المنصور الدوانيقي الذي طلب في أخريات حكمه وبعد وفاة الامام الصادق(عليه السلام) (١٤٨) هـ من نجل الامام الصادق(عليه السلام) الامام موسى بن جعفر

---

[١] في الوقت الحاضر يحتفل الايرانيون بهذا اليوم ويدعى عندهم «چهار شنبه سوري» حيث يشعلون النار في الليالي ويقفزون فوقها ولعل هذه الطقوس هي من بقايا الديانة الزرادشتية التي تقدس النار ذلك انهم يهتفون ان تأخذ النار صفرة وجوههم وتمنحهم حمرتها وشهدت هذه الطقوس تراجعاً منذ انتصار الثورة.

[٢] مصباح المتهجد ص ٥٩١، بحار الانوار ج ٥٩ ص ١٠١، وسائل الشيعة ج ٧ ص ٢٤٦.

الكاظم(عليه السلام) ان يجلس للنيروز ويتسلم الهدايا وجاء جواب الامام صريحاً واضحاً:

«اني قد فتشت الاخبار عن جدي رسول الله(صلى الله عليه وآله) فلم اجد لهذا العيد خبراً، انه سنة الفرس محاها الاسلام، ومعاذ الله ان نحيي ما محاه الاسلام»[١].

وبالرغم من اهتمام الصفويين بهذا العيد القومي فانهم لم يقدموا على تبنيه واعتباره عيداً دينياً بل ظل في اطاره التاريخي ومايزال ذلك مستمراً حتىٰ الآن حيث يمتد الاحتفال بالنوروز الىٰ اسبوعين إذ ينتهي مع نهاية اليوم الثالث عشر من فروردين وهو يوم النحس إذ يتوجب على الناس مغادرة بيوتهم الىٰ البراري، ومن يجلس في داره تصيبه سهام النحس، وضمن سياسة الدولة في الثورة الثقافية دُعي هذا اليوم يوم الطبيعة ومايزال عطلة رسمية.

الاحتفال بعاشوراء

وفي مقابل الاحتفال البهيج بأعياد النوروز الذي يعد اكثر المواسم فرحاً في ايران يأتي موسم محرم الحرام المفعم بالاحزان؛ إذ تكتسي المدن بشوارعها واسواقها طابعاً حزيناً ويغلب السواد على أحيائها؛ فالناس يرتدون الثياب السود فيما تغطي اللافتات والبيارق السوداء جدران المنازل والمساجد.

ولهذا السبب لايحتفل الايرانيون ببدء السنة الهجرية القمرية الجديدة.

ويبلغ الحزن ذروته في أيام التاسع والعاشر من محرم الحرام (عاشوراء)، وفي العشرين من صفر حيث اربعينية الشهداء الذين سقطوا في كربلاء في ١٠ محرم سنة ٦١هـ.

واصبح لقصة كربلاء في العصر الصفوي اهمية فائقة واختلطت الاساطير بالحقائق التاريخية.

وفي العهد الصفوي حيث الدولة نهضت على اساس حركة صوفية اكتسبت مأساة سيد الشهداء الحسين(عليه السلام)طابعها الصوفي، لقد كان مقدراً على الأئمة والاولياء والأنبياء هذا البلاء، ولذا أُفرغت حركة الامام الحسين من كل محتوى ثوري وسياسي انطلاقاً من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وحيث الذكرى يجب ان تحتفظ بهذه الرسالة الصريحة؛

---

[١] مناقب بن شهر آشوب ج٢ ص ٣٧٩، مسند الامام الكاظم ج١ ص ٥١ - ٥٢.

لكننا سنجد ان مجرد البكاء على الامام الحسين(عليه السلام)هو الاساس في الثواب وان دمعة واحدة يذرفها المرء تكفي لاطفاء النيران التي تنشب به يوم القيامة.

واصبحت ثورة كربلاء ثقافة الشيعة في العهد الصفوي هو مصيبة كربلاء وبدل ان يهب المرء لنصرة الامام الحسين فانه يقوم بندبه ولطم الصدور عليه فقط.

وبسبب ان النوروز خاضع في حساباته للتقويم الشمسي بينما عاشوراء الامام الحسين(عليه السلام) خاضع لحسابات التقويم القمري فانهما يلتقيان عبر الزمن كما هو الحال في شهر رمضان الذي يصادف مرة في فصل الشتاء ومرة اخرى في الصيف.

وقد اشرنا الىٰ مشاعر الحرج لدى الايرانيين الشيعة من لقاء محرم ونوروز كما هو الحال في هذا العام (١٤٢٥ ق – ١٣٨٣ ش).

وفيما ينطلق الناس الىٰ اسفارهم القريبة والبعيدة وزيارة ذويهم في رحلات استجمام بعيداً عن هموم الحياة اليومية فان الاعلام الرسمي ينتهج طريقاً متوازناً بحيث لا يجرح مشاعر الناس الدينية ولايسلبهم في نفس الوقت احاسيس البهجة بالربيع.

وعهد الشاه عباس وفي عام ١٠٢٠ هـ صادف السادس من محرم الحرام عيد النوروز الايراني ولهذا الغيت احتفالات العيد واقيمت مجالس العزاء على سيد الشهداء الامام الحسين بن علي(عليهما السلام)ولكن ما أن انصرمت أيام الحزن حتىٰ بدأت احتفالات العيد القومي، ويمكن القول ان العصر الصفوي بشكل عام يولي اهمية فائقة للاحتفال بيوم عاشوراء بالرغم من التفسير الصوفي للثورة الكربلائية[1].

وهو تفسير يحاول الغاء الاشعاع الثوري ويمنع من استحالته الىٰ مصدر الهام في أية محاولة تغييرية جادة.

ومع كل ذلك فان مسألة عاشوراء وثورة سيد الشهداء الامام الحسين قد شهدت رسوخاً في الوجدان الايراني بشكل حيّر الذين شهدوا عن قرب هذه الاحتفالات الحزينة حيث تجري الدموع بسخاء.

وقد سجل بعض الرحالة جوانب من هذه الاحتفالات المدهشة لأناس يبكون حادثة

---

[1] مقالات تاريخي: ج٢، ص ٢٦٥.

مأساوية وقعت قبل اكثر من الف عام[١] وكأنها حدثت بالأمس القريب، بل حدثت الساعة!!

كما ذهب أحد الكتاب الىٰ ماهو أبعد من ذلك عندما راح يقارن بين سيد الشهداء الامام الحسين(عليه السلام) وعيسى بن مريم(عليه السلام) ثم يشعر بالحسرة لان المسيحيين لايقيمون مثل هذه المراسم ولايبكون على آلام المسيح(عليه السلام)[٢].

شاه عباس بطل قومي أم دكتاتور



شاه عباس اصبح اسطورة في مخيلة الشعب الايراني

ليس من السهولة ان يحكم المرء على شاه عباس سلباً أو ايجاباً ذلك ان الظروف العاصفة التي عاشتها الدولة الصفوية سواء التهديدات الخارجية والازمات الداخلية كان لها دوراً كبيراً في بلورة شخصية شاه عباس ولذلك وضع في منهجه السياسي مصلحة الدولة في قائمة الاولويات، تلك المصلحة التي يجب ان تحقق زعامته المطلقة.

وقد استعرضنا انجازات شاه عباس ونجاحه الكبير في اعادة الهدوء الىٰ البلاد ووقف القلاقل الداخلية والحركات الانفصالية وحتىٰ تلك الحركات التي تتخذ طابعاً دينياً كالنقطويين على سبيل المثال[٣].

---

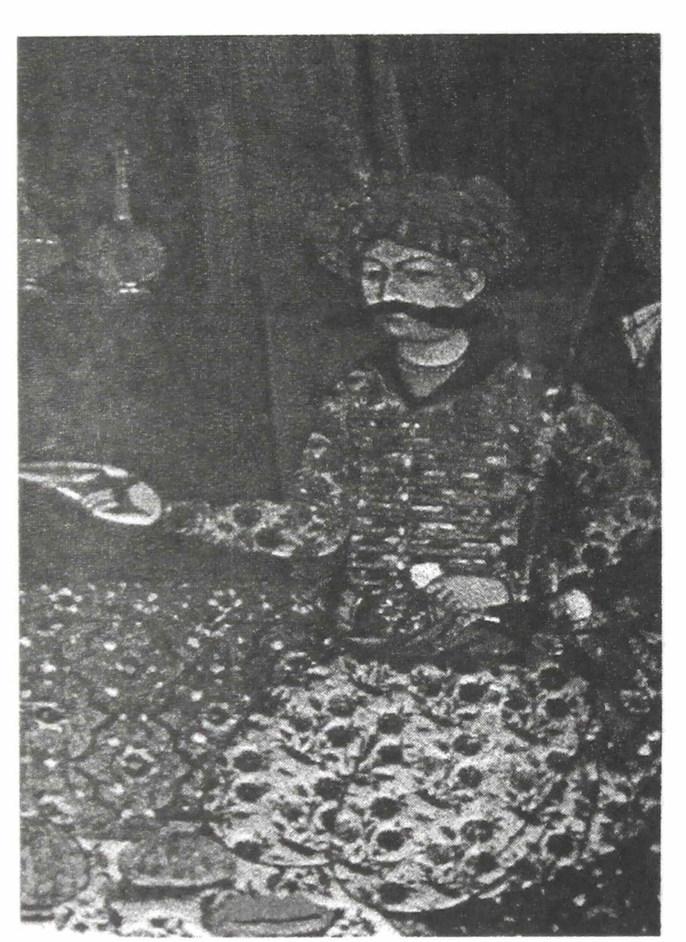
[١] رحلة فريزر النسخة الفارسية، ترجمة منوجهر اميري، طهران، توس، ص ٢٤١.

[٢] الاساقفة النصارى في عهد الثورة الاسلامية پال هانت: ص ٧٧ - ٨٠.

[٣] ينسب مذهب النقطويين الى محمود بسيخاني الجيلاني من اقليم جيلان شمال ايران، وتتمحور افكاره حول التراب باعتباره اساس الخلق والتراب حسب فكره ماهو الانقطة، وقد اتهم بعض النقطويين بالالحاد وقبض على اثنين من زعمائهم وعلى العديد من اتباعهم وتمت تصفيتهم دون محاكمة.

اضافة الىٰ نجاحه الباهر في استرداد وتحرير جميع الاراضي المحتلة سواء في الشرق والغرب والشمال الغربي، بل انه استطاع ان يصنع من ذلك قضية عادلة بعد ان نجح في دمج حروبه ببعد مذهبي كمدافع صعب المراس عن المذهب الشيعى الذي مرّ بتاريخ طويل من القمع والاضطهاد.

وفيما نرى العالم الشيعي يبتهج بتأسيس الدولة الشيعية واعتبارها ساعة الخلاص من عصور الاضطهاد والتقية فانه يعتبرها البعض طعنة غادرة في ظهر الدولة العثمانية التي كانت تواصل فتوحاتها في الجبهة الاوربية، بالرغم من انه يدين الدولة العثمانية أيضاً بسبب اضطهادها الشيعة الذين لم يكن لهم ركن يستندون اليه او مكان يحتمون به[١].



وهو يدين من البداية ظهور الدولة الصفوية ويصف مؤسستها العسكرية (القزلباش) بالعصابات.

وبوسعنا ان نثبت هذا النص الذي يلخص في رأيي رؤية الباحث بما ينفعنا في هذا الفصل من البحث.

«لقد أمضى الشيعي عشرة قرون وهو يئن تحت سياط القمع والتعذيب التي ينهال بها على ظهره الخلفاء (السنة) من السلاجقة والغزنوية والخوارزمشاهية والايلخانية والتيمورية واتباعهم من الولاة والقضاة واساطين المذهب السني، والذين لم يفسحوا له المجال لابراز عقيدة أو ممارسة شعيرة من شعائر المذهب ما اضطره الىٰ ان يمضي عمره بين مطامير السجون وخلف حجب التقية قلقاً متحسباً من نقمة السلطان.

هذا الشيعي بنفسه اكتشف اليوم ان هناك رجالاً ابطالاً بوسعه ان يسند ظهره اليهم

---

[١] انظر شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوي: ص ٧٢ ومابعدها.

ويأمل منهم ان يمزقوا بسيوفهم عقد الكبت ويشفوا ضغائن نفسه ممن ظلموه واقصوه عن مسرح الحياة، ويعيدوا له شأنه ودوره وحريته في اختيار المذهب وممارسته وما يعتقد به من طقوس.

لقد تمكن هؤلاء القادة من ان يشخصوا هذا الامر بدقة فنفذوا من خلاله الىٰ اعماق الوجدان الشيعى وتغلغلوا في اوساط المجتمع الشيعى ليشيدوا نظامهم السياسي على دعائم وجدانية وعقائدية لابناء ذلك المجتمع، ومن هنا نرى ان الحكومة الصفوية هى الحكومة الوحيدة في تاريخ ايران ما بعد الاسلام والتي استطاعت ان تمتد بجذورها الىٰ عمق الوجدان الشعبي، ما جعل شاه عباس وهو من متأخري السلاطين الصفوية مكانة خاصة في نفوس الشيعة العوام حوّله الىٰ شخصية اسطورية في مستوى الاسكندر والخضر، مما يؤكد الدور البالغ الذي يلعبه الاعلام في فرض قناعات وطمس اخرى[١].

لانريد ان نتوقف عند هذا النص كثيراً لاننا اثبتناه هنا لانه يقف سلبياً تجاه شاه عباس على وجه التحديد.

سنكون بطبيعة الحال اقرب الىٰ التعسف اذا حصرنا مناقشة سيرة وتجربة شاه عباس دون ان نأخذ بنظر الاعتبار العداء العثماني السافر للدولة الجديدة وتحالف الدولة العثمانية مع الدولة الاوزبكية في القضاء على الدولة الشيعية والمذابح التي ارتكبها النظام العثماني بحق الشيعة وكذا ما فعله الاوزبك في قتالهم الدولة الصفوية.

وقد ذهب الباحث والكاتب المغربي ادريس هاني الىٰ ماهو أبعد من ذلك عندما قال:

«وقد دلت محاولات الشاه عباس في صراعاته مع الجيش العثماني على ان الدولة الصفوية لم تكن براغماتية ذات اطماع سياسية او قومية محضة، بل كانت الدولة الاولىٰ التي مكنت للدعوة العلوية وسخرت امكانات الدولة في سبيل دعوتها الدينية، وقد تشكلت الامبراطورية الصفوية من اجناس اخرى غير أهل فارس حيث نزح الىٰ الصفويين بعض الجنود التركمان من العثمانيين والمماليك لاسباب مذهبية صرفة»[٢].

ولكي يمكن تقييم التجربة الصفوية في ايران يتوجب دراسة كل عهد من عهود ملوك

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٣ - ٧٤.

(٢) هاني ادريس، ما بعد الرشدية ملا صدرا رائد الحكمة المتعالية: ص ١٩ - ٢٠.

الصفويين على انه سياسة تختلف عن سابقها ولاحقها بالرغم من بعض القواسم المشتركة، فتجربة شاه طهماسب تختلف بالمرّة عن تجربة والده شاه اسماعيل الأوّل وعن تجربة حفيده شاه عباس.

لقد كان شاه اسماعيل يجمع في شخصيته الزعامتين الروحية والزمنية واعتبر الىٰ حد كبير نائباً للامام المهدي(عليه السلام)، اما شاه طهماسب فقد اعلن وبصراحة مثيرة ان الشيخ الكركي وهو عالم عربي لايعرف الفارسية ولا التركية ـ هو نائب الامام المهدي وانه هو الحاكم الحقيقي لايران وانه مفوض في ادارة شؤون الدولة.

وعندما جاء شاه عباس الىٰ الحكم فيما أوردنا من ملابسات اصبح هو الحاكم المطلق لايران والدكتاتور الذي لايسأل عما يفعل.

كان شاه عباس مولعاً بالشراب وهو امر يبيحه المجتمع الايراني للسلاطين فقط فيما يبدو، وقد امر الشاه طبيبه الخاص ان يؤلف كتاباً في فوائد شرب الخمر وقواعد ذلك وحتىٰ في صفات الندماء[١]، وهو نفسه الذي حاول تفعيل القوانين القديمة في عهد جده التي تعاقب بشدة الذين يشربون الخمر ولكنه عاد وتراجع عن قراره بعد فترة وجيزة[٢]، وضمن برنامجه السياسي في ادارة الصراع مع الدولة العثمانية حاول جرّ الدول الاوربية ودفعها الىٰ مهاجمة اعدائه اللدودين؛ ولذلك اقدم على توثيق علاقاته بالعالم المسيحي،واعلن حمايته للنصارى الأرمن والجورجيين في ايران، وكان يزور وبشكل رسمي قساوسة اصفهان لتقديم التهاني بعيد الميلاد ويشاركهم احتساء الخمر ويأمر مرافقيه جميعاً بأن يفعلوا ذلك، بالرغم من اشمئزازهم من ارتكاب هذا المحرم.

وقد وصل به الأمر انه كان يقدم لحم الخنزير الىٰ سفراء اوربا وتجارها وحتىٰ سواحها، ولكي يؤمن لحم هذا الحيوان المحرم أكله صراحة، أمر بانشاء حقول لتربية الخنازير في ضواحي العاصمة اصفهان.

واذن فالصبغة الدينية التي سادت في عهد شاه طهماسب واصبح للعلماء في ذلك العهد نفوذاً كبيراً بحيث جعل لهم دوراً واسعاً في اسلمة الحياة الايرانية سياسياً وثقافياً واجتماعياً،

---

[١] زندگاني شاه عباس أوّل: ج٢، ص ٥٢ - ٥٤.

[٢] المصدر السابق: ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

هذه الصبغة لم تتراجع في عهد شاه عباس بل حاول تعديل مسارها بما يجعل الدين يساوي المذهب الشيعى والمذهب الشيعى يعني مناصبة الانظمة السنية العداء، وقد ساعدت الظروف على تكريس ذلك بسبب العداء والحقد الذي يضمره السنة للشيعة دون هواده.

لقد كان المجتمع الايراني في تلك الفترة يعيش التناقض في رؤيته الىٰ الحياة وقد تنازل طوعاً عن كثير من حقوقه المدنية لصالح الزعيم الصفوي الذى ظل بالرغم من كل شيء يمثل جنساً أعلى من جنس أفراد الشعب كما هو الحال تقريباً في المجتمع الياباني في عهد الميكادو (ابن السماء).

كان شاه عباس يمثل أوج التعصب الشيعى الرسمي ضد السنة.

ومع كل ذلك فلا يمكن تصنيفه ضمن طغاة التاريخ بالرغم من دكتاتوريته، فلقد كان شعبه يقدسه وكان الناس البسطاء يقسمون برأس الشاه وهو قسم غليظ في تلك الفترة، كان الرجل قديساً وصاحب كرامة والسماء هي التي تسدد خطاه وكان يعلم ما يضمره المستقبل، ودعاؤه مستجاب، ان المريض الذي يحصل على جزء

من بقايا خوانه سوف يشفى من المرض، اما من يقبل لجام فرسه فمصيره الىٰ الجنة![1].

وشاه عباس هو نفسه الذي سجن اباه وبعض اخوته واغتال أبناء عمومته وأبناء اخوانه؛ في نفس الوقت كان الاعلام الايراني يظهره ومن خلال بعض نشاطاته الرسمية في منتهى التواضع ذلك انه يعتبر نفسه مجرد كلب في رحاب الإمام علي(عليه السلام)وحضرته.

وقد ذهب مرة مشياً على الاقدام لزيارة مشهد حيث ضريح ثامن الأئمة من أهل البيت(عليهم السلام) علي بن موسى الرضا(عليه السلام)وذلك سنة ١٠٠٩هـ.

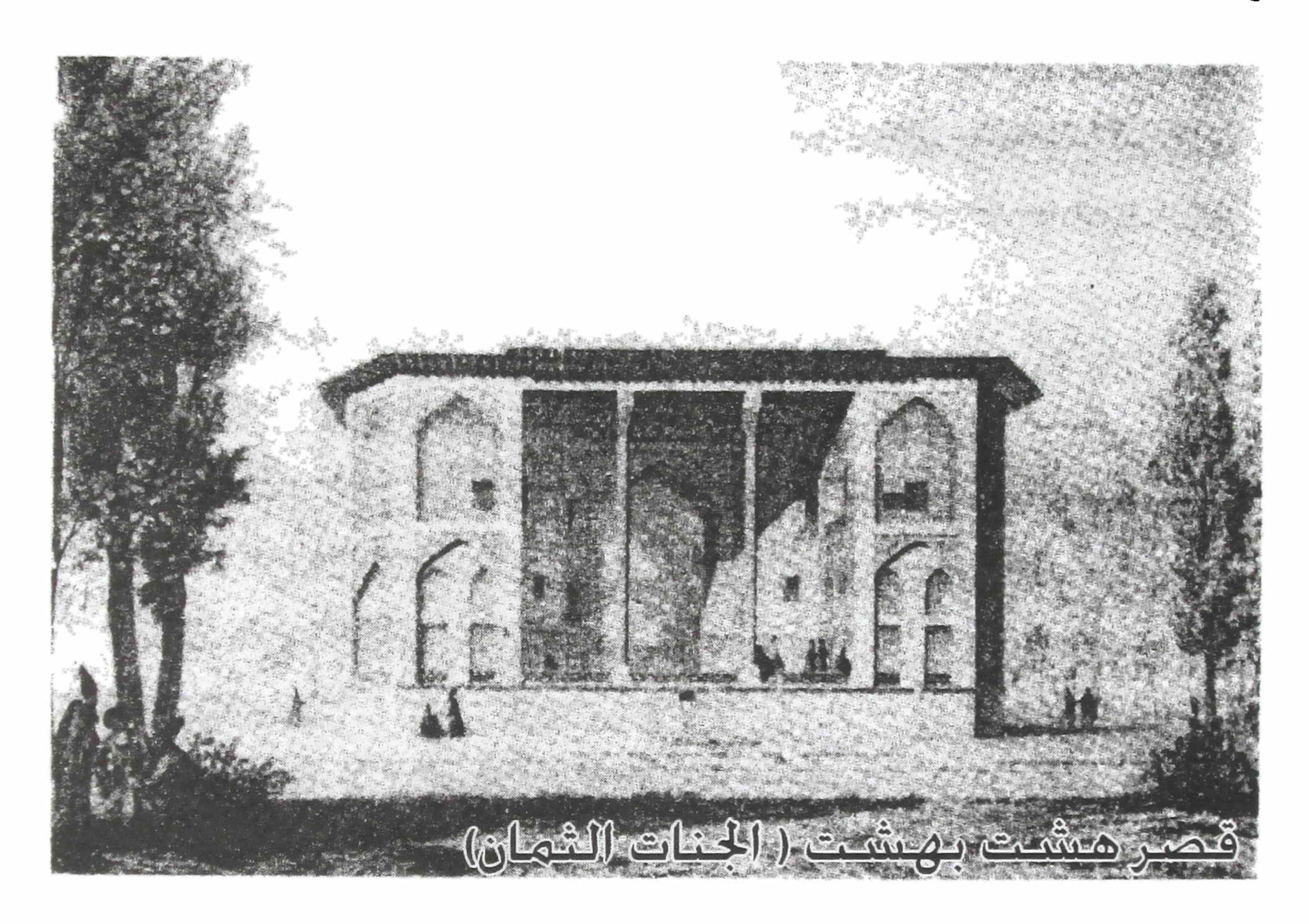
هذه الخطوة تعد في ذلك الوقت خطوة تاريخية سوف تستقر في وجدان الشعب الشيعى وتصنع من الشاه شخصية اسطورية مقدسة، وفي نفس العام كان وفد من الأمراء الاوزبك يقوم بزيارة لايران ويلتقي شاه عباس وقد اعاد الوفد جواهر كريمة وماسات نهبت من ضريح الامام(عليه السلام)، بعد احتلال الاوزبك لمشهد، لكن الشاه اودع هذه الجواهر الثمينة لدى هيئة من العلماء العدول لتقرير مصيرها..

---

[1] المصدر السابق: ص ١٥٠ - ١٦٢.

هذا وغيره صنع من شاه عباس اسطورة رسخت في وجدان الشعب الايراني ساعد على تجذرها مجموعة ظروف، اضافة الىٰ طول المدة التي حكم فيها بلاده وشعبه.

ويمكن تسليط ضوء كاشف من زاوية اخرى عندما ندرس بعض الشخصيات البارزة في عصره.



قصر هشت بهشت (الجنات الثمان)

بهاء الدين العاملي

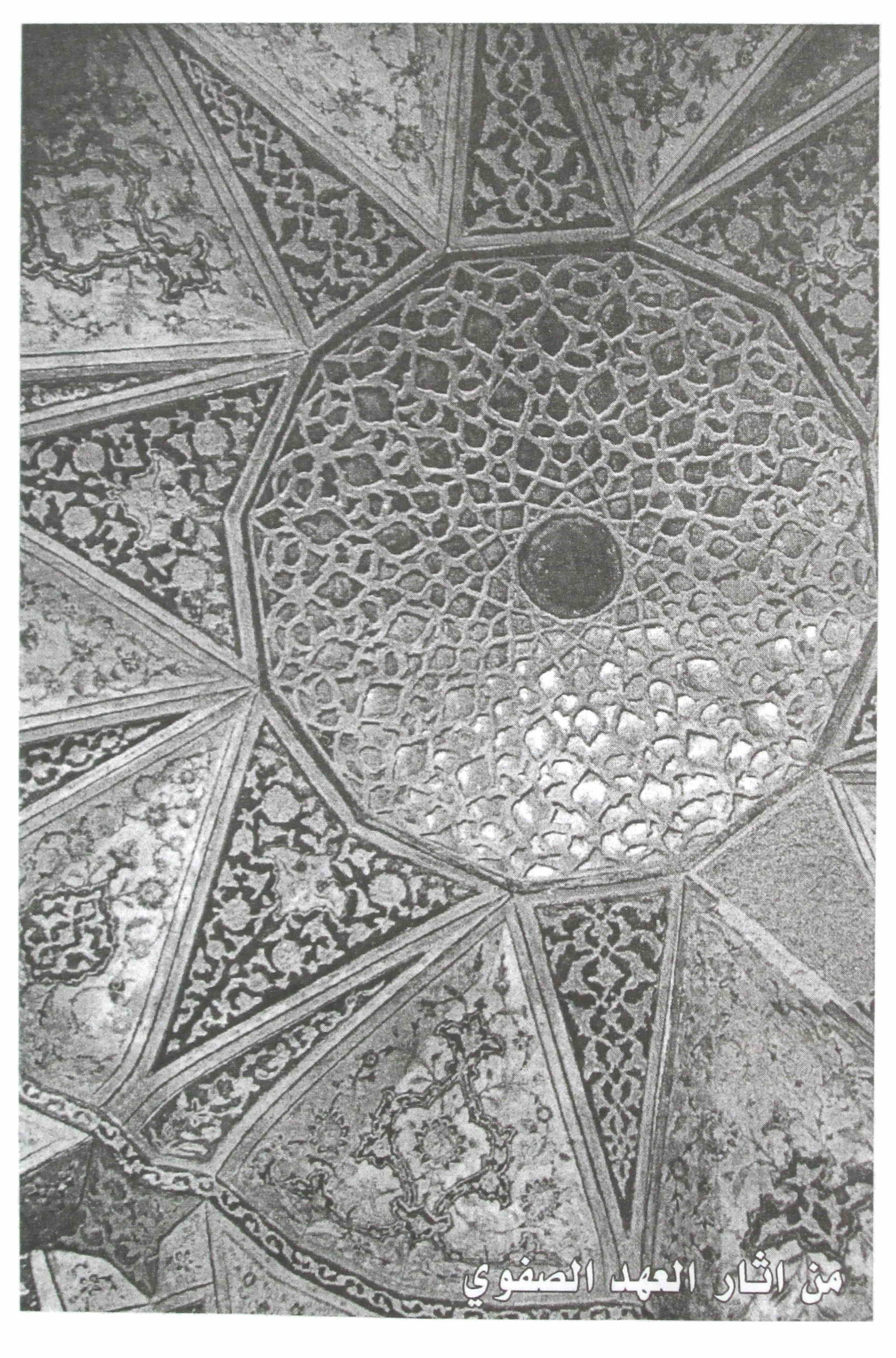
اقترن اسم الشيخ بهاء الدين العاملي بشاه عباس ليصبح الاثنان في اطار العاصمة اصفهان في مطلع القرن الحادي عشر الهجري جزءً من ثلاثية اسطورية تاريخية فريدة.

في مدينة بعلبك اللبنانية وفي السابع والعشرين من ذي الحجة الحرام سنة ٩٥٣ هـ ولد بهاء الدين محمد العاملي، وقد اوردنا جزءً من حياة والده الشيخ حسين بن عبدالصمد، وهجرته الىٰ ايران وكان بهاء الدين يوم هاجر والده في الثالثة عشرة من عمره أو اقل بشهور من ذلك.

امضى ثلاثة اعوام في كنف والده في اصفهان وانتقل معه الىٰ قزوين بعد ان قرر البلاط الصفوي كما اوردنا تعيين الشيخ حسين عبدالصمد شيخاً للاسلام في قزوين العاصمة

يومئذ. ولاشك ان الشهيد المفكر مرتضى مطهري كان يقصد الشيخ البهائي واعلام آخرين عندما قرر هذه الحقيقة قائلاً:

«ان لعلماء جبل عامل دوراً هاماً في تعديل مسار الدولة الصفوية، فالصفويون كانوا صوفية ولو لم يعدّل مسار هذه الحركة بزخم فقهي عميق لانتهت الىٰ ماانتهى اليه العلويون في سوريا او تركيا.. لقد كان لهم الأثر الاكبر في تعديل مسار الدولة والامة الايرانية، بل


من اثار العهد الصفوي

وحتىٰ العرفان والتصوف الشيعى، ان الامة الايرانية مدينة لفقهاء جبل عامل بتأسيسهم الحوزة الفقهية في اصفهان»[1].

وبالنظر الىٰ عبقرية بهاء الدين العاملي فان دراسة حياته، بل وحتىٰ استعراضها فقط يحتاج الىٰ عمل موسوعي مستقل؛ لكننا سنحاول تكوين صورة عن الرجل بما يجعله مرآة لعصره تنعكس فيها دقائق تلك الحقبة من الحياة الايرانية.

عاش البهائي في بيئة تضج بالتناقضات الاجتماعية، وكان الصراع بكل اشكاله هو الطابع الذي ساد في عصره، فالصراع الشيعى السني والصراع السياسي في الداخل والخارج، والصراع العسكري المحتدم خاصة في الفترة التي سبقت عهد شاه عباس وسنوات من حكمه ايضاً، وصراع بين الفقهاء والمتصوفة وصراع داخل الفقهاء وصراع داخل البلاط وصراع بين الفلاسفة وصراع حول اقامة صلاة الجمعة وصراعات أخرى[2].

ومن المثير للجدل ان نعرف ان والده وهو شيخ الاسلام في مثل هذا المنصب الحساس والمرموق يقرر الهجرة ومغادرة ايران بذريعة الحج؛ فيترك مدينة هرات ليستقر في البحرين بعد اداء مناسك الحج، ويكتب الىٰ ابنه البهائي الذي خلفه في منصبه قائلاً:

«فياولدي، لوكنت تطلب شيئاً لدنياك فاقصد بلاد الهند، وان حاولت الآخرة فالحق بنا الىٰ هذا المقام (البحرين) وان كنت لاتريد الدنيا ولا الآخرة فلازم العجم ولاتبرح»[3].

وقد ترك البهائي هرات ليس الىٰ البحرين وانما الىٰ قزوين ليعيش عن قرب الصراع حول السلطة والذي احتدم بعد وفاة شاه طهماسب.

ولعل تلك الفترة هي أسوأ الفترات التي مرت بها الدولة الصفوية، وقد تعرضت الىٰ ذلك بقدر من التفصيل في الفصل المعنون: رياح الأزمة.

وفي العاصمة كتب البهائي تحفته الموسومة (اوزان شرعي)، وكتب أيضاً خلاصة الحساب.

مكث في قزوين أربعة أعوام، اي حتىٰ سنة ٩٨٨ هـ وهنالك قرر السفر بذريعة الحج

---

(1) مطهري، الاسلام وايران: ص ٣٥٢ - ٣٥٣.

(2) دلال عباس والبيئة الاجتماعية.

(3) اعيان الشيعة: ج١، ص ٤١٤.

أيضاً.

وفي ربوع الوحي في مكة والمدينة والحجاز مكث فترة ثم انطلق الىٰ مصر ومنها الىٰ سوريا فحل في دمشق وحلب ومنها الىٰ فلسطين حيث حل في القدس ليعود بعدها الىٰ ايران.

وقد فسر البعض رحلته التي استغرقت ثلاث سنين وشهوراً انـها لمجرد الحج، ثم اضاف اليها سياحة في بعض المدن والحواضر الاسلامية[١].

وآخر فسرها بطلب العلم كما نرى ذلك في موسوعة الغدير للعلامة عبدالحسين الأمين: «ان رحلات شيخنا الاكبر لاقتفاء العلوم ردحاً من عمره»[٢].

فيما نرى باحثاً يفسر رحلته بانها رحلة انسان عاش غربة روحية فهو يبحث عن وطن؛ ومن يدرس اشعاره والجانب الانساني في شخصيته يميل الىٰ هذا التفسير.

وكانت محنة البهائي تكمن في حالة الاضطرام في اعماقه.

كان لهيب الحب الالهي بدأ يحرق ذاته وكان يتوق الىٰ وطن يستقر فيه ويشعر في ظلاله بشيء من الطمأنينة.

هذا العالم والفقيه والفيلسوف والرياضي والفلكي يحترق بعشقه الالهي، وكان قد لبىٰ دعوة الحبيب:

قد دعاني الهوى ولبّاه قلبي فدعانـي ولا تطيلا ملامي

إن من ذاق نشوة الحب يوماً   لايبـــــالي بكثرة اللوّام[٣]

وراح البهائي يتغنىٰ بحبه الكبير:

عشاق جمالك قد غرقـــــوا   فــــي بحر صفاتك واحترقوا

فــــي باب نوالك قـــد وقفــوا   وبغـــير صفاتك مـــاعرفوا

نيران الغربة تحرقهـــــــم   امــــواج الادمـــع تغرقهـم

من غير زلالك ماشربــــوا   وبغيـــر جمالك ماطـــربوا

---

[١] نزهة الجليس المحبي: ج١، ص ٣٧٧، دلال عباس، بهاء الدين فقيهاً واديباً، ص ١٢٢.

[٢] الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والادب: ج١١، ص ٢٥٠

[٣] جعفر المهاجر، الهجرة العاملية الى ايران: ص ١٨.

صدحات جمالك تحييهـــــم نفحـــات وصالك تغنيهـــم

كم قد احيوا كم قد ماتـــــوا عنهـــم في الحب روايات[١]

ان شعوره بالغربة هو وراء رحلته التي ناهزت الاربع سنوات اذا ما اضفنا لهذه الرحلة تنقله بين المدن الايرانية والا فمن شبه الاكيد ان رحلته لم تستغرق اكثر من اربعة عشر شهراً، فقد بدأها من شهر رجب سنة ٩٩١ هـ وعاد الىٰ ايران في رمضان سنة ٩٩٢ هـ، وعندما سافر تعمد الا يعرفه احد فارتدى زي الدراويش وساح في الأرض.

كانت حياته بالرغم من مركزه الاجتماعي والعلمي الرفيع احساس بالأسر، كانت مملكته ليست في هذا العالم.

ولذا قال بالفارسية:

من ملك بودم وفردوس بر اين جايم بود

آدم آورد در اين خراب آبا دم

ومعناه:

لقد كنت ملكاً وكان محلي الفردوس

وجاء آدم فغادر ذلك المكان خراباً

كان آدم يمثل رمزاً للاستجابة لنزوة الجسد، ولهذا قال في ملمعه العربي الفارسي:

لاتقم في اسر لذات الجسد انـها في الجيد حبل من مسد

قم توجه شطر اقليم النعيم واذكر الاوطان والعهد القديم

اين وطن مصر وعراق وشام نيست اين وطن شهريست كان را ونام نيست

ومعنىٰ البيت الفارسي:

هذا الوطن ليس مصر ولا العراق ولا الشام، هذا الوطن مدينة لا اسم لها.

ولم يحظ عالم بما حظي به البهائي من شهرة واسعة بسبب ما حظي به من تكريم البلاط الصفوي متمثلاً باكبر ملوك الصفويين وهو الشاه عباس.

وعندما نسج الشعب الايراني لملكه الأساطير لم يغفل عن البهائي، الذي دخل مخيلة

---

[١] المصدر السابق.

الشعب الايراني، فكانت له اساطير ضمت جزءً من الحقائق ومساحة من الخيال.

فرحلته التي لم تبلغ الاربعة أعوام في اكثر التقادير جعلت منها الاساطير الشعبية ثلاثين سنة ساح خلالها البهائي الاسطورة العالم حتىٰ بلغ جبال سرنديب[١].

كانت ايران تعيش مخاضاً جديداً، كانت تتحول من بلد يضم مذاهب متعددة وثقافات غير متجانسة وأقوام متناحرة الىٰ امة، واذا كان لسياسة شاه عباس الحديدية اثرها الايجابي في هذا المضمار، فان الانتاج المعرفي والفقهي للبهائي كان يساعد في تكوين ارضية مناسبة لنجاح هذا التغيير.

ألف كتابه الفقهي الذائع الصيت باسم شاه عباس رمز الأمة الايرانية وبطلها القومي وسماه (جامع عباسى) ألفه بلغة سهلة هي لغة الجمهور بعيداً عن كل ما يجعله كتاباً تخصصياً أو خاصاً بطبقة معينة، فحاز الكتاب شهرة واسعة، لقد كان الفقه يمثل المادة الحقوقية التي ستصنع ثقافة امة تقدس الاعتبارات الدينية البحتة بعيداً عن الاعتبارات القومية من لغة وعرق.

وقد احتفظ البهائي بشخصيته الحرة المستقلة، وفيما كان الذين من حول شاه عباس يركع ويسجد ويطيع لم يتردد البهائي في انتقاد شاه عباس على اقامة مظاهر الزينة والفرح في عيد النوروز في احدى السنوات التي صادف فيها العيد الوطني الايراني محرم الحرام موسم العزاء على سيد الشهداء الامام الحسين بن علي(عليهما السلام).

كان بيته مأوى المحتاجين والأرامل واليتامى ولعله الوحيد من بين شيوخ الاسلام في الدولة الصفوية بل وبين كل علماء الدين والشخصيات الدينية، الذي كان يجوس منازل الفقراء واكواخهم البسيطة، حتىٰ وصلت التقارير السرية الىٰ الشاه تنقل اليه رؤيته كثيراً في أحياء الفقراء.

وأراد الشاه ان يلفت نظره الىٰ انه لايليق بمركزه ان يكون هناك فقال في احدى المناسبات:

«لقد سمعت ان احد كبار العلماء يزور الفقراء والاراذل في اكواخهم وهذا أمر لايليق

---

[١] تدعى سيلان في الوقت الحاضر ثم سريلانكا.

به».

فأجاب البهائي على الفور: «هذا أمر غير صحيح، فأنا كثيراً ما أكون في تلك الاماكن، ولم يحدث أن رأيت أحداً من كبار العلماء هناك»[١].

ومن أجل هذا وارتباطه الوثيق بشاه عباس هذا الارتباط الذي لم يجعله تابعاً للسلطة أو منقاداً لبرامجها بل ظل محتفظاً باستقلاله وكرامته الانسانية في ذلك الجوّ المحموم من الصراع على كل شيء.

ولقد مرت ايران في عصره بفترات عاصفة بحيث كان كل شيء يهتز ويتزلزل وكان البهائي ينعم بالاستقرار لكأنه مركز الاعصار الذي ينعم بالسكون.

ومن اجل هذا وذاك دخل وجدان الشعب ليكون جزءً من اساطيره التي تنسجها الشعوب لرموزها وابطالها.

لقد كان البهائي يمثل في اساطير الناس في ايران وفي لبنان بطلاً حقيقياً ومحارباً لايهزم.. وكان في كل ذلك رمزاً للخير، فيما اعداؤه كانوا هم الاشرار.

وتعود شهرته ومحبوبيته الىٰ ماذكرناه من عاطفة انسانية كامنة في اعماقه والىٰ ازدرائه المناصب وحبه للحياة البسيطة وارتباطه بالفقراء والمحرومين، وهو في ذروة مجده العلمي والاجتماعي، اضافة الىٰ بعض مؤلفاته التي كتبها بلغة الجمهور وبعضها الآخر للمثقف العام، بعيداً عن التكلف في استخدام الاصطلاحات التخصصية.

كما يمكن اضافة شاعريته الفياضة الىٰ ماذكرناه، ان الشعر والشعراء يحتلون في نفوس الناس مكانة تقترب من القداسة مع التأكيد على ما اصاب الشعر والشعراء من تراجع مع قيام الدولة الصفوية وبخاصة في عهد شاه طهماسب واهتمامه ورعايته للعلم والعلماء.

وشعر البهائي افضل ما يمكن الاستدلال به في فهم شخصية هذا العبقري الذي يشعرك بانه قد عاش في غير عصره.

ومن يطالع شعره الذي يموج بلغة وجدانية نابعة من اعمق أعماق نفسه، لايكاد يصدق بان الرجل كان فقيهاً، بل في طليعة فقهاء عصره.

---

[١] الهجرة العاملية الى ايران: ص ١٥٧.

واشتهرت في الآونة الاخيرة ١٩٩٨م احدى مقطوعات الشعرية بعد ان لحنت وانشدت[1]، واكتسبت شهرة واسعة، والمقطوعة تنتمي الىٰ الغزل الصوفي، وفي ايقاعها وموسيقاها وأدائها الغنائي ما يشعر المرء بانه يحلق في الاعالي عند الاصغاء اليها.

الىٰ متىٰ اتمنىٰ وصالك ايها المحبوب... المحبوب الوحيد[2].

ان دموعي تنهمر بشدة شوقاً كالميزاب.

وبالرغم من ان الشعر في عهد شاه عباس كان وسيلة للحصول على المال خاصة بعد ان أمر الشاه ذات مرة وعند سماعه قصيدة في مديح الامام علي(عليه السلام) ان يُهدى الشاعر بقدر وزنه ذهباً، بالرغم من كل ذلك فان البهائي لم يمدح شاه عباس حتىٰ ببيت واحد من الشعر في عصر نجد فيه «خيال شيرازي» وهو ابن ملا صدرا الفيلسوف المعروف قد اوقف شعره أو يكاد على مديح الشاه[3].

ويمكن الاشارة الىٰ ان علاقات البهائي بالشاه كانت في اطار رسمي وانـها بدأت سنة ١٠٠٤ وقد رافق الشاه في بعض اسفاره ومنها في عمليات تحرير مدينة مشهد، وكذلك في رحلة الشاه مشياً على الاقدام سنة ١٠٠٨، وفاءً لنذر في زيارة الامام الرضا(عليه السلام) ماشياً ومن المحتمل ان الشاه قد انتخبه شيخاً للاسلام بعد هذه الرحلة.

وقد استقر في مدينة اصفهان يمارس وظيفته الرسمية ويتابع بحوثه العلمية في مختلف المجالات من فلك وهندسة والرياضيات العالية، وكان خلال حياته يحلم بذلك الوطن أو المدينة التي لا اسم لها الىٰ أن توفي سنة ١٠٣٠ هـ ، وكانت شهرته قد تعدت حدود ايران الىٰ مصر والشام والحجاز، وقد شيع جثمانه في موكب مهيب في مدينة اصفهان ليوارى الثرى في مدينة مشهد في حرم الامام الرضا(عليه السلام).

---

[1] لايحضرني اسم الملحن اما منشدها فهو الفنان عبدالحسين مهابادي وقد اشتهر اثرها. وتدعى و«وصال عشق».

[2] نص المقطع الأوّل من الشعر:

تاكى به تمناى وصالت تويگانه *** اشكم شود از هر مژه چون سيل روانه

خواهد به سرايت شب هجران تو يانه *** اى تير غمت را دل عشاق نشانه

جمعي به تو مشغول وتو غايب زميانه ***

[3] زندگاني شاه عباس أول: ج٢، ص ٤٨ - ٥٠.

محمد باقر ميرداماد

ولد محمد باقر ميرداماد سنة٩٦٩ هـ وهو نجل السيد محمد الحسيني الاسترابادي، وداماد تعني الصهر ولأن والده كان صهر المحقق الكركي فقد اكتسب هذا اللقب (ميرداماد) واشتهر به.

وكما هو واضح من لقب والده فانه ينتمي في جزء من تكوينه الثقافي والتربوي الىٰ مدينة استراباد التي تعد من مراكز الشيعة القديمة، حيث تنتشر في تلك الربوع بعض الافكار الفلسفية والعرفانية والحروفية، وجدير ذكره ان مثقفي هذه المدينة وخبراؤها كان لهم دور في تعزيز وبناء الدولة الصفوية.

ويعد ميرداماد المعلم الثالث بعد ارسطو والفارابي وهو في طليعة علماء العصر الصفوي في عهد شاه عباس.

ونظراً لثقل شخصيته العلمية فقد تأثرت المؤسسة الدينية الرسمية بأفكاره القوية والنافذة.

وتعتبر نقطة ذكاء لشاه عباس ان اختار مصاحبة علماء في مستوى البهائي وميرداماد ويضاف ذلك الىٰ امجاده التاريخية.

نشأ ميرداماد في مدينة مشهد التي انتقل اليها في طفولته ودرس على أيدي أساتذتها في عهد شاه طهماسب؛ وبسبب مركز والده صهر الكركي فقد تسنت له فرصة كبيرة في التعرف على ابرز العلماء



الشيخ البهائي

في عصره ويبدو ان والد الشيخ البهائي الشيخ حسين بن عبدالصمد احد اساتذته.

تخصص ميرداماد في الفلسفة وعلم الكلام وكذا في الحديث، ويعد اسلوبه في الكتابة والتأليف من أعقد الاساليب ويستعصي فهم افكاره على غير المتخصصين وهو بذلك يكون عكس البهائي الذي امتاز باسلوبه الواضح جداً.

وله في الرياضيات باع وترك وراءه مؤلفات في هذا الحقل العلمي، كما له مؤلفات في العلوم الرائجة في عصره كالفقه والأصول، وبالرغم من ان وفاته كانت سنة ١٠٤١ هـ الا ان تأثيره الفكري استمر من خلال ماتركه من مؤلفات قيمة، هذا أولاً ومن خلال ما ربىٰ من تلاميذه وقد نبغ فيهم عباقرة خالدون، يكفي ان نذكر الفيلسوف ملا صدرا الذي نقل فلسفة استاذه الىٰ الأجيال القادمة.

يعد كتابه «القبسات» في طليعة مؤلفاته وقد كتبه سنة ١٠٣٤ أي قبل خمسة أعوام من وفاته ويتضمن الكتاب اهم البحوث الفلسفية أي مسألة قِدم العالم وحدوثه وقد شرحه بعض تلامذته.

وله كتاب في الجبر والاختيار تحت عنوان «الايقاظات»، وله تعليقات على كتاب رجال الكشي وهو من كتب الرجال المعروفة في الوسط الشيعي، وله أيضاً كتاب في اثبات وجود الخالق سماه «تقويم الايمان»، ورسالة في التبري والتولي وهي مسألة كان لها صداها في بدء ظهور الدولة الصفوية.

له تعليقات على آثار فلسفية كان قد اطلع عليها وكذلك الاثار الفقهية والحديثية من قبيل شرح التجريد، والشفاء لابن سينا، وقواعد الاحكام للعلامة الحلي، وكذلك كتب الكافي، الاستبصار ومن لايحضره الفقيه وآثار اخرى.

وله كتاب آخر تحت عنوان «الخلسة الملكوتية» قدمه الىٰ الشاه في سنة ١٠٢٠ هـ.

وبالرغم من تخصصه في الفلسفة وعلم الكلام الا انه لم يدر ظهره للحديث وحاول من خلال الاهتمام بأحاديث أهل البيت ان يدفع بالحوزة الشيعية الىٰ الافادة منها على أوسع نطاق، واهتمامه هذا يجب الا يصنفه على الاخباريين الذين ناصبوا الفلسفة وعلم الكلام العداء، ذلك ان ميرداماد كان متخصصاً بكلا الحقلين.

ولكننا سنجد انه سوف يهتم بالاحاديث التي تتفق مع الفلسفة والكلام، ولذا سنجد احد

آثاره العلمية تحت عنوان «الرواشح السماوية» وهو شرح لكتاب الكافي، وسنجد أيضاً ان اسلوبه هذا سيستمر بعد وفاته من خلال تلميذه العبقري ملا صدرا.

ولاسلوبه المعقد في الكتابة فان ميرداماد لم يشتهر كثيراً ولكن افكاره الفلسفية والكلامية استمرت تطرح من خلال تلامذته، وبالرغم من اعتماده الدليل العقلي والبرهان المنطقي، ولكنه يشير الىٰ ما اشرق على قلبه من المعرفة والفيض الالهي، فهو يروي في الخلسة الملكوتية حادثة جرت له سنة ١٠١١ هـ عندما كان في مدينة قم «محروسة حرم أهل بيت الرسول، (يعني دار المؤمنين قم) وكان ذلك في شهر رمضان المبارك.. كنت جالساً قبال القبلة مستغرقاً في تعقيبات صلاة العصر، فجأة هومت عيناي وأخذتني سنة من النوم ورأيت طيفاً شعشعانياً في صورة انسان متوسداً يده اليمنىٰ وهو نائم ورأيت طيفاً آخر له هيبة أعظم وبهاء لامع وجلاء ساطع وراء ظهر المضطجع وكأني الهمت بان المضطجع كان مولاي أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه، وان الجالس هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله فجثوت قرب المضطجع بالقرب من صدره المبارك فتبسم في وجهي سيدنا محمد رسول الله(صلى الله عليه وآله) ومسح بيده المباركة على جبيني ووجهي فزالت عني الهموم».

تخرج على يديه بعض كبار العلماء في طليعتهم السيد احمد العلوي العاملي وهو صهره، وللاخير آثار عديدة، ومن تلامذته ملا خليل القزويني المتوفي سنة ١٠٨٩ ومن آثاره شرحه لكتاب الكافي وباللغتين العربية والفارسية.

يعد ميرداماد من الشخصيات المحبوبة في عصره كانت له علاقات طيبة مع شاه عباس وقد أوردت بعض المدونات التاريخية ان الشاه كانت تساوره مخاوف من ميرداماد حيث الاخير يسعى للاطاحة بحكمه وهي تقوّلات لم تؤكد صحتها في مصادر معتبرة.

توفي ميرداماد في سنة ١٠٤١ هـ في الطريق بين النجف وكربلاء وكان بصحبة الشاه صفي حيث الاخير يقوم بزيارة العتبات المقدسة في العراق.

صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي
(ملا صدرا) رائد الحكمة المتعالية

ولد محمد بن ابراهيم في مدينة شيراز سنة ٩٧٩ هـ أو ٩٨٠ هـ وكاد أبوه ابراهيم بن يحيىٰ القوامي وهو سليل عائلة لها مكانتها الاجتماعية، أن يطير فرحاً، لقد كان محروماً من الذرية وطالما نذر النذور .

وتوفرت للوليد وبسبب مركز والده الاجتماعي والسياسي وغناه، اسباب الدراسة والتي كانت هي ايضاً سبباً للمجد في الدولة الصفوية التي تكرم العلماء وتسند اليهم مراكز ادارية رفيعة.

وقد انتقد ملا صدرا هذا المنحى لدى طلبة العلم الذين يضعون نصب اعينهم امجاد السلطة ونفوذها[١]، فالعلم بحد ذاته هو شرف وفضيلة لمن ينشد الحكمة، وهذا ما قاده فيما بعد الىٰ عزلته الشهيرة التي نجم عنها كشوفاته الفلسفية وفي طليعتها «الحركة الجوهرية» .

من شيراز ولىٰ وجهه شطر العاصمة اصفهان ليتتلمذ على أيدي ابرز علمائها الشيخ البهائي وميرداماد، أخذ عن الأوّل الفقه والحديث وعن الثاني الفلسفة.

وقد تعلق الشاب بالفلسفة تعلقاً شديداً، وكان شديد الحب والاعجاب باستاذه ميرداماد وعندما يذكره فانما يذكره بكل اجلال واحترام واصفاً اياه بـ «سيدي وسندي واستاذي واستنادي في المعالم الدينية والعلوم الالهية والمعارف الحقيقية والاصول اليقينية»[٢].

ويتحدث عن الفلسفة فيقول: «ثم اني قد صرفت قوتي في سالف الزمان، منذ أول الحداثة والريعان في الفلسفة الالهية بمقدار ما اوتيت من المقدور، وبلغ اليه قسطي من السعي الموفور واقتفيت آثار الحكماء السابقين والفضلاء اللاحقين، مقتبساً من نتائج خواطرهم وأنظارهم مستفيداً من أبكار ضمائرهم وأسرارهم»[٣]

ويمكن تقسيم مراحل حياته العلمية الىٰ ثلاث مراحل:

---

(١) الاسفار الاربعة: ج١، ص ١٠ - ١٢.

(٢) ادريس هاني، ما بعد الرشدية: ص ٤٢، ط دار الغدير لبنان.

(٣) المصدر السابق.

الاولىٰ: مرحلة التتلمذ وطلب العلم ودراسة آراء الفلاسفة والحكماء وفي هذه الفترة وقع تحت تأثير العرفان الذي يجب تمييزه عن التصوف، فقد جمع الىٰ البرهان العرفان لتلتقي في قرارة نفسه مناهج المشائين ومبادىء الاشراقيين، وقد أشار الىٰ هذا التحول في حياته العلمية في مقدمة تفسيره سورة الواقعة: «واني كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار وشديد المراجعة الىٰ مطالعة كتب الحكماء والنظار، حتىٰ ظننت اني على شيء، فلما انفتحت بصيرتي ونظرت الىٰ حالي رأيت نفسي - وان حصلت شيئاً من احوال المبدأ وتنزيهه عن صفات الامكان والحدثان وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الانسان - فارغة من العلوم الحقيقية وحقائق العيان، مما لا يدرك الا بالذوق والوجدان[1]».

وبهذا يكون قد انتهج طريقاً وسطاً يحفظ للسائر توازنه: «فأولىٰ ان يرجع الىٰ طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالممازجة بين طريقة المتألهين من الحكماء والملّيين من العرفاء»[2].

الثانية: مرحلة العزلة والانزواء وقد انتخب مكاناً قصياً في قرية نائية في ضواحي مدينة قم وهي مدينة صغيرة يؤمئذ تبعد عنها مسافة ٤٥ كم وهناك امضى سنيناً متمادية وربما استكمل فيها خمسة عشر سنة قضاها غارقاً في تأملاته، وكانت نفسه تشتعل والحقائق تضطرم في أعماقه، يقول عن تلك التجربة الفريدة:

«فلما بقيت على هذا الحال من الاستتار والانزواء والخمول والاعتزال زماناً مديداً وأمداً بعيداً اشتعلت نفسي لطول المجاهدات اشتعالاً نورياً والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت وحلّت بها خبايا الجبروت، ولحقتها الاضواء الاحدية، وتداركتها الالطاف الالهية، فاطلعت على اسرار لم اكن اطلع عليها الىٰ الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان، عاينته مع زوائد بالشهود والعيان»[3].

الثالثة: وهو مرحلة التأليف وانتاج المعرفة التي تلقاها قلبه بالاشراق والوعي وظهر

---

(1) المصدر نفسه ص ٥٥.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه: ص ٥٥.

كتابه الفريد الاسفار الاربعة والتي ظلت كنوزها مخفية في عصره.

ولم تعرف قيمة كشوفاته الا حديثاً فقد تصورها المستشرق الفرنسي الكونت دغوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢) رحلات جغرافية، فيما عدّها المستشرق الانگليزي ادوارد گرانفيل ان الاسفار الاربعة تعني الكتب الاربعة لان السفر يعني الكتاب كما هو الحال في الادبيات المسيحية.

ويعد هنري كوربان الفيلسوف الفرنسي في طليعة من اهتم بهذا الفيلسوف وعرّف بآرائه.



واجه صدر الدين في مجتمعه حملات شديدة وقاسية واستغل خصومه بعض آرائه في تشديد هجماتهم التي اضطرته الىٰ اختيار العزلة والانزواء بعيداً عن مجتمعه، ولكن انسحابه من الحياة بكل ماتضج فيه من صخب واطماع رخيصة وفر له فرصة احدثت تحولاً هائلاً في حياته يقول: «وظني ان هذه المزية انما حصلت لهذا العبد المرحوم من الأمة المرحومة من الواجب العظيم والجواد الرحيم، لشدة اشتغاله بهذا المطلب العالي وكثرة احتماله من الجهلة والاراذل وقلة شفقة الناس في حقه وعدم التفاتهم الىٰ جانبه حتىٰ انه كان في الدنيا مدة

مديدة كئيباً حزيناً ما كان له عند الناس رتبة أدنى من آحاد طلبة العلم ولا عند علمائهم الذين اكثرهم اشقى من الجهال قدر أقل تلاميذهم»[١].

وقد أُستغلت اراؤه في وحدة الوجود استغلالاً واسعاً في التأليب عليه وتداول حتىٰ الناس البسطاء هذه الكلمات في التشنيع عليه واختلط الحابل بالنابل حتىٰ انه يروي انه صادف انساناً يلعنه ويدعو عليه فسأله وهو لايعرفه: لماذا تلعن ملا صدرا ياهذا؟ فقال الرجل: انه يقول بوحدة واجب الوجود، ورد الفيلسوف بأسى: حقاً انه يستحق منك اللعن.

وحدة الوجود والحركة الجوهرية

كما ذكرنا تعرض ملا صدرا الىٰ اشرس حملة يمكن ان يتعرض لها انسان من اجل فكرة فلسفية.

ونظريته في وحدة الوجود هي التي تقف وراء حملات اللعن والشتم والتكفير، وقد كفره الاحسائي الشيخ أحمد[٢]، والاخير أيضاً تعرض للتكفير بعد أن أبدى ميولاً نحو بعض افكار ملاصدرا.

وقد قام تلامذة ملا صدرا وفي طليعتهم صهره ملا محسن الفيض بجهود لتوضيح هذه النظرية لعموم الجماهير لوقف الحملات القاسية والتخفيف من حدة الهجوم على الرجل الذي ستتجلى عبقريته للاجيال القادمة.

هناك عدة تصورات عن الوجود والموجود وأولها الكثرة في الوجود والموجود وهوالتصور السائد لدى الاعم الاغلب من الناس.

والثاني وحدة خاصة للوجود والموجود وهي الرؤية التي ينهض عليها التصوف وهي انه لا وجود الا لموجود واحد قائم بذاته وهو الحقيقة الازلية والابدية والوجود المحض المطلق الذى لا تشوبه شوائب العدم ولا تسري عليه صفات الامكان، وكل شيء عداه انما هو اشراق منه وتجلي لذاته وظل لنوره وكل الماهيات وجميعها مظاهر فيضه وانما هي سراب

---

[١] الاسفار، مقدمة الشيخ المظفر: ج١ ص ١٠.

[٢] الرسالة العرشية: ص ١٧ - ١٨.

ليس غير؛ سراب يحسبه الظمآن ماء حتىٰ اذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وكما قال الشاعر جامي:

كل ما في الكون وهم وخيال أوعكوس في مرايا أو ظلال

والثالث وحدة الوجود وتعدد الموجود بمعنىٰ ان للوجود حقيقة واحدة قائمة بذاتها وآثارها صرف الماهيات ونفس الكليات الطبيعية لاغير حيث الذهن يطلق مفاهيمه عليها كما هو الحال في مفهوم السماء والأرض والانسان وغير ذلك من المفاهيم التعيينية الاخرى.

الرابع وحدة الوجود والموجود في عين كثرته وتعدده ومثال ذلك انعكاس صورة الشمس في مرايا كثيرة ومتعددة اذ تبدو في الوهلة الاولىٰ شموس كثيرة بعدد المرايا والاشياء الصقيلة العاكسة، ولكن بعد امعان النظر والملاحظة نكتشف ان الشمس واحدة وان تلك الشموس انعكاس لها وصور لها وظلال، وان الشمس واحدة وماتلك الصور الا تجليات لذلك الجوهر الواحد، وعلى قول الشاعر الفيلسوف:

وما الوجه الا واحد غير انه اذا انت عددت المرايا تعدّدا[١]

الحركة الجوهرية

تعد نظرية الحركة الجوهرية أعظم اكتشاف فلسفي وإبداع عالمي في العصر الحديث على الاطلاق؛ وتعد الحركة الجوهرية أولىٰ ثمار اصالة الوجود وأكثرها اهمية ويعتبر هذا الاكتشاف الفلسفي قفزة في مسيرة الفلسفة منذ القدم.

وقد حشد ملا صدرا أدلة عديدة على اثبات الحركة الجوهرية واعتبر الحركة في العرض دليلاً على حركة الجوهر.

وكانت التصورات الفلسفية السابقة تنص على فهم خاطىء يعتبر الحركة ضد السكون في حين فسر ملا صدرا بان السكون ليس ضداً وانما هو في الحقيقة انعدام الحركة.

وتصل ادلته في الاثبات الىٰ الذروة في الاثارة والابداع عندما يتحدث عن نظريته في الزمن حيث تتكامل نظريته في طبيعة الزمن وصلته بالاجسام، وايضاً نظريته في اصالة الوجود.

---

[١] فلاسفة الشيعة، عبدالله نعمة.

فهو يقدم معالجة رائعة لمفهوم الزمن تجعله بعداً كمياً للاجسام على شاكلة الابعاد المكانية الاخرى للجسم، فالزمان كمايرى ملا صدرا مقدار الطبيعة المتجددة بذاتها من جهة تقدمها وتأخرها الذاتيين «كما ان الجسم التعليمي مقدارها من جهة قبولها للابعاد الثلاثة»، فهو امر ممتد وكمي قابل للقسمة الىٰ ما لانهاية. وهو البعد الرابع للاجسام إذ «جميع الموجودات التي في العالم واقعة لذاتها في الزمان والتغير مندرجة تحت مقولة (متىٰ) كما انها واقعة في المكان مندرجة تحت مقولة (اين) بحيث لا يمكن ان تحصل حركة من دون زمان أو ان يكون زمان دون حصول الحركة.

والزمان السيّال هذا في تصرّمه التدريجي يحكي عن التغيّر الحاصل في الشيء الزماني.

ويرفض ملا صدرا اعتبار الحركة علة لوجود الزمان أو العكس وهو يعتبر اتصاف الاجسام بالحركة والزمان معاً اتصافاً حقيقياً، فالزمن هو بعد اصيل في الاجسام كما هي الابعاد المكانية الاخرى الحاكية عن وجوده.

وعلى هذا الاساس يكون الزمان مثل اي بعد مكاني آخر هو من شؤون الجوهر الجسماني فلا يعقل وجود جوهر بدونها، واذا كان الزمن احد مقومات وجود الاشياء فهذا يعني حصولها تدريجياً وبهذا أثبت ملا صدرا الحركة في جميع الاجسام على الاطلاق.

وتأكيداً لمنهجه في التوفيق بين الشريعة والفلسفة يستند ملا صدرا الىٰ آيات القرآن الكريم في تدعيم نظريته ويستشهد بعدد منها، كقوله تعالىٰ:

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)

(بل هم في لبس من خلق جديد)

(يوم تبدل الأرض غير الأرض)

وفي سياق استشهاده بالآيات يثبت آية لاتحمل مدلولاً مباشراً وواضحاً ولكنه يفسرها تفسيراً رائعاً وهي قوله تعالىٰ: (وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتىٰ اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون) .

يقول الفيلسوف: «وجه الاشارة الىٰ ان ما وجوده مشابك لعدمه وبقاؤه متضمن لدثوره يجب ان يكون اسباب حفظه وبقائه بعينها اسباب هلاكه وفنائه. لهذا كما اسند الحفظ الىٰ

الرسل اسند التوفي اليهم بلا تفريط في احدهما وافراط في الاخر»[١].

وفي هذا اشارة واضحة الىٰ الحركة بما هي سبب بقاء الاجسام فهي أيضاً سبب في فنائها[٢].

وهي فكرة رائعة اعلنها قبل أن يطلقها هيجل الذي يقول: «الحياة تحوي في طياتها الموت» بعشرات السنين وما يدل على عظمة هذ النظرية انهـا راحت تتسع الىٰ تفاسير عديدة مايدل على ثرائها العلمي.

فعلى اساس هذه النظرية يمكن ان تكون اساساً للتطور والارتقاء، وهي النظرية التي بشر بها دارون وقاد الغرب من خلالها الىٰ هاوية الالحاد ولكن صدر الدين الشيرازي جعلها دليلاً على وجود الخالق وحدوث العالم.

كما انـها اثبتت التركيب الذري للمادة ووجود شحنات سالبة واخرى موجبة حيث تدور الاولىٰ حول الثانية التي تستقر في النواة في نظام يشبه النظام السائد في المنظومة الشمسية حيث تدور الكواكب حول الشمس بسرعة مماثلة ومع ذلك فانها تبدو ساكنة.

وينبغي أن نتذكر الآية التي استشهد بها الفيلسوف:

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب)

من هنا فان نظرية الحركة الجوهرية تعد البداية الحقيقية للنظرية الذرية الحديثة والتي ثبت صدقها بعد انفلاق الذرة.

اضافة الىٰ ما صرح به ملا صدرا في تفسيره للزمن واعتباره بعداً كمياً للاجسام والبعد الرابع فيها وهو مقدار الطبيعة المتجددة بذاتها من جهة تقدمها وتأخرها الذاتيين»، حيث جميع الاشياء تندرج تحت مقولة متىٰ، كماهي مندرجة تحت مقولة أين.

في طريق عودته من الحج وفي مدينة البصرة توفي الفيلسوف ملاصدرا ليلقب بصدر المتألهين بعد أن اتهم في حياته بالكفر والالحاد.

وفي مدينة قم وفي تلك القرية النائية (كهك) حيث امضى عزلته الشهيرة متأملاً أسرار الوجود مايزال هناك بيت متواضع يقصده السواح يدعى «منزل ملا صدرا».

---

[١] الاسفار الاربعة: ج٣، ص ١١١.

[٢] ادريس هاني، محنة التراث الآخر: ص ٣٢٠ - ٣٢١.

وحقاً «لقد جاءت فلسفة ملا صدرا مفعمة بمضامين علمية غزيرة تمثل اساساً لما ستشهده الثورة الثقافية والمعرفية في تاريخنا المعاصر، فكان ان اصّل مفهوم الوجود قبل كل من هيدغر وسارتر، حينما قال بحقيقة الوجود وظهوره وزمانيته، كما فجر مفهوم الحركة الشاملة قبل الديالكتيك الهيجلي بقرون عديدة، بالاضافة الىٰ ابتكارات اخرى كنظريته في النشوء والتطور والميكانيكا، كل هذا يجعل من فيلسوفنا بحق احد اكبر الممهدين المجهولين للثورة العلمية المعاصرة»[1].

النهاية

في ليلة الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولىٰ عام ١٠٣٨ هـ اغمض شاه عباس عينيه ليودع الدنيا وقدر له ان يموت في مدينة مازندران ليدفن في مقبرة امام زاده موسى في مدينة كاشان موقتاً.

وهذا الرجل الذي استطاع استرداد هيبة الدولة الصفوية وبسط نفوذها في مساحات شاسعة جداً تمتد من جورجيا شمالاً الىٰ البحرين جنوباً ومن قندهار شرقاً حتىٰ بغداد غرباً، ضمن حكم مركزي شمولي قوي يشرف اشرافاً مباشراً على جميع ولايات واقاليم الدولة.

وهذا الميراث الكبير تعرض للتهديد مرة اخرى بمجرد وفاته، ذلك ان شاه عباس الذي اعتقل اباه واخوته وصفى بعض ابناء عمومته قام ولاسباب غامضة أو لمجرد مخاوف ساورته بسمل عيون ابنائه وحتىٰ قتل احدهم وهو ولي عهده الرسمي محمد باقر ميرزا الملقب بـ «صفي ميرزا».

فحتىٰ عام ١٠٢٢ كان الاخير هو ولي العهد الذي سيخلف اباه على العرش الصفوي.

وفي هذا العام ١٠٢٢ بدأت مخاوف تساور شاه عباس ازاء ولده فأوعز الىٰ أحد غلمانه الشراكسة باغتيال ابنه في مدينة رشت مركز اقليم گيلان شمال ايران.

وفيما كان ولي العهد يغادر الحمام هاجمه الرجل الشركسي وقتله وظل جسد الضحية في الطين ساعات ولم يجرؤ أحد على التقدم لفعل شيء الىٰ ان حضر الشيخ البهائي، الذي حدث الشاه بضرورة دفن القتيل فانتشل من الطين وقام صدر الدولة ميرزا رضي بتغسيله

---

(١) المصدر السابق: ص ٣٢١.

وتجهيزه ودفنه.

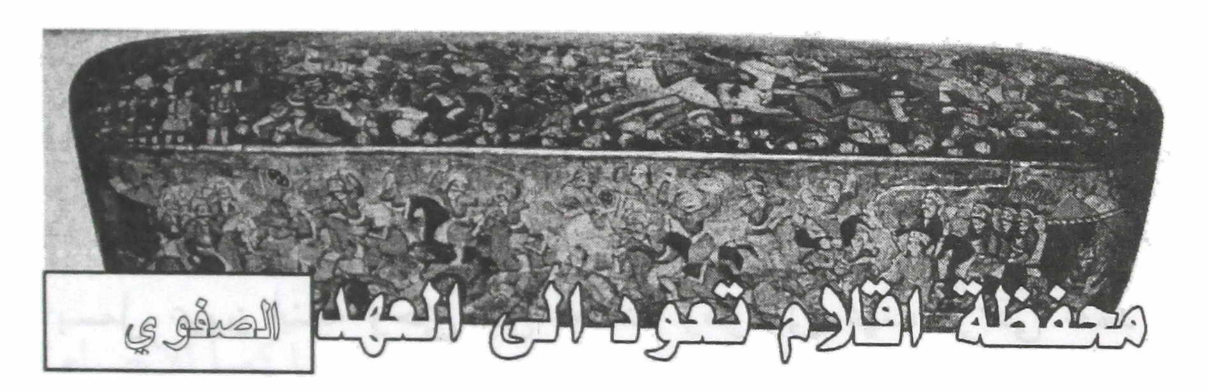
وقد أثار الحادث غضب زوجة الشاه والدة ولي العهد وكذا زوجة القتيل وشعر شاه عباس بالخجل، فدخل غرفته واغلق الباب وراءه ومكث عشرة أيام وأعلن العزاء لمدة عام ولم يلبس الشاه بعد الحادثة حلة فاخرة أبداً، كما أوعز بألاّ يذكر اسم صفي ميزرا نهائياً.

وفي عام ١٠٣٠ اي بعد سبعة أعوام من تلك الحادثة قام شاه عباس بسمل عين ولده الآخر سلطان محمد ميرزا.

وكان الشاه بعيداً عن العاصمة اصفهان وبعد عودته استمع الىٰ تقرير عن تحركات ولي عهده الذي كان في حالة سكر وافصح عن امنياته وتحرقه لزعامة الدولة بعد وفاة والده.

واسند الشاه ولاية العهد الىٰ امام قلي ميرزا ولم يتحمله الشاه اكثر من ستة أعوام فقام بسمل عينيه سنة ١٠٣٦ اي قبل وفاة الشاه بعامين.

وقد حاول المؤرخ الايراني اسكندر بيك المعروف بولائه لشاه عباس تبرير هذه الاجراءات بانها في مصلحة الدولة.



وفي عام ١٠٣٨ وفيما كان الشاه في مدينة مازندران شعر بدنو اجله فراح يفكر بمستقبل عرشه وقر قراره على انتخاب سام ميرزا حفيده من صفي ميرزا الابن القتيل ليكون ولي عهده الجديد ومع ذلك فقد كان لايأمن جانبه فأوعز الىٰ رجاله ان يعاطوه قدراً من الحشيشة يومياً لتخديره ومراقبة تحركاته.

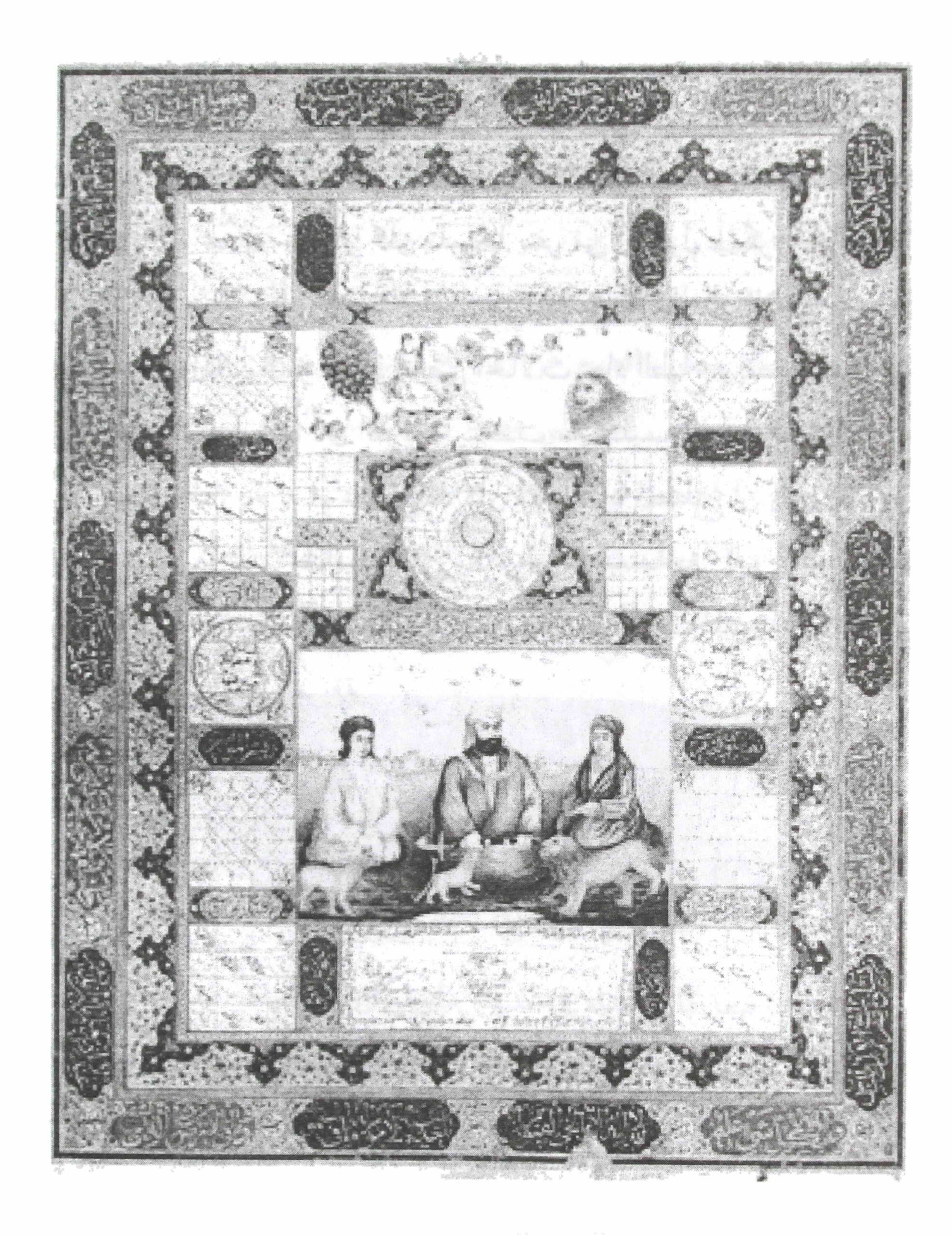
وانعدام ثقة الشاه بابنائه قابلها ثقة كبيرة بأصهاره فقد نصب صهره على ابنته زبيدة قائداً على القوات المسلحة فيما اسند منصب الوزارة لصهره الآخر حتىٰ منصب الصدارة هو الآخر انتدب له احد اصهاره، اضافة الىٰ اسناد مناصب أخرى لهم لكي يتسنىٰ له السيطرة أكثر على مراكز السلطة.

وصفه احد الرحالة الاوربيين الذين حظوا بلقائه بانه متوسط الجسم لاهو بالنحيل ولا هو بالسمين، شديد سمرة الوجه، وانفه معقوف كالصقر، كثيف الحاجبين، في عينيه بريق يدل على ذكاء غير عادي يطلق شاربه مفتولاً الىٰ الاسفل ويعتبر فتله الىٰ الاعلى دلالة على الوقاحة والتكبر، ولم يفارقه وقاره في كل الحالات.

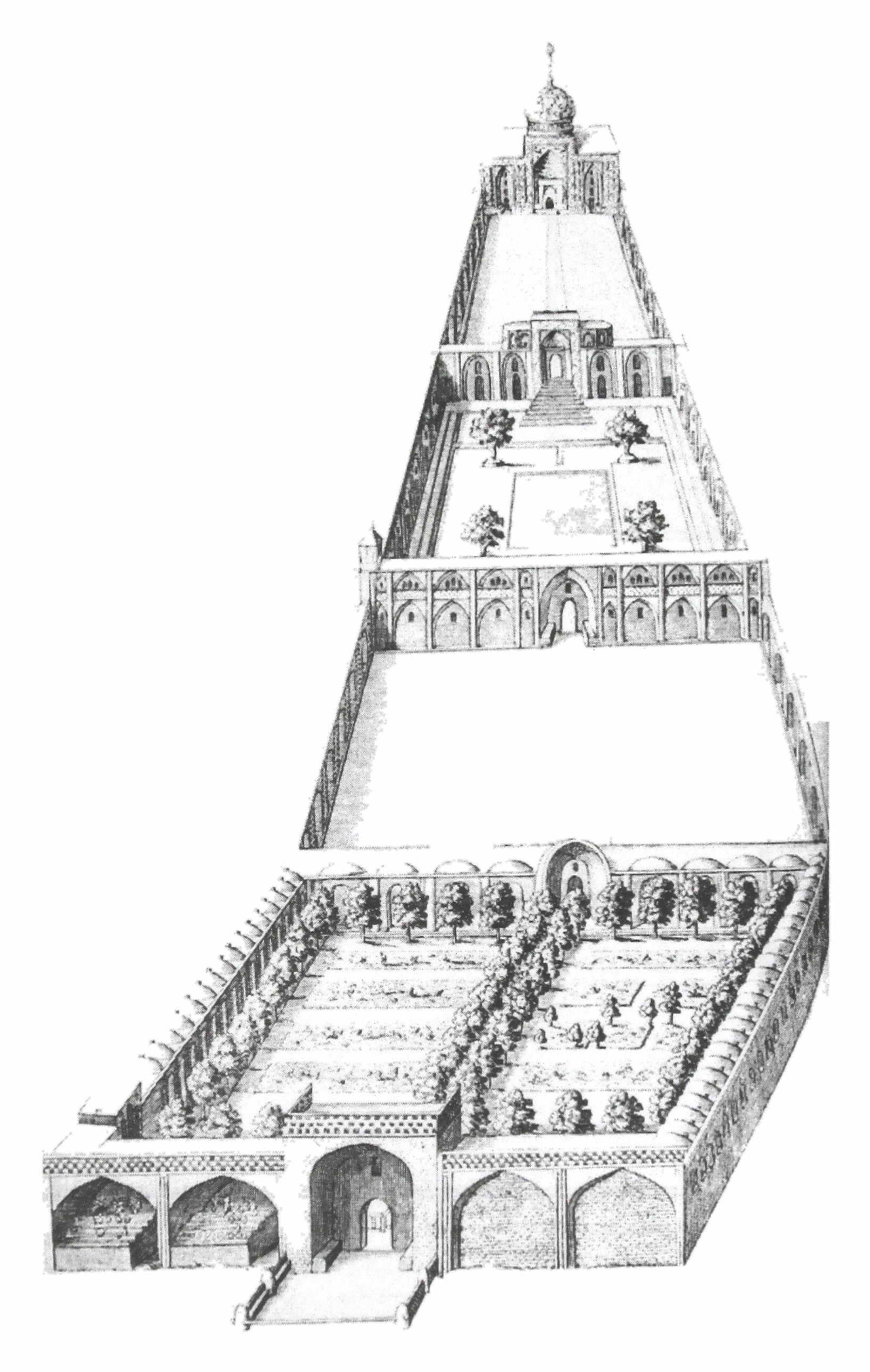
ووصفه آخر: بانه محارب شديد الغضب سريعه قوي البنية ويتمتع بذاكرة قوية يدرك بسرعة مايرمي اليه محدثه حتىٰ لو كان تلميحاً ينفر من الخمول ويكره الخاملين.

ويقول اسكندر بيگ الذي يعد السكرتير الخاص للشاه ان الاخير جمع في صفاته الاضداد ومزج بين الماء والنار فهو في بعض الحالات حاد الطباع ويقدح الشرر في عينيه اذا غضب. وفي حالة اخرى تراه لين العريكة يتحدث مع جليسه كما يتحدث الاخ مع أخيه.

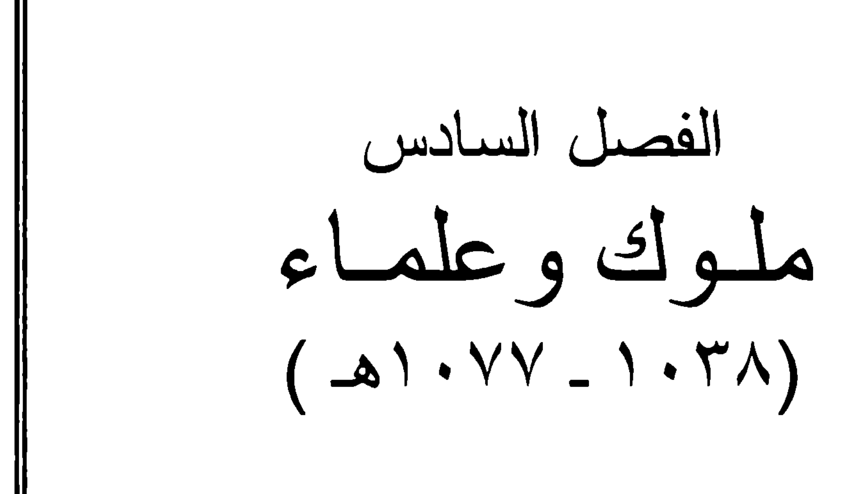
وأياً كان حكم التاريخ له ام عليه فلقد كان ملكاً قوياً استطاع ان يقود بلاده وشعبه من نصر الىٰ نصر مسترداً مجد اجداده وأكثر، وماتزال عاصمته حتىٰ اليوم تتمتع بشهرة عالمية بسبب ماتركه من آثار خالدة يجدها المرء هنا وهناك في مختلف المدن الايرانية وفي متاحفها المخلتفة وحتىٰ في أسواقها العريقة.



من نفائس العهد الصفوي- متحف مدينة قم



ضريح السيده فاطمة المعصومة قام الصفويون بتعميره وتزيينه



الفصل السادس

ملوك وعلماء

(١٠٣٨ ـ ١٠٧٧هـ)

ان سجل صفي شاه المليء بالجرائم، تجعله أقسى ملك صفوي على الاطلاق.. انتحل اسم ابيه القتيل وبدأ حكمه بتنفيذه مسلسل الجريمة، ليأتي على كل افراد العائلة الصفوية ولم تسلم امرأته وحتى ابنته من ذلك المصير الدامي.

واجهته مصاعب داخلية وأخرى خارجية تعامل معها بطريقته الخاصة.

شهدت ايران في عهده وفي عهد وريثه على العرش شاه عباس الثاني استئنافاً لحركة الازدهار في العمران والثقافة بعد ان تعثرت لفترة وجيزة.

الذئب الأغبر



كانت نظرية افلاطون صادقة جداً في تفسيرها ظهور شخصية دكتاتورية مثل شخصية شاه عباس؛ فقد كان ظهور الدكتاتور حسب رأيه مرهون بوجود ضرب من الفوضى أو التسيب في الدولة؛ بحيث يكون هو المنقذ الذي يعيد النظام والأمن والاستقرار الىٰ البلاد ويكون المسوغ هو قدرة الحاكم الدكتاتور على النهوض بحكومة قوية بعد أن أصبح جهاز الدولة عاجزاً عن مواجهة تلك الازمات التي تعصف بالبلاد، بسبب ضغوط خارجية أو تشنجات داخلية[1].

وبسبب الفوضى التي يضج منها المجتمع يبرز الأمل في ظهور حاكم قوي يعيد النظام والاستقرار والرفاه؛ وعادة ما يذهب الدكتاتور في حكمه الىٰ ما هو أبعدمن الأزمة أو الأزمات التي ظهر ليعالجها؛ اذ ليس من السهل أن يقيد الحاكم المطلق نفسه بدستور أو قانون.

ونحن اذ نتذكر مافعله شاه عباس بأبيه وأخوته وبأبنائه ولكن نلاحظ ان شاه عباس تحول الىٰ بطل قومي وشخصية تتمتع بالقداسة وهذا يعود الىٰ دهائه السياسي ومحافظته على علاقات طيبة مع المؤسسة الدينية، مع التأكيد على ان شخصية من الوزن الثقيل في مستوى البهائي لم تخضع أبداً لرهبة البلاط وتنقاد له أو تمالئه وهذا ما أحدث نوعاً من التوازن أو رسم حدود يتحرك في اطارها الشاه.

---

[1] د. امام عبدالفتاح إمام، الطاغية، دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي.

ولو افترضنا أنّ البهائي مثّل دور المتملق الذي يسجد للسلطان لاستطعنا ان نتصوّر ما سيحل بالشعب والبلاد من خراب؛ ذلك ان هناك من المؤشرات والارضية المساعدة لتحول شاه عباس الىٰ طاغية كبير.

هذه الاثارة ليست كافية لنستهل بها هذا الفصل، الذي يتحدث عن الشاه الجديد الذي بدأ حكمه باغتيال أفراد العائلة الصفوية بطريقة مثيرة دون أية مبررات.

وإذا ما أردنا ان نضيف شكل الحكم الذي مارسه شاه عباس في حق شعبه نستطيع ان نضعه ضمن التصنيف الرابع للحكم الملكي وهو نظام الحكم البطولي الذي يعتمد بالدرجة الاولىٰ على رضا الشعب؛ وعادة ما يكون الملك محسناً الىٰ شعبه من خلال برامج التنمية ومن خلال قيادة الحروب دفاعاً عن البلاد[1]، وفيما يخص حالة صفي شاه نفضل ان نقدم موجزاً عن جرائمه بحق اسرته.

صفي شاه هو سام ميرزا حفيد شاه عباس ونجل ولي العهد صفي ميرزا الذي قتل بأوامر من أبيه شاه عباس سنة ١٠٢٣ في مدينة رشت كما ذكرنا في نهاية الفصل الماضي.

وتذكرنا جرائم صفي شاه بجرائم شاه اسماعيل الثاني، الذي ألمحنا الىٰ ادمانه على المخدرات وسجنه في قلعة قهقهة في شمال أردبيل مدة عشرين سنة، ومن سجنه الىٰ عرش السلطنة، ومن المؤكد انه كان يعاني من عقد نفسية ومخاوف وأوهام وشكل خطراً على مستقبل العرش الصفوي، وقد لقي حتفه في ظروف غامضة، ما يؤكد نظرية اغتياله بدس السم في المخدرات التي كانت يتعاطاها، ولكن صفي شاه استمر في الحكم حوالي اربعة عشر سنة بالرغم من ان جرائمه تكاد تفوق جرائم اسماعيل الثاني.

أصدر اوامره بالقاء عمّيه السجينين محمد ميرزا وامام قلي من فوق اسوار قلعة ألموت علماً بأنّ الاخيرين كانا قد سُملت عيونهما مبرراً عمله الاجرامي بانهما قد باتا عديمي الفائدة كما أمر بقتل ابن عمه؛ امام قلي كما قام بسمل عيني القاسم حفيد شاه عباس من ابنته كما سمل عيني حفيد آخر لشاه عباس في مشهد وقتل ثلاثة أحفاد آخرين لشاه عباس من ابنته زبيدة وقتل أباهم وهو قائد عسكري.

---

[1] المصدر السابق: ص ١٣٥ - ١٣٧.

وسمل عيون أربعة أحفاد آخرين من ابنة أخرى لشاه عباس وأربعة أحفاد من ابنة ثالثة هي حوراء زوجة ميرزا رضي صدر. كل هذه الجرائم وقعت خلال العامين الاولين من حكم صفي شاه.

وبعد هذا المسلسل من الجرائم الذي قضى على معظم أفراد الاسرة الصفوية جاء دور الأمراء والحكام وبدأت طاحونة الموت والقتل بالأمير امام قلي خان نجل الله وردي خان الذي قدم خدمات كبرى للأسرة الحاكمة.

وقد استدعي حاكم ولاية فارس، فحضر مع أولاده الثلاثة الذين تم قتلهم وأرسلت رؤوسهم اليه ثم هوى رأسه هو الآخر.

وبأوامر من الشاه أيضاً تم قتل وزيره طالب خان بعد ان مكث ثلاثة أعوام في منصبه وسمل عيني القاضي محسن نجل القاضي معز الاصفهاني وقطع يديه، كما قتل أحد القادة العسكريين وهو چراغ خان وهذا جانب من جرائم الشاه صفي .

يقول افلاطون:«اذا ذاق المرء قطعة من لحم الانسان تحول الىٰ ذئب»، «ومن يقتل ظلماً وعدواناً ويذق بلسان وفم دنسين دماء أهله ويشردهم ويقتلهم فمن المحتم ان ينتهي به الأمر الىٰ أن يصبح طاغية ويتحول الىٰ ذئب»[1].

ان نظرية افلاطون التي تفيد بان ظهور الطاغية مرهون بوجود ضرب من الفوضى أو التسيّب لايمكن تطبيقها أو هي لاتنطبق على حالة صفي شاه الذي ورث حكم بلد مستقر ويتمتع بمركز دولي جيد؛ لكننا نستطيع ان نضيف الىٰ عقده النفسية بسبب مصرع والده ولابد أن قصته الدامية قد ترسخت في أعماقه وأفرزت طاقة سلبية وطالت أشعتها التدميرية افراد أسرته، لانه سيقوم بقتل زوجته وابنته أيضاً.. نستطيع ان نضيف الىٰ ذلك في تفسيره هذه الاجراءات الدموية بان سياسته كانت محاولة للاستمرار على سياسة جده شاه عباس الذي قتل بعض بنيه وسمل عيونهم واستطاع تشكيل حكم مركزي شمولي.

---

[1] المصدر نفسه: ص ٨٩.

مصاعب ومشكلات

ثارت في وجه الشاه الجديد مصاعب ومشكلات داخلية وأخرى خارجية.


اعتقال امير صفوي

ففي داخل البلاد بدأ الملاكون وبسبب نفوذهم الواسع البحث عن موقع سياسي وبطبيعة الحال ان أفضل ما يمكن ان يحقق أهوائهم ويبرر تحركاتهم هو الاستقلال بالمقاطعات التي أحكموا السيطرة عليها اقتصادياً؛ وقد ساعد الظلم الذي يمارسه الحكام المعيّنون من قبل الحكومة على تكوين أرضية مناسبة لأية حركة انفصالية او استقلالية من خلال التعاطف الشعبي مع أية حركة تحررية.

وقد مثل كل من أقليم گيلان ومازندران بؤرة توتر بسبب الموقع الجغرافي وكثرة الغابات الكثيفة ووجود أُسر عريقة لم تستطع الحكومات المتعاقبة تدجينها والسيطرة عليها.

وقد حدثت حركة تمرد في الأشهر الاولىٰ من حكم صفي شاه قمعت بشدة وقسوة وقد شُنق زعيم المتمردين في ميدان نقش جهان في العاصمة اصفهان.

وفي مدينة قزوين ادّعى أحد الدراويش انه «نائب صاحب الزمان» واستطاع ان يستقطب حوله الكثير من المؤيدين وانقسمت المدينة الىٰ فرقتين مؤيد ومعارض وحدثت اشتباكات بين الفريقين لقي الدرويش مصرعه فيها.

وفي خارج حدود الدولة كانت الدولة العثمانية تخطط لاحتلال بغداد بعد وفاة شاه عباس.. وقد حوصرت مدينة بغداد من قبل القوات العثمانية، ولكن الحصار اخفق في

احتلال بغداد واكتفى العثمانيون ببناء قلعة في مدينة الحلة سقطت بأيدي الصفويين بعد محاصرتها لمدة شهرين.

ولم يغفل شاه صفي عن اهمية قيامه بزيارة العتبات المقدسة في النجف وكربلاء لما في ذلك من اثر في رسم صورة طيبة للحكم الصفوي خاصة لدى الشيعة في العراق.

وبعد الاشراف على تعزيز دفاعات قلعة النجف قفل الشاه عائداً الىٰ العاصمة الصفوية اصفهان واطلق من جانب واحد سراح الفي اسير عثماني وهذا ما دعا العثمانيين الىٰ الاعراب عن شكرهم وتقديرهم في رسالة ودية.

لم يكد يمضي عامان على ذلك حتىٰ شن العثمانيون هجومهم على المناطق المتاخمة لبحيرة ارومية في سنة ١٠٤٢ هـ وقد مني المهاجمون بالهزيمة.

وفي عام ١٠٤٤ قاد السلطان مراد الرابع بمعية الصدر الاعظم هجوماً على يرفان لتسقط القلعة بأيدي المهاجمين وباتت الطريق مفتوحة الىٰ مدينة تبريز ولكن الجيش العثماني اكتفى بما احرزه من مكتسبات وقفل عائداً الىٰ العاصمة اسطنبول.

وسرعان ما استطاع الجيش الصفوي من استعادة المدينة وطرد القوات العثمانية من قلعتها بعد حصار شديد.

وفي عام ١٠٤٧ هـ استطاع الجيش العثماني احتلال بغداد وأعلن الجانب العثماني رغبته في عقد معاهدة سلام مع الجانب الصفوي، واضطر الجانب الآخر الىٰ الاستجابة وتم توقيع اتفاق سلام في منطقة «ذهاب» بالقرب من قصر شيرين وسمي الاتفاق الانف الذكر باتفاق ذهاب.

وعلى صعيد العلاقات مع الدولة الاوزبكية فقد شن الاوزبك عام ١٠٤١ هجوماً وحاصروا مدنية مرو، وعلى محور آخر قاد حاكم بلخ هجوماً آخر مخترقاً الحدود الايرانية وقد شعر شاه صفي بجدية الخطر، فحرّك قواته لوقف التقدم الاوزبكي وذهب الشاه بنفسه الىٰ خراسان لمراقبة الاوضاع عن كثب. ويشاء القدر أن يقع أحد الامراء الصفويين أسيراً ولوجود قرابة بين الاسير وبين الملك الاوزبكي استطاع الأمير الاسير اقناع الزعيم الاوزبكي بسحب قواته وحتىٰ سحب قوات حاكم بلخ أيضاً الىٰ الحدود الدولية.

وبعد عامين عاود الاوزبك هجومهم ولكنهم منوا بهزيمة مرّة وارتدوا خائبين.

في عام ١٠٤٦ هـ قاموا بهجوم ثالث وأخفق الهجوم أيضاً.

وعلى صعيد العلاقات مع الهند ساد التوتر بين الدولتين حول مسألة قندهار، وكان شاه جهان أمبراطور الهند قد تلقى رسالة من السلطان مراد الرابع حول القيام بهجوم ثلاثي في وقت مشترك؛ حيث تقوم جيوش الدول الثلاث بمهاجمة ايران في وقت واحد، وقد اضطر الحاكم الايراني على قندهار الىٰ الرضوخ لرغبة الامبراطور المغولي شاه جهان وهكذا دخلت قوات المغول مدينة قندهار حيث أعقب ذلك سقوط مدينة بغداد.

وظلت العلاقات الاوربية الايرانية تراوح في مكانها ولم يحدث تطور يذكر، وربما تكون رسالة الشاه الىٰ ملك انگلترا يطلب فيها من الاخير عوناً علمياً من خلال ارسال خبراء في بعض المجالات الصناعية والفنية والعسكرية التطور الوحيد على هذا الصعيد.

وفي عهد شاه صفي حدث برود في العلاقات بين المؤسسة الدينية والبلاط ووصلت العلاقات بين الجانبين الىٰ أسوأ مستوى لها وقد عرف عن الشاه عدم احترامه للعلماء.

وقد اسند منصب الصدارة الىٰ ميرزا حبيب الله صدر وهو نجل السيد حسين الكركي العاملي وقد عرف الرجل بعدم لياقته لهذا المنصب وشاعت بين الناس حكايات عن جهله ومع ذلك فقد استمر في منصبه الىٰ وفاته سنة ١٠٦٠ هـ.

وقد أعرب الشيخ علي نقي كمرئي المتوفي سنة ١٠٦٠ عن قلقه الشديد لانفصال الشاه وابتعاده عن العلماء وطلب منه أن ينتهج درب آبائه في نشر التشيع ودعاه الىٰ مصاحبة العلماء والفقهاء والمحدثين.

وقد ظل منصب شيخ الاسلام فارغاً بذريعة عدم وجود مجتهد لا في العراق ولا في ايران، هذا بالرغم من وجود علماء عديدين في تلك الحقبة.

في عام ١٠٥٢ هـ وفيما كان الشاه في طريقه لاستعادة قندهار توفي في مدينة كاشان وليخلفه على العرش بعد أربعة أيام ابنه عباس الثاني المولود سنة ١٠٤٣ وهكذا اثبتت المؤسسة العسكرية (القزلباش) قدرتها من جديد على حماية العرش الصفوي من خلال جلوس طفل في العاشرة دون مشكلات تذكر.

وقد توفرت تفاصيل عن سيرة هذا الملك الذي قدر له ان يستمر في الحكم ربع قرن من الزمن، ذلك ان احد معاصريه ممن يمتلك قدرة على الكتابة والتدوين التاريخي قد شغل

منصب السكرتارية في البلاط الصفوي، ويعد هذا المنصب من المناصب الحساسة في الدولة بسبب قرب من يشغله من الشاه.

وهكذا اتيح لمحمد طاهر وحيد القزويني ان يكتب مدوّنته الموسومة بـ «عباس نامه» لتشتمل على سيرة شاه عباس الثاني وبالرغم من لهجة التملق السائدة في هذه المدونة الا انـها تنطوي على قيمة تاريخية لايستهان بها.

كما نجد تسجيلاً للتطورات التي حدثت في هذا العهد في كتاب آخر تحت عنوان: «قصص الخاقاني» وهو من تأليف ولي قلي شاملو، وهو من معاصري شاه عباس أيضاً.

كان شاه عباس عند تربعه على العرش في السن التي يتوجب فيها على أمراء الأسرة أن ينتظموا في سلك الدراسة؛ ومن هنا فقد ارسل الىٰ كاشان ومنها الىٰ قزوين حيث أشرف مير مرتضى الاصفهاني على تعليمه القراءة والكتابة الىٰ جانب تدريبه على الرماية وفنون القتال والحرب، اضافة الىٰ تدريبه على اتقان الالعاب الرائجة يومئذ من قبيل لعبة چوگان بازي[١].

وفي ظل مثل هذه الظروف كان الوزير (اعتماد الدولة) هو الذي يسيّر شؤون البلاد، وكان الوزير يومئذ هو «ساروتقي» وقد حاول رستم خان سپه سالار قائد الجيش الصفوي المشاركة او الاستحواذ على هذا الموقع الحساس؛ ذلك أنّ انفراد الوزير (اعتماد الدولة) بالحكم أثار روح المنافسة لدى كثير من الزعامات وكان في طليعتهم القائد العسكري وزعيم الجيش رستم خان سپسالار[٢].

وكانت هذه المنافسة بوجود ملك صبي بداية للمشكلات الداخلية التي عصفت بالبلاد في تلك الفترة، فقد بعث رستم خان سپسالار برسالة الىٰ الشاه أعرب فيها عن رغبته بالتواجد في العاصمة وكان زعيم الجيش يومها في مدينة مشهد، وسعى الوزير للتخلص منه دفعه واحدة، باقناع الشاه باصدار أمر بتصفيته جسدياً، فكان أول ضحايا التنافس على النفوذ ولم يكن الاخير بطبيعة الحال فقد لقيت زعامات أخرى مصرعها أو أحيلت على

---

[١] سقوط صفوية: ص ٢٩٨.

[٢] يتألف هذا الاصطلاح من مفردتين سپه (جيش) وسالار (زعيم، سيد) وسپسالار هو نفس المنصب العسكري الصفوي (امير الامراء) الذي كان معروفاً منذ تأسيس الدولة الصفوية.

التقاعد.

ولكن الوزير لقى مصرعه بعد ثلاثة أعوام أي في عام ١٠٥٥ هـ فقد قامت مجموعة من الضباط باغتياله ولكنهم لقوا ذات المصير أيضاً، بعد أن حُكم عليهم بالاعدام.

وبعد مصرع الوزير عرض منصب الوزارة على خليفة سلطان صهر شاه عباس الأوّل وكان شاه صفي قد سمل عيون أبنائه الثلاثة وقد رفض الرجل هذا المنصب، ثم رضخ في النهاية. ويعد خليفة سلطان في طليعة الإداريين الناجحين وتمتع بشخصية علمية ويعد من مثقفي عصره اضافة الىٰ تمتعه بسمعة طيبة في الاوساط الشعبية.

وكان خليفة سلطان قد اعتزل الحياة بعد مجيء شاه صفي الىٰ الحكم وانصرف الىٰ دراسة العلوم وفي طليعتها الفقه.

ويبدو ان شاه عباس كان يميل اليه كثيراً وتحدث عن رؤيا في انه كان مع خليفة سلطان في طريقه الىٰ منزل الامام علي(عليه السلام) وقد أذن لخليفة سلطان بالدخول، بينما ظل شاه عباس ينتظر، وان أمير المؤمنين(عليه السلام) اخبره بأنّ حاكم قندهار يريد ابادة الشيعة فاذهب الىٰ قندهار واحتلها!

وقد شهدت البلاد في ظل ادارة الوزير الجديد تقدماً وازدهاراً ملحوظاً.

أما منصب الصدارة فقد ظل مسنداً الىٰ ميرزا حبيب الله حتىٰ سنة ١٠٦٠ ثم خلفه من بعده ابنه محمد مهدي.

وأُسند منصب شيخ الاسلام الىٰ ميرزا قاضي وتم عزله بعد تصاعد الجدل بينه وبين أحد العلماء حيث نُصب مكانه علي نقي كمرئي.

وكان شاه عباس بعكس والده على علاقة طيبة جداً مع العلماء، وفي طليعتهم الفيض الكاشاني والمحقق الخراساني واحمد بن سلامة وهو من خريجي حوزة النجف الاشرف؛ وقد عين الاخير سفيراً للدولة الصفوية في الهند وكانت له هناك مناظرات مع العلماء في المسائل الدينية والعقيدية.

لم يواجه شاه عباس الثاني مصاعب جدية وقد قضى معظم سنوات حكمه في التنقل بين المدن وخاصة مشهد ومازندران وقزوين وكان كجده شاه عباس الأوّل مغرم بالصيد.

ولعله أوّل ملك صفوي يجعل في برنامجه الاداري الحضور في ديوان العدالة واذا ما ثبت

لديه من خلال الشكاوى انتهاك حاكم ما لحقوق أحد رعاياه؛ فإنه يشرف شخصياً على اجراء العدالة. ولذا اصبحت ظاهرة في اصفهان تجمهر بعض الناس حول أبواب القصر.

وعندما ارتفعت الاسعار كثيراً كان الفقراء أيضاً يقصدون قصره أملاً في عطاياه وقد تغنىٰ شاعر تلك الحقبة صائب تبريزي بعدالة الملك الصفوي وإن جاء في قصائده مبالغة تعد طبيعية في لغة الشعر على كل حال.

ومن القضايا التي أُثيرت في تلك الفترة، هي مسألة اليهود في العاصمة وطبيعة التعامل معهم وقد سرت موجة من العداء لليهود وانطلقت أصوات لابعادهم الىٰ ضواحي اصفهان واسكانهم في حارات خاصة بهم، ومن المحتمل أن يكون للحضور المسيحي الفاعل ابان تلك الحقبة تأثير في ذلك، كما طُلب منهم ارتداء زي خاص يمكن من خلاله التعرف على انتمائهم الديني.

وقد اتخذت تدابير مشددة للضغط على اليهود من اجل تغيير دينهم ولكن مرسوماً ملكياً صدر من البلاط يقضي بدفع مبلغ تومانين لكل يهودي يعتنق الاسلام وهو مبلغ كبير ويشكل اغراءً قوياً بحيث أسلم عشرون ألف يهودي إثر ذلك.

اما في مدينة كاشان فقد شكا اليهود من الضغوط التي تستهدفهم وتحدث وفد منهم مع الفيض الكاشاني الذي توسط بما يملك من ثقل لدى البلاط لرفع الضغط عنهم ونجحت وساطته.

ونظراً لما يكنه الشاه من احترام للعلماء فقد ازدهرت المؤسسة الدينية واستعادت بعض ما فقدته من نفوذ وكان تشكيل المجلس الفقهي أول مؤشر على نفوذ المؤسسة الدينية في عهد شاه عباس الثاني.

وجاء تشكيل المجلس الفقهي بعد تزايد مشكلات التجار الهنود في اصفهان ووفقاً لتقاليد الهند في تلك الحقبة فانه يتعين على التاجر ان يغمس يده في الزيت الساخن حال القسم، وبسبب صعوبة اجراء هذا النوع من القسم فقد استغل كثيرون وادعوا حقوقاً لهم على التجار الهنود وكانوا يتحاشون ذلك بدفع تلك المبالغ.

وقد وصل بأحد المدعين ان قدم شكوى يزعم فيها ان فلاناً شريكه اخبره وهو في حالة الاحتضار بانه قد اقرض التاجر الهندي الفلاني مبلغ ٢٠٠٠ تومان وهو مبلغ كبير جداً

وعندما أراد تحليف التاجر بهذه الطريقة اضطر الىٰ دفع المبلغ.

وتناهت الىٰ اسماع الشاه شكاوى التجار الهنود؛ فعمد الشاه الىٰ فكرة تشكيل مجلس فقهي يضم كبار العلماء للتحقيق والفصل في شؤون أهل الذمة وغيرهم، ويكون المجلس تحت اشراف الشاه نفسه بعد أن يقطع التحقيق في مسألة ما مراحل نهائية.

العلاقات الخارجية

يعد من حسن حظ شاه عباس الثاني أن يقرر الزعيم الاوزبكي وحاكم ماوراء النهر امام قلي خان الحج بعد أن سلم مقاليد الحكم والسلطنة الىٰ أخيه نور محمد خان.

في عام ١٠٥٢ وصل الزعيم الاوزبكي الديار الايرانية وقد استقبل بحفاوة مذ وطأت أقدامه مع ألف من مرافقيه أرض ايران.

وكان الشاه يومها في قزوين طفلاً يتلقى دروسه وتدريباته وبطبيعة الحال كان الوزير هو المصمم لطريقة الاستقبال.

وبعد ان مكث أياماً في قزوين شد الرحال الىٰ لحج بيت الله الحرام، ووُدع بمثل ما استقبل به من حفاوة وتكريم.

ويشاء القدر ان يوافيه الأجل بعد أدائه مناسك الحج في طريق العودة.

وفي عام ١٠٥٦ اقدمت الهند على احتلال مدينة بلخ واستغاث نور محمد خان بايران وحضر بنفسه الىٰ اصفهان ولكن الاخيرة أولته أُذناً صماء ومع ذلك ظلت العلاقات بين البلدين طيبة وانتعشت طريق الحج في تلك الفترة.

اما العلاقات الهندية الايرانية فقد توترت منذ اقدام الهند على احتلال قندهار وقد حاول الاوزبك انتهاز هذه الفرصة وتشكيل جبهة ضد الهند ولكن عمق وتاريخ الصراع الايراني الاوزبكي القى بظلاله القاتمة واخفقت زيارة الزعيم الاوزبكي لأصفهان عام ١٠٥٦ هـ.

وقد شجع استرداد الاوزبك لمدينة بلخ ايران على التفكير في استرداد مدينة قندهار.

ولذا بلغت الاستعدادات العسكرية ذروتها نهايات سنة ١٠٥٧ وكان الجيش الصفوي في طريقه الىٰ خراسان في مطلع عام ١٠٥٨ وضرب معسكره في بسطام.

ومن هذه المحطة بعث شاه عباس رسالة ودية سطرها سكرتير البلاط الصفوي ولي قلي شاملو لوّح فيها الىٰ اهمية الحفاظ على العلاقات الطيبة بين البلدين وضرورة انسحاب الهند من مدينة قندهار.

كان الشتاء على الابواب ولذا لم يأخذ الهنود المطلب الايراني على محمل الجد وأهملت الرسالة تماماً. وبالرغم من قسوة البرد في ذلك الفصل فقد تحرك الجيش الصفوي صوب قندهار وضرب حصار على المدينة التي استسلمت بعد شهرين.

وحاول الشاه وقف مضاعفات الحادثة بارساله سفيراً الىٰ الامبراطور الهندي يوضح ملابسات ما حصل وأنّ الشاه كان ينوي زيارة المدينة ولكن حاكمها أغلق بوجهه الأبواب فاضطر الشاه الىٰ تأديبه.

وقد أخفقت الحملات الهندية في ١٠٥٩ - ١٠٦٢ هـ في استعادة السيطرة على المدينة، وقد حاول شاه جهان انشاء حلف مع الاوزبك والعثمانيين ضد ايران الصفوية ولكن المحاولة باءت بالفشل.

ولعل من اخطاء الصفويين اصرارهم على السيطرة على مدينة قندهار وضمها الىٰ ايران بالرغم من الرفض الشعبي ولأسباب مذهبية الحكم الايراني ذلك ان الاكثرية السنية المتعصبة لم تكن لتستسيغ الحكم الشيعي، وقد تفاقمت الأزمة وأصبحت أشبه بالغدة السرطانية، التي سرعان ماتحولت الىٰ خطر كبير هدد الوجود الصفوي بأسره بالفناء وهو ماحصل في عام ١١٣٥ هـ.

ويبدو ان الهند تجاوزت مسألة قندهار بعد اندلاع النزاع الداخلي حول العرش وتبادل الدولتين السفراء في الاعوام ١٠٧٠ الىٰ ١٠٧٦. ولاسباب غير واضحة ارسل شاه عباس رسالة تضمنت تهديدات بالهجوم على الهند وهذا ما اثار غضب السلطة المغولية في الهند التي ردت بارسال تعزيزات عسكرية ضخمة الىٰ الحدود الدولية.

وفي كل الاحوال تُعد العلاقات الهندية الايرانية علاقات جوار حسنة ولم تصطدم الدولتان اصطداماً يحدث شرخاً في العلاقات المشتركة أو يدق اسفيناً من العداء المستحكم بينهما كما هو الحال في الصراع مع الأوزبك أو العثمانيين.

وكان تواجد التجار الهنود بكثافة في مدينتي اصفهان وكاشان يمثل مؤشراً على علاقات

طيبة، بالرغم من ظهور بعض الغيوم في سماء العلاقات بين البلدين في أوقات عابرة.

وعلى صعيد العلاقات مع الدولة العثمانية، فقد تجاوزت الدولة الصفوية مشكلة احتلال بغداد واقامت علاقات ودية مع جارتها في الغرب في عام ١٠٥٨ وتزامناً مع استرداد مدينة قندهار وصلت رسالة من البلاط العثماني مع تحف وهدايا كثيرة وردّ الشاه الصفوي الهدية بأحسن منها بارساله عدداً من الفيلة الفريدة. ويبدو ان ايران تخلت عن اقليم العراق من اجل استمرار العلاقات بين البلدين الجارين حتىٰ مع اقتراح حاكم البصرة بضم الاخيرة الىٰ الدولة الصفوية ولكن شاه عباس رفض الاقتراح.

المسألة الجورجية

كانت جورجيا منذ تأسيس الدولة الصفوية تتمتع بنوع من الحكم الذاتي مع التبعية للدولة الصفوية.

وبالرغم من الرفض الشعبي لهذه الهيمنة فقد حرص الصفويون على الاحتفاظ بسيطرتهم على هذه المنطقة من اجل ابقائها بعيدة عن النفوذ العثماني وكان زعيم جورجيا في تلك الحقبة رستم خان يتمتع بدعم البلاط الصفوي، حتىٰ انه عندما واجه معارضة ومنافسة زعيم آخر ارسل الشاه جيشاً لمساندة رستم خان في صراعه؛ وقد اخضعت البلاد بالقوة لحكومة رستم خان وظلت البلاد تتمتع بشبه استقلال، وقد سعى شاه عباس الىٰ اقناع سكان جورجيا باعتناق الاسلام وحقق نجاحاً محدوداً في ذلك.

ومن أجل تكريس السيطرة الصفوية على جورجيا، ارسل الشاه مايناهز الخمسة عشرة الف آذربيجانياً من مختلف المناطق والقبائل ومنها أهل «جوانشير» و «بيات» الىٰ جورجيا ومنحوا أراضي زراعية وهناك بنىٰ الاذربيجانيون قلاعاً قوية اسهمت في حفظ الاستقرار في جورجيا.

العلاقات الايرانية الروسية

شهد عهد شاه عباس الثاني نشاطاً دبلوماسياً روسياً؛ فقد حضر سفير روسيا الىٰ العاصمة والتقى الشاه وسلمه رسالة من القيصر اكد فيها الاخير على بناء علاقات طيبة مع ايران، وقد رد الشاه على ذلك بما يشجع على بناء علاقات صداقة وارسل سفيره يحمل

آيات الود والمحبة للقيصر وبلاده.

غير ان التوتر سرعان ما ساد العلاقات بين الدولتين، عندما شرع الروس ببناء قلاع في الحدود داخل جورجيا، لتكون منطلقاً لهجمات توسعية، وقد جاء ذلك استجابة لتحريضات بعض الجورجيين المعادين للدولة الصفوية.

وهذا ما أثار حفيظة البلاط الصفوي، الذي اصدر أوامره الىٰ حاكم شيروان بالعمل على تدمير هذه القلاع، وكان لابد من الاصطدام المسلح، الذي انتهى بانتصار الجانب الصفوي وتم تدمير القلاع وتسويتها بالتراب.

ولكن المستقبل كان يضمر شيئاً آخر على هذا الصعيد فقد كانت روسيا القيصرية تسيطر عليها حمى التوسع وقد وجدت في الاراضي الواقعة تحت نفوذ الدولة الصفوية لقمة سائغة وذلك بعد نهاية الحكم الصفوي. وسنجد اطماع روسيا تتزايد يوماً بعد آخر وبدأت برنامجها في قضم الأرض الايرانية في عهد القاجار حيث خسرت ايران اقاليم شاسعة في الشمال والشمال الغربي.

فكان القوزاق رأس الحربة الروسية في تنفيذ هجماتهم المتوالية على ايران.

واضافة الىٰ دول الجوار كان البلاط الصفوي يستقبل وفوداً أوربية حيث وصل النشاط الاوربي ذروته في عهد شاه عباس الأوّل، الذي كان يعلق آمالاً كبيرة على تكوين جبهة مع اوربا لمقاومة التوسع العثماني، وقد أثار النشاط الاوربي في اصفهان قلق العلماء الذين كانوا يبدون استياءهم وفي بعض الأحيان اعتراضهم على هذا الحضور غير الطبيعي.

وقد كتب العالم محمد تقي المجلسي رسالة حول أهل الذمة وطبيعة العلاقة معهم وطلب من الشاه الالتزام بأحكام الشريعة في هذا المضمار؛ ولكن البلاط لم يكترث لهذه الرسالة وأُهملت التوصيات التي جاءت فيها.

وكان شاه عباس الثاني فيما يبدو يحذو حذو جده في الاهتمام بالجالية الأُوربية وكان يشجع على تعزيز النشاط التجاري مع اوربا.

ومع ان اهتمام العالم المسيحي بايران ربما يعود الىٰ محاولة الافادة منها في الضغط على الدولة العثمانية وعرقلة تقدمها في اوربا، ولكن الجهود انصبّت في الحقل التجاري والسياحي؛ وربما لأول مرة على صعيد العلاقات الخارجية تستقبل ايران وفوداً من اليمن

والحبشة من اجل اقامة علاقات ودية وصداقة، كل هذا كان يؤشر الىٰ حالة الاستقرار التي كانت تنعم بها الدولة الصفوية في فترة من الزمن.

شخصيات العصر والاتجاهات الفكرية

يمكن من خلال تسليط الضوء على بعض الشخصيات البارزة سواء حظيت بالشهرة ومنها أو ظلت بعيدة عن الاضواء معرفة العصر واهتماماته ورؤاه وحتىٰ طريقة تفكيره.

وقد اشرنا الىٰ ان شاه عباس الثاني كان يحاول ان يتقمص شخصية جده عباس الكبير فأقام علاقات وثيقة مع علماء عصره ومن هنا استعادت المؤسسة الدينية بعض ما فقدته من نفوذ في عهد شاه صفي

وبسبب تبلور بعض الاتجاهات المتنازعة في تلك الفترة؛ فقد ظهر علماء عديدون سوف يمهدون ومن خلال ما طرحوه من افكار للصراع الفكري القادم.

لقد نشأت تيارات فكرية معادية للفلسفة ومعادية للتصوف أيضاً، وبالرغم من محاولة البعض الاجهاض على التصوف والفلسفة دفعة واحدة ولكن الفلسفة صمدت بوجه الحملات التي استهدفتها؛ فيما كان التصوف يعاني من ضغوط شديدة الوطأة خاصة بعد ان نفذت الىٰ داخل التصوف أعداد من المشعوذين والأفاقين.

وبالرغم من ان الدولة الصفوية نهضت على طاقة سياسية افرزتها الحركة الصوفية، ولكن مؤسسات الدولة وجدت نفسها بحاجة ماسة وأكيدة الىٰ نظام حقوقي شامل لشؤون الحياة، وهذا الفراغ الكبير لايمكن ملئه الاّ من خلال الفقهاء، وهذا ما فعلته الحكومة الصفوية في وقت مبكر، ثم تنامى وجود الفقهاء ليصبح الفقيه هو الحاكم الفعلي للدولة، كما تم اعلان ذلك رسمياً في عهد شاه طهماسب.

وقد اهتم الفقهاء بزعامة الكركي بنشر الثقافة الاسلامية ضمن اطارها في المذهب الامامي في جميع مجالات الحياة ومن هنا لابد وان يواجه ذلك السعي حالة من الاستياء في الاوساط الصوفية، حيث الصوفية بشكل عام انسحاب من الحياة وموقف سلبي من الدنيا.

وقد بدأت مؤشرات الصراع بين الفقهاء والمتصوفة في هذه الفترة، كما شهد الفقهاء فيما بينهم منازعات تبلورت تحت اتجاهين متصارعين، التيار الاصولي الاجتهادي والتيار

الاخباري، حيث الاخير يمثل حالة التفكير السلفي داخل المؤسسة الشيعية.

كما ثار الجدل حول اقامة صلاة الجمعة بين من يجوز اقامتها ويوجبها وبين من يعارض اقامتها في عصر الغيبة[١].

وفي هذه الفترة تنامى التأليف باللغة الفارسية، ذلك انها لغة معظم السكان، ومن هنا جاءت معظم شروح كتب الحديث باللغة الفارسية.

محمد تقي المجلسي

يعد محمد تقي المجلسي في طليعة علماء تلك الفترة، ولد سنة ١٠٠٣ هـ وهو والد العلامة المجلسي (محمدباقر)، ولد في مدينة اردستان بالقرب من مدينة يزد، ثم هاجر الىٰ اصفهان، ومحمد تقي المجلسي من ابرز تلامذة الشيخ البهائي.

كان المجلسي ضالعاً في العلوم الدينية وفي علوم عصره ايضاً وقد اهتم برواية احاديث اهل البيت(عليهم السلام) وشرحها وتفسيرها.



العلامة المجلسي

وفي طليعة ما انجزه في تلك الفترة ترجمة وشرح كتاب «من لا يحضره الفقيه» وقد جاء ذلك الجهد استجابة لرغبة الشاه عباس الثاني الذي أكد على ضرورة أن تكون لغة الكتاب هي الفارسية لانها لغة معظم افراد المجتمع الايراني.

---

[١] صدرت في تلك الفترة ما يقارب مائة رسالة تقضي بوجوب اقامة صلاة الجمعة في عصر الغيبة.

كانت للمجلسي علاقة ودية مع الشاه. وقد تأثر المجلسي باستاذه الشيخ البهائي فكانت له ميول عرفانية وكان ممن يعتقد بوجوب اقامة صلاة الجمعة وألف في ذلك رسالة لاثبات آراء المؤيدين وتفنيد آراء المعارضين.

تعد اسرة المجلسي من الاسر العلمية العريقة التي اشتهرت بالعلم على مدى ثلاثة قرون.

ولاهتمامه بالحديث فقد كان عاملاً في انعاش التيار الاخباري في ايران، وكانت له علاقات وثيقة مع المتصوفين ما جعلت الكثيرين يعتقد بتصوفه وهو امر حاول نجله العلامة محمد باقر المجلسي تفنيده وبرر علاقة والده بالمتصوفة بانه كان يرمي الىٰ اعادتهم الىٰ جادة الصواب، ولذا فقد تبرأ منهم بعدما يئس من اصلاحهم، بل وصل به الأمر الىٰ تكفيرهم وذكر في كتابه صراط النجاة:

«واياك ان تظنّ بالوالد العلامة نوّر الله ضريحه انه كان من الصوفية أو يعتقد مسالكهم... حاشاه عن ذلك... وهو كان آنس أهل زمانه باخبار اهل البيت، بل كان مسلكه الزهد والورع... وكان في بدو امره يتسمى باسم الصوفية ليرغّب اليه هذه الطائفة ولايستوحشوا منه، فيردعهم عن تلك الاقاويل، وقد هدى كثيراً منهم الىٰ الحق... ولما رأى في آخر عمره ان تلك المصلحة قد ظلت ورفعت أعلام الضلال وعلم انهم اعداء الله صريحاً تبرأ منهم وكان يكفرهم... وأنا اعرف بطريقته، وعندي خطوطه في ذلك»[١].

ويبدو ان العلامة المجلسي وبالرغم من حماسه في الدفاع عن والده ودفع شبهة الصوفية عنه لم يثبت أياً من نصوصه التي تتضمن نفور والده وتكفيره للمتصوفة.

ولذا فقد ظهرت ردود حول تصريحات العلامة واثبتت ميول والده الىٰ التصوف وكان شرحه لكتاب من لايحضره الفقيه شاهد على تلك الميول.

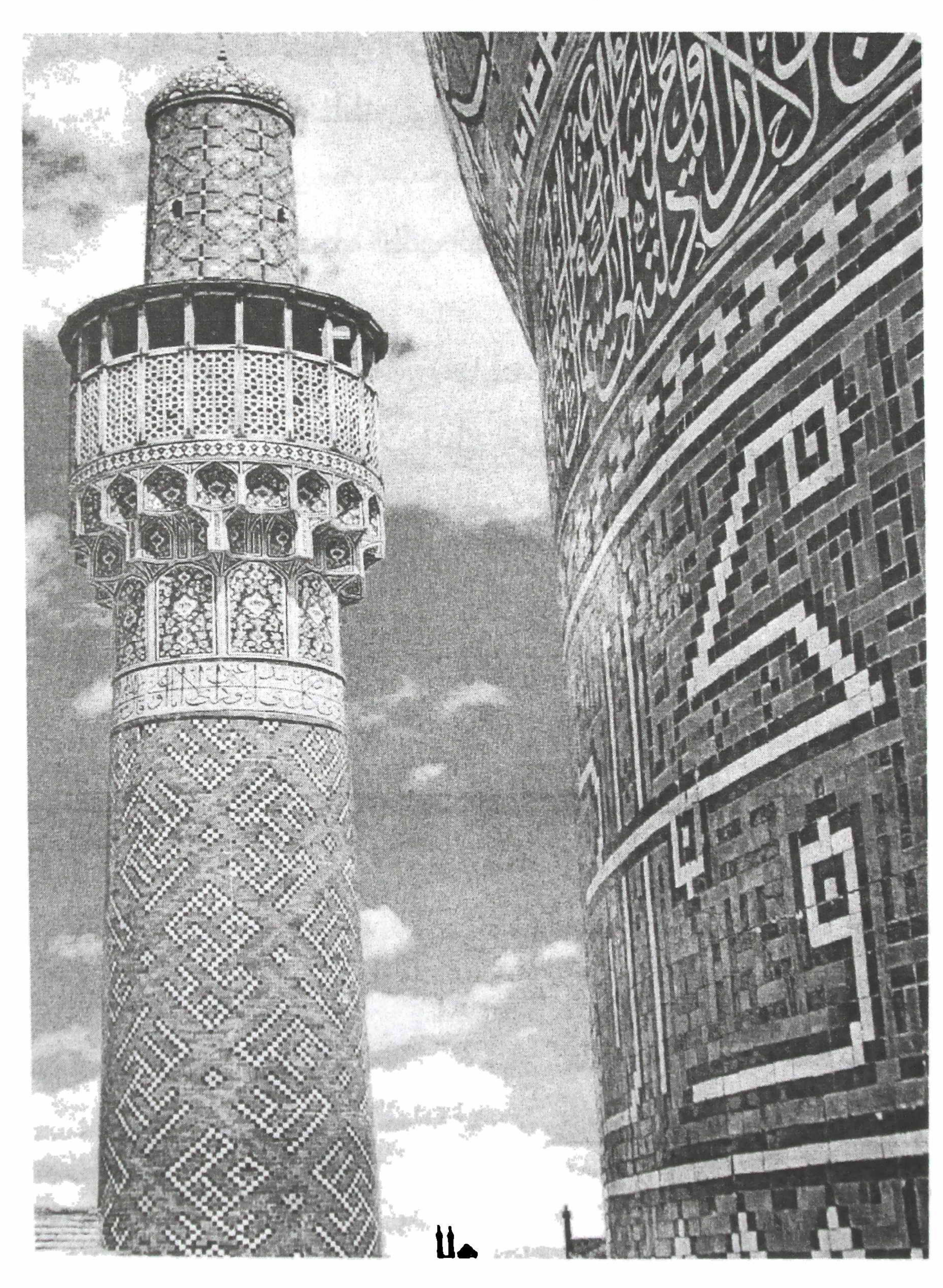
كما جاء في مواجهة ملا محمد طاهر[٢] مؤشرات على تلك الميول من خلال محاولته تبرير بعض طقوسهم واذكارهم، بحيث يعد ملا طاهر من خصوم التصوف الالداء، غير ان تأثيره في شخصية في مستوى المحقق السبزواري المتوفي سنة ١٠٩٠ هـ وموقع الاخير السياسي والاجتماعي باعتباره امام جمعة اصفهان وميله الشديد للحكمة والعرفان واعرابه

---

(١) صفوية در عرصة دين فرهنگ وسياست: ج٢، ص ٥٣٠ - ٥٣١.

(٢) المصدر نفسه: ج٢، ص ٥٦٧.

عن قلقه البالغ من قيام بعض الوعاظ بمهاجمة الفلاسفة وتكفيرهم، كل هذا يقود المرء الىٰ الاقتناع بأنّ محمد تقي المجلسي لم يكن صوفياً أبداً غير ان قرب التصوف من العرفان يوقع المرء في تصورات خاطئة. توفي محمد تقي المجلسي سنة ١٠٧٠ هـ.



منارة القبلة في مدرسة مادر شاه فى اصفهان

ملا محمد خليل القزيني

ولد في مطلع الالفية الثانية للتاريخ الهجري ١٠٠١ هـ ويعد في طليعة علماء تلك الفترة (عهد شاه عباس الثاني) وقد اشتهر بعد شرحه لأصول الكافي.

وكان في شبابه زميلاً لخليفة السلطان (الوزير) الذي تحدثنا عنه في مطلع هذا الفصل، وفي الفترة التي صعد فيها نجم خليفة سلطان تولىٰ محمد خليل سدانة مرقد السيد عبدالعظيم الحسني في مدينة ري جنوب طهران.

ويأتي شرحه لكتاب الكليني استجابة لطلب الشاه الذي طرحه بعد جلسة افطار ضمت جمعاً من العلماء في مدينة قزوين.

وتفيد المدونة التاريخية لسيرة شاه عباس (عباسنامه) ان الشرح جاء باللغة العربية ثم ترجم بعد ذلك الىٰ الفارسية، وملا محمد خليل القزويني يُصنّف ضمن علماء الاتجاه الاخباري ويرى اقامة صلاة الجمعة في عصر الغيبة واشتهر بمواجهته للاجتهاد الفقهي والفسلفة والتصوف.

عبدالرزاق اللاهيجي

من فلاسفة عصره (القرن الحادي عشر الهجري) من مدينة لاهيجان شمال ايران، ولكنه اشتهر بالقمي لاقامته الطويلة في مدينة قم، لقبه صدر الدين الشيرازي بالفياض وهو احد صهريه حيث صهره الآخر ملقب بالفيض (الفيض الكاشاني).

كان عبدالرزاق يجل استاذه ووالد زوجته ويتغنىٰ بحبه ويجد المرء اشعاراً كثيرة في ديوانه كلها تمجد استاذه الفيلسوف الكبير.

اتهم بالتصوف غير ان الحقيقة غير ذلك لكنه جمع بين الفلسفة والعرفان والعقلانية وسار على خطى استاذه الشيرازي وهذا ما طرحه الاخير في مادعاه بالحكمة المتعالية.

اشتهر عبدالرزاق اللاهيجي باشعار المديح لأهل البيت أو بما عرف بشعر المناقب وهو اتجاه كانت الدولة الصفوية تشجع عليه كثيراً.

له قصائد مدح فيها جميع أئمة أهل البيت(عليهم السلام) وله اشعار يمجد بها علماء معاصرين خاصة ممن تتلمذ على أيديهم.

أُحصي له اثني عشر الف بيت في مديح الأئمة الاطهار(عليهم السلام).

وله قصائد عديدة في التوحيد وفي المدائح النبوية أيضاً وتتضمن اشعاره أفكاره الفلسفية والعرفانية.

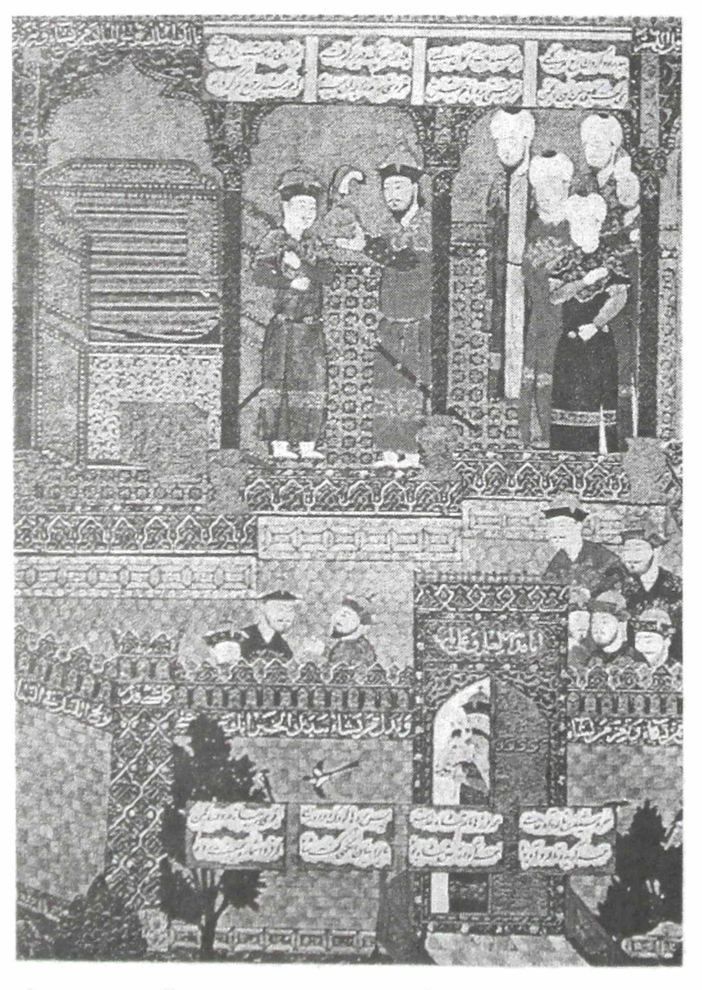
ومع ذلك له قصائد في مديح سلاطين الدولة الصفوية وبالتحديد شاه صفي وابنه شاه عباس الثاني.

وله قصائد رثاء خص بها استاذه الفيلسوف ملا صدرا والمحقق الكبير ميرداماد.

شبه فجيعته بفقده استاذه ملا صدرا بفجيعة الامام علي بفقده رسول الله(صلى الله عليه وآله)[١].

ومع كل هذا فان نصف ديوانه يشتمل على اشعار غزلية رائعة.

صائب التبريزي



ظهر صائب التبريزي كأفضل شاعر في تلك الحقبة من الزمن؛ وهو كغيره من شعراء العصر الصفوي وكأغلبهم غلب على شعره الغزل الصوفي الذي جعله واحداً من أكبر شعراء الفارسية حتىٰ اليوم.

وقد شهدت الهند تألقاً في نمو الشاعرية بسبب رعاية البلاط المغولي المسلم في ظل الحكم البابري للشعر والشعراء؛ وقد ذكرنا ظاهرة هجرة الشعراء الايرانيين الىٰ الهند بعد أن شهد الشعر والشعراء في ايران تهميشاً ملفتاً للنظر.

وفي مقابل ما شهدته ايران من هده الظاهرة السلبية شهد أدب الرسائل نمواً مضطرداً وإن جاء ذلك على حساب البساطة في كتابة نص يمكن فهمه بيسر.

---

[١] بر جانم از مصيبت استاد من رسيد   دردى كه بر دل علي فقدان مصطفاست

كان السكرتير في البلاط الصفوي وبغية استعراض قواه اللغوية والبلاغية يعمد الىٰ كتابة نصوص غاية في التعقيد؛ وقد تصل الحالة الىٰ كتابة نص مغلق يتعذر فهمه أو يكلف ذلك جهداً فكرياً ووقتاً طويلاً.

ويمكن القول أنّ الشعر بدأ يستعيد بعض مافقده من مكانة في بدء قيام الدولة الصفوية ويعد عصر شاه عباس الأوّل والثاني العصر الذهبي للشعر الفارسي في العهد الصفوي بعد عهود من الاهمال.

وفيما يخص شاعر تلك الفترة التاريخية صائب التبريزي، فيمكن تصنيفه ضمن الشعراء الملتزمين الواقعيين، ومع ذلك فانك تجده يحلق بين الفترة والاخرى في سماوات الخيال مستفيداً من المعاني والعشق المجازي للوصول الىٰ الحب الحقيقي، ذلك ان المجاز لديه قنطرة الحقيقة.

أدب الرحلات

سبقت الاشارة الىٰ تنامي ظاهرة سفر الاوربيين الىٰ ايران منذ تأسيس الدولة؛ لكنها شهدت تألقاً وأهمية في عهد شاه عباس الأوّل، حيث الاخير كان يطمح الىٰ الافادة من الدول الاوربية في تكوين جبهة لمواجهة الخطر العثماني كما ذكرنا، فيما كان الاوربيون يتطلعون الىٰ نفس الهدف ولكن دون الاشتراك في أي جهد حربي؛ معوّلين على توتر العلاقات بين الدولتين الجارتين والتخفيف من حدّة الضغط العثماني في الجبهة الاوربية ووقف التقدم في أوربا الشرقية.

وكانت اهداف القادمين الاوربيين اقامة علاقات تجارية، ولكن التجارة اختلطت بالسياسة والسياسة بالسياحة وحتىٰ بالتبشير للدين المسيحي.

وكان بعض الاوربيين يحرصون على تدوين بعض تفاصيل رحلاتهم الىٰ ايران واستطاع بعضهم النفوذ الىٰ البلاط الصفوي وتكوين علاقات وثيقة مع الشاه.

وظهرت كتب الرحلات في تلك الفترة مع صعود شاه عباس الأوّل حيث نشط تجار البندقية.

وفي عهد الشاه سليمان ظهر الرحالة الفرنسي «جاردن» الذي سجل تفاصيل وفاة

الشاه عباس الثاني وجلوس ابنه صفي على العرش والذي اشتهر فيما بعد بـ «شاه سليمان».

تكتسب رحلة جاردن أهميتها بانفرادها بتدوين تلك الفترة حيث غاب المؤرخ الايراني أو اسندت كتابة التاريخ الىٰ سكرتير البلاط الصفوي. وبطبيعة الحال تراجع البعد التسجيلي تاركاً الساحة لذكر اشياء لايلتفت اليها المؤرخ أبداً.

لكن تاجر الذهب هذا (جاردن) أورد تفاصيل هامة عن تلك الفترة من تاريخ الدولة الصفوية.

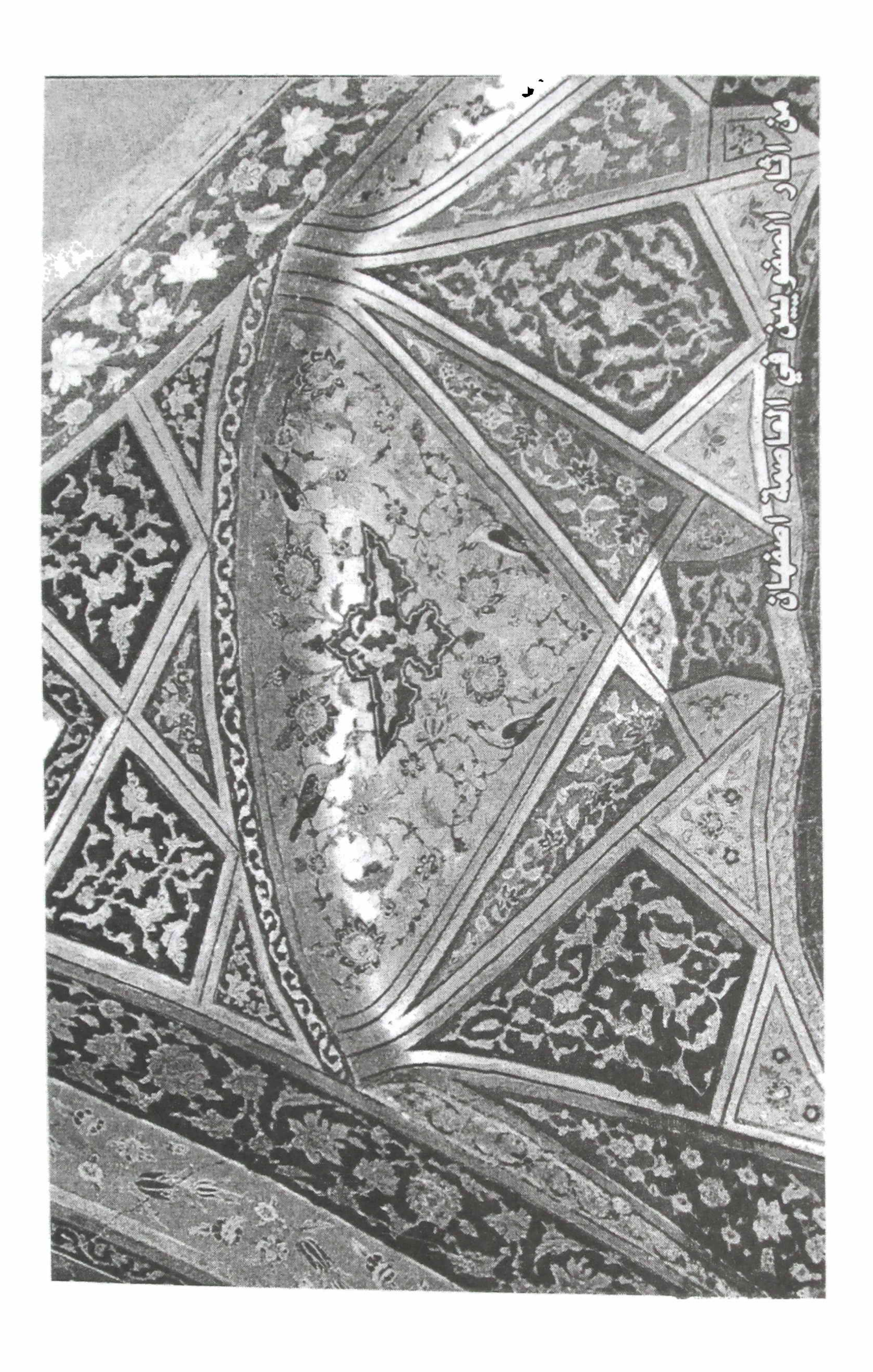




الرحالة جاردن

الرحالة روبرت شيرلي

لعب دوراً سياسياً في العهد الصفوي



من آثار الصفويين في أصفهان

الفصل السابع
الصـراع الفكري
عهد شاه سليمان
(١٠٧٧ ـ ١١٠٥ هـ)

نَعِمَ عهد شاه سليمان بالاستقرار ولم يشهد طيلة مايناهز الجيل أية مغامرة داخلية أو خارج الحدود، وربما يشعر المرء بالدهشة لذلك الشاب، الذي أُستدعي من جناح الحريم خائفاً من مصير يشبه مصير أمراء سبقوه ضُربت رقابهم أو سملت أعينهم أو ألقي بهم من فوق أسوار قلاع في ذرى الجبال.

ولعل في استقرار حكم ملكي لايتمتع الملك فيه بأي من مواصفات الذين سبقوه، لعل في ذلك مؤشر على التوازن الذي وصلت اليه البلاد في تلك الحقبة، حيث تلتزم مؤسسات الدولة بالقانون وتتحرك داخل هذا الاطار.

كما يمكن اعتبار هذه الفترة استمراراً لما سبقها في النمو الاقتصادي والازدهار، وكذلك الاستقرار السياسي ولكنها انطوت في نفس الوقت على عوامل التراجع والاندثار.. لقد بدأت تبرز شيئاً فشيئاً كل عوامل السقوط، وكان الصراع الفكري أول مؤشرات التمزق الاجتماعي وكان يمكن أن يكون علامة على العافية الثقافية لولا انه حمل معه ثقافة الالغاء؛ الغاء الآخر.

مراسم تتويج مرتين لملك واحد



شاه سليمان

في مدينة دامغان شمال غرب ايران وبالقرب من أردبيل شاء القدر ان يلفظ شاه عباس الثاني انفاسه الاخيرة، بعد أن حكم ايران مدة ربع قرن من الزمن، و اذا كان هناك ملك صفوي تنطبق عليه مقولة يملك ولا يحكم، فهي تنطبق على شاه عباس الثاني، معظم السنين التي تربع فيها على العرش الصفوي ولكن هذه المقولة سوف تنطبق بالكامل على وريثه صفي الذي عرف بـ «شاه سليمان».

وبالرغم من ان مرض الشاه عباس كان طويلا ولازمه حتىٰ النهاية؛ الا انه لم يفكر بمصير العرش بعد وفاته.

فحتىٰ تلك الليلة وهى ليلة الثلاثاء ٢٠ ربيع الأوّل سنة ١٠٧٧ وهي الليلة التي فارق فيها شاه عباس الثاني الحياة لم يكن رجال البلاط وحتىٰ شخص الوزير نفسه ليعرف ما اذا كان للملك أولاد ام لا؛ ناهيك عن اعمارهم ومؤهلاتهم.

وظهر اخيراً ان للملك الراحل ولدان احدهما يدعى صفي ميرزا ويبلغ من العمر ٢٠ سنة والآخر حمزة ميرزا ولايتعدى عمره سوى سبع سنوات، وعندما اجتمع كبار مسؤولي

الدولة لتقرير مصير العرش الصفوي كان الاتجاه العام للمجتمعين يتحرك باتجاه تولية حمزة ميرزا وذلك من اجل استغلال نفوذ الوصاية والاستفادة من هذا النفوذ بشكل اوسع واطول.

ان السنوات الاخيرة من حكم شاه عباس الثاني تكشف عن هواجس الملك الصفوي من وجود منافسين له على الملك حتىٰ لو كانوا من اولاده، ولذا فانه لم يولي اية اهمية لاعداد وريث له على العرش وربما كان صغر سنه وراء انصرافه عن التفكير في هذه المسألة الحساسة.

لقد توفي عباس الثاني عن عمر يناهز الخامسة والثلاثين فقط.

يروي مؤلف كتاب وقائع الأعوام والسنين قانون آبادي الذي كان برفقة استاذه المحقق السبزواري؛ حيث الاخير كان ضمن مرافقي الشاه في رحلته الىٰ دامغان وبالتالي يمكن اعتباره احد شهود وفاة شاه عباس الثاني وطريقة استخلاف ابنه صفي ميرزا، يروي هذا الرجل وقائع صباح السبت اي بعد اربعة ايام من وفاة الشاه وهو امر ظل في الكتمان حتىٰ تلك الصبيحة عندما اجتمع عُلية القوم لبحث مسألة الشاه الجديد.

فوجيء المجتمعون بالنبأ كما فوجئوا أيضاً بالتهديد بانهم لن يغادروا «العمارة» حتىٰ يكونوا قد بتّوا في هذه المسألة المصيرية. ربما يشير الاتجاه نحو تولية حمزة ميرزا العرش الىٰ اطماع بعض المتنفذين في توسيع نفوذهم وربما الىٰ مخاوفهم في نفس الوقت من مجيء ملك قوي وحازم؛ حيث الحزم يعني في تلك الفترة القسوة.

كان بعض المسؤولين في جهل من وجود ولد لشاه عباس الثاني يدعى صفي ميرزا إذ لم يصادف أبداً وطيلة حكم الشاه أن رأى أحد المسؤولين أميراً من اسرته يقابل والده، بل لم ير زوجة الشاه نفسه ولذا اعتقد البعض ان شاه عباس قد اغتال بطريقة ما ابنه الاكبر صفي.

وعلى اية حال انفض الاجتماع بعد ان تقرر ان يكون الشاه الجديد هو اكبر اولاد الشاه الراحل وتمت تسمية صفي ملكاً على ايران.

وعلى وجه السرعة أُرسل مبعوث الىٰ اصفهان واعلام صفي ميرزا بقرار رجال الدولة. شعرت أم صفي الشركسية بالرعب وظنت في باديء الامر ان زوجها أرسل وراء ابنه

لقتله؛ لقد بلغ السن التي تثير مخاوف الملك على كل حال، كما انـها كانت على علم بما جرى في البلاط من حوادث دامية، ذهب ضحيتها الاطفال في الاسرة الحاكمة ولايبعد ان يسير شاه عباس الثاني بسيرة جده وابيه في اغتيال وسمل عيون الابناء والاخوة واولاد العمومة لمجرد مخاوف وهواجس واوهام.

لقد اقسم الرسل القادمون من دامغان على ان الاستدعاء للامير انما هو للتتويج وحينئذ اطمأنت الام الشركسية على مصير ابنها الذي تربىٰ في جناح الحريم.

وظهر منذ الوهلة الاولىٰ أن الشاه الجديد لايحمل في محياه أياً من أمارات الملوك الغابرين.

ما إن تربع الشاب القادم من جناح الحريم حتىٰ أُصيب بعلة شديدة لتلازمه اكثر من عام، عصف خلالها القحط والجفاف بايران وحتىٰ الطاعون وتردت الاوضاع المعيشية بشكل لم يسبق له مثيل.

وقدّم منجم البلاط الصفوي تفسيره لكل ذلك وهو ان مراسم التتويج تمت في ساعة نحس وعاضده على ذلك بعض المسؤولين في الدولة فتقرر اعادة المراسم من جديد مع بدء العام الايراني الجديد.

وبعد اكثر من عام اجريت مراسم التتويج في العاصمة اصفهان وفي قصر (چهلستون)[1].

كما تم تغيير اسم الشاه من صفي الىٰ سليمان، وشاء القدر ان يتماثل الملك للشفاء كما عادت الحياة الىٰ طبيعتها في المدن الايرانية ومرت الازمة الاقتصادية بسلام.

وخلال اربع ساعات فقط تم تغيير الاختام الملكية طبقاً للاسم الجديد كما ضربت نقود جديدة ايضاً.

بالرغم من ان مؤهلات شاه سليمان للحكم ليست كافية في ادارة دولة كبرى الا انه لم يواجه مشكلات اساسية لا في الداخل ولا في الخارج.

فالعراق انفصل في عهد والده واصبح جزءً من ممتلكات الدولة العثمانية لكنه ادى الىٰ ارساء حالة من الاستقرار التام في العلاقات بين الدولتين في حين ادى استرداد مدينة

---

[1] تتكون چهلستون من مفردتين، چهل + ستون وتعني الاربعون عموداً.

قندهار الىٰ كارثة قضت على الدولة الصفوية نهائياً بعد ان برز الخطر الافغاني من تلك المدينة.

وعلى اية حال لم تواجه الدولة الصفوية طيلة ربع قرن تقريباً او اكثر أية مشكلة فكان عهد شاه سليمان امتداداً للاستقرار السياسي والاقتصادي الذي ساد ايران في العقد الاخير من حكم شاه عباس الثاني.

العلاقات الخارجية

تعكس المعلومات المتوفرة ومعظمها وما ورد في كتب الرحالة الاجانب علاقات مستقرة للدولة الصفوية مع جيرانـها والعالم الخارجي، وقد شهد النشاط الدبلوماسي الاوربي فعالية اكثر واتجه نحو دفع ايران لمواجهة الدولة العثمانية ولكن الوزير الايراني الذي يدير البلاد بجدارة كان يعمل على تحقيق مصالح ايران التي تكمن في استمرار السلام مع البلدان المجاورة وبخاصة الدولة العثمانية.

باستثناء ما حصل سنة ١٠٨٩ من اشتباك محدود في كردستان بعد محاولة سليمان بابان مؤسس مدينة السليمانية العراقية التمدد لحساب العثمانيين في كردستان وقد مرّت الازمة بسلام بعد مصرع سليمان بابان وهزيمة الاكراد، وظلت العلاقات ودية حيث حاولت ايران تعزيز هذه العلاقات في سنة ١١٠٢ بارسال وفد حمل معه الكثير من الهدايا وآيات التبريك بمناسبة جلوس السلطان احمد الثاني على عرش الامبراطورية في اسطنبول.

اما العلاقات مع الاوزبك بقيادة عبدالعزيزخان فقد استمرت العلاقات الودية وكان الاخير قد عزم على الحج سنة ١٠٩٧ حيث سلم مقاليد السلطة الىٰ اخيه وقد استقبل عبدالعزيز خان في ايران استقبالاً حاراً في خراسان ثم في العاصمة اصفهان حيث اقيمت له مراسم حافلة في قصر چهلستون، واستمرت اقامته مع مرافقيه حتىٰ سنة ١٠١١ حيث انطلق لأداء الفريضة..

كانت اجزاء من الحدود الشمالية للدولة تعاني من عدم الاستقرار بسبب الهجمات التي يشنها القوزاق، هذه الحملات التي بدأت منذ حكومة شاه عباس الثاني.

وقد جهز البلاط الصفوي جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف جندي وقد منيت هذه الحملة

العسكرية بالفشل الذريع وأبيد معظم الجيش، وكان «استنكارازين» قائد القوزاق في صراع مع الروس الذين استطاعوا سنة ١٠٨١ هزيمته والقاء القبض عليه ليشنق في موسكو.

وفي استراباد وماحولها كان التركمان يهاجمون الدولة التي جردت حملة عسكرية سنة ١٠٨٧ بددت شملهم.

المشهد الايراني من الداخل

يمكن القول ان شاه سليمان هو الاستثناء الوحيد من بين سلالة الملوك الصفويين في الظروف التي احاطت نشأته ولقد اشرنا ال ان الشاب البالغ من العمر عشرين عاماً كان خريج جناح الحريم الذي يغص بالنساء والخصيان.

ولهذا لم ينشأ نشأة تعدّه لهذا المركز الخطير في زعامة دولة كبرى مترامية الاطراف.

واضافة الىٰ ذلك فقد وضع الامير وربما بعد ولادته تحت المراقبة لان وجود امير صفوي يشكل تهديداً بالضرورة للشاه الحاكم حتىٰ لوكان أباه.

واجراء مقارنة بسيطة جداً بين شخصية كل من شاه سليمان وشاه اسماعيل الأوّل تكشف الفاصلة المدهشة بين الشخصيتين، لقد كان الاخير زعيماً يتمتع بشخصية قوية جداً وهو يقود جنوده نحو انتصارات متلاحقة تنتهي بتأسيس دولة جديدة تنهض على قاعدة فكرية جديدة، وسط محيط ينصب العداء لهذه القاعدة ويعمل على تدميرها.

من هنا سوف يدرك الدارس ان وجود ملك بهذه المواصفات التي يمثلها شاه سليمان ووجود جيش ظل لعقود طويلة من السنين دون تجربة عسكرية وحربية جديدة وجنود اعتادوا الاكل والنوم في ثكناتهم، ان كل هذا يعد نذيراً في زوال الكيان الصفوي، حيث لايمكنه الصمود بوجه التهديدات الاجنبية.

كان شاه سليمان قد انتهج مسلكين؛ حياة خاصة مارس فيها لذائذه بعيداً عن رصد المجتمع الايراني الذي يعترف بشرعية الممارسات الملوكية بشكل عام؛ وحياة عامة حاول ان يعكسها من خلال ترتيب علاقات طيبة مع العلماء بسبب ما يتمتعون به من نفوذ اجتماعي وروحي.

ويمكن القول ان الشاه عاش حياتين منفصلتين الاولىٰ خاصة داخل البلاط واخرى

عامة يحاول ان يرسم من خلالها صورة مقبولة في ضمير الرأي العام.

فهو مستغرق في لياليه الحمراء المليئة بالخمر والنساء ولذائذ الطعام والشراب والمتع الاخرى، رحلات سياحية واخرى للصيد وهذه بطبيعة الحال افرازاتها ما يستدعي السحق على حقوق الاخرين.

وقد كانت الهيئات الدبلوماسية وبخاصة الاوربية والشخصيات الثقافية والسياسية والتجارية قد سجلت لها حضوراً مكثفاً في البلاط وكانت تشهد الاسراف والتبذير وحتىٰ التجاوزات، وقد لاحظ احدهم ان مرض الشاه في بدء حكمه كان نتيجة استغراقه في الجنس.

وقد اتخذ لنفسه منتجعاً طالما يتردد عليه مع جواريه ومحظياته، وامر بسد الطريق المؤدية اليه وحرمان الناس من التردد في تلك الطرق.

وكان جناح الحريم في قصوره يمتلأ بالفتيات الحسان وكان عددهن يتضاعف بمرور الايام.

ولوحظ ان الشاه مولع بالفتيات الارمنيات وكان دائم السعي في الاستكثار من الفاتنات الارمنيات، وسجل المؤرخ الايراني المستوفي في كتابه زبدة التواريخ: ان الشاه مشغول بمعاقرة الخمر ومقارفة انواع الفسوق في اكثر اوقاته.

وكان يبذر اموال الدولة في اقامة الحفلات وتستهويه بشكل خاص الالعاب النارية.

وعندما يشعر بافلاس الخزانة يعمد الىٰ الابقاء على بعض المناصب خالية حتىٰ لو كانت حساسة.

ولم يكن يعجبه من الهدايا الا المصنوعة من الذهب.

وكان يفرط بهدايا ثمينة لها قيمتها العلمية كالاسطرلاب الذي قدمه سفير فرنسا وكان دقيقاً جداً في محاسباته وقد صنع وفقاً لنظرية كوبرنيكوس الفلكي المعروف فأمر بايداعه في قبو يضم الاشياء القديمة وكان مصير الساعة السويدية هو الآخر ان تتخذ مكانها الىٰ جانب الاسطرلاب.

اما مسلكه الآخر فقد عمد الشاه الىٰ المحافظة على علاقات طيبة مع العلماء وكان يتردد على المساجد ويحضر بشكل خاص مراسم العزاء الحسيني التي دخلت بقوة في وجدان

الشعب الايراني.

وقد نجح سليمان في رسم صورة الملك المتدين في اذهان الشعب، مع التأكيد على ان نفوذ العلماء في عهده يعكس بجلاء هذا النفس؛ ذلك ان افساح المجال لزعماء الدين وبخاصة ممن يشغلون مناصب حساسة في الدولة، ان افساح المجال لهم يعني احترام الدين وعلماء الدين.

ومن هنا جاء في بعض المدونات الاجنبية مايشير الىٰ تدين شاه سليمان وأدائه الصلاة باستمرار، فهو يصلي ويلتزم بالمناسبات الدينية ويقيمها على أكمل وجه وهو يصوم في شهر رمضان كسائر افراد شعبه ويلتزم بحضور صلاة الجمعة، حيث يحضر بصورة متنكرة لا يعرفه فيها أحد؛ انه مسلم حقيقي[١].

وزير قوي

يعد شيخ علي خان زنگنة في طليعة الوزراء الاداريين ولقدشاء القدر ان يكون في عهد ملك ضعيف كشاه سليمان، وقد أثبت الرجل قدرات ادارية فائقة وكان الساعد القوي للدولة سواء في سياستها الداخلية او الخارجية.

ويمكن القول ان الدولة الصفوية كانت محظوظة بهذا الرجل الذي عمل على استقرار البلاد سنين طويلة.

ويعد شيخ علي خان زنگنة نقطة مضيئة في تاريخ الوزارات الايرانية.

وزنگنة قبيلة كردية كانت تقطن كرمنشاه وضواحيها وقد اندمجت منذ تأسيس الدولة الصفوية ضمن مؤسسة القزلباش العسكرية واصبحت ركناً اساسياً في الدولة في عهد شاه عباس الأوّل.

وبلغت قبيلة زنگنة ذروة مجدها في عهد شاه عباس الثاني بسبب ماتمتع به شيخ علي خان زنگنة من نفوذ داخل مؤسسة الحكم.

وخلال حكومته على مدينة كرمانشاه شهدت المدينة نمواً مضطرداً في البناء والعمران وتطورت لتصبح مدينة كبيرة بعد ان كانت مدينة صغيرة.

---

[١] رحلة كمبفر.

وبسبب حماس الرجل واخلاصه للدولة انتخب ليكون حاكماً على خراسان لصد هجمات الاوزبك، ولهذا منحه شاه عباس رتبة زعيم وبعثه ومجموعة كبيرة من افراد قبيلته الىٰ خراسان للوقوف في وجه التهديد الاوزبكي.

وتدرج في المناصب الحكومية ليعين في عام ١٠٨٠ وزيراً للدولة (اعتماد الدولة) فيما خلفه نجله على حكومة كرمانشاه.

وقد عزل سنة ١٠٨٢ عن الوزارة لمدة عام بسبب اعتراضه على معاملة الشاه لوالدته وشقيقه.

وبقي المنصب شاغراً ليعود اليه بعد عام.

وقد ظل يمارس عمله الوزاري بجداره مدة عشرين سنة الىٰ ان توفي سنة ١١٠١ هـ ليبقى اسمه متألقاً في تاريخ الوزارة الايرانية.

يعد شيخ علي خان زنگنة مسلماً متديناً، حتىٰ انه امتنع عن تناول شرب الخمر في مجلس للشاه وقد طلب منه الاخير ذلك وأصرّ عليه.

وأمر الشاه بصب الخمر في انفه وعندما قاوم الوزير اجبره الشاه على تناول نوع من المغليات المخدرة، ولم يجد الوزير بداً من الامتثال، لكنه شعر بعمق الاهانة فاحتجب في منزله ولم يستجب لدعوة الشاه بالحضور ولكن الوزير امتثل في النهاية بعد الالحاح.

وعلى اية حال فقد اشتهر الوزير بتدينه بين عموم المجتمع وكان يحرص على اجراء العدالة في الحياة العامّة معرضاً عن مجالس اللهو واللغو.

وصفه الرحالة الفرنسي جاردن:

«شيخ علي خان له من العمر خمسة وخمسون سنة ممشوق القوام وفي وجهه ملامح رجولة في عينيه بريق نفاذ وتتألقان بنور يعكس صفاء باطنه وطمأنينته وروحانيته وعلى محياه وقار وسكينة، بسيط في ملبسه ولا توجد في وجهه شائبة لحيرة أو شرود كما هو الحال في وجوه الوزراء وذوي المناصب.

ولشدة بساطته وصفاء روحه لو رآه احد لايعرفه لما ظن ابداً انه الصدر الاعظم.

اما الذين يعرفونه فهم يكبرون فيه بساطته واخلاقه الكريمة وتواضعه وذكاءه وصفاء قلبه واكرامه للناس وزهده».

أسس الرجل مدرسة كبرى في همدان وخصص لها اوقاف القرى والارياف القريبة والبعيدة ومايزال نص الوقف موجوداً في مضانه.

واشتملت صيغة الوقف على نقطة بالغة الدلالة تعكس جزءً من الصراع الفكري المحتدم يومذاك.

فقد خص الوقف صرف مرتبات للطلاب الذين يدرسون العلوم الدينية ولا شأن لهم بالفلسفة وان يتمتع الطلاب بسمعة حسنة ولايتظاهرون بالفسق.

كما بنىٰ في اصفهان العاصمة مسجداً مايزال حتىٰ اليوم يعرف بـ «مسجد خان» وجاء في كتيبته ان شيخ علي خان آصف جاه يعني الوزير أمر ببنائه.

وعلى بعد ثلاثين كيلومتراً من اصفهان يوجد خان للقوافل يحمل اسم «كاروان سراي شيخ علي خان».

تمتع الوزير علي خان بصلاحيات واسعة ويعتبر مهندس السياسة الخارجية للبلاد وكان يتصرف دون مخاوف او هواجس ذلك ان الشاه قد اقسم له انه لن يتعرض لحياته مهما كانت الظروف.

وقد يوافق الشاه على شيء ولكن ذلك لن يكون حتىٰ يوافق الوزير، من هنا شاع المثل الايراني يهب الشاه ولكن علي خان لايهب.

كنا قد اشرنا الىٰ النشاط السياسي والدبلوماسي الاوربي لدفع ايران لمواجهة الدولة العثمانية وقد يحقق الجهد الدبلوماسي الاوربي ما يصبو اليه في البلاط ولكنه يرتطم دوماً بموقف الوزير الثابت والاستراتيجي ازاء العلاقات بين الدولتين الجارتين.

فالوزير يرى ان اي تحرش بالدولة العثمانية يعتبر انتهاكاً صارخاً لاتفاق السلام، كما يرى ان الظروف ليست مواتية لافتعال ازمة مع الدولة الجارة، كما يرى الوزير ان اوربا ليست حليفاً حقيقياً يمكن الركون اليها ويستدل على ذلك بتجربة شاه عباس الأوّل الذى سعى جاهداً لحشد الجهدالاوربي ومقاومة التوسع العثماني في الشرق، لكنه وجد بعض الدول الاوربية تحاول مساومة العثمانيين فاضطر لتحمل كل أعباء الحرب بمفرده.

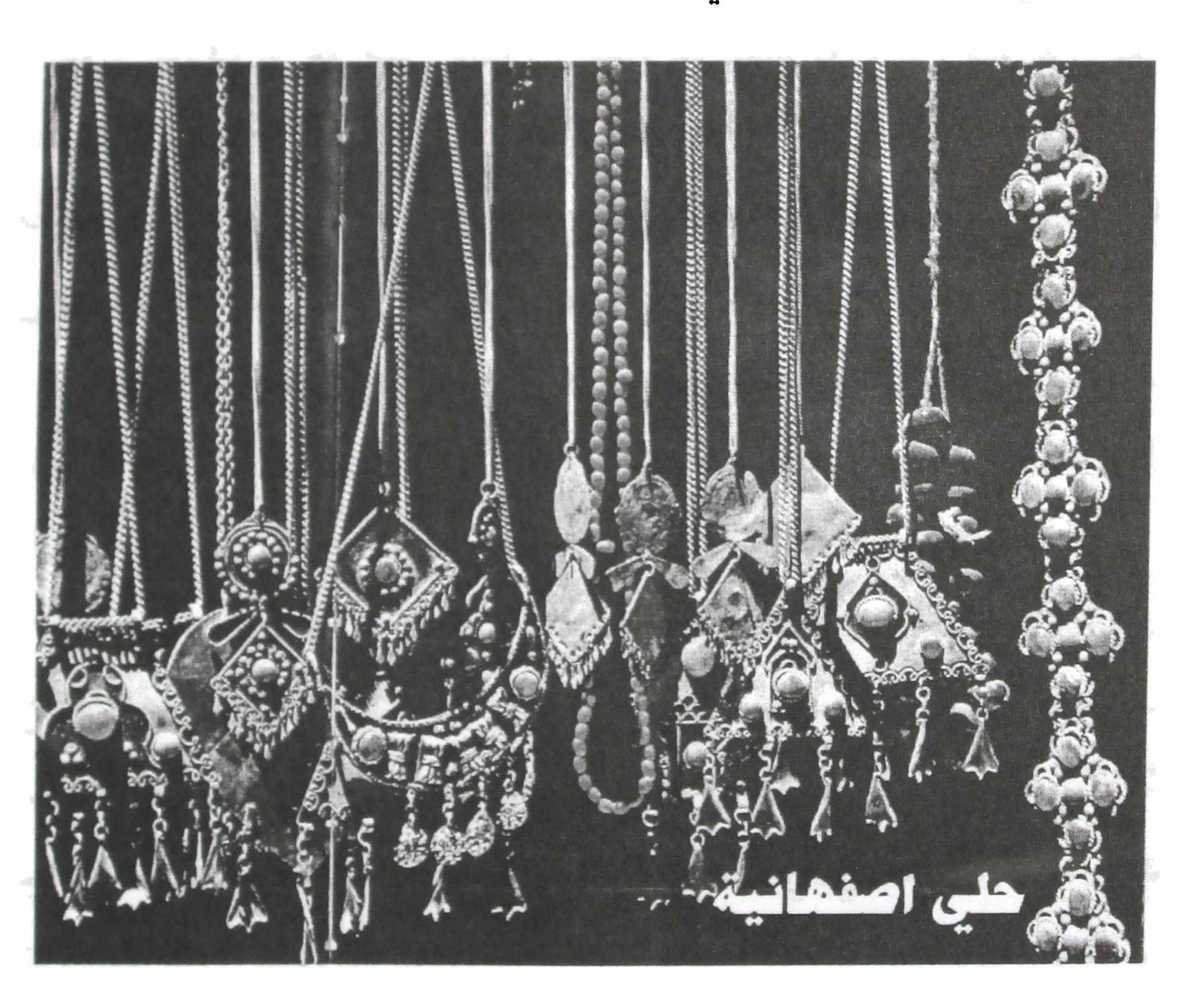
وقد شهدت المدونات الاوربية للوزير انه من المتحمسين لاقامة علاقات صداقة مع الاتراك ذلك انه يرى ان تركيا الدولة العثمانية سداً في مواجهة الخطر الاوربي وان انهيار

هذا السد الكبير يعني نهاية ايران التي لن تستطيع مقاومة الاطماع الاوربية في الشرق الاسلامي.

وخلال اجتماع ضم الوفود الاوربية مع الوزير الايراني صرح الوفد الروسي بامكانية تدمير الدولة العثمانية من خلال مساندة ايران في الصراع لكن الوزير اجاب بصراحة واضحة: ان ايران لا تهدف الىٰ القضاء على الدولة العثمانية ذلك ان زوالها يعنىٰ قيام دولة مسيحية وان هذا سيشكل خطراً على ايران.

وعندما تمادى الوفد في هذه المسألة زاد الوزير من صراحته قائلاً ان الدولة العثمانية هي السد الذي يحمي ايران من الخطر الاوربي.

وهكذا يمكن القول ان استقرار الدولة الصفوية ورخاءها الذي نعمت به في تلك الفترة مدين الىٰ سياسة هذا الرجل الوقور، الذي كرّس حياته في خدمة بلاده وكان عقله المنير سلاحاً نافذاً حمى ايران من التورط في مغامرات عسكرية لاتعرف نتائجها.



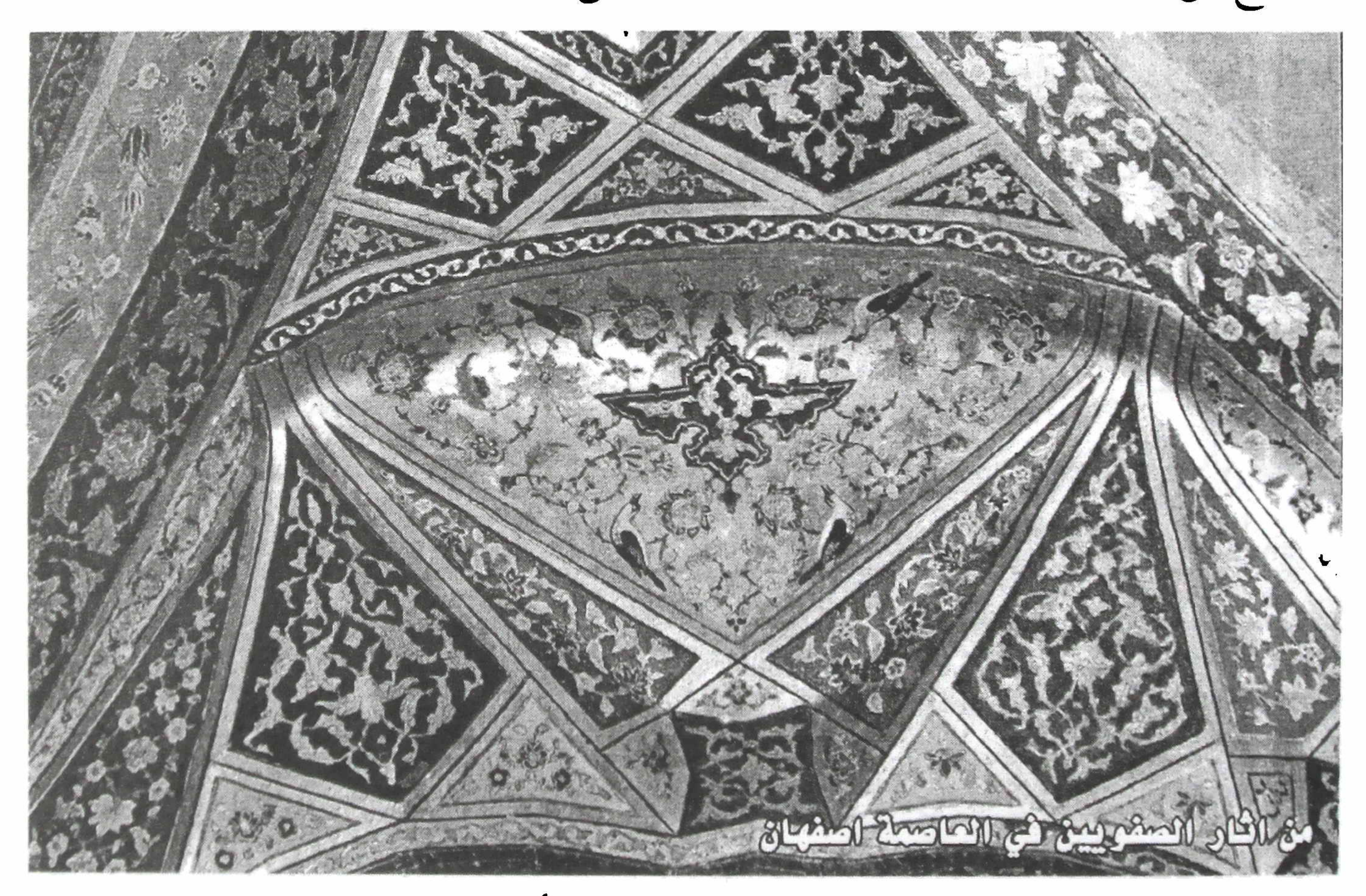
حلي اصفهانية

اصفهان نصف العالم

بدأت مسيرة الازدهار في اصفهان منذ تأسيس الدولة الصفوية، ونتذكر جيداً ان شاه اسماعيل الأوّل وبعد هزيمته في تشالديران سعى الىٰ نسيان مرارة الحادثة بالانغماس في اللهو وقد اختار مدينة اصفهان لذلك؛ ولكن خطوات الازدهار تسارعت بشكل واضح بعد ان انتخبها شاه عباس الأوّل عاصمة متألقة تزدان بالعمارة وتحفل بالعمران واصبحت كما اطلق عليها الايرانيون آنذاك نصف العالم.

كانت القصور الملكية هي الشيء المميز في العاصمة ثم المساجد والمدارس الدينية.

وقد شهد عهد شاه صفي جنوناً في بناء القصور واستمر ذلك في عهد شاه عباس الثاني واصبح من مقدمات الشاهية بناء قصور فخمة لتبقى تاريخية.



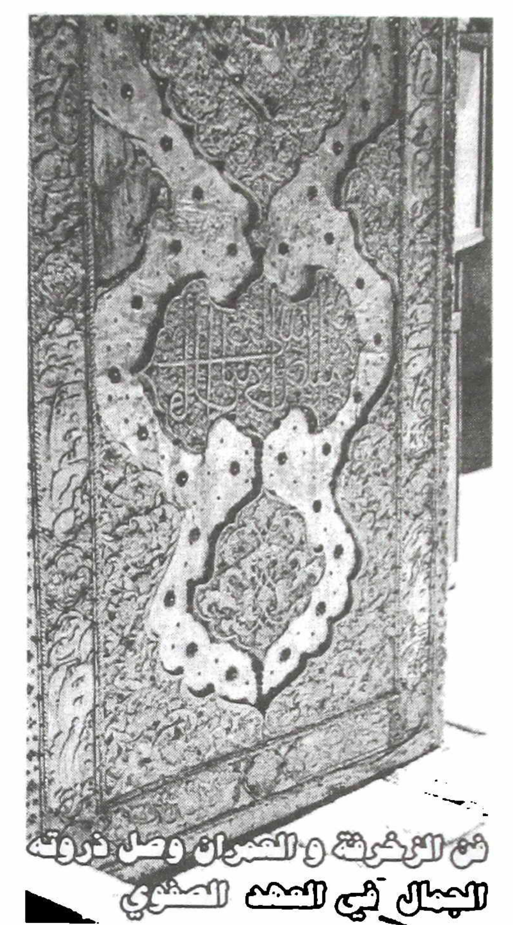
من آثار الصفويين في العاصمة اصفهان

في عام ١٠٨٠ هـ ظهرت «عمارة هشت بهشت» أو عمارة الجنّات الثمان ظهر القصر وسط بساتين خضراء وحدائق غناء واشتهر القصر باسم قصر البلبل الذي وصفه الرحالة جاردن بشكل يصوره واحداً من اجمل واروع القصور في ذلك العصر.

وقد تغنىٰ الشاعر المعروف صائب التبريزي في وصفه واستغرق العمل فيه عاماً واحداً

كما اثبت ذلك الشاعر في البيت الاخير من قصيدته على طريقة الشعراء في التاريخ الحروفي[١].

وهناك بناء تاريخي يعود الىٰ نفس الفترة هو مسجد لنبان وتثبت الشواهد ان ترميمات اساسية اجريت عليه لان تاريخ بنائه يعود الىٰ فترة سابقة على العهد الصفوي، حيث اكتسب قداسة خاصة لأحاديث شاعت بين الناس ان الامام الحسن المجتبىٰ قد صلى في هذا المكان عندما اشترك في معارك الفتح الاسلامي في ايران.



فن الزخرفة و العمران وصل ذروته الجمال في العهد الصفوي

ومن الاجراءات التي اعتاد الملوك الصفويين القيام بها هي بناء اضرحة لكبار العلماء والشعراء كما قاموا ببناء التكايا.

ومن آثار تلك الاضرحة يوجد اليوم ضريح للشاعر صائب التبريزي الذي توفي سنة ١٠٨٧ هـ، اضافة الىٰ ضريح أحد الحكماء والفلاسفة الذي توفي سنة ١٠٨٢ هـ ومايزال ضريحه بقبته المتلألئة قائماً بالقرب من مطار اصفهان القديم.

وهناك مقبرة الخوانساري السيد حسين (المتوفي ١٠٩٨) وأولاده، ماتزال هي الاخرى ماثلة حتىٰ اليوم.

اما المدارس فعديدة منها مدرسة ميرزا حسين التي بنيت سنة ١٠٩٩ت.

ومن الابنية ما قام بها الوزير القدير علي خان وقد اشرنا الىٰ خان القوافل الذي يبعد عن اصفهان بثلاثين كيلومتراً وفي كل عهد من عهود الملوك الصفويين كانت الابنية والعمارات تزداد لتزدهر اصفهان و تصبح مدينة تجتذب السواح من انحاء العالم كما هي حتىٰ الآن.

---

(١) ياد يارب قبله گاه سرفرازان زمان *** بارگاه تازه سلطان سليمان زمان

الصراع الفكري

شهدت العقود الاخيرة من عمر الدولة الصفوية صراعات فكرية في اكثر من جبهة وعلى اكثر من صعيد، فهناك صراع مرير بين اهل الحديث وبين اهل الفلسفة وطلاب الحكمة وهو صراع يدخل ضمن صراع بين الاخباريين والاصوليين.

وصراع آخر محتدم بين الفقهاء بشكل عام والمتصوفة وصراع داخلي بين الفقهاء حول مسألة مثل الموسيقى والغناء حرمته وحليته وصراع حول اقامة صلاة الجمعة بين من يوجبها وبين من يحرمها وبين من يرى شرعية جوازها وصراع محدود حول مسألة مثل التدخين.

فيما يخص رواية الحديث ونصب العداء للفلاسفة والحكماء فيمكن القول ان توجه الدولة الرسمي كان يحمي الاتجاه الأوّل ويحاول اضعاف الجانب الثاني وقد ظهرت ثلاثة مؤلفات حديثية في تلك الفترة؛ هذا على الرغم من وجود علماء جمعوا بين الاهتمام بالحديث والاهتمام بالفلسفة وطلب الحكمة، الا ان ذلك لم يخفف من حدة الصراع بين الفريقين، فمن كتب الحديث التي ظهرت في تلك الحقبة يمكن الاشارة الىٰ كتاب الوافي للفيض الكاشاني المتوفي سنة ١٠٩١ هـ حيث تمحورت احاديثه حول الاصول والفروع.

والكتاب الثاني هو وسائل الشيعة للحر العاملي (١٠٣٣ - ١١٠٤) هـ وقد ابدع في تقسيم الاحاديث الىٰ ابواب مختلفة ويعد الكتاب من اكثر الكتب تداولاً في الحوزات العملية للشيعة. وقد اعتمد في جمع الاحاديث منهجاً يستبعد فيه الضعيف ويثبت ما استند الىٰ مصادر معتبرة؛ وتشدده هذا هو الذي حفظ للكتاب احترامه في الاوساط العلمية..

ويروي الحر العاملي حواره مع الشاه حول مسألة التبغ والقهوة واعتراض الشاه على فتوى التحريم وهذا نص الحوار كما رواه الشيخ:

«قلت للشاه انني أتحفظ على كليهما.

قال الشاه: سمعت انك تشكل عليهما وتحتاط في عدم استعمالهما.

قلت: نعم ولكن لست متيقناً من حرمتهما او كراهتهما لانه لايوجد دليل واضح على ذلك.

قال الشاه: كما انك لست متيقناً من جواز الا ستفادة منهما.

قلت: كلا، لانه لا دليل على جواز الاستفادة منهما.

قال الشاه: وهل احتياطك هذا واجب أم مستحب؟

قلت: اختلف العلماء في ذلك ولكنهم يرجحون الاحتياط سواء كان واجباً ام مستحباً.

قال الشاه: الا يوجد اصل في الاباحة؟

قلت: في هذه المسألة اختلاف، ولهذا رجح دليل الاحتياط .

وأيد الشاه هذا الرأي ورأى الاحتياط أفضل.

وجاء في الحكايات ان الشاه مزح مع الحر العاملي، فقال له: ما الفرق بين حُرّ وخر[1]؟ فأجاب الحر العاملي على الفور وبلا تردد أو وجل: شبر واحد!

وجاءت ثالث أكبر مجموعة ضمت معظم تراث الشيعة في كتاب بحار الانوار للعلامة المجلسي (١٠٣٧ - ١١١٠) ويعد من ألمع وجوه عصره ومايزال اثره حتىٰ الآن في صدر المكتبة الشيعية،كما وانقسم حوله معاصروه بين مؤيد ومعارض ومايزال هذا الانقسام مستمراً حتىٰ الآن بالرغم من مرور اكثر من ثلاثة قرون على وفاته، كان أصغر ابناء والده محمد تقي المجلسي المتوفي ١٠٧٠ الا انه اكثر من انتهل من دروس والده.

يقول في مقدمة كتابه الذي يتألف من مئة وعشرة أجزاء: بدأت دراستي منذ سني الشباب وكنت أعشق العلم والتعلم و كنت ابحث عن ثمار المعرفة حتىٰ وجدت أفضل بساتينها وعرفت الغث من السمين.. ومن فضل الله انني لاانتهل من عين حتىٰ اعرف زلالها ولا حكمة حتىٰ اعرف من أين منشأها».

وقد عرف في زمن ابيه كعالم له شأنه ومنزلته حتىٰ عدّ واحداً من ابرز العلماء في عهد شاه عباس الثاني لم يضع قلمه جانباً حتىٰ في العقد الاخير من حياته عندما تسنم منصب شيخ الاسلام. تتمحور آثاره حول الحديث رواية وشرحاً ويعد كتابه مرآة العقول وهو شرح على كتاب الكافي من أبرز آثاره ويقع في ستة وعشرين مجلداً.

وله شرح آخر تحت عنوان ملاذ الاخبار وهو شرح حديثي على كتاب تهذيب

---

[1] خر بالفارسية: الحمار.

الاحكام.

وكان هدفه من تأليف بحار الانوار جمع التراث الامامي في مكان واحد ليكون دائرة للمعارف الشيعية؛ فبوبه وفق نظام يجعل من عمل المحقق اكثر يسراً، فهناك بحوث في الفقه وبحوث في الاخلاق وبحوث في العقائد وبحوث في سير ائمة أهل البيت وآثارهم.

وبالرغم مما تضمنته موسوعته «بحار الانوار» واشتمالها على الاحاديث الضعيفة الا انه أراد حفظ الجميع تاركاً للجهد التحقيقي دوره في معرفة الغث من السمين.

وقد ساعده في اعداد هذه الموسوعة بعض تلامذته منهم سيد نعمة الله الجزائري (المتوفي ١١١٢) هـ والميرزا عبدالله افندي ومايزال كثير من مخطوطات هذه الموسوعة في مكتبة المرعشي الكبرى في مدينة قم.

وقف ـ كما اشار هو ـ في الخط الوسط بين الاتجاه الاخباري والاتجاه الاصولي الا انه اعتبر تقليدهم خطأً في الاصول العقلية التي لاتستند الىٰ الكتاب والسنة.

ويعدّ موقفه أزاء الاصوليين هذا في غاية الاعتدال اذا ما وضع الىٰ جانب الزعيم الاخباري المتطرف الملا محمد امين الاسترابادي.

التفت المجلسي الىٰ اهمية ترجمة النصوص الدينية الحديثية وشرحها باللغة الفارسية بغية نشر الوعي الديني في صفوف جماهير الامة، فعلى سبيل المثال قام المجلسي بترجمة وصية سيدنا محمد(صلى الله عليه وآله) الىٰ ابي ذر في مؤلف سماه «عين الحياة».

كما الف في الاخلاق الفردية والاجتماعية كتابه الموسوم «حلية المتقين» ولهذا الكتاب اهميته الكبرى بلحاظ الظرف، الذي صدر فيه حيث بدأت تسود ثقافة الدروشة والشحاذة باسم الدين، اذ لفت الانظار بقوة الىٰ الاصول الاخلاقية والاهتمام بالمسائل الصحية في الحياة اليومية للفرد المسلم.

كما قام المجلسي بترجمة واحد من أهم النصوص في نهج البلاغة وهو عهد الامام علي الىٰ مالك الاشتر وما يشتمل عليه هذا السفر من مبادىء واسس اخلاقية وسياسية وادارية وكان مخاطبه في هذا الجهد كما اشار العلامة؛ المسؤولين في الدولة والمتصدّين لادارة مؤسساتها.

بقي ا ن نشير الىٰ ان العلامة المجلسي وبالرغم من تصديه لمنصب شيخ الاسلام

وممارسته لمهامه مدة ثلاثة أعوام الا انه لم يصدر عن البلاط أي مرسوم ملكي بهذا الشأن.

وقد صدر المرسوم بهذا المنصب الحساس في الدولة في بدء عهد الشاه الجديد (شاه حسين) الذي تسلم العرش الصفوي في نهاية عام ١١٠٥ هـ وقد صدر المرسوم سنة ١١٠٦ هـ.

مسألة الغناء والموسيقى نموذج حساس لبعض أوجه الصراع الفكري داخل الدولة الصفوية في جيلها الاخير

تعد مسألة حلية الغناء والموسيقى وحرمتهما من المسائل التي أثارت جدلاً واسعاً في تلك الحقبة من الزمن ويمكن ترتيبها ضمن ثلاث مسائل هي الاولىٰ في خطوط الصراع الفكري الذي ساد في تلك الفترة.

فهناك مسألة اقامة صلاة الجمعة التي انقسم حولها الفقهاء ليس الىٰ قسمين، بل الىٰ ثلاثة اقسام موجب لها ومعارض وثالث يحاول ربما مجاملة الفريقين متخذاً موقفاً و سطاً يرى شرعية أدائها اذا ما أُقيمت اضافة الىٰ مسألة الغناء والموسيقى ومسألة التدخين، وبالرغم من استناد الجهد الفقهي، الذي يوصف بانه جهد علمي يستند الىٰ الكتاب الالهي والسنة النبوية والعقل والاجماع والذي يفترض فيه إلاّ يؤدي الىٰ نتائج متناقضة وصراع مرير؛ الا ان العامل الذاتي ونوع الفهم ومستواه والظروف النفسية التي عاشها المجتهد والجو العام له القسط الاوفر في ترتيب قناعة معينة ومستوى من الفهم لقضايا الاسلام الكبرى والتصورات المسبقة كل ذلك يفضي الىٰ صياغة موقف يزعم صاحبه فيه بانه أقرب الىٰ الحكم الشرعي.

ولعل انقسام المؤسسة الدينية الشيعية حول تلك المسائل الثلاث هو ذروة ما وصل اليه الانقسام الفكري داخل المنظومة الامامية منذ ظهورها في عصور مبكرة جداً من تاريخ الاسلام؛ مع الاعتراف بأنّ اقامة صلاة الجمعة تعد الاكثر حساسية لارتباطها الوثيق والواضح بمسألة جوهرية جداً هي مسألة الامام المهدي وغيبته الكبرى والحالة التي يفترض ان يكون عليها المجتمع الشيعي خلالها وعملية الانتظار.

يعزو البعض بداية ظهور الجدل حول الغناء الىٰ رسالة العالم المعروف ملا باقر الخراساني

الذي اشتهر بلقب المحقق السبزاوري المتوفي سنة ١٠٩٠ هـ فقد ألّف رسالة مستقلة في الغناء إذ لم يفت بحرمته مطلقاً وفتواه أقرب الىٰ الاباحة داعياً الانسان الشيعى الىٰ تلاوة القرآن.. وقد استند الىٰ حديث يقول «من لم يتغن بالقرآن فليس منّا»، ذلك ان حرمة الغناء حسب ما يرى انما صدرت في زمن كانت فيه مجالس اللهو واللعب، حيث تقوم القيان بالغناء في تلك المجالس مع استخدام لكثير من الأدوات والآلات الموسيقية.

وبسبب استمرار الاختلاف حول حرمة او حلية الحداء وكذا قراءة المراثي العاشورائية ومسألة الغناء داخل الاعراس في الوسط النسوي وعدم حسم مثل هذه المسائل، كل ذلك ادى الىٰ اندلاع جدل واسع حول الغناء والموسيقى اللذين كانا ذات يوم امراً مفروغاً منه، فلقد كان هناك ما يشبه الاجماع حول حرمة الغناء وكان الاختلاف يدور حول شرعية التغني بالادعية والآيات القرآنية والاذكار.

وعلى اية حال تدل كثير من البحوث التأريخية الىٰ ان الهجوم الذي استهدف كلا من السبزواري والفيض الكاشاني من قبل المعارضين لاباحة الغناء ليس بسبب انفراد الرجلين بهذا الموقف ازاء مسألة الغناء، ولكن لتسنم الرجلين مناصب حساسة في الدولة في مستوى امامة الجمعة في العاصمة اصفهان، فموقع مثل هذا الموقع الديني الهام جعل الكثيرين يتصورون ان السبزواري أول من قال باباحة الغناء.

بالرغم من وجود حالة من التساهل مبكرة لسماع الغناء لدى علماء الشيعة ممن كانت عندهم ميول صوفية، ربما بسبب طبيعة الاذكار التي عادة ما يرددها المتصوفة لدى السنة والشيعة على حد سواء.

ان الحالة الصوفية والعرفانية تنهض بشكل اساس على ترديد اذكار واداء حركات جماعية محددة لايقاع موسيقى وهذا ما جعل العلماء المتأثرين بالتصوف والعرفان[1] يضطرون لايجاد مسوّغ شرعي للشيعة ممن لديهم ميول صوفية.

الىٰ جانب ذلك نجد بعض الروايات التي تنطوي على دعوة لأداء تلاوة القرآن بصوت حسن وهي روايات لها مايشابهها في مصادر اهل السنة، وقد تبلور رأي في العهد الصفوي

---

[1] لايوجد بين المصطلحين فروق هامة الا في حالة واحدة فالمتصوفة كانت تشكيلات تجعلهم في عداد المنظمات البالغة الاستحكام لمجموعة من الناس في حين يترع العارف الى حالة فردية اشبه بالعزلة التامة عن الآخرين.

مفاده ان الصوت الحسن ليس غناءً.

وفي الوقت الذي يتجه فيه الرأي العام في المؤسسة الدينية الشيعية الىٰ تحريم الغناء وآلات الموسيقى يجد المرء دعوة الىٰ أداء المواعظ والاشعار الدينية والمراثي أو مايطلق عليه اليوم بالتواشيح بصوت حسن، لضمان تأثيره في القلوب والنفوس ولهذا فان العالم الديني الشيعي في القرن العاشر الهجري لايرى به بأساً بل يراه مستحباً ومندوباً لزيادة التأثير في القلوب[1]

ومن هنا استثنىٰ السبزواري مسألة التغني بالقرآن من الغناء وقد ردّ عليه علماء في هذا الرأي[2].

وبالرغم من موقفه المرن ازاء الغناء فانه لايوجد نص صريح يدل على موقفه الاكيد في حلية قسم من الغناء ولكنه اكد نقطة حيوية وهي وجود اختلاف لدى علماء الامامية وهي مسألة لم تحسم بعد، لأنّ كلا الفريقين (القائل بحلّيته وبحرمته) لديه ما يسند مدّعاه.

وفي رأيي ان الجدل في هذه المسائل يستمر اذا ما انحصر البحث فيه في الروايات والاخبار بعيداً عن الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة.

فلو امكن اضافة نقطتين هامتين فيما اظن يمكن الاتفاق عليهما ونمتلك حولهما الشواهد وهما:

- امكانية توجيه الظاهرة (الموسيقى والغناء).
- ادخال معيار اخلاقي في ما تضيفه الموسيقى مثلاً الىٰ حيوانية وانسانية الفرد والمجتمع وما تنقصه.

فجهاز التلفاز كان محرماً لدى علماء الشيعة لانه كان وسيلة لافساد المجتمع وبسبب برامجه الهابطة وهو اليوم وسيلة ثقافية وتربوية في غاية الاهمية.

ويبدو ان الانغلاق في بحث كثير من الاحكام وشرعية وعدم شرعية كثير من القضايا داخل الاطار الاخباري والروائي، هو السبب وراء اندلاع النزاع واستمراره اضافة الىٰ عوامل مؤثرة اخرى.

---

(١) رضا مختاري ميراث فقهي غناء وموسيقى: ج٣، ص ١٥٩٥.

(٢) مرتضى نجومي، رسالة الغناء، ص ٣٧.

ان النقطتين التي اشير اليهما ربما نجدهما في هذا النص الصادر عن الفيض الكاشاني وهو في رأيي يفتح أفقاً جديداً لطرق هذه المسألة ووضع حد للجدل فيها بشكل صريح يقول الفيض: «وعلى هذا فلابأس بسماع التغني بالاشعار المتضمنة ذكر الجنة والنار والتشويق الىٰ دار القرار، ووصف نعم الله الملك الجبار، وذكر العبادات والترغيب في الخيرات والزهد في الفانيات ونحو ذلك»[١].

وقد دفع هذا النص عالماً آخر هو ملا اسماعيل خواوي الىٰ التهكم منه قائلاً: «فانظروا يا اولي الأبصار الىٰ تلوّنات هؤلاء الأخيار الابرار»[٢].

وتجد اشارة في نص الفيض تنسجم مع ماورد في فقه الاقدمين فالتذكير بالجنة يمكن أن يتم من خلال شراء جارية تُحسن الغناء: «وما عليك لو اشتريتها فذكرتك الجنة» وهذا النص كان جواباً عن استفتاء حول جواز شراء جارية حسنة الصوت[٣].

وواضح ان السبزواري وربما بسبب رواج الغناء في عهده ومايردده المتصوفة من اذكار انه يحاول ان يحصر مصاديق الغناء بمجالس اللهو والطرب وشرب الخمر وماتغنيه الجواري في هذا المضمار، قائلاً: ان حقيقة الغناء مجهولة وما دام الاصل هو الاباحة حتىٰ يثبت غير ذلك بالدليل، فانه لايمكن تحريم قراءة الاشعار والاذكار»[٤].

على ان الهجوم الذي استهدف الغناء كان في الحقيقة يستهدف المتصوفة ذلك ان الذين قالوا بحليته كانت لديهم ميول صوفية أو كانوا يجاملون الرأي العام او انه من اولئك الطموحين الذين يبحثون عن نفوذ اجتماعي وسياسي. والاتهام الاخير صرح به الحر العاملي في مهاجمة من يرون حلية الغناء، وقد استهدف في هجومه السبزواري تصريحاً وتلميحاً[٥].

ويرى الحر العاملي حرمة الغناء بشكل مطلق ومعروف موقفه المعادي للتصوف يقول

---

[١] الفيض الكاشاني، الوافي: ج١٧، ص ٢٢٣.

[٢] رسالة في الغناء: ص ٦١٨.

[٣] انظر من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق: ج٤ ص ٦٠، ح٥٠٩٧.

[٤] السبزواري، رسالة في تحريم الغناء: ج١، ص ٤٤.

[٥] انظر الخوانساري، روضات الجنات: ج٢، ص ٧٢ - ٧٧.

الحر العاملي في الرأي القائل بحرمة الغناء في مجالس اللهو والطرب وشرب الخمر فقط: هذا التخصيص مذهب بعض الملاحدة من المخالفين كالغزالي واضرابه فانه خصّه بما يعمل في مجالس الشرب. والعجب من استدلال بعض الصوفية به على اختصاص تحريم الغناء بما يقع في مجالس الشراب تقليداً لبعض العامّة[١].

وواضح اتهام الحر العاملي للغزالي في انه وراء اباحة الغناء وقد تأثر بعض الشيعة بآرائه؛ اشارة الى الفيض الكاشاني الذي ألف المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء (كتاب احياء علوم الدين للغزالي). وقد انجر الحر العاملي في هجومه على الغناء والقائلين باباحته الى ان يهاجم الصوفية بشكل عام.

وبسبب الارث الفقهي ومجموع المناقشات والجدل حول الموسيقى والغناء فقد استمر الجدل الى يومنا هذا وبعد انتصار الثورة في ايران والذي يؤشر بشكل واضح الى انتصار الفقهاء وتراجع وانحسار الاتجاه الصوفي؛ فقد سادت في السنوات الاولى روح ثورية وطغت موجة من التفكير المتشدد ازاء الغناء وشيئاً فشيئاً خفت هذه الروح وخبت جذوتها؛ ليعود الغناء الى الشارع الايراني وبشكل خجول في الاعلام الرسمي تحت مسميات اخرى، في الوقت الذي لم تحسم

[١] المصدر السابق: ص ١٥٧.

فيه بعد هذه المسألة داخل المؤسسة الدينية التي انقسمت كما في الماضي حول ولاية الفقهاء وصلاة الجمعة والموسيقى والغناء.

المواجهة بين الفقهاء والصوفية جبهة اخرى من الصراع الفكري

واحدة من اكثر جبهات الصراع الفكري سخونة وحساسية وقد افرزت أوضاعاً اثرت فيما بعد في مصير الدولة الصفوية. وشهدت المؤسسة الدينية خاصة في الجيل الاخير من العهد الصفوي انقساماً حاداً حول الاعتراف بالتصوف أو رفضه، ونتيجة لهذا الانقسام في المواقف انقسمت الحياة الثقافية تبعاً لذلك وظهرت ثقافتان متناقضتان متنافرتان.

ويرى الباحث في أن التصوف قد نشأ في اوساط سنية ولم تكن هناك ثمة رابطة أو علاقة للشيعة بالمتصوفة.

على ان ذلك لاينفي وجود ارضية مناسبة لنمو الاتجاه الصوفي في اوساط الشيعة فمفهوم مثل مفهوم الزهد وجد له تفسيراً سلبياً بالانفصال عن الحياة من خلال فهم مشوه نما في المجتمع الشيعي، اضافة الىٰ مفهوم الولاية حيث الولاء لائمة اهل البيت يحظى بمنزلة القداسة ما دفع بالبعض فيما بعد الىٰ الغلو. والدارس لحياة الامام الهادي(عليه السلام) يجده يهاجم المتصوفة السنة في المدينة المنورة، كما كان يحارب في نفس الوقت الغلاة في الوسط الشيعي.

وخلاصة القول ان العلاقة بين التشيع والتصوف تعود الىٰ القرن السابع الهجري كما ان ظهور «الخانقاه» يعود الىٰ وقت متأخر عن ذلك اي القرن الثامن الهجري.

ونحن ندرك جيداً فميا يخص بحثنا في الدولة الصفوية ان الحركة الصوفية هي وراء تأسيس الكيان الصوفي وان الصوفية بما تمتلكه من طاقة سياسية استطاعت ان تبني دولة شيعية قوية في منطقة مصنفة ضمن العالم السني وتمكنت في جعل المذهب الامامي المذهب الرسمي في منطقة واسعة من العالم الاسلامي.

وقد اضطرت الحركة الصوفية حيث العنصر التركي يمثل عمادها وقوتها العسكرية الضاربة اضطرت وبعدتأسيس الدولة ان تستعين بالعنصر الايراني او ماعرف تاريخياً في تلك الحقبة بالعنصر التاجيكي بسبب ثقافته وقدراته الادارية كما استعانت بالعنصر العربي لملء الفراغ الحقوقي والفقهي الكبير.

ويبدو ان الصوفية ادركت فيما بعد خطر الفقهاء الذي وصل ذروته في عهد الكركي خاصة بعد ظهور منصب شيخ الاسلام وخطوة شاه طهماسب في اعتبار الكركي الملك الحقيقي، بما يمثله من مقام ديني يتمثل بنيابته العامة للامام المهدي الغائب.

وقد فسرت دعوة الكركي لايران ضمن مؤشرات الاتجاه السياسي الجديد للدولة ومحاولتها الفكاك من سيطرة النفوذ الصوفي الذي يمثل حالة من الامتداد السني في الدولة الشيعية الفتية، وقد بدأت حملة مبكرة منذ عهد اسماعيل الأول لتخريب قبور شيوخ الصوفية من أهل السنة وهي حملة فسرت على انّها انتصار للحركة الشيعية المتنامية ومن المؤكد أنها بدأت أو اشتدت بعد معركة تشالديران والتي كانت لها آثار في مسار الدولة وكان من بين القبور التي هدمت قبر ابو مسلم الخراساني[١] القائد العباسي الذي اطاح بالكيان الاموي.

ومازاد من انحسار المد الصوفي وتراجعه ان الشاه الصفوي يعد المرشد العام للحركة وقد بدأ الشاهات يظهرون رغبة في التعاون مع الفقهاء في مقابل اعراضهم عن الصوفية الذين وجدوا انفسهم في وضع لايحسدون عليه.

على ان ظهور فقهاء وكبار في وزن بهاء الدين العاملي الذين جمعوا الىٰ جانب الفقه الفلسفة والعرفان ادى الىٰ ظهور تيار جديد وصل ذروة قوته في ظهور ملا صدرا والذي ظهرت معه الحكمة المتعالية، التي هي نتاج الفلسفة والاشراق، ولم يكن ظهور هؤلاء ليعزز الموقف الصوفي اذ سرعان ما ظهر الانفصال بين التصوف والعرفان. واذاكان التصوف ينهض على اداء بعض الحركات وترديد الاذكار والاوراد وارتقاء المرء فيه ضمن تشكيلات اشبه بالتنظيمات السياسية او الكنسية، فان العرفان الذي مثله ملا صدرا كان يمثل جهداً روحياً عميق الغور ومعاناة في ترويض النفس وتهذيبها وصقل القلب بشكل يؤهله لتلقي الاشراق والوعي. ولعل في ظهور الاسفار الاربعة لملا صدرا وما انطوت عليه من كشوفات في الحكمة والفلسفة والفيزياء الذرية ما يؤكد ان العرفان شيء آخر غير التصوف الذي لايعدو في الغالب بعض الأوهام والخيالات؛ ومن هنا هاجم ملا صدرا المتصوفة[٢].

---

(١) صوفية در عرصه دين فرهنگ وسياست: ج٢، ص ٥١٧.

(٢) الف ملا صدرا رسالة في ذلك اسماها كسر اصنام الجاهلية.

وبالرغم من هذا فان وجود بعض المشتركات من قبيل استخدام الفاظ محددة في الذكر وتقديس رموز مشتركة مثل الحلاج، الغزالي وابن عربي جعل خصوم المتصوفة لايفرقون بين العارف والصوفي في الهجوم على الجميع.

ومبررات اعداء المتصوفة من الفقهاء في الحرب على التصوف تكمن في اعتبار التصوف منهجاً يقود الىٰ الانفصال عن الشريعة وبالتالي الخروج عن احكام الدين والمذهب وفي الوقت الذي كان فيه بعض الفقهاء يتهمون الصوفية بالتسنن وان جذور التصوف ومهده ومنشأه هي سنية وبالتالي فهم غرباء عن المذهب الامامي ودخلاء عليه، قام المتصوفة بتجربة ذكية جداً وبخاصة في العهد الصفوي عندما طرحوا فكرة التولي والتبري بشكل متطرف وبرزت قضية اللعن والبراءة من كثير من رموز السنة كأقوى ماتكون، واصبح الصوفي في تلك الفترة هو الشيعي الحقيقي وبالتالي فان الصوفي لايمكن ان يكون سنياً، وقد صرح اسماعيل الأوّل الذي يعد أوّل زعيم سياسي كبير للحركة الصوفية من خلال تأسيسه الدولة الصفوية قائلاً ان الصوفي لايعد عندنا صوفياً حتىٰ يلعن اعداء امير المؤمنين علي[1](عليه السلام) .

ومن هنا فقد تبنت الدولة الصفوية سياسة تحاول دمج التصوف بالتشيع وهي سياسة واجهت معارضة شديدة في اوساط العلماء وقد رأت الحكومة الصفوية ان من المصلحة التفاهم مع العلماء والفقهاء والاعراض عن الصوفية وظهر ذلك في بعض الاجراءات التي حدّت من نفوذ المؤسسة القزلباشية وهي قلعة الصوفية العتيدة.

إنّ أوّل انتصار حققه الفقهاء حصل في عهد شاه طهماسب الذي وفر للكركي نفوذاً كاد أن يكون مطلقاً في مؤسسات الدولة. وقد بدأ في عهد الكركي توجه مضاد للتصوف ظل ينمو الىٰ ان وصل الذروة في عهد الحر العاملي، الذي كان أجرأ من هاجم الصوفية دون هوادة.

وقد استمر الصراع التأريخي بسبب عمق التناقض وتطرف الفريقين في قناعاتهما، فبينما يشطب الفقهاء مثلاً على الالهام كأحد الطرق لتلقي المعرفة يشطب الصوفية على العقل

---

[1] صفوية در عرصه دين فرهنگ وسياست: ج٢، ص ٥١٩.

تماماً، ومن هنا نجد ملا صدرا يهاجم الفريقين، فاضافة الىٰ رسالته التي هاجم فيها المتصوفة (كسر اصنام الجاهلية) هاجم ملا صدرا الفقهاء في رسالة (الاصول الثلاثة)[١].

واذا كان ظهور الفقهاء في بدء تأسيس الدولة الصفوية عُدّ تراجعاً لنفوذ الصوفية وانحساراً لدورهم في الحياة السياسية والاجتماعية الا ان ظهور التيار الاخباري في أوساط المؤسسة الفقهية عزز من التصوف واعاد له بعض ما فقده من نفوذ.

فظهور شخصيات من مستوى المجلسي أباً وابناً وتمجيدهم كل الاخبار الواردة من أئمة اهل البيت غثها وسمينها من دون فحص وتدقيق، قوّى من بعض افكار الصوفية ليتخذ الصراع الفكري بانتقاله داخل المؤسسة الفقهية نفسها شكلاً آخر في الصراع بين الاتجاه الاخباري والاتجاه الاصولي، ومايلفت النظر هو ظهور نسخة جديدة للتشيع ساعد على صياغتها فقهاء صوفية وحصل نوع من التوافق غير المعلن بين الفريقين.

ويجد الباحث في هذه النسخة اتجاهات صوفية واضحة، وأصبحت للتشيع صورتان أو نسختان وهو ما اشار اليه تحديداً بعض المفكرين[٢]، فهناك تشيع علوي وتشيع صفوي والحقيقة ان التشيع الصفوي هو تشيع صوفي ظهر بعد التوافق الذي اشير اليه وهو توافق تم تدريجياً وربما استغرق عقوداً من الزمن، ولعل ابرز معلم في التشيع الصفوي هو غياب الروح الثورية فيه وامكانية مهادنته مع الحكومات، ومن المفيد ان نورد المقارنة التي اثبتها كتاب «تشيع علوي وتشيع صفوي» في صفحاته الاخيرة[٣].

---

[١] المصدر السابق: ص ٥٢٧.

[٢] انظر شريعتي، التشيع العلوي والتشيع الصفوى.

[٣] التشيع العلوي:

الوصاية: هي توصية من النبي بأمر من الله لتشخيص الفرد الأصلح طبق معياري العلم والتقوى.

الامامة: القيادة الثورية النزيهة الهادفة لهداية الناس وبناء المجتمع بناء سليماً والارتقاء به الى مستوى الطموح والنضج والاستقلال وتربية (الانسان المافوق) لكي يمثل التطبيق الحسي للدين ولكي يتسنى للآخرين التأسي به والاقتداء بسيرته.

العصمة: الايمان بنزاهة وتقوى رواد المجتمع على الصعيد الفكري والاجتماعي وكونهم أئمة مسؤولون عن صيانة ايمان الناس وقيادتهم بالعدل ونبذ الظلم والخيانة والتبعية لعلماء الفساد وعملاء الاجهزة الحاكمة.

الولاية: وتعني المحبة والقيادة وقبول حكومة علي واتباع علي دون غيرهم.

وحب علي لانه المثال الأسمى للعبودية، ولان قيادته للمجتمع ستكون مصباح النجاة، ولأن حكومته كانت وما تزال تمثل أمل الانسانية.

الشفاعة: هي سبب لكسب استحقاق النجاة.

الاجتهاد: سبب لبقاء الدين متحركاً وحيّاً ونابضاً في مختلف الأزمنة ومواكباً لحركة التاريخ وتكامل الرؤية الدينية ومواءمة تحولات النظام الاجتماعي البشري.

التقليد: علاقة طبيعية ومنطقية بين العالم والجاهل والمتخصص وغير المتخصص في مجال الاحكام القضائية والشرعية ذات الطابع الفني التفصيلي.

العدل: وهي عقيدة ان الله عادل وان نظام الوجود قائم على اساس العدل وكذلك نظام المجتمع والحياة، وان الظلم والتمييز هو مظهر غير طبيعي ويتنافى مع الغرض الالهي، وان العدل هو احدى دعامتي المذهب وهو هدف الرسالة وشعار الاسلام الكبير.

الدعاء: هو نص تعليمي تربوي يربي الانسان على الفضائل، وهو ممارسة عملية تكسب الروح صفاءً ومعنوية وتعرج بها الى مقامات القرب الإلهي.

الانتظار: استعداد روحي وعملي واعتقادي للإصلاح والثورة على الوضع الفاسد، وقناعة راسخة بأن الظلم يزول وان الحق سينتصر لامحالة وان الأرض يرثها المستضعفون وأهل الصلاح.

الغيبة: تحمّل الناس انفسهم لمهمة تحديد المصير وقيادة المجتمع معنوياً ومادياً، وانتخاب الفرد الأصلح ليقوم بمهام النيابة عن الإمام الغائب.

التشيع العلوي: هو تشيع الحب والمعرفة، التشيع العلوي تشيع السنة، التشيع العلوي تشيع الوحدة، التشيع العلوي تشيع العدل، (العدل الاجتماعي في المجتمع والحياة)، التشيع العلوي تشيع السماء، التشيع العلوي تشيع الاقتداء، التشيع العلوي تشيع الاجتهاد، التشيع العلوي تشيع المسؤولية، التشيع العلوي تشيع الحرية، التشيع العلوي تشيع ثورة كربلاء، التشيع العلوي تشيع الشهادة، التشيع العلوي تشيع التوسل لأجل التكامل، التشيع العلوي تشيع التوحيد، التشيع العلوي تشيع الاختيار، التشيع العلوي تشيع نصرة الحسين، التشيع العلوي تشيع الانسانية، التشيع العلوي تشيع الإمامة العلوية، التشيع العلوي تشيع الانتظار الايجابي، التشيع العلوي تشيع تقية المناضل الشجاع.

التشيع العلوي، تشيع (لا).

في التشيع الصفوي:

الوصاية: هي قاعدة تنصيب وراثي وسلالي للحكم على اساس العنصر والقرابة.

الإمامة: هي الاعتقاد باثني عشر إماماً معصوماً مقدساً من عالم (مافوق الإنسان) وهم الوسيلة الوحيدة للتقرب الى الله والتوسل به والاستشفاع اليه، وهم اثنا عشر ملاكاً غيبياً يلعبون دور الآلهة الصغار ويدورون حول إله السماء الكبير.

العصمة: وهي تعبر عن وجود ذوات استثنائية وموجودات غيبية ليس من صنف البشر المخلوق من الطين، وليس بوسعهم ارتكاب المعاصي والأخطاء، والايمان بان المعصومين الأربعة عشر هم جميعاً كذلك. وبالتالي فان الخيانة والظلم من غير هؤلاء المعصومين تعدّ امراً وارداً ولا محيص عنه!

وما يؤيد هذه الرؤية هو اشتداد حدة المواجهة بين الفقهاء والصوفية بعد انتصار الثورة الاسلامية في ايران ١٩٧٩م وبخاصة في السنوات الاولىٰ التي شهدت تنامي الشريحة الثورية وزعامة الفقهاء ولكن ما أن تراجع المد الثوري وتحولت الثورة الىٰ مؤسسات (حكومية) حتىٰ بدأنا نشهد حالة من التصالح والتوافق، فالحكومة الجديدة رأت من مصلحتها

الولاية: الاقتصار على حبّ عليّ والتهرب من كافة المسؤوليات وذلك كفيل بضمان الفوز بالجنة والنجاة من النار. مضافاً الى الاعتقاد بان الولاية ليست من شؤون الناس والمجتمع بل هي شأن الهي له صلة بخلق الكائنات وادارتها.

الشفاعة: طريق لنجاة غير المتسحق!

الاجتهاد: عنصر تحجر وجمود وحيلولة دون التقدم والتطور والتجديد، واداة للتكفير والتفسيق وشجب وادانة لكل تحرك جديد أو كلام جديد او اسلوب جديد في فهم الدين ونظم الحياة على الأصعدة الفكرية والعلمية والاجتماعية وغيرها.

التقليد: وهوالطاعة العمياء والتبعية المطلقة لـــ (الروحاني) في قناعاته وتصرفاته وفتاواه وبالتعبير القرآني عبادة الأحبار والرهبان.

العدل: هو بحث علمي في باب الصفات الإلهية يرتبط بما بعد الموت وتوقع الكيفية التي سيحكم بها الله بين عباده يوم القيامة، ولا صلة له بما قبل الموت، فالعدل في هذا العالم هو مهمة الشاه عباس ومن لفّ لفه، ما لله لله وما لقيصر لقيصر، والدنيا تقع ضمن دائرة سلطنة الشاه عباس، وليس لله سوى الآخرة.

الدعاء: هو مجموعة من الاوراد والأذكار، اذا حملها الانسان او تلاها تكفيه مؤونة السعي وراء رزقه وتحمل مسؤولياته، وتمنحه ثواباً وعطاء في الدنيا والآخرة دون الحاجة الى العمل أو التفكير.

الانتظار: تلقين على الرضوخ والاستسلام للوضع القائم وتبرير لفساد الاوضاع ويأس من امكانية إصلاحها وادانة كل خطوة في هذا الاتجاه، والانتظار السلبي لظهور المصلح الكبير.

الغيبة: سلب المسؤوليات وتعطيل الأحكام الاجتماعية للإسلام والتملّص من مواجهة المسؤولية تحت ذريعة عدم جدوى العمل والتغيير لان الامام هو الوحيد القادر على إصلاح ما فسد وكل ما سوى ذلك هباء، ولا يجوز العمل الا بحضور الامام، حيث انه غائب فلا مشروعية لكل شيء!

التشيع الصفوي: تشيع الجهل ، التشيع الصفوي تشيع البدعة، التشيع الصفوي تشيع الفرقة، التشيع الصفوي تشيع العدل! (العدل الفلسفي لما بعد الموت)، التشيع الصفوي تشيع الاسم، التشيع الصفوي تشيع المدح والثناء، التشيع الصفوي تشيع الجمود، التشيع الصفوي تشيع تعطيل المسؤوليات، التشيع الصفوي تشيع العبودية، التشيع الصفوي تشيع مصيبة كربلاء، التشيع الصفوي تشيع الموت، التشيع الصفوي تشيع التوسل لأجل الخداع، التشيع الصفوي تشيع الشرك، التشيع الصفوي تشيع الجبر، التشيع الصفوي تشيع ندب الحسين، التشيع الصفوي تشيع القومية، التشيع الصفوي تشيع السلطنة الصفوية، التشيع الصفوي تشيع الانتظار السلبي، التشيع الصفوي تشيع تقية الخامل الجبان.

والتشيع الصفوي تشيع (نعم)!

الانسجام مع التفكير الصوفي أو النسخة الصوفية؛ للتشيع والصوفية لم تر غباراً في مغازلة الحكام الجدد كما هو الحال مع الحكومات السابقة، ولكن الىٰ أي مدى ستستمر هذه الحالة من التفاهم؟ اذا كان التاريخ يعيد نفسه حقاً فان ظهور فقهاء وعلماء يرفعون راية تفسير التدين بما يقدمه المرء من خدمة للناس باعتبار ان الخلق عيال الله وحيث الفقه والعلم الذي يجب ان يتضمن بعداً اخلاقياً في مسؤولية الانسان العالم عن مصير الأمة.

ان ظهور هؤلاء العلماء سيكون أمراً حتمياً وبالتالي فان استمرار الصراع الفكري سيكون امراً لامفر منه.

ومن المؤكد ان النسيج الفكري للمذهب الشيعى وطبيعة مكوناته والارث التاريخي العميق يتضمن ارضية لصراع داخلي له ايجابياته الكثيرة في انضاج افكاره وضمان حيويته ومواكبته لحركة الزمن ومسار العصور.

وماتزال مسألة الحكم في عصور الغيبة ومشاركة العلماء السياسية والادارية من المسائل التي لم تحسم بعد وماتزال تحمل قابلية استمرارها كمسائل لا يمكن حسمها، حتىٰ ظهور مرجعية مطلقة يحنو لها الجميع.

وأرى ختاماً لهذا الفصل ان اورد نص رسالة الحر العاملي في استعمال التبغ والتدخين وحواره مع شاه سليمان، واذا كانت العبرة بالنتائج فاننا نرى ان المجتمع الايراني يحاول تشجيع تيار فقهي بما يحقق رغباته وسنرى ان الفقه سيبيح ليس التدخين وحده بل وحتىٰ مايعرف في ايران بالترياك وهو نوع من المخدرات ومن المفارقات ان المجتهد الذي تقلده الأمة في أحكام الشريعة يقلد هو الأمة في حقيقة الأمر إما مجاملة للرأي العام أو لنشوئه في بيئة لاتستنكر بعض هذه الممارسات.

رسالة الشيخ الحر العاملي في التدخين وحواره مع شاه سليمان:

اعلم ان بعض المتأخرين[١] من علمائنا ذهب الىٰ تحريم شرب التُتُن وألّف في ذلك رسالة استدل فيها بوجوه:

الأوّل: انه من الخبائث التي تدل على تحريمها الكتاب، قال: والخبيث ما استخبثته الطبائع

---

[١] المقصود علي نقي كمره اى عالم شيعي في العهد الصفوي.

السليمة المستقيمة وتنفر عنه ابتداءً قبل اعتياده وادمانه يُتوقع نفعه بتسويل الشيطان عدوّ الإنسان وكون الدخان كذلك في عهدة الإنصاف والوجدان.

الثاني: انه من نزعات الشيطان بشهادة شدة رغبة طباع البطلة والجهلة والفساق وملازمتهم في اكثر الازمان المجالس وبه حصل التزايد في الفسق والفساد واستعمال آنية الذهب والفضة وقسوة القلوب الىٰ غير ذلك. والدخان المذكور انما حدث ابتداءً من الكفار ومشركي الفرنج، ثم من المخالفين، ثم من المستضعفين الذين ازلهم الشيطان عن قبحه، وقد قال الله تعالىٰ:(لاتتبعوا خطوات الشيطان)[١]، وفي الحديث القدسي: «ولاتسلكوا مسالك اعدائي، فتكونوا اعدائي كما هم اعدائي»[٢].

الثالث: قاعدة الضرر المنفي فان كل من ادمنه يخبر بضرره وكذا الاطباء وقد صرح الصادق(عليه السلام) بان الضرر علة الحرمة بقوله: «ان الله تعالىٰ خلق الخلق» الىٰ ان قال: «وعلم ما يضرهم، فنهاهم عنه وحرّمه عليهم، ثم اباحه للمضطر بقدر البلغة لا غير ذلك»[٣].

وقال(عليه السلام) أيضاً:«انما الإسراف بما اتلف المال واضر بالبدن والإسراف حرام بل كبيرة بقوله تعالىٰ: ان المسرفين هم أصحاب النار»[٤].

الرابع: ضياع المال بسبب، من دون أن يترتب عليه نفع يعتد به واضاعة المال منهي عنه. قال أبو الحسن(عليه السلام): ان الله نهى عن القيل والقال واضاعة المال وكثرة السؤال[٥].

الخامس: انه تشبه بالمزمار[٦] وقد مرّ في الحديث القدسي: ولاتَسلكوا ماسلك أعدائي فتكونوا أعدائي. وقال الشهيد في «قواعد»: ذكر (بعض) الاصحاب[٧] انه لو شرب المباح

---

[١] البقرة: ١٦٨، ٢٠٨. انعام: ١٤٢.

[٢] مستدرك الوسائل: ج٣، ص ٢٤٨، ج ١٦، ص ٢٠٨.

[٣] الكليني، الكافي: ج٦، ص ٢٤٢.

[٤] الكليني: ج٤، ص ٥٣ ؛ سورة غافر: ٤٣.

[٥] الكليني: ج١، ص ٦٠.

[٦] في الأصل بالزمار.

[٧] أبو الصلاح الحلبي.

شبيهاً بشارب المسكر فعل حراماً لا بمجرد النية بل بانضمام فعل الجوارح[١] وقد مرّ ورود النهي عن مجالسة أهل المعاصي ومصاحبة أهل الريب والبدع، لئلا يصير الإنسان شبيهاً بهم كواحد منهم. وفي الاحاديث الصحيحة دلالة على تحريم التشبيه بفاعل المحرم.

السادس: انه تفاؤل بدخان مبين يغشى الناس وسعير الجحيم، نعوذ بالله منه. وقال «الطبرسي» في سورة الرحمن: وقد عد من اشراط الساعة الدخان وأورد فيه حديثاً.

السابع: انه لغو، فان المروة توجب القاءه[٢] واطراحه، والإعراض عن اللغو واجب بنص القرآن، ثم أورد كلام ملا احمد في آيات «آيات الاحكام» الىٰ قال: وقد و صف سبحانه طعام أهل النار بانه «لايسمن ولايغني من جوع» وفيه تأييد للحرام.

الثامن: سلوك سبيل الاحتياط وسلوك سبيله في ما نحن فيه واجب لقوله: «حلال بيّن وحرام بيّن وشبهات بين ذلك، فمن ترك الشبهات نجى من المحرمات ومن أخذ بالشبهات ارتكب المحرمات وهلك من حيث لايعلم»[٣] ولاريب ان شرب الدخان المذكور ليس من الحلال البيّن مع ظهور خبثه، فتركه واجب، وقال(عليه السلام): «دع ما يريبك الىٰ ما لا يريبك»[٤].

التاسع: وجوب اجتناب أكل الرماد، فان الدخان المذكور لاينفك عنه اصلاً قطعاً وادمانه يدخل في الحلق غالباً، ولما كان أكل التراب حراماً بالنص والاجماع، كان أكل الرماد لكونه خبيثاً بالحرمة أولىٰ و (ليس) تحريم شرب الدخان المذكور على الصائم بالغبار كما ظن، بل من باب تعمد شرب الدخان المشتمل على الرماد الذي في معنىٰ أكل التراب المحرّم والرماد موجود في ماء الغليان وقصبته الىٰ آخرها.

العاشر: انه من محدثات الامور بعد عهد النبي(صلى الله عليه وآله) وقد قال: «شر الامور محدثاتها»[٥] رواه الصدوق في «الفقيه» وغيره، فيكون بدعة. وقد قال(عليه السلام): «كل

---

[١] الشهيد الأوّل، القواعد والفوائد: ج١، ص ١٠٧.

[٢] في الاصل القاه.

[٣] الكليني: ج١، ص ٦٨.

[٤] ابن اثير، النهاية: ج٢، ص ٢٨٦، ذيل مادة «ريب».

[٥] المجلسي، بحار الانوار: ج٢، ص ٢٦٣.

بدعة ضلالة وكل ضلالة سبيلها الىٰ النار»[١].

الحادي عشر: كونه قبيحاً مذموماً عند كافة المسلمين من مدمنيهم[٢] وغيرهم حتىٰ نظمه حكيم الشعراء – ثم ذكر اشعاره – وقد نقل العلامة في «نهاية الاصول» عنه(عليه السلام) انه قال: «ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند الله قبيح»[٣].

الثاني عشر: اعتبار اولي الأبصار امتثالاً لأمر: «فاعتبروا يا أولي الابصار»[٤]ومعلوم انّ صلاح الإنسان في التنزل والتسفل الىٰ خروج القائم(عليه السلام)، لا يكون الا على رأس شرار الناس كما اخبر به الصادق(عليه السلام) وقد بعث الله الانبياء والرسل في كل زمان يعبرون عنه الىٰ خلقه وعباده ويدلونهم على مصالحهم، فلو كان في شرب الدخان صلاح وخير لهم لكان شائعاً ومعمولاً في الأزمنة الخالية اكثر من هذا الزمان، ولما لم يكن كذلك، ظهر انه من شرور الامور المحدثة المتزايدة في آخر الزمان.

ثم شرع في ذكر شأن المتقين وطريقهم والزهد والورع والاحتياط وذكر الآيات والروايات مُلّخصاً[٥] مختصراً.

الكلام في حرمة القهوة

وبعض علمائنا المتأخرين ذهب الىٰ تحريم القهوة المعمولة من البن وألّف في ذلك رسالة استدلّ فيها بالوجوه السابقة بأدنى تغير وزاد فيها ان استدل بأنها في الغالب تحترق حتىٰ يصير أكثرها فحماً والفحم من الخبائث؛ واعترض على نفسه بان فيها منافع كثيرة يدّعيها شرابها كلّهم وأكثرهم.

وأجاب بوجوه: منها أن وجود المنافع لايستلزم كون الشي من الطيبات، فان الخمر فيها

---

[١] م. ن، ج٢، ص ٣٠٣.

[٢] ربما: مؤمنيهم.

[٣] المجلسي، بحار الانوار: ج٤٩، ٢٠٢.

[٤] الحشر: ٢.

[٥] في الأصل كمحضاً.

من منافع بنص القرآن ولايلزم كونها من الطيبات، ومنها ان المنافع معارضة[١] بالمضار واكثر الاطباء على انها باردة يابسة وانـها تنقص القوة ويحصل منها جهة من المضار والمفاسد ومنها ان المنافع التي يدعونها انه من الماء الحار لما رواه الكليني في «الروضة» عن أبي عبدالله(عليه السلام)قال: «مادخل جوف الإنسان شيء أنفع له من ثلاثة أشياء، الماء الفاتر[٢] والرمان الحلو والحجامة»[٣] واستدل أيضاً بما رواه الطبرسي في «مكارم الأخلاق» في آخره عن ابن مسعودج عن النبي(صلى الله عليه وآله)في وصية له طويلة قال: «سيأتي أقوام يأكلون طيب من الطعام وألوانها ويركبون الدواب ويتزينون زينة المرأة لزوجها ويتبرجون تبرج النساء زيهم مثل زي الملوك الجبابرة، هم منافقو هذه الأمة في آخر الزمان، شاربون بالقهوات لاعبون بالكعاب، راكبون الشهوات تاركون الجماعات راقدون عن العتمات مفرطون في الغدوات، يقول الله سبحانه وتعالىٰ:(فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة وأتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً)[٤].

واعترض صاحب الرسالة على نفسه بوجهين: احدهما ان القهوة من اسماء الخمر ولها اسماء كثيرة تبلغ الف اسم كما ذكره علماء اللغة، منها القهوة. فلعل المراد بها الخمر فلادلالة على قهوة البن لبقاء الاحتمال. وثانيهما انه يدل على الذم لا على التحريم، فلعلها مكروهة غير محرمة، بل لعل الذم متوجه الىٰ المجموع لا الىٰ كل واحد.

وأجاب عن الأوّل بوجه: منها ان «قوله سيأتي» وقوله «في آخر الزمان» يدلان على انه ليس المراد الخمر، لوجودها في زمانه(عليه السلام) وقبله وكثرة شربهم لها. ومنها قوله بالقهوات والجمع يدل على العموم هنا، فدخلت قهوة البن ان لم يكن مراده وحدها، لدخولها في افراد العام. ومنه ان تحريم الخمر كان معلوماً عند ابن مسعود وأمثاله، فتعين المعنىٰ الآخر لان التأسيس اولىٰ من التأكيد صوناً لكلام المعصوم عن الخلو عن الفائدة.

وأجاب عن الثاني بأنه يشتمل على الذم البليغ والتشديد والتهديد المفهوم من الآية

---

[١] في الاصل عارضة.

[٢] الماء لاهو حار ولا هو بارد.

[٣] المجلسي، بحار الانوار: ج٦٦، ص ٦٤، ٦٥، ٤٥٣.

[٤] المصدر: ج٧٤، ص ٩٨.

بقوله: (فسوف يلقون غياً) وذلك دليل التحريم لا الكراهية. وأيضاً فالأمور المذكورة اكثرها محرم والباقي أكثر، افراده محرم وينبغي كون الجميع على نسق واحد، فلا وجه لذكر المكروه بينها ولا لتعلق الذم بالمجموع لا بكل فرد، فإنه لايجوز من مثله(عليه السلام)الذم على ما لايخالف الشرع؛ والعجب أن ذم العقلاء دليل على القبيح والتحريم العقلي وذم الشارع لا يكون دليلاً على القبيح والتحريم الشرعي.

ثم اعترض صاحب الرسالة بان هذه الوجوه الأربعة عشر فيها احتمال، واذا قام الإحتمال بطل الإستدلال.

وأجاب بان الإحتمال الضعيف لايضر تمامية الدليل والا لم يبق دليل قام، الا ترى الىٰ ادلة الاصول والفروع لاتخلو من احتمالات اقوى مما اشير اليه وأيضاً فان كثرتها وتعاضدها يرد الإحتمال ويحصل منه القوة. وأيضاً فانه لامعارض لها يقاومها عند الإنصاف ولو جهد المستدلّ على الإباحة ولم يجد الا دليلاً عاماً يعارضه الادلة العامة والخاصة، فالعام يقاومه والخاص يخصصه والاحتياط يخالفه ولولا معارضة العادة والشهرة بين العوام لما توقف احد من قبول أدلتنا فان المحرمات أدلة تحريمها منها ما يدل على المرجوحية والذم ومنها ما يدل على المنع من العقل وحقيقة التحريم مركبة من القيدين وكذا ادلة الوجوب منها ما دل على الرجحان ومنها ما دل على المنع من الترك والادلة على المنع في المقامين أقل من الأدلة على الرجحان والمرجوحية والله اعلم.

انتهى ما نقلناه من الرسالة ملخصاً مختصراً، وأطال الكلام في آخرها في الورع والتقوى والاحتياط وجعله مؤيداً لادلته. وقد روى الكراجكي[1] في كتاب «معدن الجواهر ورياضة الخواطر» قال: قال النبي(صلى الله عليه وآله): «خمسة لاينظر الله اليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولهم عذاب أليم وهم النائمون عن العتمات... والغافلون عن الغدوات واللاعبون بالشامات والشاربون بالقهوات والمتفكهون بشتم الآباء والأمهات»[2].

أقول: كأن صاحب الرسالة لم يطلع على هذا الحديث في ذلك الوقت وهو أوضح دلالة على التحريم لولا ما مر في لفظ القهوات. فهذه خمسة عشر دليلاً في تحريم القهوة ولا يخفى

---

[1] ابو الفتوح محمد بن عثمان الكراجكي المتوفى سنة ٤٤٩ هـ .

[2] مستدرك الوسائل: ج١١، ص ٣٧٧.

انه مع تعارض الادلة او عد الدليل بالكلية لا طريق أسلم ولا أقرب الىٰ النجاة من التوقف والاحتياط في الدين الا ان الاحتياط يقتضي الترك مع عدم الجزم بالتحريم وبالكراهية لاحتمال تحريم الخبر بذلك، بل قيام الدليل على عدم جواز القول بغير علم. وكذا لاينبغي الجزم بالإباحة ولايجوز النهي عن مثل ذلك ولا الحكم بفسق قائله، لاحتمال كونه غافلاً عن ذلك فلا يكون مكلفاً بدلالة العقل والنقل ولإحتمال كونه قد عرف الإباحة بدليل تام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشروطان بدلالة العقل والنقل والمفروض عدم العلم إما لعدم الدليل أو تعارض الادلة.

وقد سألني الملك الاعظم اشرف ملوك العالم أيده الله تعالىٰ عن سبب عدم شربي القهوة والتتن.

فأجبته: انهما لايوافقان مزاجي ولا يلايمان طبيعتي، كراهة للبحث والخوض في المسائل الشرعية التي لها أدلة واضحة.

فقال: قد بلغني انك تتشكلهما وتحتاط في تركهما.

فقلت: نعم، الأمر كذلك، لكني لا أجزم بالتحريم ولا الكراهة، لعدم دليل واضح ظاهر.

فقال: ولاتجزم بالإباحة؟

فقلت: لا، لعدم الدليل أيضاً إذ لو لم يكونا في زمن النبي(صلى الله عليه وآله) ولا في زمن الائمة(عليهم السلام)، فليس فيهما نص خاص والعمومات متعارضة وأرى الإحتياط أولىٰ.

فقال: هذا الإحتياط واجب أم مستحب؟

فقلت: اختلف علماؤنا في ذلك على قولين واتفقوا على رجحان الإحتياط سواء كان واجباً أم مستحباً، قد أتيت به.

فقال: أوليس الأصل[1] الإباحة؟

فقلت: هذه مسألة اخلاقية وقد جمعوا على رجحان التوقف والإحتياط وعدم الجزم بالتحريم والاباحة مثله. فاستحسن الجواب واستصوب الإحتياط.

---

[1] في الاصل للاصل

الفصل الثامن

نحو السقوط

عهد شاه سلطان حسين

(١١٠٦ ـ ١١٣٥ هـ)

ظهرت آمارات الضعف والاضمحلال في جسم الدولة الصفوية مع تسنم شاه سلطان حسين زمام البلاد في أواخر سنة ١١٠٦ هـ .

وكان من الممكن ان يكون عهده امتداداً لعهد شاه سليمان، فكلاهما كان محرومين من ادنى صفات القيادة والادارة، لكن عهد شاه سلطان حسين امتاز بتنامي الخطر الخارجي في الشرق وبالتحديد الخطر الافغاني الذي كان يتفاقم يوماً بعد آخر ؛ فيما كان شاه سلطان حسين مستغرقاً في لذائذه ولياليه الحمراء ورحلات الصيد مع الغيد الحسان وقد ارهقت نفقاته خزانة الدولة وكان الشعب يدفع ثمن ذلك .

ولقد كان بالامكان صد الخطر ودفع العدوان ولكن شخصية منهارة وضعيفة وخائرة مثل شاه سلطان حسين لم تكن مؤهلة لانقاذ البلاد من الخطر ولم يكن الذين يحيطون به من قادة ومسؤولين بأسمى منه، لقد كانوا أناساً فاسدين لاهم لهم سوى جمع الاموال بشتى الطرق والحصول على المزيد من النفوذ في دولة كانت تتآكل من الداخل وتواجه اخطاراً مصيرية في الخارج، لقد قال القدر كلمته ولم يعد هناك مناص من سقوط الدولة الصفوية بعد قرنين من الزمن .



حكومة سلطان حسين

في الخامس من ذي الحجة سنة ١١٠٥ هـ توفي شاه سليمان في العاصمة اصفهان، ليخلفه على العرش ابنه سلطان حسين وهو في السادسة والعشرين من عمره ولم يكن يدري انه سيكون آخر ملوك الصفويين.

لم يكن يدري وهو يضع تاج الملك على رأسه انه سوف يسلم التاج والعرش والبلاد للفاتح الافغاني محمود وذلك بتاريخ ١٥ محرم ١١٣٥ هـ.

تمت مراسم التتويج بحضور الامراء والقادة وأعيان البلاد، وقد قام العلامة المجلسي بتتويج سلطان حسين باعتباره شيخ الاسلام، الذي هو أرفع منصب ديني في البلاد وبهذه الخطوة يكون علماء الشيعة قد اعترفوا بشكل رسمي واضح وصريح وقوي في نفس الوقت بمشروعية الحكم الصفوي.

وقام شيخ الاسلام بتقليد الملك الجديد السيف وهي مهمة كان يقوم بها قائد رفيع من القزلباش.

وفي هذه اللحظات طلب الشاه من المجلسي، فيما اذا كان عنده ما يقول في هذه المناسبة

فأشار المجلسي الىٰ مسألة معاقرة الخمر في البلاط وانتشار هذه الظاهرة في صفوف المجتمع الايراني وانه ينبغي مكافحة هذه الآفة وقد وافق الشاه على الفور.

لم يكن سلطان حسين ولا حتىٰ والده قد حظيا بتربية تعدّهما لهذه المسؤولية، فشاه سليمان يمكن ان يقال انه خريج جناح الحريم في القصر والابن على سر ابيه نشأ بعيداً عن هموم الملك والحكم وكان اللهو والصيد والليالي الحمراء هي ذروة ما كان يصبو اليه. ولهذا ظل المتنفذون في الحكم من قادة عسكريين ودينيين يسيّرون البلاد وفق مصالحهم واهوائهم بل زاد نفوذهم. كما ظهرت في عهد شاه سلطان حسين طبقة جديدة تتألف من خصيان القصر في جناح الحريم راحوا يلعبون دوراً في ادارة دفّة الدولة.

وقد ساعدت شخصية سلطان حسين الضعيفة على استشراء هذه الظاهرة؛ على الرغم مما عرف عنه ايضاً بانه كان في حياته الشخصية متديناً. وانطلاقاً من هذا فقد كان يتعاطف مع الاجراءات التي تهدف الىٰ تطويق الفساد الاخلاقي.



وكان أول اجراء كما ذكرنا اصداره فرمان منع تعاطي الخمرة ما أثار ضجة المسؤولين الحكوميين الذين افتعلوا ازمة محذرين البلاط الملكي من مغبة ذلك؛ لما يسببه الفرمان من حرمان الدولة من الضرائب التي تجنيها من محلات وحانات الخمور وهذا يعني خسارة مالية وإضرار باقتصاد البلاد.

وقد وقف المجلسي الىٰ جانب الشاه في اصداره بيانات مؤيدة غير ان الانحطاط الاجتماعي وما وصلت اليه ثقافة المجتمع من تدهور على الصعيد الاخلاقي، جعل الشعب لايستسيغ مثل هذه الاجراءات، لقد ولىٰ عهد الملك القوي الذي يمكنه ان يغير كل شيء بجرّة قلم كما يقال.



التحولات السياسية

كانت اولىٰ اجراءات العهد الجديد على صعيد الامن السياسي هو قمع القوميات القاطنة في شرق البلاد وبالتحديد العنصر البلوشي وقد بدأت قبائل من البلوش حالات من التمرد

منذ اواخر عهد شاه سليمان. وشملت حملات التأديب بعض القبائل الافغانية أيضاً وكانت القلاقل قد بدأت تمتد من كرمان القريبة من اصفهان وحتىٰ مدينة قندهار التي ستصبح مركز الخطر القادم.

وكانت الحملات العسكرية تحاول اخماد الفتن والقلاقل ولكنها لاتعالج المشكلات الاساسية مما جعل أرضية التمرد ملتهبة على الدوام، بالرغم من الهدوء النسبي الذي يعم المناطق التي تطالها الحملات التأديبية.

وقد اتهم بعض القادة العسكريين بالتعاطف مع المتمردين وصودرت أموالهم.

وقد بدأ المتمردون في تلك النواحي يغيرون على مناطق ومدن، مثل يزد فينهبون ويقتلون ويأسرون كما حصل في سنة ١١٠٨ هـ عندما أُسر مايقارب الثمانمائة شخص في مدينة يزد .

وتعد هذه القلاقل المستمرة في الواقع تمهيداً للهجوم الافغاني الكبير الذي اطاح بالكيان الصفوي. ويبدو ان الدولة قد بدأت تتطبع على هذه الاوضاع ولم تكن تبدي الحساسية المطلوبة ولعل اولىٰ مؤشرات الخطر الافغاني حدثت سنة ١١٢١ عندما قام ميرويس الافغاني بقتل حاكم قندهار والسيطرة على المدينة.

وتزامناً مع القلاقل في الشرق بدأت الاضطرابات في الغرب وخاصة في اقليم كردستان. كما بدأ الاوزبك يغيرون على اقليم خراسان الذي نعم بفترة طويلة من الهدوء، ففي عام ١١٢٢ اغار الاوزبك على هذا الاقليم وقتلوا ونهبوا وأسروا، وهكذا نكتشف ان المناطق السنية بدأت تتململ من الحكم الشيعي وتحاول التمرد عليه ما ينذر بوقوع حروب طائفية جديدة، هذا فيما بدأ الخوارج في عمان غاراتهم على البحرين الخاضعة للنفوذ الصفوي، بل ووصلت غاراتهم المناطق الجنوبية من ايران والحقوا اضراراً بالموانىء وكانت القوة البحرية لعمان تنمو باضطراد وتشكل تهديداً للأمن التجاري في تلك الشواطىء.

ومن المدهش ان التقارير التي تصل الىٰ البلاط لم تكن تلقى الاهتمام بل كانت تواجه باللامبالاة وكان المسؤولين اما منهمكين بمتعهم أو يتسابقون على النفوذ، وقد تعرض شيعة البحرين الىٰ اضطهاد واسع من الخوارج ما جعل شيخ الاسلام في تلك الانحاء يستغيث بالبلاط الصفوي محاولاً استثارة احساسه بالخطر، ذلك ان الخوارج قطعوا طريق الحج على

القادمين من ايران والهند.

وبسببب عدم امتلاك الدولة الصفوية قوّة بحرية تؤهلها لمعالجة الخطر فقد ارتأت الاستعانة بالسفن الحربية البرتغالية وسفن النقل وقد طلب البرتغاليون أموالاً لقاء هذه الخدمات، ويبدو ان القائد الصفوي رفض ذلك وقد اكتشف الخوارج ضعف القرار الصفوي بعد ما لجأت الدولة بعد ذلك الىٰ فرنسا لاستئجار بعض السفن الحربية من اجل اعادة الامن الىٰ هذه المناطق فيما كانت المفاوضات تجري بين الطرفين كانت فرنسا تفاوض عمان؛ أي انـها كانت تلعب على البلاط الصفوي.

ولم تمثل الدولة العثمانية اي تهديد للصفويين لانشغالها في الحرب مع اوربا وكذلك اندلاع الازمات في الاقاليم العربية الخاضعة لنفوذها. وكذلك تحدثت تقارير سرية عن احتمال تصعيد على الحدود الروسية العثمانية، ولكن الروس فيما يبدو قد التفتوا الىٰ ضعف الدولة الصفوية وراحوا يخططون للنفوذ والتمهيد للاستيلاء على مناطق الشمال الايراني.

اما على صعيد العلاقات مع فرنسا فقد سعت الاخيرة الىٰ توسيع نشاطها التجاري مع ايران وهي خطوة بدأت في اواخر عهد شاه سليمان وقد بعث شاه سلطان حسين برسالة الىٰ لويس الرابع عشر من اجل ان يرسل سفيراً الىٰ ايران وقد اثارت هذه الرساة مخاوف الانگليز والهولنديين ولهذا قاموا بعرقلة وصول الرسالة الىٰ باريس. ورد الفرنسيون بارسال وفد الىٰ ايران لاقى هو الآخر متاعب قبل ان يحظى بلقاء الشاه، وقد قوبل الوفد بجفاوة بالغة ونجم عن الحوار توقيع اتفاق للعلاقات بين البلدين حصلت فيه فرنسا فيما حصلت على سماح للمبشرين بالنشاط والعمل بشرط عدم قيامهم باعمال تتنافي مع الدين الاسلامي والمذهب الامامي الاثني عشري، كل هذا من اجل ان تحصل ايران على معونات عسكرية لمواجهة التهديد العماني، وبسبب احجام الانگليز والهولنديين عن مساعدة ايران في مواجهتها عمان حاول شاه سلطان الحصول على مساعدة من فرنسا بأسرع ما يمكن ولهذا طلب من حاكم يرفان ان يرسل سفيراً الىٰ فرنسا. وقد تم اختيار محمد رضا بيك ليحمل هدايا الشاه الىٰ ملك فرنسا بغية تعزيز العلاقات الثنائية.

وقد أدّت العراقيل التي وضعتها كل من بريطانيا وهولندا الىٰ ان يستغرق عبور السفير الاراضي العثمانية مدة ستة اشهر.

وقد استقبل سفير ايران في البلاط الفرنسي باحترام نظراً للاهمية التي تحظى بها ايران.

غير ان السفير الصفوي ارتكب خطأ دبلوماسياً فاحشاً عندما رفض النهوض لممثل الملك الفرنسي مبرراً ذلك بانه لن ينهض لمسيحي وقد اثار تصرفه وتصرفات أخرى حساسية الفرنسيين.

وعى كل حال تم اللقاء مع لويس الرابع عشر الذي ظهرت عليه علامات الشيخوخة ومع ذلك فقد نهض لسفير ايران ورفع له قبعته احتراماً.

والقى سفير ايران كلمة حول اهداف زيارته بعدها انتخب الملك عدة من المسؤولين للتفاوض مع السفير الصفوي، وقد اصبحت اقامة السفير في باريس موضوعاً لسكانها ذلك ان الأذان يرفع بصوت رفيع وكان البعض يودّ مشاهدة مراسم مغادرة السفير محل اقامته ليراقب عن كثب شكل التشريفات في هكذا مناسبة، وكان الكثيرون من سكان باريس يحرصون على مشاهدتها وتطورت الامور لتدخل فصلاً مثيراً عندما عشقت فتاة فرنسية في السابعة عشرة من عمرها السفير الصفوي الذي تجاوز الخمسين وتم الزواج!.

واسفرت المفاوضات عن توقيع اتفاق بين البلدين وعندما رام السفير العودة والتقى الملك لويس الرابع عشر للتوديع وجد نفسه قد تعلق بباريس فمدد اقامته ولهذ اضطر للاقتراض من اجل تغطية نفقاته.

وكانت زوجته ومعشوقته قد حملت منه ويبدو ان القوانين في فرنسا تمنع مغادرتها البلاد فاستطاع ان يأخذها سراً ويغادر فرنسا ولكنه وقع في اسر اللصوص وعانى على مدى عام ونصف المشاق الىٰ ان حط رحاله في يرفان وبسبب اضطراره الىٰ بيع هدايا ملك فرنسا لشاه ايران وشعوره بالخزي من هذا العمل اقدم على الانتحار؛ فيما قامت زوجته الفرنسية التي اصبحت في الثامنة عشر من عمرها بايصال الرسالة الىٰ شاه سلطان حسين في اصفهان، لقد كان ذلك في عام ١١٣٤ هـ وكان الحكم الصفوي يلفظ انفاسه الاخيرة واصفهان على وشك السقوط.. ولذا كان جواب الشاه للرسالة اشبه باطلاق سهم في الظلام.

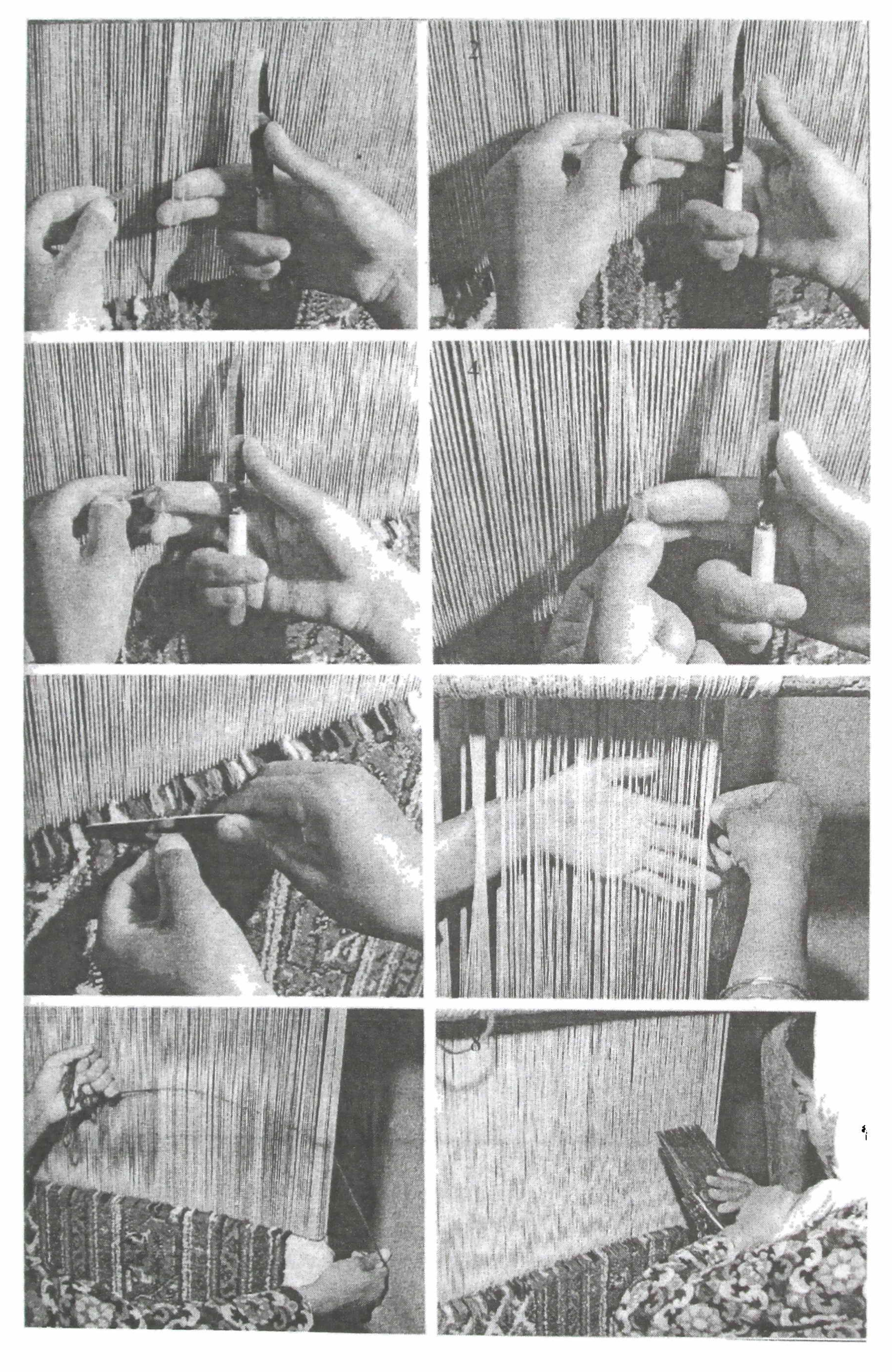
وبسبب ما احدثته سفارة محمد رضا بيگ في باريس من اصداء فقد ذكرها مونتسيكو

مؤلف كتاب روح القوانين في بعض ما تركه من آثار[1].



السجاد الايراني صناعة فريدة

(١) انظر، سقوط اصفهان، بطرس دي سركيس جيلانتز.



طريقة حياكة السجادة عملية تحتاج الى مهارة فائقة وصبر

اشعة الغروب

فيما كانت الاخطار تتفاقم في الداخل والخارج والدولة تتآكل كان شاه سلطان حسين مشغولاً باقامة الاحتفالات في العاصمة اصفهان والتي لم يغادرها الا نادراً حيث يمضي أوقاته في قصور الحريم او في فرح آباد ومن هناك كانت تدار دفة البلاد وقد اشيع عن الشاه في الاوساط الشعبية ان الشاه لايكاد يغادر جناح الحريم.

لقد امضى الشاه وعلى سبيل المثال مدة خسمة أشهر وأياماً في قصر «باغ سعادت» (بستان السعادة) ليغادره الىٰ «باغ هزار جريب» (بستان الألف جريب) ومن هناك يقوم برحلة صيد كان ذلك في عام ١١٠٧ وفي عام ١١١٩ سافر الشاه الىٰ مشهد وقد رافقه في هذه الرحلة ما يناهز الـ ٦٠/٠٠٠!! وقد افلست الخزانة اثر هذه الرحلة وسببت لكثير من الناس اضراراً مباشرة فادحة.

مشاركة العلماء الكبار

في هذه الفترة ظهر معيار لتقوى العالم لقد اصبح التدخل في شؤون الدولة وبشكل خاص في الشؤون السياسية والادارية للبلاد امراً مستهجناً بسبب الفساد الاجتماعي الذي عم مرافق الدولة، هذا بالرغم من حالة التعايش بين الدولة والعلماء الكبار.

ومن المؤكد ان وجود دولة شيعية سيظل في رأي الكثيرين امراً يبعث على الارتياح وقد انقسم العلماء الىٰ فريق ركن الىٰ حياة الرخاء وماتوفره المناصب الدينية من حياة ناعمة وعيش رغيد وفريق يحاول اصلاح الدولة من خلال النقد وتقديم النصح ومن المؤكد ان الفريق الأول قد ابتعد عن التقوى واصبح في اسر الشهوات واللذائذ وهو امر يفرز اوضاعاً خطيرة على الصعيد الاخلاقي لدى عموم الامة والمجتمع انطلاقاً من قول مأثور شاع في أوساط الناس: «اذا زل العالِم زل العالَم».

في عام ١١١٠ هـ توفي العلامة المجلسي واسند المنصب (شيخ الاسلام) الىٰ ملا محمد جعفر االكافي، الذي قضى نحبه في عام ١١١٥ هـ في طريقه الىٰ الحج بالقرب من مدينة النجف الاشرف في العراق، وقد عرض الشاه منصب شيخ الاسلام على عالم معروف في زمانه هو مير محمد باقر خاتون آبادي ولكن الاخير اعتذر فعرض على جمال الخونساري

فرفض هو الآخر، وهكذا اضطر الشاه الىٰ عرضه على علماء من الطراز الثاني والثالث وقد اعتبر موقف الرجلين ذروة الدين وهذه ظاهرة لم تكن معروفة في بدء تأسيس الدولة الصفوية، لقد كانت مشاركة العلماء جادة وواسعة جداً اما في اواخر ونهايات الحكم الصفوي فقد تغيرت المعايير كثيراً، ولاشك ان ممارسات بعض العلماء وانغماس الكثيرين منهم في الدنيا ادى الىٰ ظهور مثل هذه المعايير ليعود مفهوم الزهد بتفسيره الصوفي من جديد موقفاً سلبياً من الحياة. وبطبيعة الحال لم تبرز هذه الامور بشكل فجائي انما سبقتها ارهاصات وساعدت كثير من الظروف على ترسيخها.

ونتيجة لذلك فقد منصب شيخ الاسلام نفوذه السابق الذي وصل ذروته في عهد شاه طهماسب بشخصية الكركي الذي كان ينصب ويعزل.

وبسبب اضمحلال بريق منصب شيخ الاسلام لوجود شخصيات دينية مغمورة ظهر منصب جديد وفقاً لرغبة شاه سلطان حسين وهو «ملا باشى» الذي يعنىٰ رئاسة جميع العلماء والشخصيات الدينية ويبدو انه المستشار الأوّل للشاه وقد اسند المنصب الىٰ محمد باقر خاتون آبادي الذي اعتذر كما ذكرنا عن قبول منصب شيخ الاسلام.

ومن المفارقات ان الشاه الذي دعم وبشكل مطلق خاتون آبادي تركه وحيداً ابان التآمر عليه عندما اعتبر الرجل مقصراً وانه السبب في ارتفاع اسعار الخبز والدقيق؛ فتعرض منزله لغارة المغيرين حتىٰ الذين ارسلتهم الدولة لحمايته شاركوا في الغارة.

وقد وقف الشاه موقفاً يدعو للتساؤل لانه لم يهتم بمصير الرجل ولم يسأل عن اسباب كل ماحصل وقد يلقي هذا الحادث ضوءً على شخصية الشاه.

توفي خاتون آبادي سنة ١١٢٧ هـ واسند منصب ملا باشي الىٰ رجل يدعى محمد حسين التبريزي حيث ظل في منصبه حتىٰ سقوط اصفهان.

ونظرة في المشهد الاداري الاخير للدولة الصفوية لن تجد فيها شخصية يمكن ان يكون فيها ثمة امل في دفع الخطر او مواجهة الغزاة.

وبالرغم من سوءات العهد الاخير من الحكم الصفوي الا ان هناك بعض الايجابيات فهناك حالة من الحرية الفكرية ولم يكن هناك طغيان في الاستبداد السياسي، اضافة الىٰ استمرار حركة البناء والعمران ويمكن القول ان مسألة بناء المدارس والمزارات اصبحت نوعاً

من الهواية للامراء والاميرات اضافة الىٰ ثقافة الوقف التي راجت في العهد الصفوي وكان لها مردود ايجابي واسع على الصالح العام.

ولعل مدرسة چهار باغ من الآثار الفريدة التي تعود الىٰ هذا العهد، اضافة الىٰ مدرسة «سلطاني» ومدرسة ام الشاه «مادر شاه» وقد ظلت المدارس تحظى بقداسة خاصة، حتىٰ ان الشاه اتخذ في احداها حجرة يتردد اليها للمطالعة. وكانت المدارس تسير امورها من الاوقاف التي ازدهرت بشكل واسع في عهد سلطان حسين، ويمكن القول ان ثقافة الوقف كان لها دور كبير في انعاش البلاد وتعد من مميزات الحكم الصفوي وامتيازاته ايضاً.

ومن المثير ان نجد بعض الاوقاف كانت تصرف على استنساخ الكتب فهناك حمام عام كبير أوقف صاحبه ربعه على استنساخ الكتب فقط وتشير بعض الكتب المخطوطة الىٰ ان استنساخها هو من ريع حمام «خسرو اقا».

وكانت ادارة الاوقاف في العهد الصفوي في طليعة الادارات التي تدير ثروات طائلة والتي يجب ان تكون تحت اشراف عالم من السادات.

ومن المظاهر الثقافية التي تعد امتيازاً للعهد الصفوي هو الاهتمام بالكتاب والتأليف بشكل عام، لقد ظهرت آثار كثيرة جداً كما واتسعت ثقافة الترجمة بشكل واسع وانتشرت آلاف المكتبات الصغيرة والكبيرة.

وقد اشرنا الىٰ ثقافة الوقف التي ساعدت هي الأخرى على استنساخ آلاف الكتب وتحول النساخ الىٰ مطبعة كبرى وبرغم صعوبة انتاج الكتب بهذه الطريقة اليدوية وكذا سرعة تعرضها للتلف فان هناك ما يدعو الىٰ التساؤل لماذا لم يفكر البعض باستقدام او استيراد مطبعة من الغرب سيما وان وصول نسخ من الانجيل مطبوعة الىٰ ايران كان في عهد شاه عباس الأوّل والأخير يعد المؤسس الثاني للدولة الصفوية واحد اقوى ملوكها، لقد التفت البعض الىٰ اهمية المطبعة ولكن حصل ذلك في وقت متأخر وفي زمن ملوك لم تكن لهم همم الاوائل.

وبسبب تراجع الامانة لدى النسّاخ فان الكتاب الذي يتعرض للاستنساخ اكثر من مرة يخضع لاهواء النُسّاخ وربما يصعق المؤلف الذي يطالع النسخ الاخيرة من كتابه ولعله لن يجد من مضمون كتابه الا قليلاً؛ يستثنىٰ من ذلك ظاهرة استنساخ القرآن الكريم التي

اتسعت هي الاخرى ونجم عنها ظهور نسخ من المصاحف في غاية الروعة والجمال.

وماتزال المكتبات الكبرى في ايران وخارجها سواء في طهران وقم ومشهد تضم نسخاً مخطوطة في شتىٰ الحقول العلمية والمعارف وان حجم وعدد هذه النسخ يدل دلالة واضحة على ازدهار ثقافة التأليف والترجمة.

وبالرغم مما ألحقه الاحتلال الافغاني من اضرار بالمكتبات الايرانية الا ان ما ظل منها وسلم يكشف عن مشهد ثقافي متألق نعمت به ايران في ظل الصفويين.

وبسبب تشجيع شاهات الدولة الصفوية على التأليف والترجمة وبخاصة شاه سلطان حسين نجد كثيراً من الكتب تضم تصديراً بأسمائهم ومقدمات تشرح قصة الكتاب الذي يأتي في الغالب تنفيذاً لطلباتهم في تأليف او ترجمة كتاب في حقل معين.

فالعلامة المجلسي والسبزواري وغيرهما في طليعة من قدموا آثارهم الىٰ ملوك زمانهم، ولقد كانت هذه الظاهرة وفي الجيل الاخير من الحكم الصفوي تمثل اشعة غروب الحضارة في هذه البقعة من العالم الاسلامي.

بقي ان نشير الىٰ ان الكنيسة البابوية حاولت مضاعفة نشاطها التبشيري في ايران مستفيدة من التسامح الديني الذي عرفت به ايران في ظل العهد الصفوي ما يدل عى وجود ثقة في النفس من رسوخ الدين الاسلامي بفكره الامامي العميق الذي يستند الىٰ المنطق والعقل والدليل.

وفي هذا ا لمضمار ارسل البابا زعيم الفاتيكان رسالة الىٰ الشاه بهذا الخصوص.

وفي رسالته الجوابية اشار شاه سلطان حسين الىٰ عظمة الدين الاسلامي وكونه آخر الرسالات الإلهية وان الانسان المنطقي لابد وان يختار هذا الدين، ولا أدل على ذلك من الاب انطنيو جوزيف البرتغالي الذي جاء مبشراً ثم اعتنق الاسلام واختار اسم «علي قلي جديد الاسلام» وقد انبرى الرجل الىٰ الدفاع عن الدين الحق كما الف كتابه الشهير في نقد سفر التكوين في التوراة مشيراً الىٰ التحريف الذي طال الكتاب السماوي ومفنداً شبهات النصارى حول الاسلام وقد طبع الكتاب مؤخراً ويقع في ٧٥٠ صفحة من القطع الكبير[١].

---

[١] قامت مؤسسة انصاريان في قم بطبعه سنة ١٩٩٦ م.

الخطر الافغاني

كثيراً ما ورد اسم مدينة قندهار منذ مطلع تأسيس الدولة الصفوية وبخاصة في عهد شاه طهماسب وما تلاه في أيام حفيده شاه عباس الأوّل.

كان هناك ما يشبه الاصرار في بسط النفوذ الصفوي على هذه المدينة التي تقطنها غالبية سنية في ظروف من الصراع غلبت عليه النعرات الطائفية. وقد تمكنت الدولة الصفوية من الاحتفاظ بنفوذها في قندهار ولم يكن يخطر في بال احد ان هذه المدينة ستكون خطراً يتهدد الوجود الصفوي بالزوال.

ولقد كان الصراع مع مغول الهند حول المدينة شديداً ومريراً وكانت الاقوام والقبائل التي تقطن المدينة لاتتحمل وجود حكم شيعي، وكانت القبائل الافغانية بالخصوص تتربص بالدولة الدوائر وتنتظر فرصة مواتية للخلاص من الصفويين وكانت تطمح الىٰ تأسيس دولة مستقلة تكون قندهار عاصمتها.

ومع أواخر حكومة سليمان شاه ومطلع حكم خليفته سلطان حسين بدأت القلاقل في الشرق وكانت قندهار مركز الخطر.

وبدأت القبائل الافغانية والبلوش سلسلة من الغارات، طالت مناطق ومدن ايران الجنوبية وقد اثبتت الحوادث ان الدولة فقدت قدرتها الدفاعية في معالجة القلاقل التي تعد ضمن الحسابات الجغرافية قلاقل داخلية على ان العداء التاريخي للسكان في مناطق تنتمي مذهبياً الىٰ طوائف مخالفة وتشجيع الاوزبك والحكم البابري في الهند منح هذه القلاقل ابعاداً خطيرة ويبدو ان فكرة استعادة قندهار لدى الحكام المغول في الهند او احتلالها من قبل الاوزبك كانت متوقدة بسبب الانتماء القومي والمذهبي المغاير للسكان.

ومن المثير ان نهاية الدولة الصفوية التي أثبتت قدرتها على البقاء والاستمرار سوف تكون على ايدي القبائل الافغانية؛ بينما عجزت دولة قوية مثل الدولة الاوزبكية وامبراطورية كبرى مثل الامبراطورية العثمانية عن الاطاحة بالدولة الصفوية وهي ماتزال تشق طريقها في الظهور. وقد استمرت الدولة الصفوية تحارب على اكثر من جبهة الىٰ أن كف الاوزبك في الشرق والعثمانيون في الغرب عن التحرش بالكيان الجديد.

سيطرة الافغان على قندهار

قبل سقوط قندهار بيد الافغان كانت الدولة قد نصّبت على المدينة حاكماً يدعى جورجين خان وهذا الاخير كان قد قام بالتمرد على الحكومة الصفوية في جورجيا وقمع تمرده والقي القبض عليه وارسل مخفوراً الىٰ اصفهان ولكن اخاه خسروخان قام بالتوسط للعفو عنه وتم ذلك ولم تلبث الحكومة ان ارسلته الىٰ قندهار لاخماد القلاقل هناك وقد نجح في مهمته في اعادة بسط الهدوء في تلك المدينة بقوة جنوده الجورجيين من ابناء جلدته.

عرف الرجل بتدبيره وحزمه وشدته في ادارة شؤون قندهار، كان احد الزعماء المتنفذين وأثرياء من الافغان يدعى ميرويس وكان جورجين يخشى ان يسبب له المتاعب فابعده الىٰ اصفهان بحجة انجاز بعض المهام.

واكتشف ميرويس انه مراقب كما اكتشف في نفس الوقت ماوصل اليه البلاط الصفوي من ضعف وانقسام المسؤولين الحكوميين الىٰ مجاميع يحوك بعضها للبعض الدسائس والمؤامرات.

ومن هنا بدأ هو الآخر يخطط للاطاحة بجورجين خان وبدأ يلفق حوله الاكاذيب وقد استطاع ان يجد له آذاناً صاغية بعد وطد علاقاته مع الكثيرين من خلال الهدايا النفيسة واستطاع في ا لنهاية من خداع البلاط بعد ان رسخ لدى كبار المسؤولين اكذوبة خطيرة مفادها ان جورجين خان متفاهم مع الحكم المغولي في الهند، وتمكن ميرويس ان يحصل من الشاه على تصريح له في الذهاب الىٰ مكة وحج بيت الله الحرام.ومكة والمدينة المنورة استطاع ميرويس هذا ان يحصل على فتاوى في وجوب الحرب ضد الشيعة واثبات كفرهم وجواز قتلهم ونهب اموالهم وسبي نسائهم واسر اطفالهم وما اكثر علماء السنة في مكة ممن يفكرون بهذه العقلية السخيفة!!

وهناك ارضية مساعدة فيما يبدو ضد الشيعة في مكة خلقتها فيما يبدو سنوات الصراع مع العثمانيين وهو صراع اتخذ في كثير من حلقاته اشكالاً طائفية.

ففي عام ١٠٨٨ هـ كان هناك عالم شيعي هو مير محمد رضوي يقرأ القرآن خلف مقام ابراهيم هاجمه عدة من الاوباش وطردوه من المسجد الحرام بتحريض من علماء أهل مكة، وفي خارج المسجد رجم بالحجارة حتىٰ الموت؛ وكاد الشيخ الحر العاملي يلقى حتفه لكنه

لجأ الىٰ احد اشراف مكة فتمكن من الفرار الىٰ اليمن.

كان كل شيء جاهزاً ضد الشيعة من فتاوى ومخزون عداء رهيب، لقد حصل ميرويس على اكثر مما كان يطمح وحمل معه عشرات الفتاوى التي تجيز قتل الشيعة وسبي اطفالهم وبيعهم رقيقاً في الاسواق.

عاد ميرويس الىٰ اصفهان وهو يحمل معه عشرات الهدايا الىٰ المسؤولين الحمقى في العاصمة الصفوية واستطاع ان يستميل قلب الشاه الذي وصل به الأمر ان يستشيره في بعض الامور!

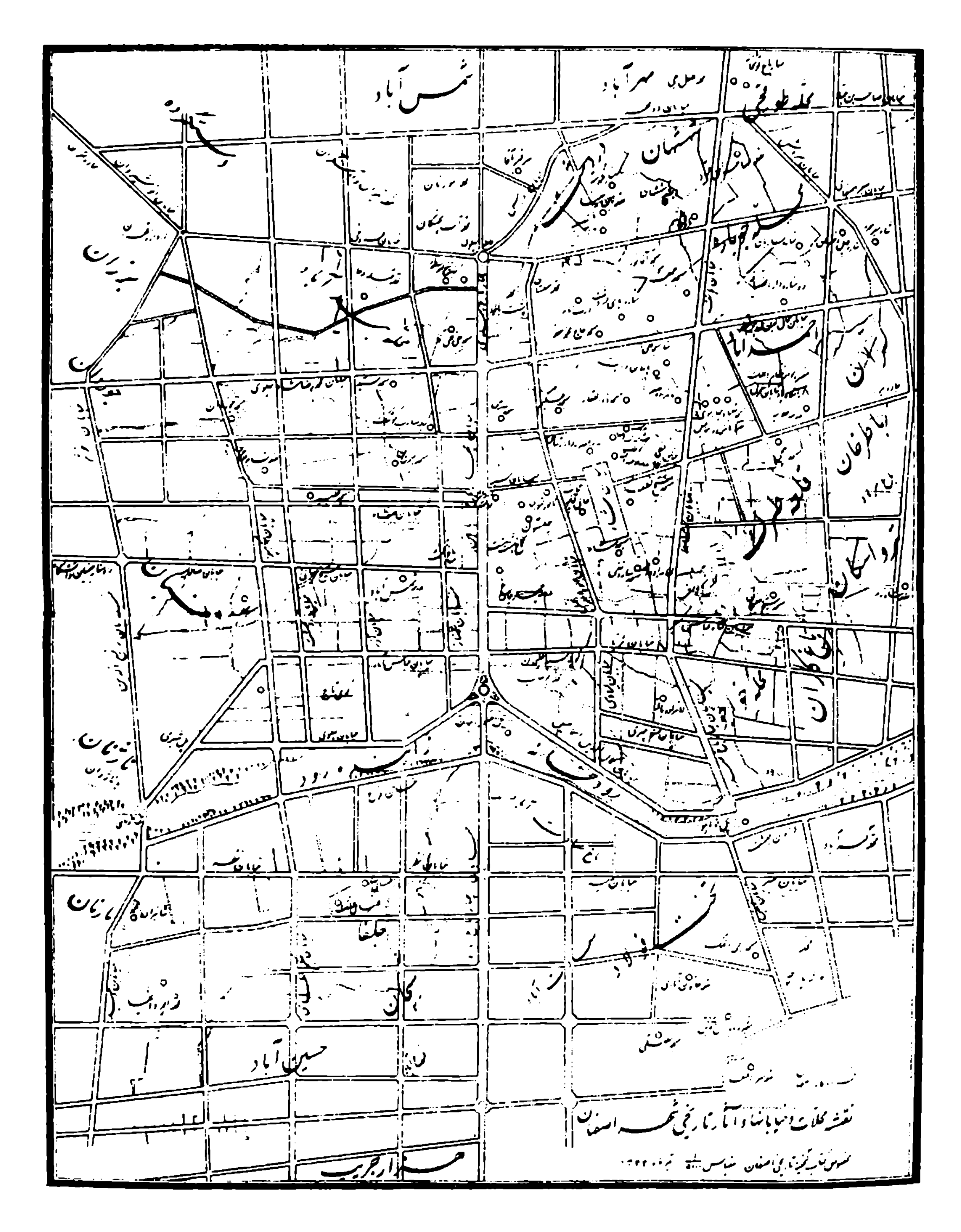
وهكذا تمكن ميرويس من الحصول على تصريح له بالعودة الىٰ قندهار وتوصيات ملكية بمعاملته باحترام!

استقبل ميرويس استقبالاً حافلاً في قندهار ولم تمض سوى مدة قصيرة حتىٰ قام باستدراج حاكمها ومجموعة من مسلحيه الىٰ خارج قندهار ليقعوا في فخ نصبه لهم فتم قتلهم وعاد هو الىٰ قندهار التي سقطت في كفه مثل تفاحة ناضجة.

كان ذلك سنة ١١٢١ هـ وقد ضرب ميرويس النقوذ باسمه اعلاناً لحكومته الجديدة الخارجة عن نفوذ الدولة الصفوية. وفي تلك اللحظات عرض ميرويس فتاوى علماء مكة من اهل السنة لتعبئة الرأي العام ضد الشيعة والصفويين.

وتحطمت هجمات القزلباش على أسوار قندهار حتىٰ خسروخان شقيق الحاكم القتيل فشل في استردادها بعد حصار دام خمسة أشهر بل وتعرضت قواته الىٰ الفناء بسبب الحر الشديد ونقص الامدادات وشيوع الامراض في صفوف جيشه.

وانتهز ميرويس الفرصة ليفاجىء القزلباش بهجوم عنيف حطم فيه الجيش الصفوي وتم قتل القائد العام، واثر ذلك سقطت مدينة هرات وارتكبت مذابح بحق سكانها من الشيعة وهاجم الافغان مدينة مشهد ليحاصروها مدة اربعين يوماً وعندما اخفقوا في قهرها انطلقوا نحو نيسابور فقتلوا ونهبوا واسروا الكثيرين من اهلها.



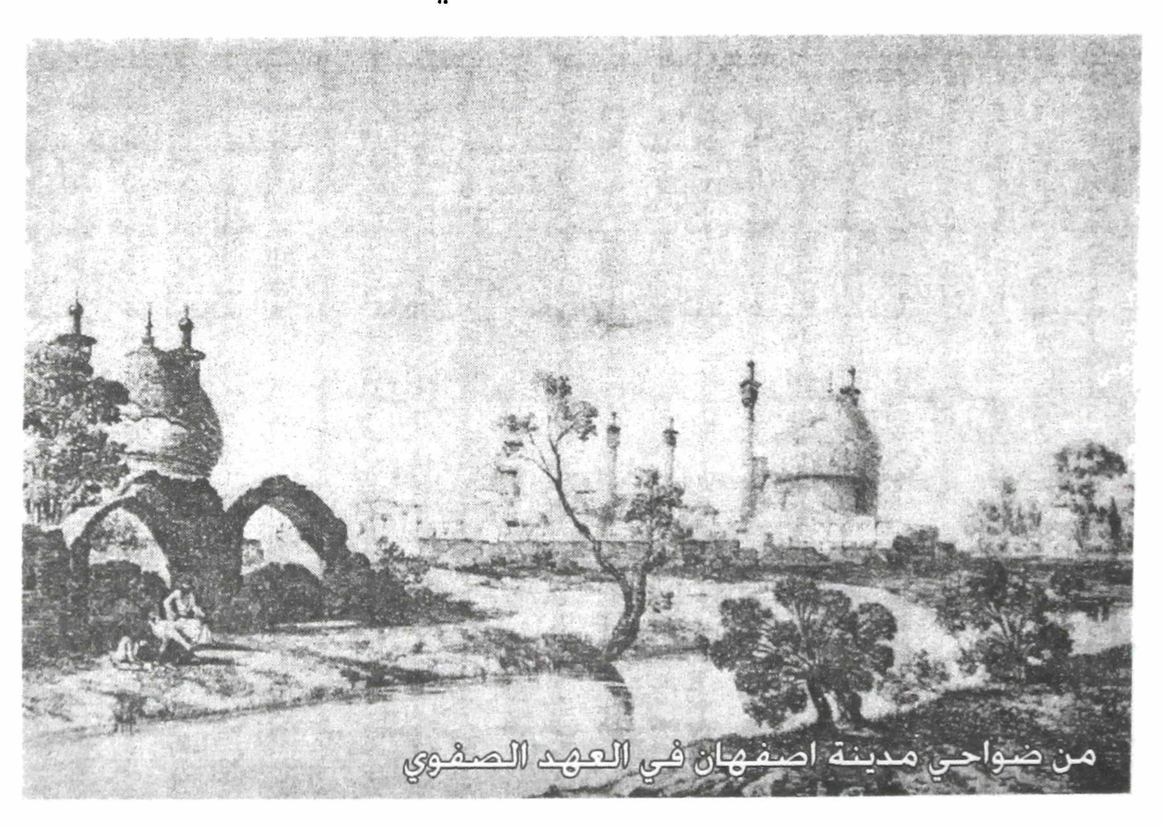
خارطة مركز مدينة اصفهان

الهجوم الافغاني على ايران

توفي ميرويس عام ١١٢٩ ليخلفه على الحكم اخوه الذي تطلع الىٰ التفاهم مع البلاط الصفوي ولكن محمود نجل ميرويس قام بقتل عمه ليقود الافغان الىٰ الحرب.

كانت الدولة الصفوية تمر بحالة من الفوضى والنزاعات الداخلية، ولم يبد حكام الدولة حساسية ازاء الخطر المتفاقم في الشرق، بحيث نرى الشاه يتوجه الىٰ قزوين بقصد تعبئة قواته للزحف نحو قندهار بعد استرداد مدينة هرات المنكوبة، ولكنه مكث في قزوين مدة ثلاث سنوات دون جدوى او اتخاذ اجراء في مستوى التهديد الافغاني، عاد بعدها الىٰ اصفهان.

كان محمود يدرك ما وصلت اليه الدولة الصفوية ومؤسساتها العسكرية من انحطاط وضعف فقاد قواته نحو مدينة كرمان وسقطت المدينة في قبضته سنة ١١٣٢هـ.


من ضواحي مدينة اصفهان في العهد الصفوي

وكانت قوة من القزلباش تستعد في تلك الفترة لاستعادة البحرين فغير القائد الصفوي مساره عائداً الىٰ كرمان لتحريرها وعندما وصلت انباء الزحف الىٰ مسامع محمود فر من المدينة عائداً الىٰ قندهار.

وقد اثارت هذه الخطوة حسد بعضهم في البلاط الصفوي وبدأوا تآمرهم ضد لطف علي خان القائد وضد اخيه فتح علي خان وزير البلاط وحيكت ضد الوزير مؤامرة قذرة

وزورت باسمه رسالة يُشمّ منها نوعاً من التفاهم مع المتمردين الاكراد في اقليم كردستان الذي اندلعت فيه القلاقل.

وقام شاه سلطان حسين في النهاية بعزله من منصبه، بل وسمل عينيه ايضاً، كما صدر أمر الىٰ حاكم شيراز بالقاء القبض على القائد لطف علي خان اخ الوزير المغضوب عليه.

وشعر الشاه بالندم فيما بعد ولكن بعد فوات الاوان وحيث لم يعد ينفع الندم.

كان الوزير من اقليم داغستان وتحوم حول شبهات في انتمائه المذهبي المخالف للشيعة.

حصار العاصمة

في أواخر عام ١١٣٣ قام محمود الافغاني بمهاجمة كرمان مرة اخرى وسقطت المدينة في مطلع العام الجديد متخذاً من المدينة قاعدة عسكرية للانطلاق منها في احتلال مناطق ا ضافية وقام بخطوة جريئة في الاستعداد لاحتلال العاصمة

اصفهان متجاوزاً مدينة يزد التيٰ تعد ساقطة عسكرياً.

وحاولت قوة مؤلفة من خمسة آلاف جندي بقيادة حاكم الحويزة عرقلة التقدم الافغاني ولكنها تهيبت مواجهة الغزاة، فعادت الىٰ اصفهان وكان لهذا الحادث آثاراً سلبية خطيرة في معنوية البلاط وانتشرت شائعات في العاصمة. وسادت حالة من الفوضى والشعور بالخطر مع وصول انباء عن زحف الافغان نحو اصفهان وبعد جهود امكن تشكيل جيش غير متجانس من القزلباش والسكان حيث غادر اصفهان لمواجهة الافغان .

وفي مشارق قرية «جلون آباد» استطاع المدافعون دحر الغزاة في أوّل اصطدام ولكن الافغان بذلوا اقصى جهودهم لخوض حرب مصيرية يعرفون سلفاً انهم اذا خسروها فقد خسروا كل شيء.

وتمكن الافغان من الحاق هزيمة نكراء بالجيش الصفوي واستولوا على كميات كبيرة من الاسلحة والتجهيزات العسكرية وقد حدثت هذه الواقعة في العشرين من جمادى الاولىٰ عام ١١٣٥ هـ .

واصل محمود الافغاني تقدمه نحو اصفهان ملتفاً من جنوبها الشرقي نحو نهر «زاينده رود» ومتجهاً نحو «فرح آباد» ومن «جلفا» هناك حصلوا على امدادات غذائية من

الأرمن القاطنين في جلفا وتوقف زحف الافغان عند النهر لصعوبة عبوره وهناك فرضوا حصارهم على العاصمة اصفهان، بعد ان احكموا سيطرتهم على الجسور المؤدية الىٰ المدينة. وبدأ الحصار في جمادى الاولىٰ حتىٰ محرم سنة ١١٣٥ هـ وبعد حوالي ثمانية شهور سقطت العاصمة الصفوية اصفهان بأيدي المحتلين، وخلال فترة الحصار حاول القزلباش دفع الغزاة لكنهم اخفقوا في كل هجماتهم وسادت حالة من التمزق داخل البلاط الصفوي وقد انتشرت شائعات حول اتصالات مشبوهة لمستشار الشاه حاكم الحويزة بالافغان.

وتمكن البلاط من ارسال طهماسب ميرزا مع قوة عسكرية خارج اصفهان بهدف حشد قوات لانقاذ العاصمة ولم يستطع طهماسب من القيام بتعبئة قوات يأبه لها وسقطت اصفهان قبل ان يفعل شيئاً.

وطوال مدة الحصار التي استغرقت مايقارب الثمانية شهور عم القحط المدينة وفتك الجوع بسكانها واختفى كل اثر للابل ثم الخيل ثم مالبثت ان اختفت حتىٰ القطط والكلاب.

وعوضاً عن فعل شيء لانقاذ اصفهان من السقوط تربع طهماسب ميرزا على عرش قزوين فيما كان والده يستعد لتسليم المدينة والتاج والعرش وكل امجاد الدولة الصفوية للفاتح الافغاني.

وبالرغم من مبادرة بعض علماء الدين وحشود من السكان لحوار الشاه على المقاومة رفض الشاه استقبالهم.

ولكنه استقبل محمود الافغان بالاحضان معانقاً اياه وقائلاً: لقدشاء القدر ان يخرج السلطان من يدي ليستقر بين يديك؛ ثم قاده الىٰ العرش وأجلسه عليه.

وظهرت رائحة الخيانة، لقد كان قادة القزلباش يراسلون محمود سراً ولم يرتكب محمود مذبحة في المدينة بل عمد الىٰ عرض بعض الامدادات الغذائية في السوق وعاد الذين فروا الىٰ القرى الىٰ منازلهم وعاد الهدوء الىٰ المدينة.

وكانت حصيلة الاشتباكات مع الافغان خلال تلك الفترة مايقارب الخمسين الف قتيل بينما حصد القحط والجوع أرواح مئة الف من السكان، ولم يقتل من الافغان سوى ألفي مقاتل.

وبالغت بعض المصادر في عدد القتلى ليصل الرقم الىٰ سبعمائة الف ضحية[١] ولكن مصادر مستقلة لم تؤيد ذلك.

سقوط المدن الاخرى

بعد سقوط اصفهان تحركت قوات قوامها ثمانية آلاف جندي نحو قزوين عاصمة الصفويين الثانية بقيادة امان الله خان، وفر طهماسب نحو تبريز وفي طريقهم الىٰ قزوين مر بكاشان التي استقبلت الغزاة بافخر انواع السجاد الايراني وكان ذلك رسالة واضحة لاستسلام المدينة.

وحاول الافغان التقدم نحو مدينة قم ولكن انباء مؤكدة وصلتهم على عزم سكان قم على المواجهة المسلحة جعلتهم يتجهون نحو قزوين التي استقبلتهم بالترحاب!

وراح القائد الافغاني يبتز السكان في المدينة واهل القرى بطلب المزيد من الامدادات الغذائية ووصلت به الوقاحة ان طلب منهم اضافة الىٰ ذلك ستين من فتياتهم واندلعت اثر ذلك حوادث عنف في بعض القرى ما دفع بالقائد الافغاني الاهوج اعلان استباحة المدينة فاضرمت النار في اسواقها وارتكب الافغان مذابح مروعة.

وفي الاثناء وصل مايقارب المئة وخمسين من القزلباش لنجدة السكان وثارت حمية الناس وحدثت حرب شوارع كبدت الافغان الفاً ومئتين من القتلى و اضطروا لمغادرة قزوين نحو اصفهان.

وكان لفتوى احد العلماء يدعى محمد رضي القزويني الاثر الاكبر في الهاب روح الحماس في نفوس الناس.

وقد لقي الرجل مصرعه في احد الاشتباكات.

وانطلقت قوات لاحتلال شيراز وقد فشلت الحملة الاولىٰ فيما نجحت حملة ثانية بعد حصار دام ثمانية اشهر وارتكبت مجازر في المدينة. وهكذا كانت المدن الايرانية تسقط الواحدة تلو الاخرى وكانت حوادث قزوين وبعض المدن الصغيرة القريبة من اصفهان ونتيجة للمقاومة أصدر محمد خان أوامر باستباحة المدن المحتلة اذا أبدت مقاومة للغزاة،

---

[١] زبدة التواريخ.

ولاسباب غير واضحة اصيب محمود خان بالجنون ما جعله في بعض الاحيان يقطع اجزاء من جسده ويلتهمها وفي تلك الفترة ارتكب مذبحة في الاسرة الصفوية فأمر بقتل اكثر من ثلاثين اميراً من الاسرة امام شاه سلطان حسين المخلوع.

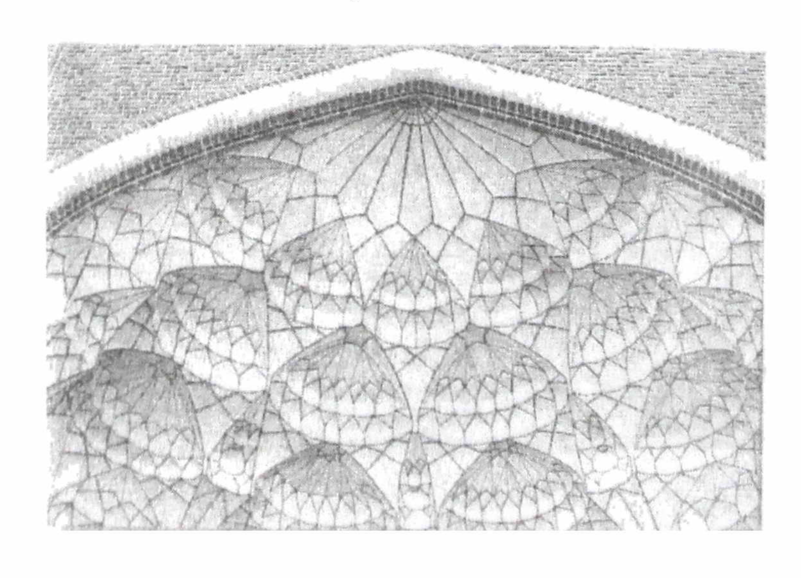
واجتمع كبار الضباط الافغان لمعالجة هذه المشكلة واتخذوا قراراً بتنحية محمود من القيادة.

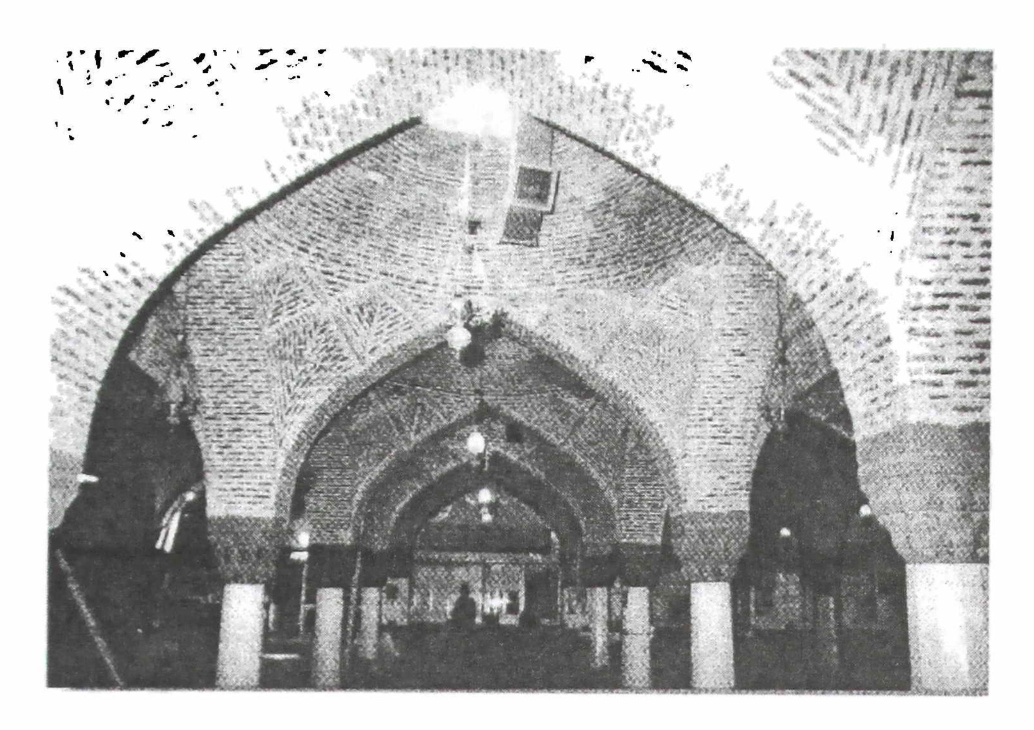
واشترط اشرف على القادة الافغان ان يُقتل محمود الذي قتل اباه من قبل واغتصب الحكم، وتم ذلك في احدى الليالي عندما كان محمود يغط في نومه الذي لم يستيقظ منه.

واراد اشرف اختبار شاه سلطان حسين فعرض عليه اعادة العرش والتاج ولكن الاخير اعتذر ذلك لعدم لياقته وقام بوضع التاج على رأس اشرف وعرض عليه الزواج من ابنته!

ونظراً لمخاوف اشرف من بقاء طهماسب حراً فقد حاول استدراجه دون جدوى واكتشف فيما بعد مراسلات بعض قادة القزلباش من اصفهان تدعوه الىٰ القدوم الىٰ اصفهان للقضاء على اشرف، فقام بقتل خمسة وعشرين من المشتبه بعلاقتهم مع طهماسب.

ومن جهة أخرى رفض العثمانيون الاعتراف رسمياً بالحكم الافغاني واشترطوا تسليم شاه سلطان حسين لهم وانتابت اشرف هواجس من بقاء شاه الدولة الصفوية المخلوع حياً فأمر بقتله وارسال رأسه الىٰ القائد العثماني احمد باشا الذي حضر الىٰ همدان ثم اعيد الرأس ليلحق بالجسد ويشيع في اصفهان في موكب حزين وقد وقعت هذه الحادثة سنة ١١٣٩ هـ واستيقظت اطماع الدول المجاورة فهاجم الروس الشمال وزحف العثمانيون من الغرب واحتلت خراسان من الشرق وتمزق ميراث الدولة الصفوية بعد اكثر من قرنين لتدخل البلاد حالة من الفوضى والتمزق والظلام.

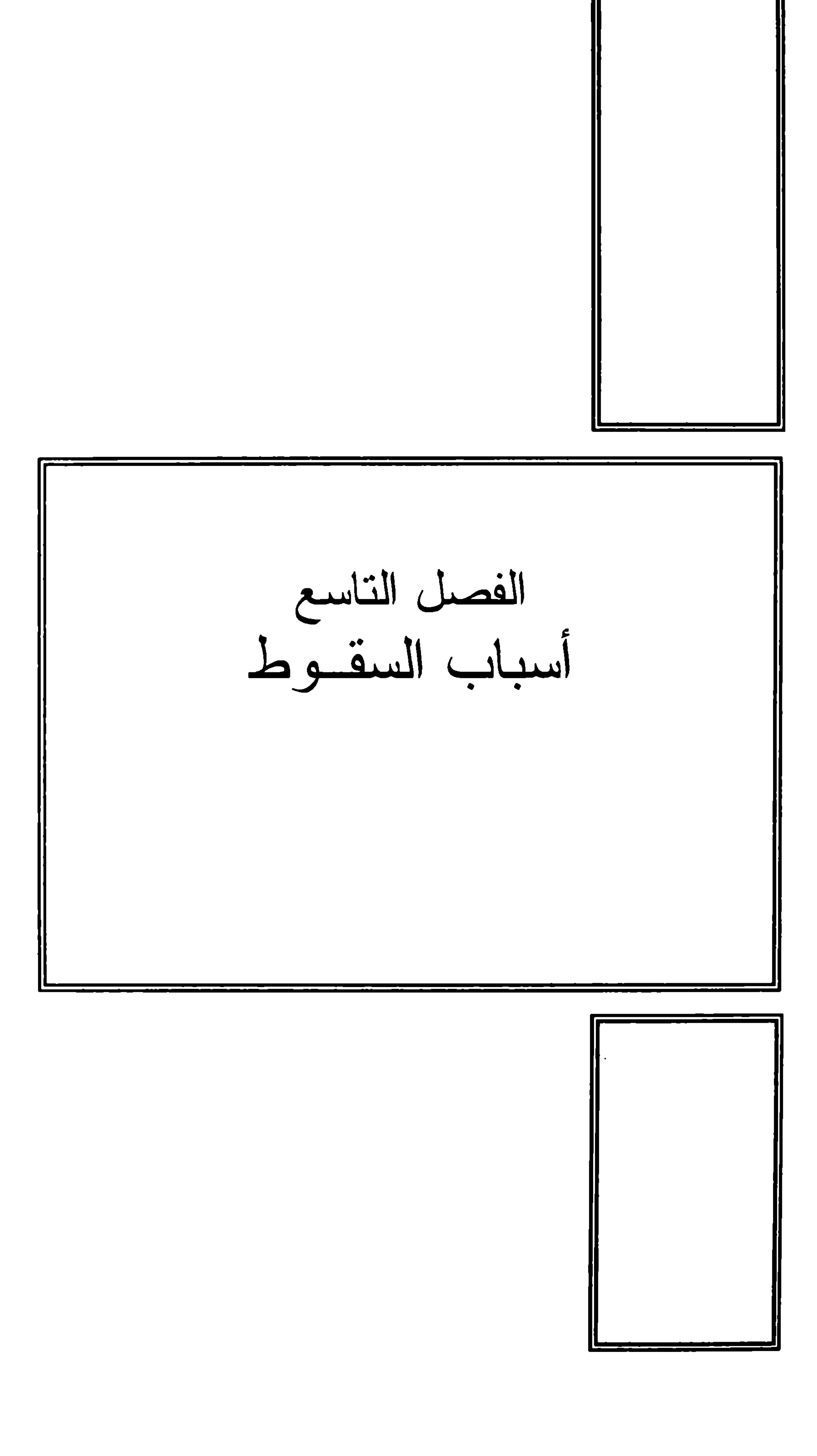




من آثار الصفويين في مدينة تبريز



فنون نشأت في
ظل العهد الصفوي

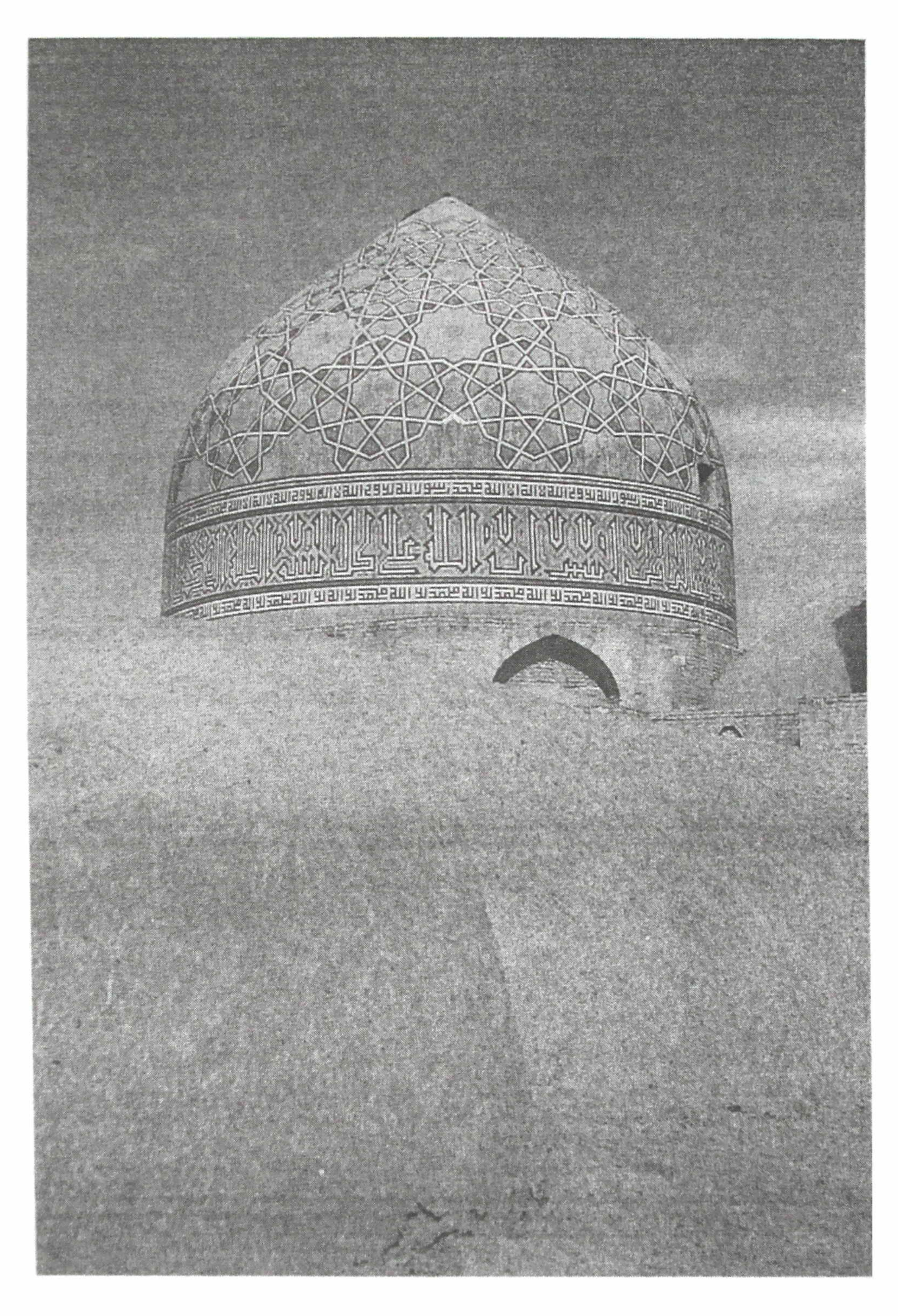


الفصل التاسع
أسباب السقوط

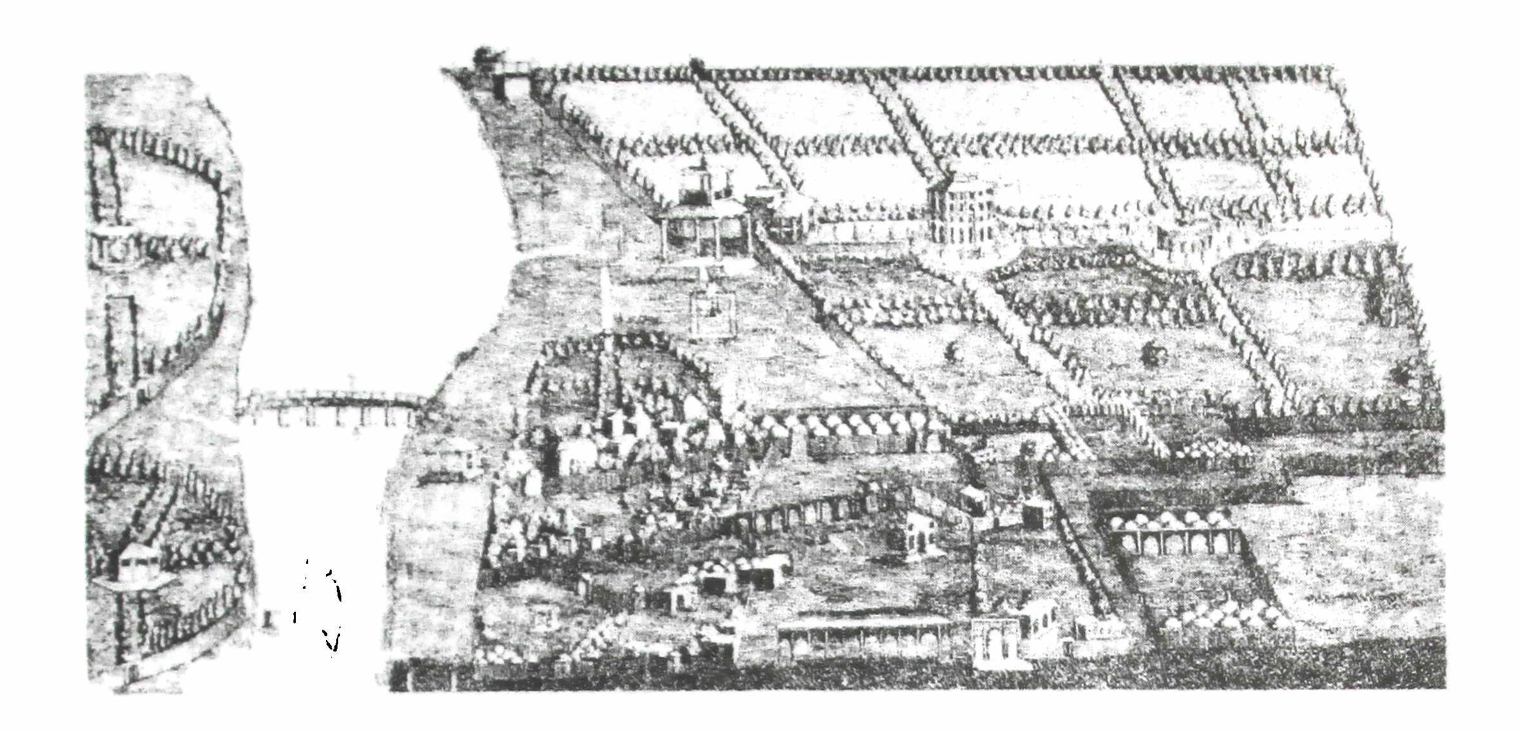
كان الحماس الصوفي هو الطاقة التي تكمن وراء ظهور الحركة الصفوية التي وحدت قبائل تركية عديدة تحت لوائها، هذه القبائل التي تعرضت لاضطهاد واسع في المناطق تسكنها واضطرها للهجرة نحو الشرق تاركة وطنها الاصلي "الاناضول".

اضافة الى ان الحركة الصوفية الصفوية التي جعلت للمرشد قداسة كبرى حتى لو كان طفلاً كما هو الحال في شخصية اسماعيل مؤسس الدولة مكنها من تحقيق انتصارات عززت من افكارها ورسخت عقيدتها في النفوس وظهرت قوات القزلباش كمؤسسة عسكرية متماسكة للغاية.

وقد ظلت المؤسسة القزلباشية بعقيدتها الراسخة وحماسها الكبير شعلة متوقدة وقوة ضاربة تحمي الدولة الفتية وتصد عنها الاخطار الخارجية والتهديدات في الشرق والغرب غير ان وفاة طهماسب وتربع اسماعيل الثاني على الحكم تسبب في الحاق اضرار فادحة وخسائر غير قابلة للتعويض في نسيج هذه المؤسسة.



من آثار الصفويين في مدينة آراك



اسباب السقوط

كان لظهور التنافس بين الضباط الكبار داخل المؤسسة القزلباشية انعكاساً سيئاً على وحدة اتحاد البلاد.

وظهر الانقسام القبلي داخل القزلباش وانتهى عهد القداسة والتواضع للمرشد العام وهو الشاه.

وكان للطريقة التي تسلم بها الشاه عباس الأوّل وما حصل من حروب داخلية آثاراً مدمرة واحدثت جروحاً من الصعب ان تلتئم، وظهرت سياسة جديدة فقد أُبعد العنصر التركماني الذي يمثل قوة القزلباش العسكرية الحقيقية وظهرت عناصر من أقوام اخرى كالتاجيك والجورجيين لاتحمل في طواياها أية ميول صوفية او بقايا من ذلك الولاء المطلق للشاه والعرش الصفوي؛ كما ان الحرب التي شنها العلماء والفقهاء على الفكر الصوفي زعزع هذا الكيان الذي يحمل هو الآخر تناقضاً ضد الشريعة الاسلامية.

ووصلت الامور بالمتصوفة أن طُرد شيوخهم من اصفهان في عهد شاه سلطان حسين.

إنّ المؤسسة العسكرية القزلباشية القوية انما نهضت على الحركة الصوفية التي رفعت الشاه الىٰ مقام المرشد العام، بحيث نرى الجنود يستبسلون في القتال بشكل جنوني.

هذه المؤسسة تعرضت للتدمير و الهدم من دون التفكير في احلال بديل يوحد القوات

المسلحة ويضمن حماسها وولائها، لقد تخلت الدولة عن القزلباش ومن الطبيعي ان يتخلى القزلباش عن الدولة.

لقد كان للقزلباش الفضل في حماية الدولة الشيعية الفتية من هجوم السنة المتعصبين في الشرق والغرب؛ الاوزبك والعثمانيين.

وبعد تدمير روح القزلباش تمكنت حفنة من الافغان السنة المتعصبين ضد الشيعة من تدمير أمجاد الدولة الصفوية التي حققت من التقدم والازدهار مالم تحققه دول اخرى في فترة قياسية.

ولقد تضافرت كثير من العوامل والاسباب في سقوط الصفويين وزوال دولتهم وكان لبعضها دوراً مباشراً كما هو الحال في شخصية شاه سلطان حسين؛ لقد كان الرجل عارياً من كل صفات الملك الذي يدير دولة كبيرة مثل الدولة الصفوية.. كان يقضي وقته في الصيد واللهو وجناح الحريم او في المطالعة حتىٰ اشتهر بالملاّ، لقد ترك شؤون دولته للعلماء وبعض المسؤولين التافهين.

لقد كان الرجل نائماً ولم يكن هناك من يوقظه على حدِّ قول كروسينسكي[1]. وكما كان معروفاً بالـ «ملاّ» فقد اشتهر بلقب آخر هو «ياخش در» وتعني باللغة التركية «حسناً» لقد كان جوابه عن كل ما يطلب منه: حسناً.

وقد وصف شاعر الـ «مكافاة نامه» (ملحمة الجزاء) خصائص الشاه الطيبة وكيف يقضي وقته مع الاطفال والنساء وهو طيب جداً الىٰ الحد الذي لايهابه العدو ولايخشاه المجرم الشقي!!

وهو متدين جداً بحيث كان يستغرق في الصلاة كلما هاجمه الاعداء!!

رقيق القلب بحيث تصدّق بمبلغ كبير جداً من خزائنه الخاصة لانه اصاب بالسهم طيراً في حديقة قصره وندم على ذلك أعمق الندم!!

هذا هو حال الشاه، أما كبار اركان دولته وضباط جيشه فقد كانوا أسوأ بكثير.

لقد استطاع شاه عباس الأوّل ان يبني قوة عسكرية ضاربة وساعدت التهديدات

---

[1] قس بولندي شهد حصار اصفهان والايام الاخيرة من عمر الدولة الصفوية سجل مشاهداته في كتابه «سفرنامه كروسينسكي» ط طهران ١٩٨٣.

الخارجية والتحديات المصيرية على الاهتمام بتعزيزها وتقوية اقتدارها؛ ولكن غياب هذه التحديات واستقرار الاوضاع على الحدود وغياب ملوك اقوياء ونفوذ شخصيات وصولية الىٰ المؤسسة العسكرية دمّر قدرة البلاد الدفاعية الىٰ حد كبير.

وقد اشرنا الىٰ حمّى التآمر داخل البلاط والتي لم تخمد حتىٰ مع ظهور الخطر الافغاني. ونرى عادة في تجارب تاريخية عديدة ان الاخطار الخارجية كانت توحد البلاد ولكن في حالة الدولة الصفوية لم نشهد ذلك حتىٰ على مستويات محدودة. لقد كان ضباط كبار في الجيش يراسلون الافغان ويشجعونهم على مواصلة تشديد الحصار على اصفهان.

لقد ظلت المؤسسة العسكرية عقوداً من الزمن دون تجارب ميدانية ولم يغادر الجيش الصفوي ثكناته مدة طويلة ماجعل البلاط يهمل كلية هذه المؤسسة الحياتية وقد ظهر ضعف الجيش الصفوي بشكل فاضح في عجزه التام في اخماد القلاقل والاضطرابات المحدودة، وكان ذلك كافياً لتحفيز الافغان في الهجوم على ايران.

كما كان للتمزق والتناحر والمؤامرات بين المسؤولين الحكوميين الدور الكبير في تعجيل هذه النهاية المؤسفة، لقد كان الجميع يريدون ملكاً ضعيفاً ليصفو لهم العيش ويدوم لهم النفوذ لقد انتخب سلطان حسين لانه يتمتع بهذه المواصفات المطلوبة، فيما استبعد عباس ميرزا الابن الآخر لشاه سليمان لانه كان حازماً في اموره وتسكن في اعماقه روح الحماسة والحرب.

كان البلاط كله سكراناً غائباً عن الوعي يجنح للنوم والغيبوبة ومستغرقاً بالأسفار واللذائذ وترك الشاه البلاد يديرها خصيان القصر الذين ارهقوا خزانة البلاد بأسفارهم الىٰ الحج وزيارة العتبات المقدسة وبعثرة الاموال خارج البلاد وهي أموال جمعوها بطريقة غير مشروعة.

ويصف شاعر ملحمة الجزاء الشاه بانه يوسف يعيش بين مئات الذئاب.

وقد تنبأ سفير الدولة العثمانية في اصفهان احمد دري بانهيار الدولة الصفوية:

«بالرغم مما أراه من عمران وازدهار في البلاد الا ان زوال هذه الدولة والعياذ بالله سيكون قريباً... دولة عامرة ولكن تشكو من قلة الرجال كأنما اصابها قحط الرجال، نظامها ممزق وتبدو حائرة لاتستطيع ان تدفع عن نفسها غارات المغيرين».

اضف الىٰ ذلك مركزية الحكم والادارة لقد كانت البلاد تحكمها ادارة لامركزية حيث الولايات تدار من قبل حكام يتمتعون بالصلاحيات ولهم جيوش محلية وفي حالات الحروب المصيرية كان من السهل تشكيل جيش موحد قوي يحسب له الف حساب.

هذا النظام أخذ بالزوال في عهد شاه عباس الأوّل ولكن بالرغم من نجاحه في تشكيل قوة عسكرية ضاربة لكنه وجه ضربات مميتة للمؤسسة القزلباشية وقد ظلت تتآكل من الداخل بسبب نفوذ عناصر غريبة، لبعضها جذور أرمنية، وقد ضعّف ذلك من قدراتها القتالية.

وشيئاً فشيئاً تحول حكام الولايات الىٰ مجرد جباة ما أضعف حماس القادة في نجدة العاصمة في حالة وقوع اخطار. لقد كان النظام في عهد شاه عباس مركزياً وكان يدار بطريقة جيدة لوجود مراقبة شديدة على أداء الولايات والاقاليم ولكن بقاء هكذا آليات في الادارة من دون وجود مدراء مدبرين يعني الفلتان الأمني والفساد الاداري.

وقد كشف حصار اصفهان الذي ناهز الثمانية شهور عن تراجع الروح الوطنية، فلم تقم حتىٰ ولاية واحدة بنجدة المدينة المحاصرة التي تمثل قلب الدولة النابض، حتىٰ من آذربيجان لم يهب احد لنجدة الشاه؛ وآذربيجان تعني أشياء كثيرة فمن هناك اشرق مجد الدولة الصفوية ونهض كيانها، لقد حاول البعض تبرير موقف تبريز المتخاذل بوقوع زلزال مدمر في المدينة حصِد حياة عشرات الآلاف من أرواح سكانها ومن غير المعقول ان تهب مدينة منكوبة لنجدة اصفهان.

على ان العامل الرئيسي في زوال الدولة الصفوية يعود الىٰ انحطاط المجتمع الايراني وتراجع القيم الدينية والاخلاقية، لقد استشرى الفساد في جسم المجتمع بسبب الممارسات اللااخلاقية والانغماس في اللذائذ المحرمة، وقد تسببت هذه الممارسات في احداث تمزق في شخصية المجتمع وفقد طمأنينته وشعوره بالاستقرار واصبح يتصرف بطريقة غير منطقية.

وقد حاول العلامة المجلسي القيام بخطوة اصلاحية على هذا الصعيد ولكن المجتمع الايراني كان قد وضع اقدامه في المنزلق وراح ينحدر نحو الهاوية.

وقد وصف شاعر ملحمة الجزاء اصفهان بالمدينة الآثمة ونعت سكانها بقوم لوط.

فلم يبق للدين من اثر وانغمس الجميع في حب الدنيا وكان الذين تربعوا في مناصب

دينية لم يكونوا مؤهلين من الناحية الأخلاقية واستغلّوا مناصبهم وكونوا طبقة ثرية جداً أثّرت سلباً على المخزون الديني والأخلاقي لدى المجتمع وراح ينظر ليس اليهم بل الىٰ الجميع نظرة متشائمة وربما راح يتطلع بحسرة الىٰ المتصوفة، الذين رفعوا شعار الزهد في الدنيا باعتبارهم الممثلين الحقيقيين لجوهر الدين الاسلامي اما المتلبسين بالعمائم فانهم يعيشون على الدين وليس من اجل الدين، بينما برنامج الدولة وسياستها قائم على تصعيد المواجهة ضد المتصوفة، وكان بالامكان الافادة منهم.

أما مؤلف رسالة طلب الممالك فقد اعتبر غياب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سبباً رئيسياً في تدهور وانحطاط وزوال الدولة الصفوية.

وقد احتدم الصراع بين علماء الدين في عهد شاه سلطان حسين وانعكس هذا الصراع على ايمان الناس وتزلزلت العقائد التي كانت ذات يوم راسخة في نفوسهم.

وانقسم المجتمع الايراني تبعاً للانقسام الذي طال رموزهم الدينية.

وسنرى في تعامل الدولة مع شخصية مخلصة مثل بهاء الدين استيري مؤشراً على ماوصل اليه النظام الصفوي بكل مؤسساته من انحطاط.

ظهر الرجل في مرحلة الخطر أي يمكن القول؛ ظهر في الوقت المناسب وكان احد علماء خراسان شهد حملات الاوزبك على الاقليم تحت شعارات طائفية فشعر بالغضب وشد الرحال الىٰ العاصمة، وراح يحذر من عواقب اللامبالاة ويبشر بسقوط الدولة الصفوية اذا ظلت الأمور تسير بهذا الاتجاه، وعندما لم يجد آذاناً صاغية راح ينتقد بشجاعة جميع المسؤولين متهماً اياهم بالفسق والفجور وترك الجهاد؛ وما تركه قوم الا ذلوا والا كيف يسمح الشاه لنفسه بالسكوت والتغاضي عن اعمال الاوزبك الوحشية وغاراتهم على خراسان واسر الشباب وسبي الفتيات وقد بلغ عددهم اكثر من ستين الف!!

واذا كانت الدولة تدّعي الاسلام والعلماء يزعمون التدين فأين جهادهم واين حميتهم الدينية، واين ايمان الناس وعقيدتهم؟!

وبدل ان تستجيب مؤسسات الدولة لصرخات الاستغاثة وبدل ان تقوم بفعل ايجابي واحد نرى العلماء ينزعجون من هذا الواعظ الخراساني متّهمته بالتصوف والالحاد! وبهذا

الاتهام طرد الرجل من اصفهان شر طردة وأخرج منها مهاناً[١].

لقد كان قدر هذه الدولة هو السقوط ولم تعد تنفع كل صيحات التحذير؛ حتىٰ العلماء الذين هبّوا اثناء الحصار وحاولوا فعل شيء لم يجدوا من الشاه ومن اركان بلاطه آذاناً تصغي.. لقد قال القدر كلمته وازفت ساعة الغروب.. غروب الدولة الصفوية بعد حكم دام مئتين وثلاثين عاماً[٢].



عدة السفر التي يحملها الدرويش

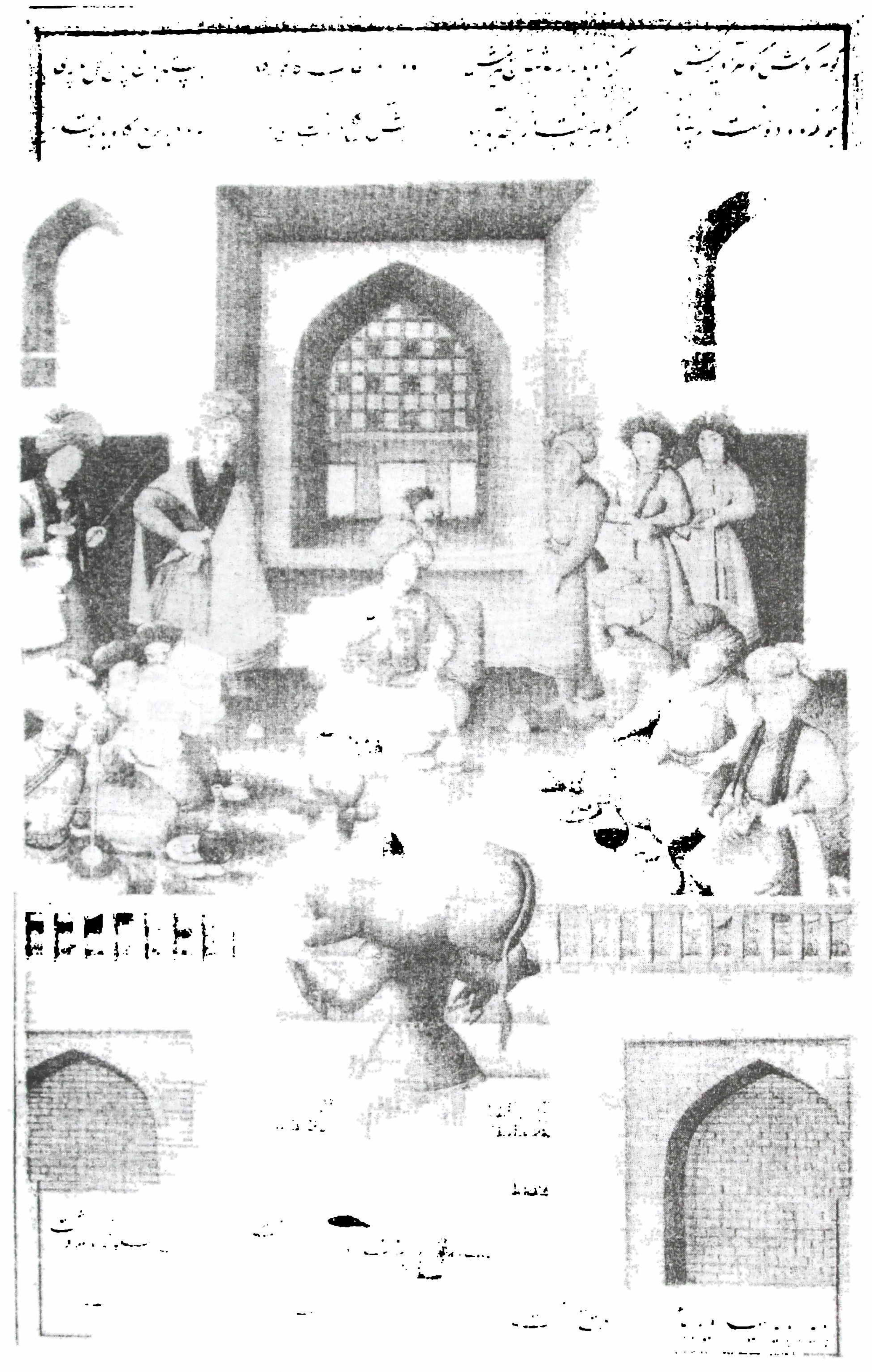
---

[١] انظر مجمع التواريخ، ميرزا خليل المرعشي، حوادث سقوط اصفهان.

[٢] ادى استنجاد طهماسب بن الشاه المخلوع بكل من روسيا والدولة العثمانية الى اجتياح الدولتين للأراضي الايرانية و لم تجد روسيا مصلحة لها في بقاء الدولة الصفوية، كما ان العثمانيين تساءلوا عن السبب الذي يدعوهم لقتال الافغان وهم سنة مثلهم ليعيدوا الحكم الى الشيعة الزنادقة (قصة الحضارة ويل ديوارنت: ج١٦، ص ٤١ - ٤٢.

وفي تلك الفترة العصيبة ظهر نادر قلي محاولاً استعادة مجد الصفويين وتمكن ليس من طرد الغزاة بل و احتلال العراق والاستيلاء على الهند والحاقه هزيمة بالدولة العثمانية وتحرير الاراضي المحتلة وتسمى باسم شاه عباس الثالث. لكنه قام بمغامرة خطيرة وهي محاولته سلخ ايران من هويتها الشيعية ودمجها بالمحيط السني الكبير، لقد كان يدرك عمق العداء الذي يكنه الجيران السنة في الشرق والغرب، فاراد أن يجنبها المزيد من الصراعات المذهبية، لكن محاولته واجهت رفضاً شديداً من العلماء فاضطهدهم وقتل بعض زعمائهم وعرض على الامبراطورية العثمانية فكرة الاتحاد ولكن الاخيرة ردت اقتراحه ورفض الشعب الايراني ممارسات سلخ الهوية، ذلك ان انتماء ايران المذهبي كان نهائياً وراسخاً ولايمكن تغييره لاسباب سياسية قومية.

لقد اعلن في عام ١١٤٨ هـ انتهاء الدولة الصفوية رسمياً وتخلى عن اسم عباس الثالث ليدعى نادر شاه، لقد نجح عسكرياً ولكنه فشل سياسياً واغتيل الرجل سنة ١١٦٠ هـ ـ ١٧٤٧م، قصة الحضارة ج١٦، ص ٢٣٦.



البلاط الصفوي في عصره الاخير: حفلات وبذخ

«مكافاة نامه» او ملحمة الجزاء

تعد هذه الملحمة الشعرية التي يتجاوز عدد ابياتها الألف والاربعمائة بيت مرتّبة باسلوب المثنوي شاهداً على سقوط الدولة الصفوية، هذا بالرغم من بقاء اسم الشاعر الملحمي مجهولاً حتىٰ اليوم، وما توفر من معلومات عنه جاء من خلال ملحمته؛ كان احد المسؤولين في البلاط الصفوي وكان على علاقة وطيدة مع الشاه لولا دسائس المتآمرين.

هل كان الشاعر سجيناً إبّان نظمه الملحمة ام كان مشرداً كما هو الحال في كثير من الشخصيات بعد سقوط اصفهان بأيدي الافغان؟

كان للرجل من خلال ما ورد في الملحمة ميول صوفية وهي مسألة لاتتفق مع توجهات الشاه والجو الرسمي آنذاك وهو يعتبر سقوط الدولة الصفوية جزاءً وفاقاً لاعمال المسؤولين وممارسات علماء الدين وسقوط المجتمع الايراني في حمأة الفساد الاخلاقي والانحطاط الاجتماعي[1].

وبكلمة واحدة ان ما حصل كان عقاباً الهياً.

تبدأ الملحمة بتمجيد الله سبحانه وتعالىٰ والثناء على آلائه غير ان ما يهمنا هو بيانه عوامل سقوط وزوال الدولة الصفوية باعتبار ان ذلك من ضمن اهداف الملحمة.

ان مسألة العقاب سواء كانت امراً غيبياً او ضمن السنن التاريخية كانت مصيراً طبيعياً لمسار الدولة الصفوية، كان ماوقع حصاد لما زرعه الاجداد والاحفاد.. واذن كان مصير الدولة الصفوية في رأي الشاعر تجسيداً للعدالة.

وعندما نظم الشاعر ملحمته انماكان يهدف الىٰ ان تكون هذه التجربة المريرة عبرة

---

[1] عندما يكون شكل نظام الحكم استبدادياً فان المجتمع يعكس حالات من التململ واذا ما صادف البلد هجوماً اجنبياً فانه لايبدي اي رد فعل ولعله يتمنى سقوط الحكم على أيدي اجنبية وقد حصل ذلك لايران في الحرب العالمية الثانية عندما اجتاحت القوات الاجنبية ايران سنة ١٩٤١ غير ان المثال العراقي بسقوط نظام البعث بزعامة صدام على أيدي القوات الامريكية والبريطانية افضل دليل على موقف الشعوب في ظل نظم دكتاتورية قمعية. ولكن موقف المجتمع الايراني في المثال الصفوي يدعو الى التأمل والدراسة اكثر؛ فلم يكن نظام الحكم استبدادياً و لم تظهر حالات تململ شعبي ازاءه وقد ظل المجتمع الايراني يتمنى عودة الصفويين لمدة عقود تلت سقوط اصفهان. ان مكافات نامه لخصت اسباب السقوط بانتهاك المجتمع والنظام للقيم الدينية والاخلاقية إضافة الى ارتكاب بعض التجاوزات والممارسات العدوانية.

للاجيال القادمة.

ان الشاعر يميل الىٰ ان ما حصل كان فعلاً مباشراً من الله سبحانه الذي يمهل الظالمين ولا يهملهم، فقد راح يمجد الله سبحانه الذي دمر قوم لوط وقذف بفرعون وجنوده في لجة المياه والقرار.

وما كان خراب ايران بعد الاحتلال الا نتيجة لتخريب الناس وحكاماً ومحكومين للدين المبين، ويمكن الاشارة الىٰ اسباب السقوط التي وردت في الملحمة بمايلي:

١ - تغير القيم الاخلاقية:

يستشهد الشاعر بمضمون الآية الكريمة: (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)[١].

ان الله سبحانه اودع في اعماق البشر قابليات السلوك المتوازن واذا مرق الانسان عن هذا السلوك، فانه يستحق الغضب الالهي والمطلوب من المجتمع ان ينهج في حياته طريقاً صحيحاً، ان مظاهر الفسق والفجور والفساد والظلم هو خروج عن الطريق الصائب وخروج عن التوازن الانساني وبالرغم من شكوى الشاعر وتألمه لما حصل فانه يعتقد ان ذلك كان تجلياً للعدالة الإلهية.

٢ - السياسة المتشنجة ازاء الصوفيين:

اعتبر الشاعر الهجوم على التصوف والعرفان كحالة ايمانية خالصة واحداً من اسباب الانحطاط.

لقد بدأ الصراع بين الفقهاء والمتصوفة يتحول من حالة فكرية الىٰ حالة سياسية وعندما أمسك الفقهاء بزمام الامور في البلاد راحوا يضطهدون المتصوفة وبدأت سياسة التسقيط ضدهم.

والشاعر يحمّل الفقهاء مسؤولية ماحصل بسبب سياستهم العدوانية ضد الصوفية.

هل كان الشاعر يعتقد كما هي الحقيقة ان الدولة الصفوية انما نهضت فوق اكتاف حركة صوفية وان استهداف الصوفية يعني تدمير الاساس الذي نهضت عليه الدولة.

---

[١] الاسراء: ١٦.

ان الاجتهاد في الفكر الامامي يجب الا يحصر تمثيل الحالة الدينية له فقط ويصادرها من غيره وبالتالي، فان المجتهد لايمكن ان يكون متديناً بالضرورة ويكون زعيماً دينياً لان الحالة العلمية لاتفرز حالة اخلاقية ابداً.

ولذا فقد كان الصراع بين الفقهاء والمتصوفة لم تكن له بواعث نزيهة، لقد تحول فيما بعد وبخاصة في اواخر الحكم الصفوي الىٰ صراع سياسي في الغالب وتكالب على النفوذ.

ولعل في قصة العالم الخراساني الذي دق ناقوس الخطر في العاصمة وكيفية التعامل معه واتهامه بالتصوف وبالتالي طرده بطريقة مؤسفة لقد كان في هذه الحادثة دلالة كافية لادانة الشخصيات الدينية الرسمية، لقد كان اولئك العلماء الذين تبوءوا مناصب دينية رفيعة في الدولة يعيشون على الدين وليس من اجل الدين.

٣ – عدم أهلية المسؤولين الحكوميين:

شهد النظام الاداري في الدولة الصفوية في اواخر عمرها نمواً سرطانياً فبرغم تعدد المؤسسات الادارية واتساعها الا انها افتقدت الىٰ الكفاءة في الأداء بسبب تسلط مسؤولين عديمي الخبرة والأمانة واصبحت الدولة تدار من قبل الخصيان المتنفذين في شؤون البلاط الذين لاهم لهم سوى استلام الرشاوى.

ويورد الشاعر في ملحمته كيف اثر الطبيب الخاص للملك في دفع الاخير الىٰ الاستسلام.

٤ – شخصية الشاه الضعيفة:

استخدم الشاعر اسلوب النقد اللاذع لشخصية الشاه الذي راح يمجد صفاته الحميدة!!

فهو من الرقة بحيث لايهابه العدو ومن الرحمة بحيث يثق المجرمون بعفوه وكرمه وقد بلغ من حبه لاسرته انه لايفارق جناح الحريم أبداً ولاينسى ان ينقد الشاه لموقفه المعادي للتصوف.

٥ – الانحاط الاخلاقي للمسؤولين والأمراء:

ويستمر الشاعر في اسلوبه النقدي فيهاجم الأمراء العظام أولاد الحرام، اولئك الحمقى والاشرار واقوام لوط، فهم من النهب والسرقة من بيت المال «فعول فعول فعول فعول» وفي النوم مفاعيل مفاعيل!!

لقد نسوا الصلاة ولكنهم يقومون باشياء اخرى عندما يسجدون!

ويصل في نقده الىٰ بعض الأمراء فيقول انهم اسوأ من محمود الافغاني وعندما ترتشي الحكومة فاقرأ على روحها الفاتحة.

٦ – ولا ينسى الشاعر ان ينتقد الصدر الاعظم

والذي عرف فيما بعد برئيس الوزراء اعتماد الدولة فتح علي الداغستاني وبالرغم من انتقاد الشاعر له ولكنه كان يشيد بكفائته السياسية وانتقد الشاه الذي قام بسمل عينيه بتحريض من طبيبه الخاص وملا باشي[1].

وبعد سمل عيني فتح علي هذا عين الشاه شخصاً آخر وقد وصفه الشاعر بالحمار والبقرة والابله المغفل والذي غط في نوم كنوم الارانب، جمع الىٰ جانب النهب الفسق والفجور ويحمله الشاعر مسؤولية عودة الشاه من قزوين الىٰ اصفهان وهي خطوة ظهرت فيما بعد آثارها السلبية؛ ذلك ان اصفهان بعد سقوط كرمان باتت اشبه بالساقطة عسكرياً بينما تتمتع قزوين بموقع استراتيجي اقوى من الناحية السياسية والجغرافية، وقد رأينا كيف استطاعت قزوين طرد المحتلين الافغان حتىٰ بعد استسلام الشاه لهم وتنازله عن العرش والتاج.

---

[1] الرئيس الاعلى والمشرف على كل مؤسسات الدولة الدينية وهو منصب استحدث في عهد شاه سلطان حسين المخلوع.

٧ - افلاس الخزانة بسبب النفقات الباهضة في امور شكلية او ترفيهية تافهة الى جانب اهمال في الانفاق على مؤسسات حيوية كالجيش.

اعتبر الشاعر هذه المسألة في طليعة العوامل التي قصمت ظهر البلاد، لقد تحول المسؤولون في البلاد الىٰ طغمة ناهبة أثرت بشكل رهيب على حساب مصادرة حقوق الآخرين، فاضافة الىٰ حرمان الناس العاديين من حقوقهم أهملت المؤسسة العسكرية واصبح الجنود لايتقاضون من مرتباتهم واستحقاقاتهم الاّ النزر القليل.

واصبح موظفي البلاط مجرد قطاع طرق ولصوص فعندما يتم صرف ميزانية للجيش فانها لاتخرج من البلاط الاّ وهي منهوبة بحيث لايبقى منها سوى اقل من السدس بكثير، مثل هذه الحالة تقصم ظهر الجيش وتجعله عاجزاً عن فعل شيء حتىٰ في أحرج الظروف.

٨ ـ عدم كفاءة القوات المسلحة:

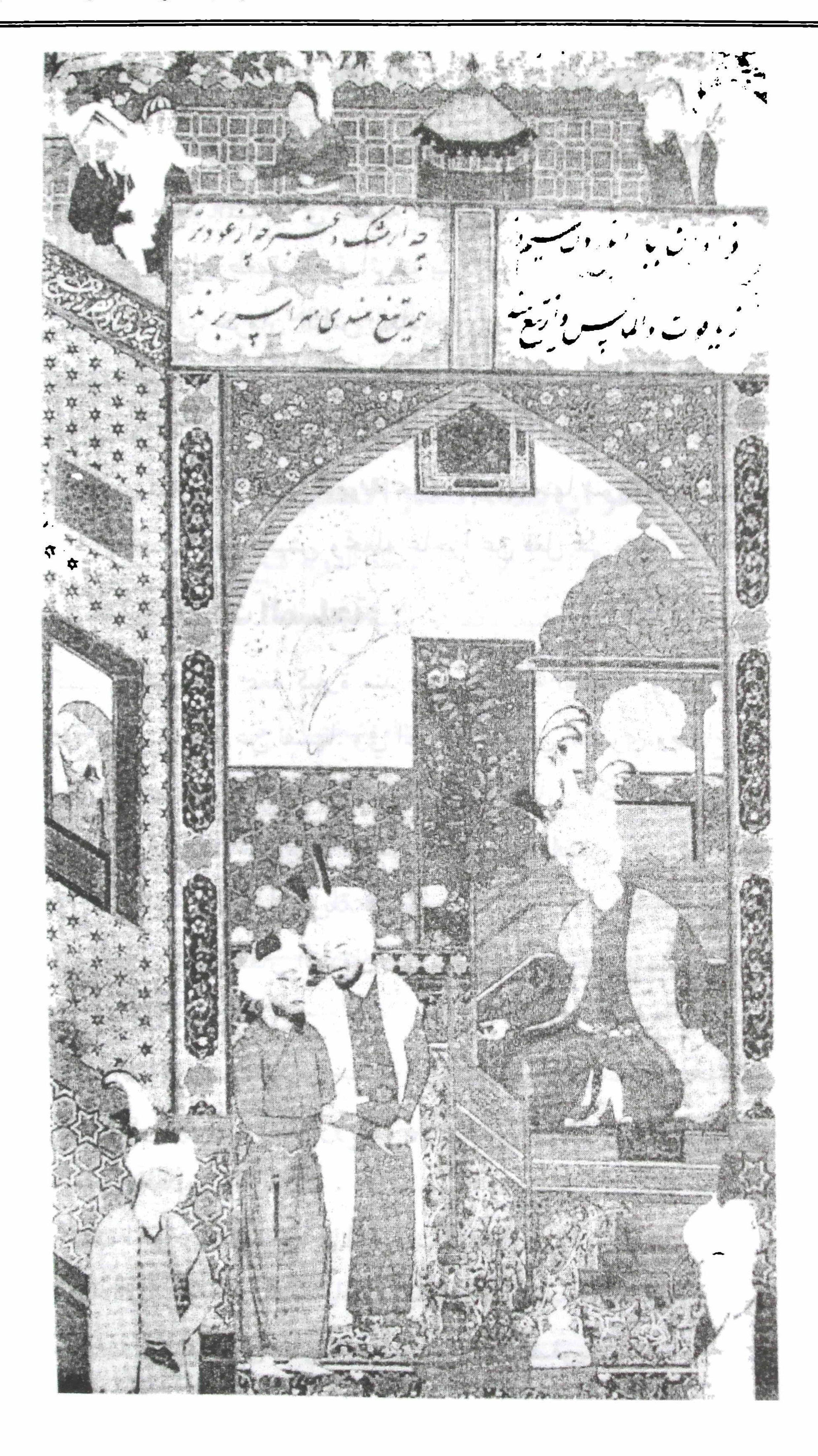
لقد اكتسب القزلباش سمعة كبيرة منذ ظهور الحركة الصفوية وجنوحها الىٰ استخدام القوة العسكرية في الدفاع عن نفسها. وفي الصراع العثماني الصفوي وصراع الدولة الصفوية مع الاوزبك كان مجرد ان تطير الانباء حول زحف القزلباش يكفي في بث الرعب في قلوب الآخرين، ولكن انظر ما حل بهذه المؤسسة العسكرية الضاربة من ضعف بحث اصبحت مؤسسة ورقية تناثرت مع أول زوبعة هبّت من الشرق.

وخلال الصراع مع الافغان القادمين من قندهار لم تقم القوات المسلحة بأية هجمات ذات بال.

ولم يحمّل الشاعر مسؤولية ما حصل افراد الجيش والقوات المسلحة بل حمّل البلاط والمسؤولين الحكوميين مسؤولية الروح الانهزامية التي استشرت في نفوس افراد الجيش في مواجهة الغزو الافغاني.

وقد اثبتت الحوادث فيما بعد في الهجمات التي قادها نادر قلي خان ذلك.

وخلاصة القول: ان «مكافات نامه» تنطوي على قيمة تاريخية في قدرتها على تفسير بعض الحوادث التي ادت الىٰ سقوط اصفهان والدولة الصفوية.



رسالة طب الممالك لقطب الدين النيريزي

من النصوص الهامة التي أُلّفت من اجل بيان عوامل سقوط اصفهان والدولة الصفوية رسالة طب الممالك وهي لاتكتفي بتحديد اسباب السقوط وانما حددت ايضاً مقومات استمرارها ذلك ان المؤلف كتب هذه الرسالة انطلاقاً من تصورات لأمكانية استمرار الصفويين في الحكم بعد فرار الغزاة الىٰ قندهار ووصول طهماسب[١] بن الشاه سلطان حسين الىٰ اصفهان ولكن الصفويين كانت قد دالت دولتهم حتىٰ نادر قلي خان الذي نصب نفسه شاه للدولة الصفوية وتسمى باسم عباس الثالث هو الذي اعلن بنفسه نهاية الحكم الصفوي وقد حاول وكما اشرنا سلخ ايران عن هويتها الشيعية.

ومع ذلك فان رسالة طب الممالك تحتفظ بقيمتها التاريخية لبيانها اسباب سقوط الدولة الصفوية والدول بشكل عام وعوامل بقائها.

واضافة الىٰ هذه الرسالة فان للنيريزي اثر آخر هو فصل الخطاب وهو كتاب ينقسم الىٰ قسمين الأوّل قصيدة تائية طويلة ضمّنها افكاره السياسية ومتبنياته الفكرية والقسم الآخر شروح على القصيدة وتعالج القصيدة بطبيعة الحال الفتنة الافغانية ونظراً لميوله الصوفية فان كلا الاثرين يكتسبان أهمية بالغة ويؤكد ان خطأ السياسة التي انتهجتها الدولة الصفوية ومحاربتها لهم. ولقد كان بالامكان تعبئة الرأي العام من خلال تأثيرهم الروحي والاجتماعي، ولعل في حوادث قزوين مايؤكد ذلك وفي تاريخنا العربي مايؤيد دور الصوفية وفي وقف المدّ المغولي في فلسطين وكان قد اجتاح ايران والعراق[٢].

ولد قطب الدين النيريزي في نيريز باقليم فارس عام ١١٠٠ هـ وتوفي سنة ١١٧٣ هـ ويُعدّ من اقطاب السلسلة الذهبية التي هي الاكثر اعتدالاً من بين التشكيلات الصوفية.

تنقل بين مدن عديدة لطلب العلم والدراسة؛ فسافر الىٰ شيراز واصفهان والنجف الاشرف وقزوين، ودرس الفلسفة والكلام الا انه ولّى وجهه شطر العرفان وكان في الخامسة

---

[١] سمى نفسه شاه طهماسب الثاني.

[٢] معركة عين جالوت سُحق الجيش المغولي وكان للصوفية دور كبير في تعبئة آلاف المتطوعين لمواجهة زحف المغول .

والثلاثين من عمره عندما سقطت اصفهان ويُعد من عرفاء العهد الصفوي وبالتحديد أواخره.

وقد شهد فصلاً من الصراع الدائر بين الفقهاء والصوفية وبسبب ميله الىٰ التصوف فقد كان يتألم لأساتذته وهو يرى ما يعانوه من ضغوط.

وبالرغم من موقف البلاط السلبي من الصوفية فقد اتخذ موقفه الىٰ جانب الحكم الصفوي وكانت له علاقة مع احد الأمراء ومن هنا كتب رسالة طب الممالك.

وهو يتبنىٰ موقف الصوفية الذي يحمّلون الفقهاء مسؤولية سقوط الدولة بسبب سياسة الاخيرة التعسفية ضد الصوفية وقد ورد في بعض اشعاره انه رأى في عالم الرؤيا صفي الدين وقد شكا شيخ وزعيم الاسرة الصفوية من اولاده الذين يحاربون التصوف. ونظراً لاهتمام النيريزي بمسألة سقوط الدولة وآماله في استعادة مجدها وهذا ما دعاه الىٰ تأليف رسالته فان ذلك يعد حالة من العودة الىٰ التصوف السياسي خاصة وان المتصوفة ظلّوا على تشكيلاتهم وكانوا يهاجمون الفقهاء متهمينهم بالانغماس في حب الدنيا والاعراض عن الزهد الذي هو شارة العلماء.

غير ان الفقهاء المسلحين بسلاح القلم انبروا الىٰ مهاجمة الصوفية وتفنيد مزاعمهم، وهذا ما جعلهم يتفوقون على الصوفية في الصراع الدائر فيما ظل المتصوفة بعيداً عن القلم وتأليف الكتب سواء في الدفاع عن انفسهم او في مهاجمة خصومهم.

وبالرغم مما شهده التصوف من ضغوط في اواخر الدولة الصفوية الا ان اتباعه كانوا في حالة تنامي في نفس الوقت الذي كانوا يجتنبون فيه مفردة التصوف محاولين ان يشيعوا مصطلحاً جديداً هو العرفان.

والحقيقة ان التصوف في العهد الصفوي لا يمكن ان يعد نسيجاً متوحداً منسجماً، لقد تنوع بتنوع تشكيلاته، فالتصوف الذي انتشر ابان الاحتلال المغولي لايران واقترن نموه بزوال الحضارة يختلف عن تصوف الحركة الصوفية التي نشطت سياسياً وعسكرياً واسست دولة قوية وحضارة.

ومن هنا فان الهجوم على الصوفية لايحمل معه مبررات كافية ومقنعة واتخذ حالة تعسفية خاصة مع ظهور شخصيات مثل النيريزي الذي كان يحمل في أعماقه هواجس

مستقبل امته ومجتمعه وهي هواجس ابعد ما تكون عن هموم المتصوف الذي يسبح في عوالم مغمورة بالنور والأوهام اللذيذة.

وفيما يخص رسالة طب الممالك فيبدو انـها ليست الوحيدة التي سطرها يراع النيريزي في هذا المضمار وقد اشار الىٰ ذلك صراحة في قصيدته الطويلة فصل الخطاب حيث يقول:

فانشأت انواع الرسائل ربما تنبّه اصحاب العقول الرزينة

رجوت صلاح الملك بعد فساده لذي كان في الآفاق ادهى المصيبة

كتبت لهم طب الممالك ربما تعالجها من طب اهل البصيرة

لكي يستفيقوا من غوائل سكرهم ولايقعوا في مثل تلك الحكاية

وكما اشرنا فان رسالة طب الممالك تم تأليفها بعد الهزائم التي الحقها نادر شاه بالافغان في دامغان شمال ايران واصفهان وشيراز وقد اضطر الغزاة الىٰ الفرار عائدين الىٰ قندهار عام ١١٤٣ هـ وبعودة شاه طهماسب الثاني تجددت الآمال بعودة الدولة الصفوية وتحسّن الاوضاع وعودتها كما كانت عليه قبل الاحتلال.

وتمتاز هذه الرسالة بجمعها بين الرؤية الدينية وبين الرؤية التاريخية فلم يغفل مؤلفها عن العناصر المادية في التحليل ومن هنا فهو يؤكد على البعد التغييري للانسان والمجتمع، بعيداً كل البعد عن الرؤية الجبرية التي تسلب الانسان دوره في العمل والبناء والهدم.

ومن هنا فان الانسان حسب هذه الرؤية مسؤول عما يجري من تغيرات وتحولات اجتماعية وسياسية واقتصادية انطلاقاً مما يحصل من تغييرات ثقافية.

ان انتخابه لمفردة طب يعني انه يعترف بدور الانسان الكامل في التغيير والمسؤولية.

وسنجد ان الرسالة تستلهم افكارها من القرآن الكريم ومن نهج البلاغة الذي يعد تفسيراً راقياً لما ورد من قوانين تاريخية وسنن في القرآن الكريم وسنرى ان نهج البلاغة يؤلف القسم الاعظم من تفكير النيريزي السياسي، ذلك ان نهج البلاغة نفسه هووليد تجربة تاريخية كبرى بما عايش وشهد وحلل من حوادث تاريخية عاصفة، والمؤلف يستنكر بشدة اهمال هذا الكتاب العظيم:

كأن لم يروا نهج البلاغة مطلقاً وما شاهدوا انواره بالبصيرة[١]

معترفاً بأن افكار نهج البلاغة سطعت على قلبه واضاءت رؤيته:

طلعت علي شموس نور كلامه وتنــورت بضيائها افيـــائي

ولقد رأيت ضيائها بفنائي فعبـــرت عن ظلمات دار فناء

اني أرى نهج البلاغة لمعةً من شمس حكمته على الغبراء[٢]

وعلى اية حالة فان المخاطب الاساسي في الرسالة هم العلماء وفي هذا تصريح بأنهم يتحملون المسؤولية الكبرى ما يحصل من تغيرات اجتماعية تجر الىٰ تغيرات سياسية وحوادث عسكرية.

ذلك ان الفقهاء امناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا؛ كما ورد في الحديث الشريف، وهو يستنكر عداءهم لاهل التصوف والعرفان الذين اختاروا حياة الزهد[٣] على انه يحمّل الجميع مسؤولية ماحدث مستشهداً بقوله تعالىٰ: (اتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)[٤].

ويمكن القول بتلخيص الاسباب التي أوردها في رسالته وأدت الىٰ الكارثة فيما يلي:

١ – نكث العهد مع الله سبحانه ورسوله(صلى الله عليه وآله).

٢ – ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣ – انغماس العلماء بحب الدنيا وتزلفهم الىٰ الطبقات المترفة والمسرفة في المجتمع ومداهنتهم الجبابرة من امثال معاوية.

٤ – غفلة السلطان.

٥ – الفساد الاداري المستشري في المؤسسات الدينية والعسكرية.

ومن خلال هذا التشخيص يطرح طرق العلاج فيما يلي:

---

(١) فصل الخطاب .

(٢) الرسالة الروحية للنيريزي.

(٣) يعنى النيريزي على الفقهاء عداءهم الصوفية، بينما الدولة الصفوية نهضت على اكتافها: «ولأن ملوك الشيعة انتسبو بهم بأنظارهم صاروا سراة الرعية».

(٤) الانفال: ٢٥.

١ – اقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ – اجتناب العلماء المداهنة والتحايل.

٣ – الزهد وانتهاج البساطة في العيش والابتعاد عن المترفين والسلاطين (المقصود هنا هم العلماء).

٤ – اتحاد العلماء ووحدتهم في القرارات (الفتوى).

٥ – تدوين دستور للبلاد يستند الىٰ ماورد في عهد الإمام علي الىٰ مالك الاشتر عندما ارسله حاكماً ووالياً على مصر.

٦ – الطلب من الشاه وحكام الولايات تعهداً بالعمل بهذا القانون الأساسي والدستور.

٧ – احياء القيم الانسانية من اجل الحؤول دون نفوذ العدو.

وفيما يلي النص الكامل لرسالة طب الممالك:

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي هو مولاكم نعم المولىٰ ونعم النصير (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير)[١]؛ (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير)[٢] والصلاة والسلام على الشاهد البشير النذير، الداعي الىٰ الله باذنه والسراج المنير، محمد المصطفى وآله مصابيح الدجى ومفاتيح الرجاء الذين يُنقذون امته من عذاب يوم كبير.

اما بعد: فيا معشر العلماء ان هذا الكتاب الذي لاح هو الحق القراح[٣] وان كان الحق لمُرٌّ «ولقد جيء من سبأ بنبأ يقين واوتي بشهاب قبس»[٤] من كتاب الله المبين، ومن كلمات يعسوب الدين امير المؤمنين(عليه السلام) «وتعيه اذن واعية»[٥] من زمرة الشيعة الائمة المعصومين(عليهم السلام).

---

[١] الانعام: ١٨

[٢] فاطر: ١٣

[٣] الخالص

[٤] اقتباس من سورة النمل: ٢

[٥] اقتباس من سورة الحاقة: ١٢

فيا علماء دين الله وشيعة آل رسول الله لقد طلعت ناجية فتنة عمياء، ونزل بلاء وتغيرت النعماء، وسفكت الدماء، وسبيت أولاد الشيعة، ونسوانهم كالعبيد والإماء، واعتلت كل الممالك بأنواع العلل، حتىٰ عجز عنه الاطباء، واختلفت وتحيرت في معالجته آراء الأذكياء والألبّاء، ولايجدون لهذا الداء الدوي دواء، وليس هذا العصر الا زمان الحيرة وغيبة الامام، وما بقي لنا معالجة الا التداوي بكلام الله العزيز العلام، والإئتمام في مثل هذه الدواهي العظمى بأحاديث الأئمة المعصومين(عليهم السلام) وهم الدعاة الىٰ الله .

فـ (فياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض)[١] ولا في السماء وماله من دون الله من ولي ولانصير.

فوجب ذكر اسباب اعتلال هذه المملكة واختلاله وعلاماته ومعالجاته من كلام الله وكلامهم(عليهم السلام) كيلا يقول الناس (انا كنا عن هذا غافلين)[٢]؛ (ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين)[٣]؛ فعليكم نسخةً من قانون رب العالمين الذي وصفه الله بقوله (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين الا خسارا)[٤] ومن كلمات يعسوب الدين امير المؤمنين والأئمة المعصومين عليهم صلوات الله والملائكة والناس اجمعين، وبمثل هذا يتداوى داء العليل (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل)[٥]. فان نسب قائل قائله الىٰ جنة، فقد قال عز من قائل (قل انما اعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنىٰ وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة)[٦]فانه لن يدعو في هذا الكتاب ان شاء الله الا بما دعا به أمير المؤمنين(عليه السلام)حيث قال: «اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الاصلاح

---

[١] الاحقاف: ٣٠ - ٣١

[٢] الاعراف: ١٧٢

[٣] الاعراف: ٨٩

[٤] الاسراء: ٨٢

[٥] الاعراف: ١٧٢

[٦] سبأ: ٤٦

في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك ويُقام المعطل من حدودك»[١] انتهى كلامه (عليه السلام).

اما الاسباب والعلامات

فهي ما قال امير المؤمنين(عليه السلام): «ايها الناس ان الدنيا تغُرُّ المؤمل لها والمخلد اليها ولا تنفس بمن نافس فيها بل[٢] تغلب من غلب عليها؛ وايم الله ما كان قوط قط في غض نعمة من عيش فزال عنهم الا بذنوب اجترحوها لان الله ليس (بظلام للعبيد) ولو ان الناس حين تنزل بهم النقم وتزول عنهم النعم فزعوا الىٰ ربهم بصدق من نياتهم ووله من قلوبهم لرد عليهم كل شارد وأصلح لهم كل فاسد وإني لاخشى عليكم ان تكونوا في فترة وقد كانت أمور مضت مِلتُم فيها ميلة كنتم فيها عندي غير محمودين ولئن رد عليكم امركم لسُعداء وما عليَّ الا الجهد ولو أشاء ان اقول لقلت: عفا الله عما سلف»[٣] انتهى كلامه عليه الصلاة والسلام.

وقد روى في الكافي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): «خمس ان ادركتموهن فتعوذوا بالله منهن...» وساق الحديث الىٰ ان قال: «ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله الا سلط عدوهم وأخذ بعضهم ما في أيديهم ولم يأمروا بالمعروف ولم ينهوا عن المنكر الا جعل الله بأسهم بينهم»[٤]؛ في حديث آخر: «لم يأمروا بالمعروف ولم يتبعوا الاخيار من أهل بيتي الا سلط الله عليهم شرارهم فيدعوا خيارهم فلايستجاب لهم»[٥] صدق رسول الله(صلى الله عليه وآله).

وفي التهذيب عن ابي جعفر(عليه السلام) وذكر حديثاً طويلاً يتضمن تهديداً ووعيداً لتارك

---

[١] نهج البلاغة، الخطبة ١٣١، في النهج: (ط صبحي الصالح) «وتقام المعطلة من حدودك».

[٢] في النهج «بدل» «و»

[٣] نهج البلاغة، الخطبة ١٧٨.

[٤] الكليني، كافي: ج٢، ص ٢٧٣ وفي المطبوع.. واخذوا بعض ما في ايديهم و لم يحكموا بغير ما انزل الله (عزوجل) الا جعل الله عزوجل بأسهم بينهم.

[٥] الكليني، كافي: ج٢، ص ٣٧٤، وفي الكافي «... واذا لم يأمروا بالمعروف و لم ينهوا عن المنكر و لم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي سلط الله عليهم شرارهم...

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم قال: «ان الله عزوجل اوحى الىٰ شعيب النبي(عليه السلام) إني معذب من قومك مئة الف، اربعين ألفاً من شرارهم وستين الف من خيارهم، فقال(عليه السلام): يارب هؤلاء الاشرار، فمابال الأخيار؟ فأوحى الله عزوجل اليه: «إنهم داهنوا أهل المعاصي ولم يغضبوا لغضبي»[١].

فليتفكر الفضلاء وليـ (كونوا قوامين بالقسط شهداء على الناس ولو على انفسكم او الوالدين والاقربين). وليعلم العلماء وكيف لايعلمون وهذا الكلام هو الحق المبين: انا لما تركنا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢] ولم نتبع الاخبار من اهل البيت(عليهم السلام)واتبعنا أهواءنا، داهنا أهل المعاصي ولم نغضب لغضب الله جل جلاله بل اكثر العوام «اتخذوا آيات الله هزواً وغرتهم الحياة الدنيا»[٣]. وفريق من الخواص «نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ليشتروا به ثمناً قليلاً»[٤] فأعرضنا عن طريق الأئمة المعصومين(عليهم السلام) وركنا الىٰ الذين ظلموا ابتغاء للجاه والعزة عند الامراء والسلاطين وتقربنا الىٰ قوم، انهم كانوا قبل ذلك مترفين، فأكلنا بهم الدنيا، واستمتعنا بها في رهط من المسرفين، وقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «ان الناس مع الملوك والدنيا الا من عصم الله»[٥] ونستعيذ بالله ان نكون مصداقين لما ورد في الكافي عن ابي عبدالله(عليه السلام): «اذا رأيتم العالم مُحباً للدنيا فاتهموه على دينكم فان كل محب لشي يحوط ما احب» وقال(عليه السلام): «اوحى الله تعالىٰ الىٰ داود لاتجعل بيني وبينك عالماً مفتوناً بالدنيا فيصدّك عن طريق محبتي فان اولئك قطاع طريق عبادي المريدين، ان ادنى ما انا صانع بهم ان انزع حلاوة مناجاتي من قلوبهم»[٦].

---

[١] العاملي، الشيخ الحر، الوسائل: ج١١، ص ٤١٦، عن الكليني في فروع الدين: ج١، ص ٣٤٢ والطوسي في التهذيب: ج٢، ص ٥٨.

[٢] يقول المؤلف في فصل الخطاب (ص ٩٥):

فلم يأمروا بالعرف فيهم وداهنوا *** لدى منكرات شاهدوا في الشريعة

لاجلالهم في شأنهم امرائهم *** فلم يتناهوا بينهم بالمودة

اذا سلط الله الشرار فقاتلوا *** و لم يستجب فيهم دعاء الأحبة

[٣] اقتباس من آية (ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتكم الحياة الدنيا)، الجاثية: ٣٥.

[٤] اقتباس من سورة البقرة: ١٠١.

[٥] نهج البلاغة، الخطبة ٢١٠ في الكافي «انما الناس...».

[٦] الكليني، كافي: ج١، ص ٤٦.

وقال رسول الله(صلى الله عليه وآله): «الفقهاء أمناء الرسل ما لم يدخلوا في الدنيا، قيل: يارسول الله وما دخولهم[١] في الدنيا؟ قال: اتباع السلطان: فاذا فعلوا ذلك فاحذروهم على دينكم»[٢].

وعن ابي جعفر(عليه السلام) قال: «من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء او يصرف به وجوه الناس اليه، فليتبوأ مقعده من النار ان الرياسة لاتصلح الا لاهلها»[٣]، الحديث. فحينئذ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس)[٤]الآية. وقد قال تعالىٰ شأنه: (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم)[٥] الآية.

فصار امر السلطان والأمراء والرعية في المثل كما قال عز شأنه: (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنةً يأتيها زرقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)[٦].

ولقد قال عز من قائل: (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذاباً من فوقكم او من تحت أرجلكم او يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون)[٧]، فقد أذاق الله تعالىٰ بعضنا بأس بعض كما قال تعالىٰ: (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون)[٨]، وقال تعالىٰ: (ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم

---

[١] في الاصل «دخلوهم» وهو غير صحيح.

[٢] الكليني، كافي: ج١، ص٤٦.

[٣] الكليني،كافي: ج١، ص ٤٧.

[٤] الروم: ٤١

[٥] الانفال: ٥٣

[٦] النحل: ١١٢، يقول المؤلف في فصل الخطاب (٩٥):

كما في تواريخ النبيين قد مضت — وقايع من امثال تلك الحكاية

وكانت لهم أمصـــارهم مطمئنة — وآمنة في نعمـــة ذات وسعة

ويأتي لهم أرزاقـــهم رغـــداً من — الأماكن في عز وأمن وراحة

وقد كفروا فيهـــا بأنعم ربهـــم — بتشنيع أهل الفقر في كل بلدة

[٧] الانعام: ٦٥

[٨] الانعام: ١٢٩

وأهلها غافلون)[١] و (ان الله لايظلم الناس شيئاً ولكن الناس انفسهم يظلمون)[٢].

واما المعالجات

فيا عباد الله لقد نودي فينا بالرحيل، ولم يبق لنا في تلك القرى من الرعية الا القليل، واستهلك اهل الخراج والتجار، واهل الصناعات والفقراء والمساكين، حتىٰ انه لايسمع في الدور والأسواق الا صراخ الحنين والأنين، ومات كثير منهم من الجوع والقحط والسنين، واما المستمتعون من الدنيا والمسرفون والاغنياء الغافلون المترفون، فهم الآن بعد مطمئنون ويظنون انهم آمنون معافون، بل يزعمون انهم يمهلون بعد هلاك الفقراء والمساكين حتىٰ يلاقوا يوماً آخر فيه يستمتعون (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون)[٣] ووالله ان الغيرة الإلهية بعد هلاك العجزة والمساكين، ما اقتضت ان يعافوا في هذه الداهية، بل «يسقي آخرهم بكأس أولهم»[٤]، و (وما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتىٰ يميز الخبيث من الطيب)[٥] الآية. قال جل جلاله: (يا أيها الناس أنتم الفقراء الىٰ الله والله هو الغني الحميد ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز)[٦].

وقال جل سلطانه: (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد)[٧].

وقد روى ان الناس في زمان رسول الله(صلى الله عليه وآله) قحطعوا حتىٰ أكلوا العلهز وهو الوبر بالدم فنزل قوله تعالىٰ: (ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجّوا في طغيانهم يعمهون ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتىٰ اذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون)[٨].

---

(١) هود: ١١٧

(٢) يونس: ٤٤

(٣) النبأ: ٤، ٥

(٤) اقتباس من كلام أمير المؤمنين في النهج: «ولسقيت آخرها بكأس أولها» الخطبة ٣.

(٥) آل عمران: ١٧٩

(٦) فاطر: ١٥، ١٦

(٧) الحج: ٤٥

(٨) المؤمنون: ٧٥، ٧٦، وانظر تفسير الصافي: ج٣، ص ٤٠٦.

فيا علماء دين الله ودين خاتم النبيين، ويازمرة شيعة أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، الله الله في دمائنا ودمائكم ودماء المسلمين ونسواننا وذرارينا من نهب الظلمة المخالفين الجاحدين، وان هذه الداهية عظمى لايزعم احد انه اذا داهن فيها يترك سدى بل تلك الواقعة هي كما قال قائل:

لقد جاءت خطوب وادلهمت ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار من عودين تـــورى وان الحـــــــرب اوله كلام
اذا لم يطفـــــها عقلاء قـــوم يكون وقودها جُثَثٌ وهـــام

وليس العقلاء الا العلماء كما قال جل من قائل: (وما يعقلها الا العالمون)[١] وليس المكلف الا اولو الالباب، وليس الأمر الا عليهم أشد، والحجة كل يوم الا عليهم أجد، وقد قال جل من قائل: (وانيبوا الىٰ ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون)[٢].

وليس حقيقة الايمان والاسلام الا التحكيم الىٰ رسول الله(صلى الله عليه وآله) والتسليم لأمر الله جل وعز كما قال تعالىٰ: (فلا وربك لايؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في انفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)[٣]، ومن أعظم امر الله جل و عز ما امر به العلماء حيث قال: (ولتكن منكم امة يدعون الىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون)[٤].

وقال: (ومن لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الكافرون)[٥]، و(الظالمون)[٦] و (الفاسقون)[٧]. وعن النبي(صلى الله عليه وآله): «اذا ظهر البدع في امتي ليظهر العالم علمه، ومن

---

[١] العنكبوت: ٤٣
[٢] الزمر: ٥٤
[٣] النساء: ٦٥
[٤] آل عمران: ١٠٤
[٥] المائدة: ٤٤
[٦] المائدة:٤٤
[٧] المائدة:٤٧

لم يفعل فعليه لعنة الله»[١] الحديث.

فتعالوا نستغفر الله مما فرّطنا في الايام الخالية، حيث مِلنا الىٰ الجبابرة الذين اتبعوا سُبُل المعاوية، اليوم الالسن مطلقة، والجوارح سليمة، والفرصة معدّة من قبل: (ان تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت في جنب الله وان كنت لمن الساخرين)[٢]، وقال عز من قائل: (اذ جاءوكم من فوقكم ومن اسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله بالظنونا. هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غروراً)[٣]، كلا ثم كلا ان وعد الله حق، وقد وعدنا الله النصر لمن نصره، فقال: (ياأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)[٤]، فاذا لم ننصر دين الله فكيف ينصرنا الله، ويربط على قلوبنا، ويثبت اقدامنا، ويقذف الرعب في قلوب أعدائنا وقد قال جل سلطانه: (وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)[٥].

فليعلم العلماء والفقهاء الراشدون، وكيف لايعلمون وقد حصحص الحق ان الامر علينا اشد، والحجة ابلغ، ولانرى بيننا من كتاب الله الا ورقاً مزبوراً وقال الرسول: (وقال الرسول يارب ان قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً)[٦]. ولربما يظفر أعداؤنا ولانشك انهم (اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون)[٧]، (وماتدري نفس ماذا تكسب غدا)[٨].

فيا معشر إخوان المؤمنين وعلماء منهاج أمير المؤمنين(عليه السلام) انما الواجب علينا ان نقرأ في هذه الواقعة، خطبة أمير المؤمنين المسماة بالقاصعة[٩] حتىٰ نضع من رؤوسنا في مثل

---

[١] كليني، الكافي: ج١، ص ٥٤ وفيه «ظهرت».

[٢] الزمر: ٥٦

[٣] الاحزاب: ١٠، ١١

[٤] محمد: ٧

[٥] آل عمران: ١٢٦

[٦] الفرقان: ٣٠

[٧] النمل: ٣٤

[٨] لقمان: ٣٤

[٩] يقول المؤلف في فصل الخطاب (ص ٩٥):

كأن لم يروا نهج البلاغة مطلقاً — وما شاهدوا أنواره بالبصيرة

هذه الدواهي، تيجان المفاخرة والإستكبار، ونتواضع للعزيز الجبار، ليكون الدين كله لله ولانجاة في امواج هذه الفتن الا بسُفن النجاة وهم الأئمة الهداة(عليهم السلام) كما ورد عن النبي(صلى الله عليه وآله): «مثل اهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك»[١]، (لاعاصم اليوم من أمر الله الا من رحم)[٢]، فحق علينا ان نأتمر بما أمر به أمير المؤمنين(عليه السلام) حيث قال: «أيها الناس شقوا امواج الفتن بسفن النجاة وعرجوا عن طريق المنافرة وضعوا تيجان المفاخرة؛ افلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح»[٣] انتهى كلامه(عليه السلام) (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً)[٤]الآية. حتىٰ يفتح الله لقومنا أبواب الرحمة و (وما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم)[٥].

فنقول وبالله التوفيق ان اصل المعالجات وطريق النجاة من هذه الهلكات، اطاعة كلام امير المؤمنين ويعسوب الدين الذي من اطاعه اطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، ومن اعتصم به فقد اعتصم بالله، ولقد بين اوصاف المسلمين بقوله(عليه السلام):

«ولقد علمتم انه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وامامة المسلمين البخيل فيكون في اموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه ولا الخائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم ولاالمرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق[٦] ويقف بها دون المقاطع ولا المعطل للسنة فتهلك»[٧][١].

لقد غفلوا عن خطبة فيه سميت	بقاصعة كي يفهموا بالكياسة
وانشدكم بالله ان تنظروا الى	شروق معانيها بنور الفراسة
وانشدكم بالله ان تنظروا الى	حقايقها العليا بنور الفطانة

(١) والحديث اشهر من أن يذكر مصادره.

(٢) هود: ٤٣

(٣) نهج البلاغة، الخطبة: ٥

(٤) آل عمران: ١٠٣

(٥) فاطر: ٢

(٦) وفي النهج «بالحقوق».

(٧) في نهج البلاغة «فيهلك الأمة».

وقال أيضاً(عليه السلام): «اللهم ايما عبد من عبادك سمع مقالتي[٢] العادلة غير الجائرة وسمع المصلحة في الدين غير المفسدة[٣] فأبىٰ بعد سمعه لها إلاّ النكوص عن إعزاز دينك وعن نصرتك والإبطاء[٤] فانا نستشهدك عليه ياأكبر الشاهدين شهادة ونستشهد عليه جميع من[٥] اسكنته ارضك وسماواتك. ثم انت بعد الغني عن نصرته[٦] والآخذ له بذنبه»[٧] انتهى كلامه(عليه السلام).

(فليحذر الذين يخالفون عن امره ان تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)[٨]، فلقد علمتم أنه اذا كان السلطان هو الجاهل الذي لا عقل له، يستمع مقال كل أحد خيراً كان أو شراً، ولم يكن مميزاً بين صديقه وعدوه، وبين من يعمر ملكه ويخربه، وكان هو الجافي الخائف المرتشي المعطل للسنة فقد أهلك الأمة، واذا لم يكن من اولي العزم الذين استقاموا بالقول والميثاق وذاع امره في كل البلاد والآفاق، فذا قد طمع في ملكه ودولته الارذلون، أفلا يطمع فيه الاعزون كالروم والهند وغيرهما؟ فحينئذ، ان مضت هذه الواقعة بالخير والنصرة والظفر، فقد كانت لصغيرة وتبقى الواقعات الكبرى والمرجفات العظمى، لانه بعد هذه الداهية لن يخاف عنه خائف ولن يرجو عنه راج، وانما ملاك الظفر على الاعداء، الخوف والرجاء عند الحرب والهيجا، فإلام تدهنون وحتّام تتسامحون في دين الله، وفريق منكم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية[٩].

فاصدعوا بما تؤمرون بأمر إمامكم امير المؤمنين(عليه السلام) (ولاتهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين)[١٠]، (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)[١]، فاقتبسوا

---

[١] نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.

[٢] وفي نهج البلاغة (مقالتنا»

[٣] وفي نهج البلاغة «والمصلحة غير المفسدة في الدين والدنيا».

[٤] وفي النهج: النكوص عن نصرتك الابطاء عن اعزاز دينك.

[٥] وفي النهج «ما» بدل «من».

[٦] وفي النهج «المعنى عن نصره».

[٧] نهج البلاغة، الخطبة ٢١٢.

[٨] النور: ٦٣

[٩] اقتباس من سورة النساء: ٧٧

[١٠] آل عمران: ١٣٩

فاقتبسوا من أنوار مشكاة ارشاده وهدايته بالالتماس، والله يعصمكم من الناس.

وقد ورد في الحديث: «لكل امر مشكل القرعة»[٢]، فأجمعوا بعد القرعة كلمتكم على سلطان من هذه «السلسلة الجليلة الصفوية»، فخذوا عليه بميثاق امر به وتعاهد عليه امير المؤمنين(عليه السلام) «مالك ابن الأشتر» حين ولاه مصر: «جبوةَ خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها»[٣]، وأبان(عليه السلام) له دستور الخلافة والإمارة، وسياسة المدن، وكيفية المعاملة مع طبقات الرعية التي «لايصلح بعضها الا ببعض من جنود الله وكتاب العامة والخاصة وقضاة العدل وعمال الانصاف والرفق وأهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس والتجارة واهل الصناعات والطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة»، حتىٰ انه(عليه السلام) بيّن طريقة السلوك مع العمال بالاختيار، وكيفية المستشار وتجهيز الجيوش، وإرسال العيون، وغير ذلك مما لاغناء عنه للولاة، وأمان في سبيل النجاة، كما هو في نهج البلاغة مذكور ولمنهاج مصالح العباد نور على نور.

وليكتب على هذه المعاهدة كاتب بالعدل[٤] كتاباً بينه وبينكم وبين الرعية، وأرسلوا الىٰ كل الممالك المحروسة، فان العلة لخراب المملكة ليست غلبة الاعداء بل كانت أولاً غفلة السلطان وارتشاء الامراء، فأن ظننتم ان الاعادي سوف يهلكون، فالعلة الاولىٰ باقية، ومازالت بعد، فهل بمثل غير هذا يتداوى داء العليل وان لم تفعلوا(فهل الىٰ خروج من سبيل)[٥]، ولقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «اللهم قد ملّ اطباء هذا الداء الدوي وكلّت النزعة بأشطان الركى، اين القوم الذين دعوا الىٰ الاسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه، وهيجوا[٦] الىٰ الجهاد فولهوا، وله اللقاح[٧] عن اولادها، وسلّوا السيوف أغمادها، وأخذوا

---

[١] الانفال: ٢٥، والمؤلف يقول في فصل الخطاب (٩٥):

وذلك معنى واتقوا الفتنة التي *** تصيب جميع الناس في كل بلدة

[٢] راجع لأدلة القرعة: العاملي، الشيخ الحر، الوسائل: ج١٨، ص ١٨٧ - ١٩٢.

[٣] نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

[٤] اقتباس من آية ٢٨٢ من سورة البقرة «وليكتب بينكم كاتب بالعدل».

[٥] غافر: ١١

[٦] وفي النهج «وهيجوُا».

[٧] وفي النهج «الى» بدل «عن».

بأطراف الأرض زحفاً زحفاً وصفاً صفاً، بعض هلك وبعض نجا، لايبشرون بالاحياء ولايعزون عن القتلى[١] مُرهُ العيون عن البكاء، خُمص البطون من الطوى[٢] ذُبل الشفاه من الدعاء، صُفر الالوان من السهر على وجوههم غبرة الخاشعين، اولئك إخواني الزاهدون[٣] فحق لنا أن نظمأ اليهم ونعض الأيدي على فراقهم[٤] الحديث.

فيا اخواننا في الدين وياعلماء امة سيد المرسلين(صلى الله عليه وآله)! فان لم تكونوا من القوم والرجال الذين وصفهم امير المؤمنين وإمام المتقين عليه الصلاة والسلام فلا اقل، لابد لبقاء الحياة وحفظ البنين والبنات والزوجات، من امر يعاف من الاعتصام به دماءنا ويحفظ ذرارينا ونسواننا من العار العظيم من قبل أن يجمع العار والعذاب الاليم (ولات حين مناص)[٥]، فحينئذ لاعار في المصالحة والمسالمة بين الفريقين حفظاً لحياة المسلمين، ومناصاً من القحط والسنين، ولقد صالح الحسن بن علي(عليهما السلام)معاوية (لعنه الله) وقد ورد انه لما تم صلحهما صعد المنبر، فحمد الله ثم قال: «ياأيها الناس ان الله هدى اولكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا، وقد كان لي في رقابكم بيعة، تحاربون من حاربتُ وتسالمون من سالمتُ، وقد سالمتُ معاوية فبايعته فبايعوه»، (وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع الىٰ حين) اشار بيده الىٰ معاوية.

وروي ان سليمان بن صرد وكان سيد أهل العراق ورأسهم فدخل على الحسن(عليه السلام) فأجاب عنه(عليه السلام) بما اجاب الىٰ ان قال: وكنت بالحزم في امر الدنيا وللدنيا أعمل وانصب واكدح ماكان معاوية أبأس مني بأساً ولا أشد منىٰ شكيمةً ولكان رأيي غير ما رأيتم و لكني اشهد الله واياكم اني لم ارد بما رأيتم الا حقن دماءكم وصلاح ذات بينكم، فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله وسلموا لامر الله والزموا بيوتكم وكفوا ايديكم حتىٰ يستريح

---

[١] وفي النهج «الموتى» بدل «القتلى».

[٢] وفي النهج «الصيام».

[٣] وفي النهج «الذاهبون».

[٤] نهج البلاغة، الخطبة ١٣١.

[٥] ص: ٣

بار ويُستراح من فاجر[١]، ان ابي رحمه ا لله كان يحدثني: ان معاوية سلبني هذا الامر، فوالله لو سرنا اليه بالجبال والشجر مع الناس ما شككت انه سيظهر، ان الله لامعقب لأمره ولاراد لفضله، وأما قولك يامذل المؤمنين فوالله لئن يذلوا ويعافوا أحب الىٰ من أن يغزوا ويقتلوا، فان رد الله علينا حقنا في عافية قبلنا، وسألنا الله العون على أمره ، وان صرفه عنا فليكن كل رجل منكم حِلساً من أحلاس بيته مادام معاوية حياً، فان يهلك ونحن وأنتم احياء سألنا الله العزيمة على رشدنا والمعونة على أمرنا وان لا يكلِنا الىٰ انفسنا (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)[٢] انتهى كلامه(عليه السلام).

فيا ايها العلماء الذين شبه رسول الله(صلى الله عليه وآله) شأنهم بالانبياء، حيث قال: «علماء امتي كانبياء بني اسرائيل»[٣]، لقد كان من شأن الانبياء ما اوضح الله بقوله: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثيرٌ فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) الىٰ قوله: (فأتاه الله ثواب الدنيا وحسنُ ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)[٤] الآية، فادعوا الىٰ سبيل ربكم بالحكمة والموعظة الحسنة بشارة وإنذاراً واجعلوا لسانكم لساناً واحداً وجهاراً قائلين ما قال نوح(عليه السلام)لقوله: (استغفروا ربكم انه كان غفاراً)[٥].

فانكم معاشر العلماء ان اعتصمتم بحبل الله جميعاً ولاتفرقتم في كلمتكم معاهدتكم فتيقنوا انه لم يفترق عنكم احد من الرعية والامراء وعمال كل البلاد خوفاً من نزول العذاب والنكال والانقراض والإستيصال، ونستعيذ بالله ان نكون مصدافين لحديث ـ ان صح ـ فقد روي في كتاب الخرائج : «انه نادى رجل في مسجد رسول الله(صلى الله عليه وآله)، قال من يدلني على من أخذ علماً ومرّ فقال له أحد: ياهذا هل سمعت قول النبي(صلى الله عليه وآله): انا مدينة العلم وعلي بابها، فقال: نعم، فقال: أين تذهب؟ وهذا علي بن ابي طالب، فانصرف

---

[١] المجلسي، بحار الانوار، ج ٤٤، ص ٣٠، البلاذري، انساب الاشراف، (تصحيح محمد باقر محمودي) ج٢ ص ٤٨ - ٤٩.

[٢] النحل:١٢٨، الامامة والسياسة: ج١، ص ١٦٣ - ١٦٤.

[٣] السيوطي، جلال الدين، الدرر المنتثرة في الاحاديث المشتهرة: ص ١١٣، (مصر، الحلبي).

[٤] آل عمران: ١٤٦ - ١٤٧.

[٥] نوح: ١٠

الرجل وجثى بين يديه(عليه السلام)فقاله له: من أي بلاد أنت؟ فقال من اصفهان، فقال له أكتب: أملى علي بن أبي طالب(عليه السلام): ان أهل اصفهان لا يكون فيهم خمس خصال: السخاوة والشجاعة والأمانة والغيرة وحبنا أهل البيت، فقال: زدني ياأمير المؤمنين! قال باللسان الاصفهاني: أروث اين وس. يعني اليوم حسبك هذا»[1] الحديث.

فأين السخاوة والمؤاساة بيننا؟ والفقراء والمساكين لقد ماتوا من الجوع ويموتون، وقال: قال إمامنا أمير المؤمنين(عليه السلام): «أو أبيت مبطاناً وحولي بطون غرثى وأكباد حرى، أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء ان تبيت ببطنة وحولك أكباد تحنُّ الىٰ القد»[2]

وأين الشجاعة والامانة، وأين الغيرة وقد سبيت من اكناف البلاد النسوان واستحلت الفروج، وقعد قومنا مع القاعدين وماعزموا على الخروج، فان كان هذا هو التشيع والايمان، فقد قال جل من قائل: (قل بئسما يأمُركم به إيمانكم ان كنُتم مؤمنين)[3] .

ولقد كان مما وصى به أمير المؤمنين(عليه السلام) مالك الأشتر ان قال: «واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتواضع فيه لله الذي خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من حراسك وشرطك حتىٰ يكلمك متكلمهم غير متعتع فاني سمعت رسول الله(صلى الله عليه وآله) يقول في غير موطن: «لن[4] تُقدَّس امة لايواخذ[5] للضعيف فيه[6] حقه من القوي غير متعتع»[1] الحديث.

---

[1] الراوندي، الخرائج والجرائح: ج٢، ص ٥٤٥، مجلسي بحار الانوار ج٤١، ص ٣٠١. قال العلامة المجلسي بعد نقل الحديث هذا: كان أهل اصفهان في ذلك الزمان الى اوائل استيلاء الدولة القاهرة الصفوية ــ ادام الله بركاتهم ــ من أشد النواصب، والحمد لله الذي جعلهم أشد الناس حباً لأهل البيت(عليهم السلام)، وأطوعهم لأمرهم وأوعاهم لعلمهم وأشدهم انتظاراً لفرجهم، حتى انه لايكاد يوجد من يتهم بالخلاف في البلد ولا في شيء من قراه القريبة أو البعيدة وببركة ذلك تبدلت الخصال الأربعة أيضاً فيهم، رزقنا الله وسائر أهل هذه البلاد نصر قائم آل محمد(عليه السلام)والشهادة تحت لوائه وحشرنا معهم في الدنيا والآخرة.

[2] نهج البلاغة، الكتاب ٥٤، الفقرة ١٤.

[3] البقرة: ٩٣.

[4] وفي الاصل «لقد».

[5] وفي النهج «لايوخذ».

[6] وفي النهج «فيها».

فليعلم كل ذي حجى ان القوم لكما قال أمير المؤمنين(عليه السلام)، وليسو الا مصداقين لما قال الله تعالىٰ: (واذا تولىٰ سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد. وإذا قيل له إتّق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)[٢]، ومن رضى منهم لكان شريكاً في أوزارهم كما قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «أيها الناس انما يجمع الناس الرضا والسخط؛ انما عقر ناقة ثمود رجل واحد فعمهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، فقال سبحانه: (فعقروها فأصبحوا نادمين)[٣].

فقد ظهر من كلامه(عليه السلام) ان من رضي من مثل هذا السلطان، فقد رضي بتخريب ممالك المسلمين، وسفك دمائهم، وسبي ذراريهم، ونسوانهم، فهلاّ نكون من الحكماء الإلهيين، و الاطباء الروحانيين، والعلماء الربانيين الذين وصفهم الله تعالىٰ بقوله: (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون)[٤]، ونعتوا بقوله تعالىٰ: (الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)[٥].

وهم قوم اشار اليهم امير المؤمنين(عليه السلام): «طوبىٰ للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، اولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً، وماؤها طيباً، والقرآن شعاراً، والدعاء دثاراً، ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح(عليه السلام)»[٦]، وقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «وذلك زمان لا ينجو فيه إلاّ مؤمن نُوَمَة إن شهد لم يعرف وإن غابَ لم يُفتقد، اولئك مصابيح الهدى، واعلام السرى ليسوا بالمساميع ولا بالمذاييع[٧] البُذر، أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضراء نقمته، ايها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الاسلام كما تكفأ الإناء لما فيه، ايها الناس ان الله قد اعاذكم ان[٨] يجور عليكم ولم

---

[١] نهج البلاغة، الكتاب ٥٣، وفي النهج «متتعتع».

[٢] البقرة: ٢٠٥.

[٣] الشعراء: ١٥٧. نهج البلاغة، الخطبة ٢٠.

[٤] آل عمران: ٧٩

[٥] الحج: ٤١.

[٦] نهج البلاغة، قصار الحكم: ١٠٤.

[٧] وفي النهج «المذاييع».

[٨] وفي النهج «من ان...».

يعذكم ان يبتليكم»[١] وقد قال جل من قائل: (ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين)[٢].

ولقد أُبتلينا بداهية عمياء حندس، و قد قال امير المؤمنين(عليه السلام): «ولا يدعوا[٣]لك شرف امرء (الىٰ) ان تعظمَ من بلائه ما كان صغيراً ولاضَعَة امرء إن تصغِّر[٤] من بلائه ماكان عظيماً وازدد الىٰ الله ورسوله مايظلعك[٥] من الخطوب ويشتبه عليك من الامور، فقد قال الله تعالىٰ سبحانه لقوم احب ارشادهم: (ياأيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الىٰ الله والرسول)[٦]،

فالراد الىٰ الله: الاخذ بمحكم كتابه والراد[٧] الىٰ الرسول: الاخذ بالسنة الجامعة»[٨] الحديث.

وقد قال أمير المؤمنين(عليه السلام): «أيها الناس من سلك الطريق الواضح ورد الماء ومن خالف فقد وقع في التيه»[٩]، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ايها الناس لاتستوحشوا في طريق الهدى لقلة أهله، فان الناس[١٠] اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»[١١]، انتهى كلامه(عليه السلام).

فيا معشر إخواني المؤمنين وعلماء منهاج امير المؤمنين(عليه السلام)! لئن زعمتم انكم اليوم مستضعفون، فاخشوا من يوم يقول الذين استضعفوا (للذين استكبروا انا كنا لكم تبعاً فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء)[١٢]، فلاتكونوا تبعاً للمستكبرين واصبروا

---

[١] نهج البلاغة، الخطبة ١٠٣.

[٢] المؤمنون: ٣٠.

[٣] وفي النهج «يدعونك».

[٤] وفي النهج «تستصغر».

[٥] وفي النهج «يضلعك».

[٦] النساء: ٥٩.

[٧] وفي النهج «والرد».

[٨] نهج البلاغة، الكتاب ٥٣.

[٩] نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

[١٠] وفي النهج «فان الناس قد...».

[١١] نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١.

[١٢] ابراهيم: ٢١.

على الحق ولقد قال الله تعالىٰ: (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين)[١].

ثم انه اذا فعلنا ما أمر الله به، وكتبنا على ذلك كتاباً وفتوى بخواتيم جميعنا، ولم نفترق في الكلمة، فان شاء الله لن يفترق علينا احد من الرعية فيما نصح الله ورسوله وأمير المؤمنين(عليه السلام) في مصلحة الملك والملة والدين والدولة، فان قال قائل: ان القوم لايجيبون، فقد قال الله تعالىٰ: (وإذ قالت امة منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً قالوا معذرة الىٰ ربكم ولعلهم يتقون)[٢].

وقد ورد في الكافي عن أمير المؤمنين(عليه السلام): «ان العالم العامل بغيره كالجاهل الحاير الذي لايستفيق[٣] عن على هذا الجاهل المتحير في جهله وكلاهما حاير باير، لاترتابوا فتشكوا، و لاتشكوا فتكفروا ولاترخصوا لانفسكم فتدهنوا ولاتدهنوا في الحق فتخسروا»[٤]. الحديث.

فإياكم والمداهنة في الحق، ثم اياكم والمداهنة في الحق، ثم اياكم والمداهنة في الحق، (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)[٥].

ولقد قال الله تعالىٰ شأنه وعظم احسانه: (الر. كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. الا تعبدوا الاّ الله انني لكم منه نذير وبشير. وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعاً حسناً الىٰ اجل مسمىً ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير)[٦]، وقال عز شأنه: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً)[٧]، واني لاستغفر الله لنا ولكم، ولجميع المؤمنين والمؤمنات انه غفور رحيم، قائلين بما قال أبونا آدم(عليه السلام)(ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن

---

[١] البقرة: ١٥٥.

[٢] الاعراف: ١٦٤.

[٣] أوّل الحديث هكذا: ايها الناس أذا علمتم فاعملوا بما علمتم لعلكم تهتدون.

[٤] الكليني، الكافي: ج١، ص ٤٥، ونهاية الحديث هكذا: ومن الحق ان تفقهوا ومن الفقه ان لاتغتروا.

[٥] الانفال: ٢٥.

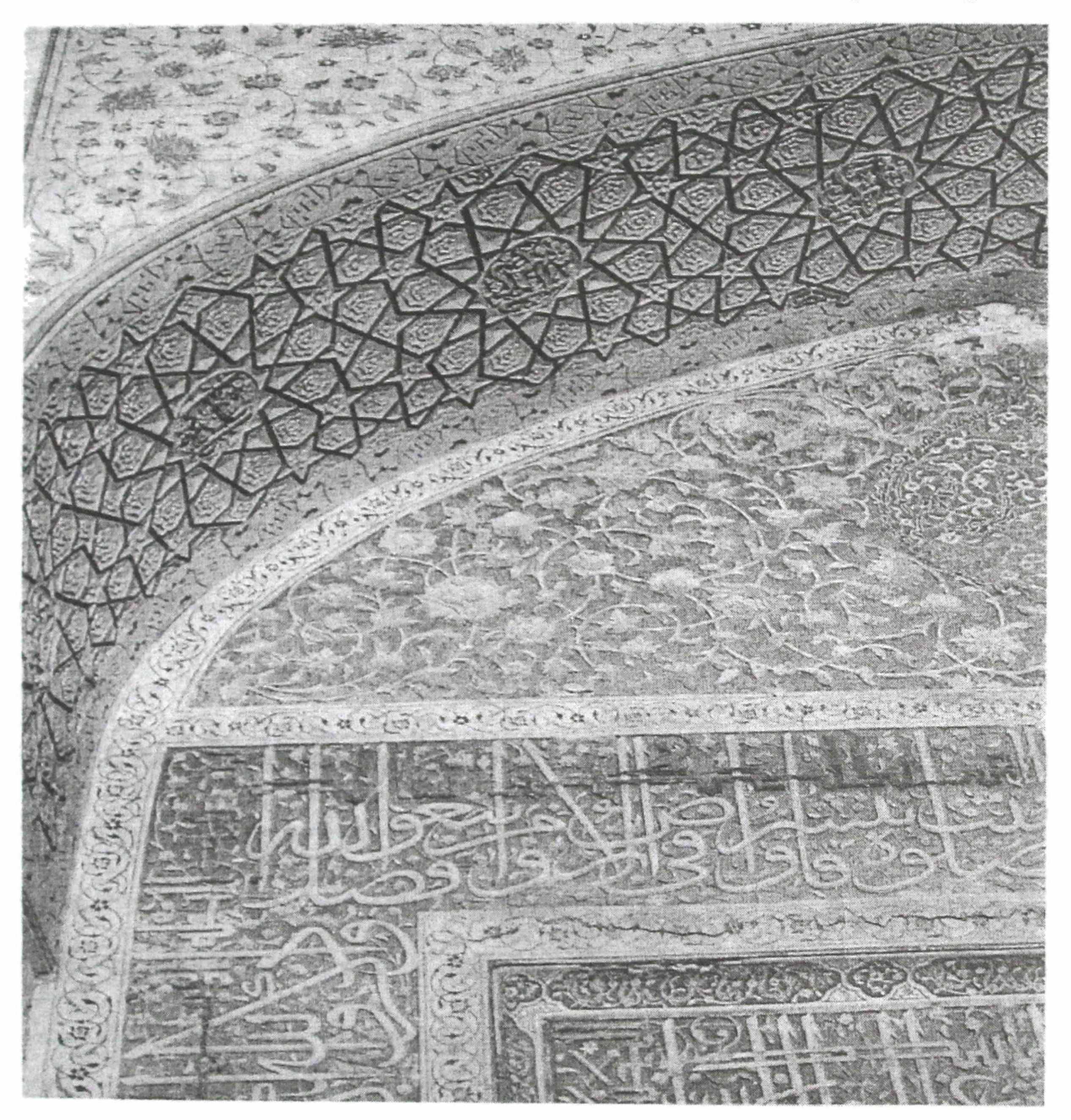
[٦] هود: ١.

[٧] النساء: ١١٠.

من الخاسرين)[١].

وجعلنا الله واياكم من الذين اخلصوا دينهم لله و(الا لله الدين الخالص)[٢].

والسلام علينا وعليكم وعلى كل من اتبع الهدى من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

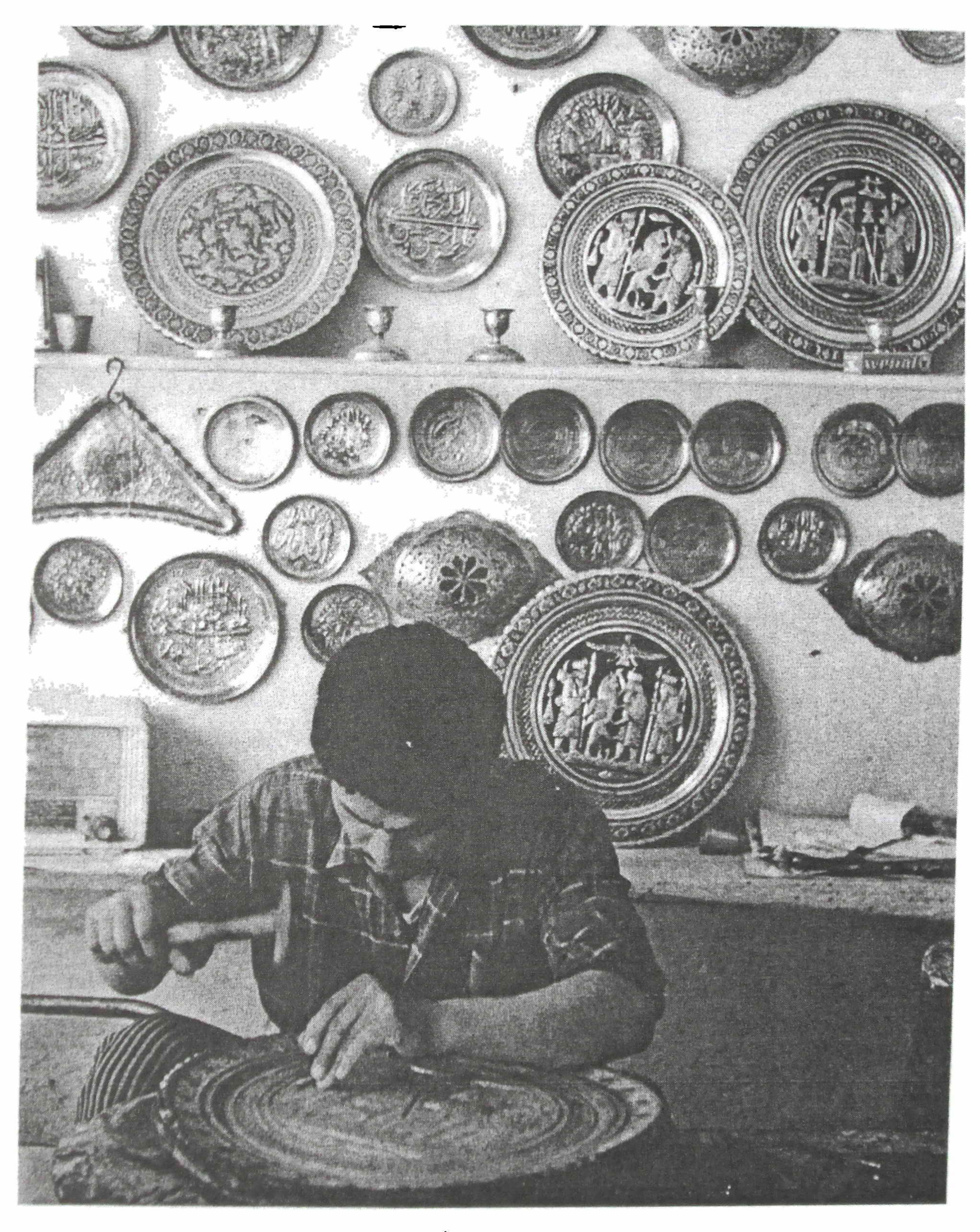


من اثار العهد الصفوى فى مدينة اراك

---

(١) الاعراف: ٢٣.

(٢) الزمر: ٣.



صناعات نحاسيه فى اصفهان

الملحق (١)
دولة الخروف الأبيض
(آق قويونلو)

اقترن زوال حكم القبائل التركمانية المعروفة بالخروف الأسود عام ٨٧٣ هـ بظهور دولة الخروف الأبيض ونهوضها على انقاض دولة الخروف الأسود.

ودولة الخروف الأبيض هي الأخرى زالت على ايدي الصفويين، وذلك في عام ٩٠٧ هـ بعدحكم ناهز النصف قرن من الزمن.

وعلى غرار القبائل التركمانية المعروفة بالخروف الأسود؛ فقد ظهر نوع من الاتحاد بين القبائل التركمانية القاطنة جنوب البحر الأسود لتشكل تجمعاً سياسياً عرف بقبائل الخروف الأبيض اسفر عن قيام دولة كبيرة.

وقد ارتبط تاريخ الصفويين بشكل وآخر مع هذه الدولة واذا ما راجعنا الفترة التاريخية التي مثلت جذور وارهاصات قيام الدولة الصفوية سنجد ان الشيخ جنيد وهو جدّ شاه اسماعيل الأوّل يلجأ الىٰ اوزون حسن (حسن الطويل) ويمكث عنده مدة ثلاث سنوات، وستدخل العلاقة بين الرجلين مرحلة اخرى اكثر قوة عندما تزوج الشيخ جنيد اخت اوزون حسن (خديجة بيگم).

وفي هذه الفترة تلتف القبائل التركمانية ذات الميول الشيعية والصوفية حول الشيخ جنيد مكونة قوة عسكرية لها وزنها، ولكي نسلط الضوء اكثر على هذه العلاقة نشير الىٰ ان اوزون حسن كانت تربطه علاقات مع حاكم طرابوزان الواقعة بين ارضروم والبحر الأسود وعندما يقرر السلطان محمد الفاتح ـ الذي دخل التاريخ من أوسع أبوابه باحتلاله

القسطنطينية وقضائه على امبراطورية الروم البيزنطيين في الشرق[١] ـ الهجوم على طرابوزان، وقف اوزون حسن الىٰ جانب حاكم طرابوزان الذي قدم لاوزون حسن اخته الحسناء كاترينا لتصبح زوجته. وستنجب الاخيرة بنتاً يتزوجها الشيخ حيدر نجل الشيخ جنيد وستنجب هذه الفتاة اسماعيل الصفوي أول ملوك الدولة الصفوية.

وبعد ان استحكم امر اوزون حسن في شرق الاناضول بدأ هجومه باتجاه دولة الخروف الأسود بزعامة جهانشاه.

وفي المعركة التي اندلعت في عام ٨٧٢ هـ انتصرت قبائل الخروف الأبيض بزعامة اوزون حسن وانطوت صفحة دولة الخروف الأسود.

وفي غمرة الصراع الاوربي العثماني حاول الاوربيون فتح جبهة ضد العثمانيين للتخفيف من ضغط الجيوش العثمانية الزاحفة في الغرب.

ولقيت تحريضات الاوربيين اذناً صاغية لدى اوزون حسن الذي غرّته انتصاراته وزعامته لدولة كبيرة فحشد قواته بالقرب من قونية عام ٨٧٦ هـ تمهيداً للهجوم ودارت معارك ضارية حقق فيها اوزون حسن انتصارات قبل أن يتلقى ضربة ساحقة، ولقي احد ابنائه مصرعه في المعركة الفاصلة؛ فيما فرّ أوزون حسن صوب تبريز.

وبعد خمس سنوات عوّض اوزون حسن خسارته في الحرب مع العثمانيين باحتلال جورجيا عام ٨٨١ هـ ليغمض عينيه بعد عام من هذا النصر.

وبعد وفاة اوزون حسن تربع على العرش ابنه سلطان خليل ولم يكن يتمتع بشخصية تؤهله للحاكم فعين اخاه يعقوب على ديار بكر وقد شغب الاخير على اخيه لينفرد بالحكم وحده بعد معركة دارت بينهما عام ٨٨٣.

وقد واجه يعقوب تحديات استطاع التغلب عليها ولعل اخطر ما واجهه هي ثورة الشيخ حيدر الصفوي، و قد تمكن من سحق الثائرين وقتل الشيخ حيدر فيما ارسلت زوجته واولاده الثلاثة ليسجنوا في اصطخر باقليم فارس.

ولقد تطرقنا الىٰ تفاصيل ما حدث بعد ذلك في الفصل الذي تناول مرحلة التأسيس

---

[١] تزامن هذا الانتصار الكبير للمسلمين مع مأساة سقوط الاندلس وغروب شمس الحضارة الاسلامية بسبب التمزق والتناحر الداخلي الذي عاشه المسلمون في ذلك المنعطف التاريخي الخطير.

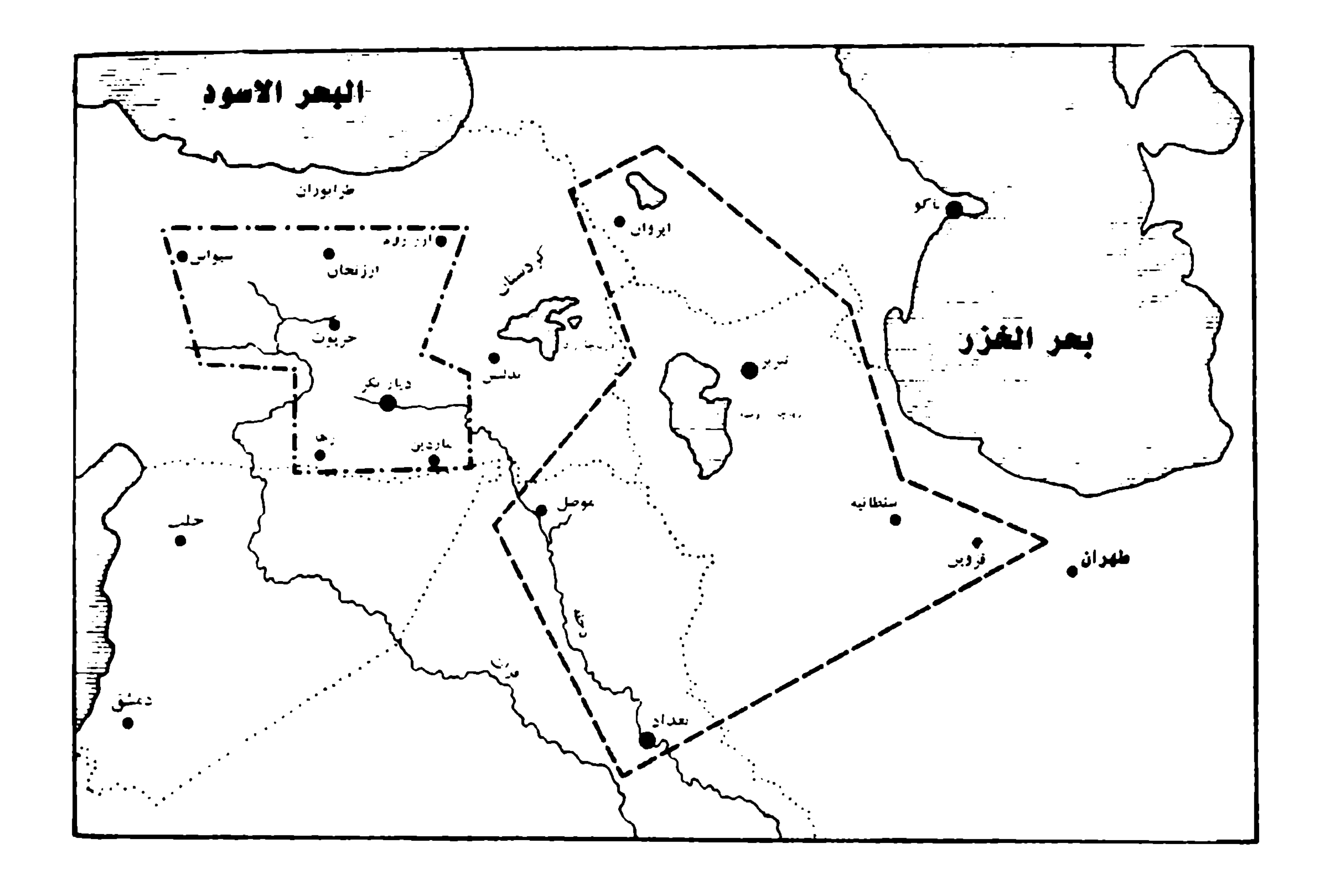
والحوادث التي تلت مصرع الشيخ حيدر الصفوي.

وخلاصة القول استمر يعقوب في الحكم متخذاً من تبريز عاصمة له حتىٰ سنة ٨٩٨ هـ وبعد وفاته دخلت الدولة مرحلة اتسمت بالنزاعات الداخلية والانقسامات الشديدة، بحيث سنجد ان الدولة تنقسم الىٰ قسمين يقود احدهما الوند بيك ابن مقصود نجل اوزون حسن؛ فيما يتزعم القسم الآخر سلطان مراد ابن يعقوب نجل اوزون حسن.

وقد استطاع اسماعيل الصفوي هزيمة الاثنين معاً في عام ٩٠٧ هـ ثأراً لوالده القتيل.

أمراء دولة الخروف الأبيض

١ - اوزون حسن	٨٧٢ - ٨٨٢ هـ
٢ - سلطان خليل بن اوزونه حسن	٨٨٢ - ٨٨٣ هـ
٣ - يعقوب بن اوزون حسن	٨٨٣ - ٨٩٦ هـ
٤ - بايسنقر بن يعقوب	٨٩٦ - ٨٩٧ هـ
٥ - رستم بن مقصود بن اوزون حسن	٨٩٧ - ٩٠٢ هـ
٦ - الوند بيك بن يوسف بن اوزون حسن	٩٠٣ - ٩٠٧ هـ
٧ - سلطان مراد بن يعقوب	٩٠٣ - ٩٠٧ هـ


البحر الاسود
بحر الخزر
سيواس
ارزنجان
ديار بكر
ماردين
ايروان
موصل
سلطانيه
قزوين
طهران
حلب
دمشق

الملحق (٢)
الدولة المشعشعية

احدى الدول التي نهضت وتأسست في اواسط القرن التاسع الهجري واستمر وجودها حتىٰ ظهور الصفويين، مؤسس هذه الدولة في اقليم خوزستان جنوب غرب ايران هو محمد بن فلاح المشعشعي؛ ولد في مدينة واسط العراقية وكان احد تلامذة احمد بن فهد الحلي المتوفي سنة ٨٤١ هـ. ويذكر بعض المؤرخين ان الاخير كان قد تزوج من والدة محمد بن فلاح الارملة وهذا ما يفسر العلاقة الوطيدة بين التلميذ واستاذه.

ولم تقتصر دروس الحلي على الفقه وانما شملت بعض الاذكار والممارسات الصوفية، ذلك ان الحلي نفسه قد وُصف بانه من اكابر الصوفية وأعاظم المجتهدين الشيعة الاثني عشر.

وقد وفرت مثل هذه الاجواء الدراسية المفعمة بالصوفية ارضية لظهور اتجاهات تجنح الىٰ الغلو في العقائد الشيعية وكان التلميذ بن فلاح المشعشعي احد ابرز من ترسخت في ذهنه هذه الافكار المتطرفة.

وأوردت بعض المصادر ان المشعشعي طرح في حياة استاذه فكرة خطيرة جداً بادعائه المهدوية، وبالرغم من تكذيب استاذه الشديد وحتىٰ تكفيره؛ الا ان ذلك لم يفت في عضد محمد بن فلاح الذي، راح يبشر العشائر العربية في اقليم خوزستان بدعواه، ولم يجد فيما يبدو صعوبة في ذلك، بعد ان اتقن بعض الممارسات الصوفية، وقد رأى من العلوم الغريبة التي لايمكن التفريق بينها وبين الشعوذة لدى سكان تلك المناطق البسطاء.

ولكن القدر المتيقن حول ادعائه المهدوية يصل الىٰ اعلانه ايمانه العميق بالامام المهدي وغيبته وانه هو الوكيل له؛ وهذه الفكرة استمرار لدعوى البابية التي سبقت المشعشعي

ولحقته.

وقد اكتسب محمد بن فلاح شعبية من خلال وقوفه الىٰ جانب الفقراء والمحرومين ودفاعه عن حقوقهم ولعل في هذا ما يفسر تنامي قوته العسكرية وتأسيسه كياناً سياسياً.

وقد وضع المشعشعي الثائر لائحة من القوانين مستقاة من الشريعة الإسلامية وحوّل بعض المواد الاخلاقية الىٰ مواد قانونية، حيث يعاقب بالاعدام من تثبت عليه اتهامات في اغتياب المؤمنين أو يبيت جاره جائعاً وفي بيته خبز ومن ينظر الىٰ امرأة أو جارية غيره متلذذاً حتىٰ لوكان طبيباً.

وبدأ محمد بن فلاح حركته السياسية العسكرية في عام ٨٤١ هـ وقد حاول في البدء السيطرة على مدينة واسط مسقط رأسه لكنه اخفق بالرغم من احرازه بعض الانتصارات.

ومن يمكن فهم اتجاه محمد بن فلاح نحو اقليم خوزستان حيث القبائل العربية العديدة في الحويزة على مشارف الاهواز.

وهناك نجحت حملته الدعائية في كسب الكثير من الانصار والمؤيدين العرب في تلك النواحي.

ان الحركة المشعشعية هي الاخرى انطلقت من افكار شيعية تتسم بالغلو والتطرف العقائدي، وتعتبر الحركة المشعشعية نسخة اخرى من الحركة الحروفية التي ظهرت ابان العهد الصفوي وكذا الحركات البابية التي ظهرت في العهد القاجاري بعد زوال الصفويين.

وكان أكبر همّ محمد بن فلاح السيطرة على العراق ولذا قاد حملته العسكرية صوب مدينة واسط عام ٨٥٨ هـ وتمكن من احتلالها ومن واسط الىٰ مدينة النجف الاشرف وكان قائد هذه الحملة مولا علي نجل محمد فلاح وبسبب الاعتقاد السائد لدى المشعشعين بعدم وفاة الامام علي فقد تعرض المرقد الطاهر للنهب بهذه الحجة واصبح مدة مطبخاً للجيش! كما الحقت اضرار جسيمة بالضريح.

وقد لقي مولا علي مصرعه عام ٨٦١ هـ لتعود ازمة الامور الىٰ محمد بن فلاح مرة اخرى.

جدير ذكره ان مولا علي هذا كان قام بكثير من الاعمال دون تصريح من والده، وفي نفس العام (٨٦١) ترك جيش من بغداد حيث تحكم قبيلة الخروف الأسود التركمانية

(قراقويونلو) وقد استطاع محمد فلاح من الحاق هزيمة ساحقة بالجيش التركماني بالقرب من مدينة واسط.

وبسبب الميول الشيعية لدى حكام بغداد من هذه القبيلة فلم يكن هناك اصرار أو حماس للاصطدام مع المشعشعين وهذا ماعزز من قوتهم.

في عام ٨٧٠ هـ توفي محمد بن فلاح ليخلفه على الحكم ابنه سيد محسن الذي امتد حكمه حتىٰ عام ٩٠٥ هـ، وفي عهده ساد استقرار الدولة المشعشعية التي اتسعت رقعتها الجغرافية لتمتد من اطراف بغداد الىٰ البصرة الىٰ اقليم خوزستان وفي ايران الىٰ بهبهان واقليم لرستان وحتىٰ شواطىء الخليج.

وبعد وفاة سيد محسن خلفه ابنه سيد علي وفي هذه الفترة شهدت ايران مخاضات وارهاصات قيام الدولة الصفوية حتىٰ اذا اطل عام ٩١٣ هـ كان شاه اسماعيل يقود جنوده القزلباش صوب الحويزة مركز حكومة المشعشعين لتختفي نهائياً عن الجغرافيا السياسية.

ولقد كانت مبررات الهجوم هي الاطاحة بحكم الغلاة الذين يدعون الإلوهية للإمام علي(عليه السلام).

أمراء الدولة المشعشعية

١ - سيد محمد بن فلاح	٨٨٤ - ٨٧٠ هـ
٢ - سيد محسن بن محمد	٨٧٠ - ٩٠٥ هـ
٣ - سيد علي بن سيد محسن	٩٠٨ - ٩١٤ هـ
٤ - نهاية الدولة	٩١٤

الملحق (٣)
نموذج للدعاية العثمانية ضد الدولة الصفوية

لم يقتصر الصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية على الصعيد السياسي والعسكري، بل كان الصراع الفكري والطائفي اشد عنفاً وقسوة، ومن خلال دراسة فصول الصراع المرير الذي امتد عقوداً من الزمن نستشف وجود تصميم لدى الدولة العثمانية في القضاء التام على الدولة الصفوية، معتبرة إياها نقيضاً وعدواً لدوداً.

وقد ساعدت فصول الاضطهاد الذي تعرضت له القبائل التركمانية المهاجرة والتي عرفت فيما بعد بـ «القزلباش» بعد انصهارها في بوتقة عسكرية شديدة الحماس والانضباط ساعدت في ترسيخ حالة العداء بين الدولتين.

ولقد حاول العثمانيون بكل الوسائل سحق الصفويين لكن دون جدوى وتكشف الرسالة التالية عن الحملة الدعائية الشديدة التي مارسها العثمانيون ضد الدولة الصفوية التي نهضت الىٰ جوارهم.

وقد اتسعت الدعاية العثمانية لتأخذ شكلاً خطيراً من الاضطهاد الطائفي فلم تقتصر الحملة العثمانية هذه على الصفويين وانما امتدت لتشمل كل اتباع المذهب الامامي، واصبح قتل شيعي واحد يعدل في الثواب قتل سبعين كافر حربي!!

ان هذه الرسالة التي كتبت بلغة ركيكة جداً تنضح حقداً وكراهية وتكشف عن تعصب اعمى لامثيل له ابداً في تاريخ الاسلام.

وقد ركزت الدعاية العثمانية على مسائل لااساس لها من الصحة من قبيل ان الشيعة يعبدون شاه اسماعيل من دون الله وانهم يجيزون الزنا وشرب الخمر.

وانهم لايصلون ولايصومون ووصلت بهم الوقاحة حدوداً لا تصدق في الافتراء، فمثلاً زواج شاه طهماسب من اخته بشكل رسمي! وهو الذي عرف بتدينه الشديد، وان الشيعة يدوسون على المصحف الشريف في وقت كان الخطاطون والفنانون في تلك الفترة يبدعون في استنساخ وتزيين وتذهيب عشرات المصاحف التي ماتزال حتىٰ اليوم نماذج رائعة للفن الاسلامي الذي ازدهر يومذاك.

وتكشف المذابح التي ارتكبها الاوزبك بحق الشيعة ومافعله العثمانيون بهم قبل قيام الدولة الصفوية وبعدها عن تأثير الدعاية الطائفية التي وصلت حدوداً مروعة في نفي الشيعة الىٰ حد استباحة دمائهم وسبي اطفالهم ونسائهم.

تنقسم الرسالة الىٰ اربعة أبواب سُمي كل باب باسم اربعة من سلاطين آل عثمان:

الباب الأوّل: يتعرض الىٰ مذهب الدولة الصفوية وبالحقيقة الىٰ المذهب الإمامي.

الباب الثاني: يتطرق الىٰ حرب السلطان العثماني ضد الصفويين.

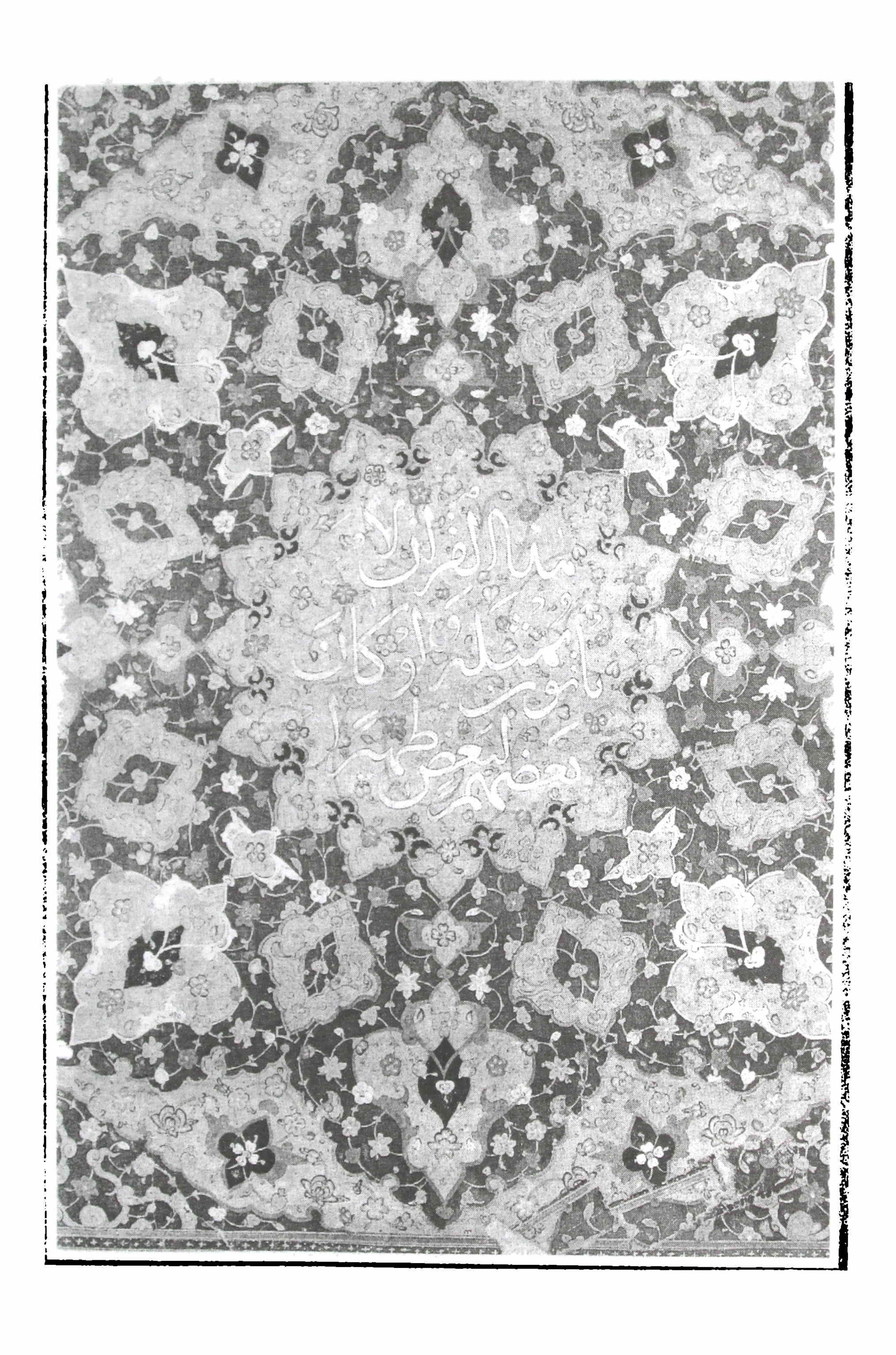
الباب الثالث: يبين اقوال الشاه اسماعيل وعقائد الصفويين فيه.

الباب الرابع: في بيان أقوال وافعال شيخ حيدر والشيخ جنيد حيث الأوّل أبو الشاه اسماعيل والثاني جده.

اما مؤلف الرسالة فهو من تلك المناطق في آسيا الصغرى القريبة من جورجيا، وقد فرّ الىٰ الدولة العثمانية بعد سقوطها بأيدي الصفويين.



**نماذج لمصاحف مخطوطة تعود الى العهد الصفوى
وتدحض الدعاية العثمانية**


مثل القرآن لا
يأتون بمثله ولو كان
بعضهم لبعض ظهيرا

الأحكام الدينية في تكفير القزلباش

حسين بن عبدالله شرواني

(كتاب كريم انه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم)[١]

الحمد لله الذي جعل سلطاننا صاحب القران وجعله خليفة خلفاء الايران[٢]والتوران وبعثه مهيباً على الكفرة وقالعاً رؤوس المشركين عن الأبدان، الذي هو ماحي آثار الظلمة وقادح الفسقة والطغيان، فهو الذي لم يخلق مثله في الازمان الذي هو منبع الجود ومعدن الحلم والعرفان ومعلوم ومشهود في العالم بالعدل والاحسان وممدوح في الأقاليم السبعة باتباع السنة والبرهان السلطان بن السلطان، سلطان سليمان خان[٣] خلّد ملكه وسعادته بعون عناية الرحمن، فيقول العلماء والوزراء: ليس له احد في التفكير والتدبير نظيراً، فكان بعثه الىٰ المسلمين هادياً ونصيراً ثم رفع ظلمة البدعة عن الناس كالشمس مضيئاً والقمر منيراً، فطوبىٰ للناس، قد كان لهم معيناً وظهيراً، فيقول الناس الشكر علينا لمن أرسله الينا بشيراً فقد أرسل الىٰ الظالمين المضلين نذيراً فحينئذ قد كان يوماً (على الكافرين عسيراً)[٤]، (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً)[٥]، يوم يفر الضال يقول: ياليتني لم اتخذ طهماسب[٦] نصيراً بل يعض يديه ويقول ياليت لم نعتقده إلهاً قديراً كما قال الله (يوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ياويلتي لم اتخذ فلاناً خليلاً)[٧].

وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث الىٰ العالمين اقطاراً وعلى آله الذين كانوا بين الأنام نجوماً وازهاراً وعلى اصحابه الذين جاهدوا المشركين ليلاً ونهاراً، صلاة دائمة مادامت الافلاك بقدرته دواراً فـ (رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً انك ان تذرهم يضلوا

---

[١] النمل: ٣٠

[٢] هكذا وردت!!

[٣] سلطان سليمان خان القانوني بن سليم، حكم من ٩٢٦ - ٩٧٤.

[٤] الفرقان: ٢٦

[٥] الفرقان: ٥٢

[٦] ثاني شاه صفوي، حكم ٩٣٠ - ٩٨٤.

[٧] الفرقان: ٢٨

عبادك ولايلدوا الا فاجراً كفاراً)[١]، كما ارسل الريح على قوم عاد والصيحة على ثمود كانا بالوعد غراراً وخسف قارون بماله وأغرق فرعون بآله كانا في القول غداراً...

وبعد هذا يقول خادم الفقراء الرباني حسين بن عبدالله الشرواني: لما اطلعت على افعال هذه الطايفة وأقوالها الخارجة عن طريق أهل السنة والجماعة والقوانين الشريعة الاسلامية، الموسومة بـ «قزلباش» هو مشهور بين علماء الروم والعرب والعجم فهي اشد كفراً ونفاقاً وضلالاً من قوم عاد ونمرود وفرعون لعنة الله عليها وعلى أعوانها وأنصارها متمسكاً بقول الله تعالىٰ: (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه)[٢]... ولقوله تعالىٰ عزوجل: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها وسعى في خرابها اولئك ماكان لهم أن يدخلوها الا خائفين لهم في الدنيا خزيٌ وفي الآخرة عذاب عظيم)[٣]، كما فسرها العلماء الفضلاء الموقنون فوجب علينا ان نكتب رسالة في بيان أحوال هذه الطائفة ثم نعرض على خدمة من له قدرة تامة وشوكة عامة وهمة خاصة... نعني به حضرة صاحب القِران ومطلق الزمام وهو خليفة الخلفاء العظام وملجأ القضاة والعلماء الكرام ومعين الفقراء والمساكين والأيتام ومقوي الشريعة على نهج كلام الملك العلام وبحديث خاتم الانبياء الفخام، صاحب العدل ومدبر النظام، قامع البدعة ودافع الظلام، كريم الذات، مرضي الأنام، خليق الخلق، موزون الكلام، مد الله ظله الىٰ يوم القيام وأسبغ على البرايا ظلاله وأفاض على الرعايا عدله وإفضاله وبلغ في الدارين سؤاله وآماله وختم بالصالحات أعماله وأيد بالنصر أعوانه وأيد بالشكر إحسانه وخلد بالظفر سلطانه وسدد بالذكر برهانه.

فألّفتها في بلدة ماردين صانها الله من شرور الماردين وسميتها أحكام دينية لأنها فاصل بين اهل البدعة والسنة، كما ألّفنا رسالة عدلية في البلدة المذكورة في تاريخ طموس؟ وجعلتها مشتملة على اربعة أبواب لأن الاربعة خير الاعداد كما روى السلف عن الرسول(صلى الله عليه وآله): خير الاعداد أربعة واثني عشر، وكذا عبادة اهل السماوات والارضين على اربعة مراتب، حصول علم رمل من أربعة نقطة، وتتميم جفر الجامع على

---

[١] نوح: ٢٦ - ٢٧

[٢] آل عمران: ٨٥

[٣] البقرة: ١١٤

اربعة اصل... ومع هذا قال اكثر المشايخ المحققين والعلماء والفضلاء المدققين ان اكثر مدار الاشياء متفرقة على أربعة محسوسة كانت او معلومة، مع ان الملائكة المقربين اربعة: جبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل، والانبياء المختارون اربعة وكتاب الله اربعة انجيل وزبور وتورات وفرقان، مع ان الفرقان اربعة ربع واسم المشهور لرسولنا(صلى الله عليه وآله) اربعة: محمد وأحمد ومحمود وابو القاسم مع ان لفظ محمد وأحمد ومحمود (!)اربعة أحرف، مع ان حرف الدال بحساب الاجل الابجد في هذه الاسماء الثلاثة اربعة، والصحابة المختارون اربعة وللكعبة شرفها الله اربعة اركان والمذاهب والنكاح اربعة، والسنة اربعة فصول والشهر اربعة جُمَع، واصل الاشياء اربعة لان العناصر أربعة: التراب والماء والنار والهواء، مع ان لفظ عنصر اربعة أحرف، ومع هذا ان اكثر الحيوانات تمشي على اربعة من الرجل واليد، ومع ان لفظ عالم وخاتم وظاهر وباطن كلها اربع أحرف، مع هذا اكثر صفات الله اربعة احرف مثل عليم وحليم وعظيم وسميع وبصير وقدير، مع ان فرض الوضوء على اربعة: الوجه واليدين والرأس والرجلين، ومع ان اكثر الصلوات اربعة ركعة وافضل العبادات العملية اربعة الصوم والصلاة لطهارة الجوارح والزكاة لطهارة المال والحج لطهارة الذنوب، وافضل العبادات القولية اربعة ايضاً: سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر، فسبحان لتنزيهه وتفكيره والحمد لله لتحميده وتشكيره ولا اله الا الله لتوحيده وتفريده والله اكبر لافتتاح واباحة، والجنة اربعة مقامات الفردوس وجنة المأوى وجنة عدن وجنة النعيم، ومرات النفس اربعة: النفس الامارة والنفس اللوامة والنفس الملهمة والنفس المطمئنة بمعنىٰ الراضية، ومراتب المزاج أيضاً اربعة: صفراوي وسوداوي وبلغمي ودموي، ومراتب العقل أيضاً أربعة عقل هيولاني وعقل بالملكة وعقل بالمستفاد وعقل بالفعل، وقال العلماء والحكماء رحمهم الله: قوام الدنيا بأربعة اشياء اولها بعلم العلماء والثاني بعدل الامراء وثالثها بسخاوة الاغنياء ورابعها بدعاء الضعفاء ومن امثال هذا لايعد ولايحصى.

الباب الأوّل: في بيان أقوال هذه الطائفة وافعالها واعتقاداتها وإضلالها وبيان فرضية هذه الغزوة وأفضليتها على ساير الغزاء.

الباب الثاني: في بيان طريق ذهاب حضرة خداوندگار - مد الله ظله الىٰ يوم القرار - الىٰ هذه الطايفة الضالين المضلين الموصوفين بوصف فرعون كذهاب حضرة موسى وهارون

عليهما الصلاة والسلام الىٰ فرعون وبيان طريق العدل والمحاربة.

الباب الثالث: في بيان أقوال أكبر هذه الطايفة الضالين المضلين وهو اسماعيل الذي ادعى الالوهية وبيان افعاله واعتقاده واضلاله لعنة الله عليه وعلى اعوانه وأنصاره اجمعين وبيان سنين التي مضت بين الانبياء من حضرت آدم الىٰ رسولنا الخاتم عليهم الصلاة والسلام ومنه الىٰ يومنا هذا.

الباب الرابع: في بيان أحوال وأقوال وأفعال شيخ حيدر وجُنيد من أي وجه ضلّ وأضل.

الباب الأول في بيان أقوال وأفعال واعتقاد هذه الطايفة واضلالها وبيان فرضية هذه الغزوة مع افضليتها على سائر الغزوات

واعلم ان العلماء والفضلاء المؤمنين والموقنين المتمسكين بالكتاب والسنة والسالكين بالنهج المتين، فمنهم علماء الروم خصوصاً الموصوفون بجميع فضائل الحكماء المتقدمين المعروفون بمفاخر العلماء المتأخرين، المشهورون في الفتوى ين الفضلاء المحققين، المفتيون في ممالك الروم والعرب والعجم، المتميزون الحق عن الباطل بين أهل السنة وساير الامم المفرقون الصواب عن الخطأ في المذاهب الاربعة... ثم قضاة عساكر سلطان سلاطين المسلمين، زيد علمهم وفضلهم بلطف مالك يوم الدين، ثم العلماء المحققون والفضلاء المدققون المشهورون بعلماء الثمانية الموصوفون بالفضائل الرحمانية، ثم القضاة المتشرعون في الشرع القويم ومقوي الشرعية على نهج الكلام القديم ثمّ قضاة البلاد العشرة الموصوفون بوصف العشرة المبشرة ثم علماء شروان مثل مولانا عبدطاهر ومولانا فتح ومولانا نعمة الله ومولانا محمد ومولانا شمس الدين ومولانا قاسم ومولانا عبدالجبار ومولانا عبدالحليم وغيرهم جميعاً، وعلماء ما وراء النهر نعني بهم علماء سمرقند وبخارا وغيرهم وهم مولانا محمود ومولانا ابراهيم ومولانا محمود البلخي ومولانا حاجي ومولانا محمد الحنفي ومولانا علي ومولانا عمر وغيرهم، وعلماء خراسان مثل مولانا شيخ الاسلام ومولانا مير مرتاض ومولانا محمد ومولانا سيد جمال الدين محدث ومولانا علي بن جنيد ومولانا مباركشاه قهستاني ومولانا محمد شريف ومولانا قاسم علي ومولانا شيخ نور الدين وشيخ

زين الدين وشيخ ابو الوجد ومولانا زاده ابهري وغيرهم، وعلماء آذربيجان وعلماء قره باغ مولانا عبدالغني ومولانا حاجي احمد المشهور بشاعران علي ومولانا شيخ شريف ومولانا احمد الحنفي ومولانا عوض ومولانا محمد الشهير بسايش ومولانا اسماعيل ومولانا صلاح الدين ومولانا احمد المشهور بدكشادي ومولانا اسماعيل الشهير بقره چي او غلي ومولانا اشميل الگنجويومولانا باشاجان ومولانا معين البرعيين ومولانا شكر الله ومولانا سراج الدين ومولانا شسريف الغنبين، وعلماء گيلان مثل مولانا عبدالكريم اللنگركناني ومولانا محمد الخلخالي ومولانا احمد القزويني، وعلماء نخجوان مثل مولانا قاسم ومولانا أحمد ومولانا علي الارزنجاني وعلماء كردستان مثل مولانا محمد البرقلي ومولانا اسماعيل الجزري ومولانا أبو بكر البيّي ومولانا حصر العمادي ومولانا عبدالوهاب الكوراني ومولانا شيخ ابراهيم ومولاناشجاع الدين وغيرهم من العلماء الذين لايعد ولايحصى كلهم اجتهدوا على قدر الوسعة والامكان وافتوا بكفرها وحكموا به، بل على شركها بدليل قوله تعالىٰ : (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون)[١]، وقوله تعالىٰ: (جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد)[٢]، ثم قالوا ما رأينا ولاسمعنا مثل هذه الطائفة جاءت الىٰ الدنيا بل لايجيء مثلها - والله أعلم - ضالون مضلون ومفسدون مع انهم مصرون على الضلالة ومكرهون الناس على ارتداد دينهم ومذهبهم وطائفة اخرى من الكفرة الفسقة والفجرة لايتعرضون على الناس بدينه ومذهبه اصلاً، اما هذه الطائفة فقد تعرضوا وتكلفوا الناس الىٰ الدين الباطل ومذهب العاطل.

أما مخالفة هذه الطائفة لمذهب أهل السنة والجماعة فظاهر مع انهـا لعنوا وطعنوا القرآن والانبياء عليهم الصلاة والسلام وعلى الصحابة وأئمة المذاهب الاربعة رضوان الله عليهم أجميعن، بل تبرؤون عنهم مع ان التبري عن القرآن كفر كما قال صاحب الخزانة[٣] لان القرآن قرآن قبل تعلمه فيكون التبري عن كفر. مع انها (الطائفة) آمرون الناس بالسجدة

---

[١] آل عمران: ٩٠

[٢] ق: ٢٦

[٣] مقصود مؤلف كتاب الفقه، ابو الليث السمرقندي الحنفي (م ٣٨٣) له دوره مختصرة في الفقه.

على الشاه واولاده بل يجرونه (الناس) معتقداً بوجوبها[١] له كما قال صاحب العمدة وغيره: ولو سجد لغير الله معتقداً يكفر، لان التسجد والسجود والعبود والتعبد لغير الله كفر، لانه يستلزم الشرك بالرضا والاعتقاد مع ان الرضا بالكفر كفر ولان الرضا بالكفر مستحسناً له كفر.

مع انها يلقون المصاحف في التنور يحرقونها وبالقاذورات يلوثونها، نعوذ بالله ويضعونها تحت اقدامهم ويهينونها كل الاهانة.

وأما البغض والطعن في حق الانبياء فظاهر، خصوصاً على رسولنا محمد(صلى الله عليه وآله)لأجل عائشة الصديقة رضي الله عنها وعن ابيها والصحابة رضي الله عنهم.

مع ان بعضها قالوا ان الشاه الهنا والشاه لم يرسلهم الينا والىٰ كل الناس والمراد من الشاه عند بعض الروافض علي بن ابي طالب كرم الله وجهه، وعند بعضها اسماعيل بن حيدر واولاده وعند بعضها الشاه اسم من اسماء الله.

وما اللعن والطعن في حق بعض أهل بيت رسول الله(صلى الله عليه وآله) وفي الصحابة رضي الله عنهم فواجب عندها بناء على اعتقاداتها الباطلة ومذاهبها العاطلة، ثم يلعنون على المذاهب الاربعة... يقولون: لعنت بر مذهب حنفية وشافعية ومالكية وحنبلية.

مع انهم احرقوا قبر امام المهتدين واعظم العلماء المجتهدين وأفخم المحققين[٢] سراج الملة والدين الذى يروى السلف في حقه عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): هو سراج امتي هو سراج امتي[٣] وكنيته ابو حنيفة واسمه نعمان ومأويه الرضوان بعناية الخالق الرحمن.

وقال النبي(صلى الله عليه وآله): «اوحى الله الىٰ موسى بن عمران صلوات الله عليه: اني ابعث في آخر الزمان رجلاً عالماً تقياً اسمه نعمان كنيته أبو حنيفة، من أحبه فقد احبني ومن

---

[١] بعث السلطان العثماني برسالة الى شاه طهماسب اعترض فيها على ظاهرة السجود لملوك الصفويين وكيف تأذنون في ان يسجد لكم الناس مع ان السجود لغير الله تعالى كفر ليس به يقاس، وأجاب شاه طهماسب: اما حكاية سجود الرعية لنا مثل سجود الملائكة لجدنا آدم(عليه السلام) حين أوحى الأمر بذلك اليهم، انما يفعلون شكراً لله سبحانه وتعالى على ما انعم بنا عليهم. الخوانساري الاصفهاني، روضات الجنات، ج٧، ص ١٩٢.

[٢] ذكرت بعض المصادر تخريب بعض القبور في بغداد، انظر العزاوي، عباس تاريخ العراق بين الاحتلالين: ج٣، ص ٣٤١ - ٣٤٢.

[٣] التميمي الداري، الطبقات السنية في تراجم الحنفية: ج١، ص ٨١، والمؤلف يشكك في صحة الحديث.

ابغضه فقد ابغضني». وقال(عليه السلام): «آدم ومن دونه يفتخرون بي وأنا افتخر برجل اسمه نعمان وكنيته ابو حنيفه رضى الله عنه من عمدة الفتوى»!

وكذلك احرقوا قبر امام ابي يوسف[١] من أئمة الحنفية وهو مدفون ببغداد و كذلك احرقوا قبر صاحب الانوار من أئمة الشافعية المشهور بامام يوسف الأردبيلي[٢] عليهم الرحمة والرضوان وكذلك احرقوا قبور المشايخ المتقين والزهاد المتشرعين والسلاطين العارفين وهم بايزيد البسطامي[٣] والشيخ ابو اسحاق الكازروني[٤] والشيخ زين الدين الخوافي[٥] والشيخ عبدالقادر الگيلاني[٦] وزبدة المشايخ وبرهان السالكين الشيخ الكبير الشيرازي ومولانا عبدالرحمن الجامي[٧] رحمة الله عليهم رحمة واسعة وكذلك احرقوا قبور غيرهم من العلماء والصلحاء لايعد ولايحصى.

ثم يلعنون على كل أهل السنة والجماعة من أولهم الىٰ يومنا هذا، بل اعتقدوا قتل العلماء والفضلاء غزوة وثواباً على اعتقادها الفاسدة وزعمها الباطلة فقتلوا بغير حق كثير من العلماء والفضلاء، مثل مولانا شيخ الاسلام خراساني ومولانا عزيز النخجواني ومولانا شكر الله المغاني، ومولانا بابا خطابي واولاد مولانا اشمويل الگنجوي ومولانا حاجي اليزدي، ثم احرقوا اكثرهم ومع هذا ما بين اربعين الىٰ خمسين وتسعمائة قتلوا ثلاثين نفراً من افضل العلماء الفضلاء من الشرواني ومن السعد الخجوري ومن التبريز ومن القزوين ومن اللاري، ومن الشروان مثل مولانا نور ومولانا محمود ومولانا محمد وغيرهم ومن السعد حبيب الله شرف آبادي وغيرهم، لان سبب قتلهم عند هذه الطائفة انهم رئيس علماء السنة

---

[١] قاضي ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصاري .

[٢] المقصود جمال الدين يوسف بن ابراهيم الأردبيلي الشافعي مؤلف «الانوار لعلم الابرار» المتوفى سنة ٧٧٩ هـ .

[٣] ابو يزيد البسطامي ولد سنة ١٨٨ وتوفي ٢٦١ زاهد وصوفي مشهور، وتخريب قبره كذب محض.

[٤] ابو اسحاق ابراهيم بن شهريار الكازروني المتوفى ٤٢٦ من شيوخ المتصوفة.

[٥] شيخ زين الخوافي ابو بكر من تلامذة الشيخ عبدالرحمن المصري .

[٦] عبدالقادر بن موسى گيلاني (٤٧١ - ٥٦١) من كبار المتصوفة قام شاه اسماعيل بتخريب قبره بعد احتلاله بغداد، انظر: العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين: ج٣، ص ٣٤٣.

[٧] عبدالرحمن بن أحمد جامي من أعلام التصوف في هرات (٨١٧ ــ ٨٩٨ هــ) له نفحات الأنفس وكتب أخرى.

والجماعة وحينئذ ثم احرقوا اكثرهم فكيف لايكون هذه الطائفة اشد من الكفار مع ان هذه الآية: (ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً)[١]، تدل على ذلك.

ثم قالوا يجب علينا ان نلعن على كل اهل السنة والجماعة من السالفين وان نلعن ونقتل من العلماء الحاضرين، فلذلك اختار العلماء من سائر المسلمين الفرار من اوطانهم من جانب الىٰ جانب ومن ناحية الىٰ ناحية ومن ولاية الىٰ ولاية وتركوا اموالهم واولادهم بين ايديها خوفاً من اعداء الدين المقامعين والقالعين أساس الاسلام ورجاء من الله ان يبقيهم على دينهم الأصلي والشرع القويم الفصلي... لان من و قع في ايديها وخالط أضاع الدين والا قتل في أيديها فحينئذ يجب الهجرة منها كما قال القاضي البيضاوي في سورة النساء في تفسير هذه الآية: (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً)[٢]. وفي الآية دليل على وجوب الهجرة... وعن النبي(صلى الله عليه وآله): من فرّ بدينه من أرض الىٰ ارض وان كان شبر استوجبت له الجنة وكان رفيق ابيه ابراهيم ونبيه محمد(عليهما السلام). امّا اذا كانوا مستعجزين ومستضعفين فلا يجب الهجرة والفرار كما قال الله تعالىٰ: (الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلاً فاولئك عسى الله ان يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً)[٣].

الحاصل من كان له قدرة واستطاعة في الجملة الاولىٰ والاليق له الهجرة والفرار كما قال الله تعالىٰ: (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً الىٰ الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً)[٤]. اما هذه الآية فقدتدل على مؤيد الحديث مع ان الفرق المبتدعة اثنان وسبعون فرقة كل واحد منها متصف بأفعال مذمومة وأقوال خبيثة مخصوصة ومع انـها لايتعرضون على

---

[١] النساء: ٩٣

[٢] النساء: ٩٧

[٣] النساء: ٩٨ - ٩٩

[٤] النساء: ١٠٠

الناس ديناً ولا مذهباً أصلاً، اما هذه الطايفة فقد تعرضا وتكلفوا الناس الىٰ الدين الباطل والمذهب الباطل بل يجرونها كما انهامتصفة بأشد الاحوال القبيحة والافعال الخبيثة اللتان لايصدران عن كل فرق المذكورة الا عن هذه الطائفة الخارجة المذكورين ومع هذا معلوم بين العام والخاص بل مشهور بين الناس ان طهماسب قد زنى على اختيه بطريق الاستحلال ويجامعها متىٰ شاء على طريقة المنكوحة ومع انه باطل في جميع الاديان والملل والفرق المذكورة، بل لايجري بين اولاد حضرت آدم الىٰ رسولنا الخاتم(صلى الله عليه وآله)، بل لايجري الىٰ انقراض بني ادم هذه الاحوالات القبيحة المذكورة... وا لله اعلم هي من علامات الكفر، بل من علامات الشرك في الشريعة النبوية المصطفوية عليه الصلاة والسلام.. لان اللعن والطعن على بعض اهل بيت الرسول(صلى الله عليه وآله) وعلى الصحابة رضى الله عنهم اجمعين واجب عند هذه الطائفة لان التبري والتولي شرط ايمانها، بل هما جزءان عن ايمانها كما قال الشيخ علي عال في كتابه اللعنية[١].. فحينئذ كيف لاتكون هذه الطائفة اشد من الكفار بل من المشركين.

فحينئذ من قتل واحداً من هذه الطائفة الملعونة المشركة فكأنما قتل وغزا سبعين نفراً من أهل الحرب بل اكثر لان دارها في هذا الزمان اشد من دار الحرب، فحينئذ مالها وسائر اشيائها حلال حتىٰ اولادهم لان هذه الطائفة كأنها أخذت معولاً وهدمت اساس الاسلام حجراً حجراً بالتدريج... فحينئذ صار الجهاد معها فرض عين فيجب على جميع الناس الدفع لقوله تعالىٰ: (انفروا خفافاً وثقالاً)[٢]معناه اخرجوا للجهاد شاباً وشيوخاً وركباناً ورجالاً وذكوراً واناثاً وعزاباً ومتأهلاً وغنياً وفقيراً.

واعلم ان هذه الكفرة الضالين قد هجموا وغلبوا على آذربيجان وعراق وخراسان وشروان وگيلان ولم يقدر اهلها عى دفعها، فيجب على المسلمين كافة الجهاد والمقاتلة معها، فان جاهدوا وقاتلوا فقد سقط الفرض عنهم... الحاصل ان القادر ان لم يباشر ولم يقصد بنفسه أو لم يعن ولم يمدد على المسلمين المظلومين، يتوجه اليه السؤال في دار الاخرة من الله تعالىٰ على وجه الخطاب بأنك لِمَ لم تدفع او لم تعاون المسلمين المقهورين في ايدي الكفرة

---

[١] يعني علي بن الحسين الكركي.

[٢] التوبة: ٤١

الظلمة مع انا خلقنا القدرة فيك على دفعها وقمعها عن رؤوس المسلمين المغلوبين المظلومين فكيف يتخلص المجيب عن خطاب الله تعالىٰ في دار الاخرة ونرجو من الله عزوجل ان يزيل عسكر العباد الذين يظهرون عليها الكفرة الضالة... والله ميسر كل عسير.

الحاصل ان هذه الطائفة اشد كفراً وشركاً وضلالاً من النصارى لانهم لم يصرحوا بآلهة ثلاثة لكن لزمهم باثبات الاقانيم الثلاثة التي هي الوجود والعلم والحياة ويسمونها الاب والابن وروح القدس، وعموا ن اقنوم الاب قد انتقل الىٰ بدن عيسى(عليه السلام) فحينئذ لزم من كلامهم ان يقولوا ويعترفوا بهذه الثلاثة. اما هذه الطائفة فقد صرحوا وقالوا عن صميم القلب والاعتقاد ان الإله قبل زماننا هو الشاه المسمى باسماعيل قد انتقل وتجلى الىٰ صورة شاهنا المسمى بطهماسب وهو إلهنا واله زماننا، فهو اكبر في الالوهية من سائر اخوته، فحيئنذ من قتل واحداً من هذه الطائفة المشركة الفسقة الفجرة فكأنما قتل وغزى سبعين نفراً من أهل الحرب بل أكثر كما مر لان هذه الجهاد فرض عين بل فرض هذا جهاد كبير لايتصور من فوقها جهاد، نعوذ بالله من هذه الطائفة المشركة الكفرة ونعوذ بالله من مقالاتها، لعنة الله عليها وعلى اعوانها وانصارها أجمعين كما قال الله تعالىٰ: (ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون)[١]، وكقوله تعالىٰ: (ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لايهدي القوم الظالمين)[٢].

فحينئذ يجب على كل مسلم ومسلمة غزوة هذه الطائفة حتىٰ يجوز ان تخرج الزوجة بغير اذن زوجها والعبد بغير اذن مولاه، بل يجب كما ذكرنا آنفاً سيما من كان قادراً على دفع هذه الكفرة المشركة المضلة كما قال الله تعالىٰ: (ان الذين يكتمون ماانزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب اولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون)[٣].

واعلم ان العلماء والفضلاء اتفقوا على ان استحلال المعصية والاستهزاء على الشريعة

---

[١] آل عمران: ٩٠

[٢] آل عمران: ٨٦

[٣] البقرة: ١٥٩

كفر بلاشك كما ذكر عمر النسفي[1] في كتاب عقائد الاسلام وافضل المحققين مولانا سعد الدين التفتازاني[2] رحمة الله عليهما في شرحه: استحلال المعصية، صغيرة كانت او كبيرة، كفر والاستهزاء على الشريعة كفر ومن قذف عايشة رضي الله عنها بالزنا قد يكفر لانه ينكر الاحكام التي دلت عليها النصوص القطعية من الكتاب والسنة.. مع ان هذا السب في الحقيقة راجع الىٰ رسولنا، لانه عار وحمية على رسولنا(صلى الله عليه وآله). وسبب كفرها (الطائفة) في حق الصحابة رضى الله عنهم شتمها باللعن وانكارها على خلافة الشيخين بالطعن كما قال صاحب خزانة في باب العبادات، مع انه نزلت هذه الآية في حقهم في بعض الراوية: (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)[3]. ونحن نقول في تفسير هذه الآية: «والذين جاؤوا» اشارة الىٰ التابعين من اهل السنة والجماعة الىٰ انقراضه، ولفظ «من بعدهم» اشارة الىٰ الصحابة الكبار يقولون (ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)وفيها اشارة الىٰ بعض اهل بيت الرسول(صلى الله عليه وآله) والصحابة رضى الله عنهم وكل اهل السنة والجماعة من أولهم الىٰ آخرهم كما روى صاحب تفسير الاسفرايني[4] في سورة الحشر في تفسير هذه الآية المذكورة عن ابن عباس رضى الله عنه: امر الله تعالىٰ بالاستغفار على المؤمنين الذين جاؤوا بعد صحابة رسول الله بالاستغفار على الصحابة لانهم مقترون وملعنون في آخر الزمان...لان الرسول قال: يخرج في آخر الزمان طائفة يلعنون ويفترون عى اهل بيتنا واصحابنا.

فحينئذ هذه الطائفة اشد من الكفار والمشركين، وقال الشعبي[5]: ان الروافض اشدم اليهود والنصارى لانه اذا سئل عن اليهود: اي رجل افضل عندكم بعد موسى(عليه السلام)؟ يقولون: اصحابه، واذا سئل النصارى أيضاً يقولون: الحواريون، واذا سئل عن الروافض

---

[1] عمر بن محمد نسفي (٤٦١ - ٥٣٧) عالم حنفي وصاحب تأليفات كثيرة أشهرها كتاب العقائد.

[2] مسعود بن عمر التفتازاني (٧١٢ - ٧٣٩) من الأدباء المعروفين وله شرح عقائد النسفية.

[3] الحشر: ١٠

[4] تفسير شهفور بن طاهر اسفرايني المتوفى ٤٧١ هـ كما يبدو، انظر: الطبقات (ج٥، ص ١١).

[5] عامر بن شرحبيل الحميري اديب ومحدث كوفي (٩١ - ١٠٣).

ايضاً عن صحابة رسول الله(صلى الله عليه وآله) يلعنون على الصحابة، فحينئذ كيف لايكون اشد من اليهود والنصارى.

وروى صاحب الاسفرايني عن عائشة الصديقة رضى الله عنها، قال رسول الله(صلى الله عليه وآله): ياعائشة لاتخاف على امتي حتىٰ يلعنون اخرهم على اولهم، ونحن نقول ايضاً في تفسير هذه الآية:(الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات)اشارة الىٰ بعض الروافض والخوارج..(والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات)الىٰ آخره، اشارة الىٰ اهل السنة والجماعة... اماحسن البصري (رحمه الله) قال في تفسير هذه الآية: (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)[١] هذه الآية قد نزلت لشأن مدح رسولنا (صلى الله عليه وآله)«والذين معه» لابي بكر الصديق رضى الله عنه... (أشداء على الكفار) لحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه (رحماء بينهم)لحضرة عثمان رضي الله عنه، (تراهم ركعاً سجداً) لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه، (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) المراد منهم طلحة والزبير وسعد وعبدالرحمن بن عوف وابو عبيدة بن جراح رضوان الله عليهم اجمعين، (ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع) المراد منه حضرت محمد(صلى الله عليه وآله)، (أخرج شطأه) ابو بكر الصديق رضى الله عنه، (فآزره) عمر بن الخطاب، (فاستغلظ) عثمان رضي الله عنه، (فاستوى على سوقه) علي بن ابي طالب رضي الله عنه لانه في الجهاد فاستوى سيفه يعجب الزراع المراد من جمع المؤمنين، (ليغيظ به الكفار)[٢] والمراد منه عمر بن الخطاب لقتل كفار مكة لان اهل مكة اشد الكفار والمشركين خصوصاً ابوجهل وابو البختري وعتبة وشيبة وعاص بن وائل لانهم مصرون على الكفر والعداوة والمحاربة والمستهزؤون على المسلمين.

وقال ابو ادريس الخولاني[٣]. هذه الآية كناية عن بغض عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حق الروافض لان الروافض اشد من الكفار خصوصاً في آخر الزمان. هذه الكنايات مؤيد لما ذكرنا سابقاً في تفسير بعض الآية من سورة الحشر.

---

[١] الفتح: ٢٨

[٢] الفتح: ٢٩

[٣] عائذ الله بن عبدالله خولاني (٨ - ٨٠ هـ) .

قال ابن عباس: قال رسول الله(صلى الله عليه وآله) في آخر الزمان تخرج طائفة من امتي هي قوم رفضة لانها يترك الاسلام وهي مرتدة مشركة.

وقال الامام الغزالي رحمه الله راوياً عن عبدالله بن عباس، عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)انه قال: ياعبدالله لاتقوم الساعة حتىٰ يخرج من امتي قوم الذين اسمهم صوفيون وعلامتهم ان لا جمعة ولاجماعة ولاصلاة ولاصوم ولازكاة ولاحج مع انهم ترفعون اصواتهم في الذكر كصوت الحمار ولبسوا قلنسوة الاحمر كقرن البقر الضرار وظنو انهم الابرار وهؤلاء من الكفار بل هم من المشركين الاشرار وعملهم كعمل الشيطان الغرار وفعلهم كفعل الدجال الغدار وهم يتنازعون بعلماء اهل السنة والجماعة الابرار ويتعارضون في طريق الحق المختار.

وايضاً قال صاحب العمدة[1] روي عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): يأتي من امتي قوم في آخر الزمان رؤوسهم كالقدر الاحمر وأفعالهم افعال الفراعنة ويسمون انفسهم بالصوفيين فوالله ليسوا من المسلمين بل هم الضالون المضلون. ونحن نقول هذه الاوصاف من وصف طائفة القزلباش عليها اللعنة لانها المتصفة بهذه الافعال الزيادة.

وقال ابن عمر، رواه عن رسول الله(صلى الله عليه وآله): ياعلي أنت اذا رايت هذه الطائفة فاقتل لانها مشركة ومرتدة، وقال علي رضى الله عنه: يارسول الله كيف يكون علاماتها؟ قال: ومن جمل علاماتها ان لاجمعة ولاجماعة ولازكاة ويلعنون اهل بيتنا وعلى اصحابنا رضي الله عنهم اجمعين والحمد لله رب العالمين.

قال الفقيه في بستان العارفين[2] رضي الله عنه عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه: انه يهلك (في) طائفتان احدهما محب مفرط والثاني مبغض مفرط[3] وقال علي رضي الله عنه: يخرج في آخر الزمان أقوام يتحللون شيعتنا وليسوا من شيعتنا لهم اسم يقال... لهم

---

[1] من المحتمل ان يكون مقصوده مؤلف كتاب «عمدة الطالب لمعرفة المذاهب» محمد بن عبدالرحمن السمرقندي السنجاري .

[2] بستان العارفين ابو الليق نصر بن محمد السمرقندي الحنفي (المتوفى ٣٧٥)، انظر: كشف الظنون: ج١، ص ٢٤٣.

[3] مسند احمد بن حنبل، ش ١٣٠٥، المجلسي، بحار الانوار: ج١٠، ص ٢١٧، ج٢٥، ص ٢٨٥.

الروافض، فاذا لقيتموهم فاقتلوهم فانهم مشركون.و روي ميمون بن مهران عن عباس رضي الله عنهم عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) انه قال: يكون في آخر الزمان قوم يسمون الروافض لانهم يرفضون الاسلام ويلفظونه فاقتلوهم وأنهم مشركون، ويقال ان هارون الرشيد قتلهم بهذا الحديث.

وقال عامر الشعبي: الروافض سلّم الزنادقة، فما رأيت رافضياً الا وقد رأيته زنديقاً. قال الفقيه[١] رحمه الله: الزنادقة كان اسم زندك فسموا بهذا فحينئذ هذه الفائدة اشد واغلظ منها خصوصاً طائفة قرجه داغ، وقجر واكثر طاش وقرباغ كلهم يعتقدون ويعبدون ويسجدون قبر شيخ صفي ويدورون حوله كما يدورون الحجاج حول المناسك لانه عند هذه الطائفة اعظم واكبر من الحرمين الشريفين، فحينئذ يقولون من وصل الىٰ شهر أردبيل وطاف القبر المذكور فقد غفر الشاه ذنوبه، صغيرة كانت أو كبيرة، وكان من الواصلين المغفورين لامن الضالين المضلين كأهل السنة والجماعة هو من الغاوين، فحينئذ فكيف لايكون هذه الطائفة اشد واغلظ من المشركين بل من المرتدين؟

الحاصل من علم ان هذه الطائفة متصفة بالاحوال المذكورة ثم شك في كفرها فقد شك في ايمانه، فحينئذ اعمالهم أعمى لهم وأفعالهم أفعى لهم فلما فتشوا احمالهم يوم يحمى لهم ما وجدوا الا سراباً فجعلوا اللعن والطعن مرادهم واستحلال الزنا والخمر زادهم، فما زادهم الا عذاباً، كما قال الله تعالىٰ: (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً بشر المنافقين بان لهم عذاباً اليماً)[٢].

فمن قتل واحداً من هذه الطائفة الملعونة المشركة فكأنما قتل وغزا سبعين نفراً من أهل دار الحرب، واعلم ان فضيلة الغزوة والجهاد أكثر في كتاب الله تعالىٰ كقوله عزوجل: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل احياء عند ربهم ولكن لاتشعرون)[٣]، وكما قال الله

---

[١] المقصود أبو الليث السمرقندي.

[٢] النساء: ١٣٦ - ١٣٨

[٣] البقرة: ١٥٤

تعالىٰ: (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة)[1].

واعلم ان هذه الطائفة اشد كفراً وضلالاً ونفاقاً من جميع الكفرة والفسقة الفجرة لانها ضالون ومضلون ومكرهون الناس حتىٰ ان اكثر الناس من آذربيجان وعراق وسمنان ودامغان واستراباد وسبزوار وقم وكاشان وساوج وموغان وتبريز واردوباد وغيرها لايعد ولايحصى صارو كفاراً بلا ريب باستيلاء الكفرة وتدينوا وتركوا دين نبينا محمد(صلى الله عليه وآله) وقال الله تعالىٰ: (اني معكم لئن اقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم)[2] التعزير وهو الدرء والدرء رفع السوء عن الرسول في حال حياته عليه الصلاة والسلام وعن الصحابة رضي الله عنهم وعن الملة البيضاء السنية التي ليلها كنهارها بإهلاك اعداء الدين واهانتهم وقهرهم ورد اعتراضاتهم الفاسدة والكاسدة، لان اكثر اولاد المذكورين كانوا يبلغون[3] في زمانها فحينئذ يقولون ويفعلون ويعتقدون بما قالوا وما فعلوا وما اعتقدوا لانهم ما اقروا وما عملوا وما سمعوا الا عن هذه الطائفة الخبيثة وهي مشركة بلا شبهة لانها يعتقدون اولاد الضالين المضلين آلهة كما مر مراراً ومع انها يكلفون الناس بل يجبرون الىٰ الدين الباطل والمذهب العاطل ثم قالوا ان إلهنا قد رفع عنا الصوم والزكاة والحج واحل لنا الزنا والشراب وكل مسكر ومكيّف وعلى سائر احبائه بل على جميع الناس ثم ناصحوهم فقالوا لهم لاتفعلوا ولاتقبلوا ولاتعتقدوا على قول الأئمة الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وهم سفهاء السالفين لانهم اعتقدوا وأمروا الناس بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج وبحرمة الزنا والشراب وكل مسكر، ومن ثم قالوا يجب علينا ان نلعن على العلماء السفهاء السالفين وان نلعن ونقتل من العلماء الحاضرين في زماننا حتىٰ لعنوا وقتلوا كثيراً من العلماء والفضلاء في زماننا بغير حق كما ذكرنا مكرراً.

---

(١) وهنا يستطرد في ذكر بعض آيات الجهاد.

(٢) المائدة: ١٢

(٣) كذا

الباب الثاني: في بيان طريق ذهاب حضرت خداوندكار (مد الله ظله الى يوم القرار) الى هذه الطائفة المضلين وبيان طريق العدل والمحاربة وكيفية احوالها

واعلم ان الباب الثاني في بيان ذهابه الىٰ تلك الطائفة الضالين المضلين الذين هم موصوفون بوصف فرعونه كما ذهب اليه موسى(عليه السلام): (اذهب الىٰ فرعون انه طغى)[١]، وكا قال النبي(عليه السلام): «وكل فرعون له موسى» وحينئذ وجب أن يذهب الىٰ طائفة قصدت هدم دين نبينا محمد(صلى الله عليه وآله) وشتمت الصحابة وتبرءت عنهم رضوان الله عليهم اجمعين، كما امر الله تعالىٰ الىٰ موسى وهارون(عليهما السلام) في حق فرعون: (اذهب الىٰ فرعون انه طغى) فان ضلالة هذه الطائفة اشد من ضلالة فرعون وأقوى كما امر الله تعالىٰ الىٰ موسى وهارون(عليهما السلام) في حقه بقوله: (فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى)[٢].

والذي جاء من هذه الطائفة وآمن وعمل بعمل صالح فله في الآخرة الدرجات العلى، كما قال الله: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ثم اهتدى)... ثم يأمر على العساكر المظفرة بان يضربوا السيوف على اعناق الكفرة المقهورة حتىٰ يقول الكفرة هذا اليوم عظيم كيوم ينفخ فيه الصور ثم يقول للناس «انظروا كيف كان عاقبة المفسدين»...

الملقب بشاه واتباعه واعوانه وبيان اعتقاداتهم وأقوالهم واضلالهم وبيان سنن الماضين بين الانبياء من حضرت آدم الى رسولنا الخاتم(صلى الله عليه وآله) الى يومنا هذا

واعلم انهم اعتقدوا وقالوا عن صميم القلب ان الإله المعبود هو المسمى باسماعيل الملقب بشاه وهو يدعى الإلوهية ويعزم ويقصد مع اتباعه واعوانه ان يذهبوا الىٰ مكة المشرفة ليخربوها ويهدموها شرفها الله وصانها في حفظه مع انـها نزلت في شأنها هذه الآيات: (ان

---

[١] طه: ٢٤

[٢] طه: ٤٤ – ٤٥

أوّل بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين)[١]، (فيه آيات بيّنات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً)[٢].

الحاصل ان هذه الفرقة قد عزمت وقصدت ان تخرب مكة شرفها الله وتحرق قبور اصحاب رسول الله(صلى الله عليه وآله) وتحول القبلة الىٰ البلدة المسماة باردبيل وهي من بلاد العجم وهو وطن الاصلي لهذه الطائفة بل قصدن الىٰ ان يسيروا الىٰ اقطار العالم واكنافها ويحاربوا ويقاتلوا مع سلاطينهم ليغلبوا عليهم ويظهروا ويروجوا دينهم الباطل الكاسد وترفعوا وتقلعوا آثار الدين الحق وقوانين الاسلام فكيف لايكون هذه الطائفة اشد كفراً وشركاً من اصحاب الفيل وسائر اديان الباطلة العاطلة.

ثم هؤلاء تفرقوا فرقتين: الاولىٰ منهما الموحدون في ظاهر القول والمشركون في الواقع والاعتقاد، ثم انهم يقولون ان الشاه واحد في الالوهية لاشريك له اصلاً وهو المحيي والمميت والرازق والخالق، له الملك يتصرف كيف يشاء وحيث مايرد لامانع لمشيته ولا راد لحكمه وهو مخرج جميع العالم من العدم الىٰ الوجود بأجناسها وأنواعها واصنافها واشخاصها.

واذا سئل عنها ان هذا الشخص الذي يدعي الالوهية المسمى باسماعيل الملقب بشاه وهو تولد من بطن امه في زماننا مع ان اباه الضال المضل المسمى بحيدر، فكيف يكون إلهاً وكيف يخرج الاشياء التي توجد قبله في ازمنة ماضية وبلدان نائية وهو غير موجود فيها، اجابت عنه بانه موجود فيها لكنه ليس بظاهر لجهة عدم ارادته وظهر في زماننا هذه لحكمة ومصلحة، فاذا سئل عنها ما الحكمة وما المصلحة في ظهوره في هذه الازمنة وعدم ظهوره في الازمنة الماضية، أجابت عنها ايضاً بانه يعلم حكمه انا لا نعرفها ولانعرف ما يعرفه.

وبعض الناس من هذه الطائفة الغاوية يقولون ان الاله حقيقية علي بن ابي طالب(عليه السلام) ويزعمون على طريقة التناسخ انه ينتقل في بعض الاحيان الىٰ بدن ويظهر فيه، ثم يترك هذا البدن وينتقل الىٰ آخر، ثم يقولون ان هذا الشخص الملقب بشاه هو علي بن ابي طالب حقيقة، فظهر في هذه البدن واللباس فهو الإله في هذه الزمان نعوذ بالله من هذه المقالات الباطلة.

---

(١) البقرة: ٩٦

(٢) البقرة: ١٢٥

الثاني من هذه الطائفة المرتدة المتمردة يزعمون ان الاله على نوعين: صغير وكبير، والكبير واحد وهو الشاه والصغير متعدد. ثم قال العوام: قد رفع عنا كل التكاليف الشاقة[١] التي كلفها الله الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية.. فحينئذ لاحاجة لكم العبادة الشاقة كما اعتقدهم السفهاء السالفون، ثم انهم قالوا ان الزنا مباح ومنشأ اعتقادهم انهم يقولون ان الرجال كلهم عبيد لربنا والنساء كلهن اماء له وهو مُحِل اماءه لعبيده باذنه وكذلك شرب الخمر وأكل المعاجين المزبلة للعقل مباح وحلال احل لنا ا لا انه لا رضاء له بشرب الخمر في زماننا فوجب علينا امتثالاً لامره لئلا نعصي ربنا لاجل مخالفة امره حتىٰ اعتقدوا ان قتل الناس الذين لايطيعونها ولايعتقدون بدينها ثواباً وغزوة سيما قتل العلماء المتشرعين والزهاد المتقين، فلذلك اختاروا الفرار من اوطانهم كما ذكر في اوائل الكتاب.

الباب الرابع: في بيان احوال واقوال وافعال شيخ حيدر وجنيد من أي وجه ضل وأضل ومؤيدهما

واعلم انهم قد تشيخا في القول واللبس مع التقاعد على طريق المشائخ السالفين المحققين المرشدين الىٰ دين الحق والحافظين على الخلل مع انهما كاذبان في الاعتقاد كما قال الله تعالىٰ: (اذا جاءك المنافقون قالوا...)[٢] لان انقيادهما الىٰ المشائخ السالفين المحققين في القول واللابس ليعتقدها الناس كما اعتقدوا على سائر المشائخ المحققين، لا في العمل ولا في الاعتقاد، فحينئذ يكون انقيادهما بالقول واللباس هو من التلبيس مرتسماً برسم اهل السنة والجماعة لئلا يتعرض الامراء والوزراء والفضلاء عليهما ثم يوعظان الناس على طريقة خدعة تجلباً منهم حطام الدنيامع انهما لايخدعان الا على انفسهما كما قال الله تعالىٰ: (ومن الناس من يقول آمنا...)[٣].

والحاصل انهما كانا من جملة الشياطين الإنسية، اولهما ان جنيد الضال المضل قد زرع بذر الضلالة في اقطار الأرض ثم ظهر عن بذره الضال المضل المنافق الكاذب الخبيث

---

[١] مع ان شاه اسماعيل برّر هجومه على الدولة المشعشعية بسبب تبنّيها عقائد الغلاة، ان اتهام الصوفيين بالغلو الى هذه المستويات بهتان واضح ودعاية مفضوحة لفقهاء وعاظ سلاطين آل عثمان.

[٢] المنافقون: ١

[٣] البقرة: ٨

المسمى بحيدر، ثم ظهر عن بذره الاخبث الضال الفاجر الفاسق المسمى باسماعيل وادعى الالوهية كما مر، والحال ان كلهم مفسدون في الأرض... ثم ناصحاً على مريدهم المردة بقولهم لاتقبلوا قول علماء اهل السنة والجماعة لانهم محجوبون بحجاب الشريعة سيما الصلاة والصوم والزكاة والحج كلها حجاب تام على الطالبين الىٰ لقاء الله، بل مبعد عن مشاهدة جلاله وجماله لانه من صلى لله او صام فقد ترك مشاهدة الله تعالىٰ وجلاله وجماله وارتكب على فعل هو مستلزم لبعده، لان الصلاة وغيرها من العبادات كلها ظلة شديدة والقرآن حجاب بعيد، فمن ارتكب على هذا فكيف يكون من الواصلة، ثم قالا الحمد لله الذي جاوزنا عن دائرة الشرع وادخلنا الىٰ عالم الحقائق بل وصلنا الىٰ الله تعالىٰ وشاهدنا جلاله وجماله في كل ساعة وفي الدنيا واحل لنا الاشياء كالمأكولات والملبوسات والنساء والإماء لان آدم(عليه السلام) وحوى ماتا وبقى مالهما لانه مشترك بينهم ثم اعترضوا وقالوا فما الترجيح بان يأكل بعضهم وان لا يأكل بعضهم.

وقالوا ايضاً في حق النساء والاماء واذا بلغ العبد المحب الىٰ غاية الحب بحيث لم يلتفت الىٰ غير الله تعالىٰ فيعد من العاشقين فحينئذ يحل له النساء والإماء وهن الرياحين للرجال لهم ان يشمهن لان هذا حبيب الله والنساء إماء الله والحبيب لايمنع عن حبيبه عما يريد حتىٰ استهزؤا على زكريا النبي(عليه السلام)فضحكوا وقالوا انظروا الىٰ زكريا يسأل عن ربه غلاماً ولم يطلب جماله، هذا من هذياناتهم وكلها من الفاظ الكفر ومن اعتقد حلية اكل مال الغير بغير اذن صاحبه فهو كافر بلا شبهة لانه مخالف لآيات الله... وكذلك من اعتقد على حلية الزنا فهو كافر لانه مخالف لآيات الله... فمن اتصف بهذه الا فعال والاقوال من اهل القبلة فكيف يكون مسلماً بل يكون ضالاً وضلالته اشد من ضلالة الكافر المشرك، لانهما ضال ومضل فكيف لايكون اشد منهما كما مر مكرراً ولانه من اصناف اله الإباحة في نفس الأمر ومن الزنادقة، واما في ظاهر الحال يدعون الزهد والولاية مع كونه مرتسماً برسم اهل السنة والجماعة ومنبئاً عن احوال الناس وافعالهم على وجه التزوير والشيطانية والخدعة ليعتقد الناس على مشيخته وميشوخته حتىٰ يحملون اطلاعه على الكشف والكرامة والالهامات مع انهم من وساوس الشيطان بل من الاستدراج ومن ثم قال بعض العلماء المتقدمين المؤمنين الموقنين المتمسكين بالكتاب والسنة واجماع المسلمين مثل مولانا احمد البكرجي

ومولانا قاسم النخجواني ومولانا عبدالمجيد الشرواني ومولانا عثمان الذركي ان جنيد الضال المضل من جملة الشياطين الإنسية قد ذرأ بذر الضلالة في اقطار الأرض وكان في حال حياته تارك الصلاة مباحياً بحيث لااجتناب له في شيء من محظورات الدين، مقاطعاً لآثار سنن سيد المرسلين، باغضاً لكبار الصحابة والتابعين، وقصد ان يهدم أساس الإسلام والدين واحدث مذهباً محدثاً مخالفاً لمذهب اهل السنة والجماعة المؤمنين.

بناء عليه هذا ان العلماء المذكورين حكموا بكفره وبكفر مريديه واعوانه وانصاره اجمعين، فحينئذ لاجرم خذله الله وقهره واهلكه في يد ملك الاعظم الصنديد الاقحم خير الملة والدين خليل باشا السني الشرواني[1]، ثم بعد ما هلك جنيد الضال المضل صارت مريده فرقتين:

الاولىٰ: اصرّت انه لم يقتل ولكن تحولت نفسه الخبيثة بصورة آخر هى اجدع مقطوع الانف يقال له الجلال هو رجل حكاك في مدينة اسفر المشهور باسبر وهو ملحد فعظموه كما يعظمون النصارى المسيح(عليه السلام) عى وجه العبودية.

الثانية: اجتمعت على انه مات باعتبار هذا البدن لكن باعتبار الروح قد انتقل وعاد حياته الىٰ بدن آخر لكن لم يعلوا إينيته فتحيروا وبهتوا وسكتوا ثم لم يجدوا بداً غير ان تمسكوا بولده المسمى بحيدر صغير لايفرق الخير من الشر والنفع من الضر بل اليمين من الشمال، وبالغوا في تعظيمه مثل النصارى واليهود في شأن عيسى(عليه السلام) وعزير(عليه السلام) كما ذكرنا وبعد سنين وشهور وأيام وأزمان فظهر وفسد مثل ابيه السقيم، فعصى على ربه القويم وغوى عن الطريق المستقيم، وبغى على السلطان الفخيم، ثم هلك في يد الملك الاعظم هو سلطان السلاطين الافخم خير الملة والدين شروان شاه بيك بمعاونة يعقوب بادشاه المرحومين قد ارسل سليمان بيك البيجاني الىٰ رفع جنود الضال المضل المسمى بحيدر، فحاربوهم وغلبوا عليهم فأهلكوا حيدر المزبور في المكان الذي أهلك ابيه الضال المضل جنيد في ناحية سمور وهو نهر عظيم في غرب مدينة دربند وهي بلدة من بلاد

---

[1] انظر: حبيب السير: ج٤، ص ٤٢٦.

الشروان[١].

ثم مضى عليه مدة مديدة وسنون متكاسرة فظهر الباغي الغاوي المسمى باسماعيل الملقب بشاه وادعى الالوهية كما ادعى فرعون، ثم ارسل الله عليه سلطان المشارق والمغارب فجعله في يده كاالهرة عند الاسد في يوم المحارب، ثم هرب كحمار الوحشية عند الخوف النمر في وقت المتقارب، فقالوا هذا الطير قد تخلص من يد شاهن ذي المخالب نعني به السلطان بن السلطان بن السلطان سليم خان عليه الرحمة والغفران وجعله الله مأويه في اعلى عليين من الرضوان الىٰ دفع هذا الفرعون كما ذهب حضرت موسى(عليه السلام) الىٰ فرعون... فحينئذ لاجرم خذله الله وقهره وأهربه عن المقابلة ليعلم جنوده واعوانه وانصاره انه كاذب في دعوة الالوهية وعاجز عن المحاربة والمقابلة حتىٰ لايدعي الالوهية بل يرجع الىٰ اصله، كما قال الظرفاء في حكايت البغل ان البغل ادعى الاصلية في صف الحُمُر، ثم ركبه صاحبه ذهب به الىٰ ميدان الفرس في الميدان في يوم الحرب وقال البغل انا حمار، لان ابي حمار والحمار كيف يفعل مافعله الفَرَس؟ ثم تولدت منه هذا الحمار الضال المضل المسمى بطهماسب وساير اخواته، بل هم اضل كما ذكر مولانا جامي رحمه الله رحمة واسعة في شواهد النبوة في الحكاية الحمارية على لسان الفارس...

بلغ الرسالة الىٰ الغايات بعناية خالق الأرض والسماوات، وفقنا الله وجميع المسلمين والمسلمات للإنقياد لأوامره والطاعة المفضى الىٰ نيل العصمة والمثوبات وجنبنا عن اقتران[٢] المناهي والسيئات المؤدي الىٰ المؤاخذة والعقوبات يوم لاينفع مال ولابنون الا من الحسنات كما قال الله (ان الحسنات يذهبن السيئات)[٣].

الحمد لله على الاتمام وقد وقع الفراغ من تحرير هذه النسخة الشريفة في شهر رمضان في ١٣ في الليلة الثلاثاء سنة ٩٩٦.

هذا نموذج من الدعاية العثمانية ضد الصفويين وهو نموذج يعكس بجلاء عميق الأحقاد

---

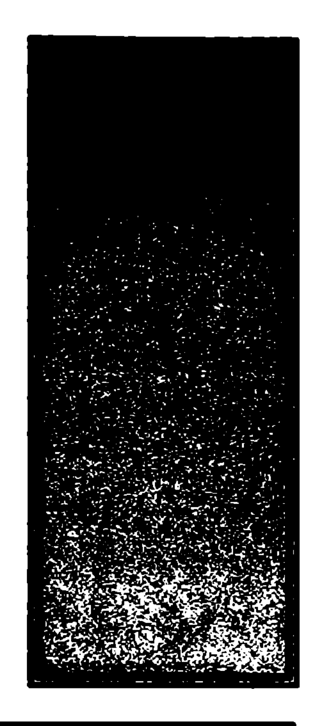
[١] انظر حبيب السير ج٤ ص٤٣٣ ــ ٤٣٤ في قصة الصراع المسلح الذي دار بين سيد حيدر من جهة وقوات سلطان يعقوب بقيادة سليمان بيك من جهة أخرى.

[٢] ولعله المقصود: اقتراف.

[٣] هود: ١١٤

الطائفية بحيث يكون ثواب قتل الشيعى أكبر من قتل سبعين كافر! وغزو الدولة الصفوية أفضل من سبعين غزوة!! فيما نرى الكركي يحتج على شاه اسماعيل بعد أوامره بقتل بعض أهل السنة في مدينة هرات.

هذه الرسالة بمضمونها العلمي التافه ومستواها الأخلاقي الهابط لو قورنت برسالة طب الممالك لظهر البون الشاسع بين ثقافتين.



المصادر



المصادر

١ - أحسن التواريخ / حسن روملو

٢ - تاريخ روابط خارجي ايران وأوربا (تاريخ العلاقات الإيرانية الأوربية) عبدالحسن نوايي

٣ - خلاصة التواريخ ج١، ج٢ أحمد بن شرف الدين قمي

٤ - زبدة التواريخ / محمد محسن مستوفي

٥ - زندكاني شاه عباس أول / نصر الله فلسفي

٦ - سقوط اصفهان، بطرس دي سركيس

٧ - فوائد الصوفية أبو الحسن قزويني

٨ - مجمع التواريخ، در تاريخ انقراض صفوية

٩ - علل افتادن صفويان / رسول جعفريان

١٠ - وقايع السنين والاعوام / عبدالحسن خاتون آبادي

١١ - النظام القضائي في العصر الصفوي

١٢ - صفوية در عرصة دين، فرهنك وسياست. (الصفوية في عرصة الدين، الثقافة والسياسة) «ثلاثة أجزاء».

١٣ ـ التاريخ التحليلي لايران والإسلام/ الدكتور علي أكبر حسني

١٤-دين ومذهب در عصر صفوي/مريم مير أحمدي

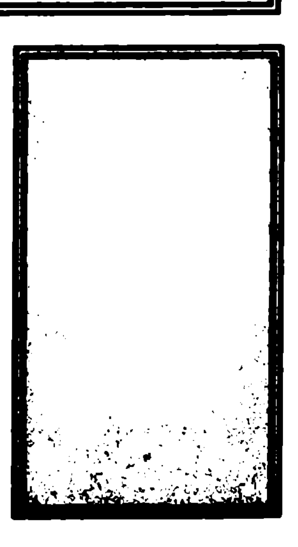
١٥- سفرنامه شاردن(رحالة فرنسي والتاجر)

١٦- التشييع العلوي و التشييع الصفوي، شريعتي

١٧-تاريخ ايران اسلامي دفتر٣،٤ رسول جعفريان
١٨-عالم آراي عباسي
١٩- انديشه سياسي اسلام معاصر، حميد عنايت
٢٠- ايران صفوي از ديدكاه سفرنامه هاي اروباييان،ترجمه غلام رضا بهرام
٢١- ايران در عصر صفوي، ترجمه كامبيز عزيزي
٢٢- تاريخ سياسي واجتماعي ايران، ابو القاسم طاهري
٢٣- سفر نامه بي تير (بيتر) دلاوله ج٢،٣
٢٤-شهداء الفضيلة ، السيد محسن الأمين العاملي.
٢٥- أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين العاملي.
٢٦- الشيعة في الإسلام، السيد محمد حسين الطباطبايي.
٢٧- مغول در ايران، ترجمه محمد مير آفتاب.
٢٨-The Rise of Islameci
٢٩- نزهة القلوب، حمد الله مستوفي
٣٠-L` Iran des tapis
٣١- آشنايي با تبريز/ بلدية تبريز.



المحتويات



الفصل الثاني

عهد الاستقرار والازدهار (٩٢٠-٩٨٤هـ)

الفصل الثالث

رياح الأزمة (٩٨٥-٩٩٦هـ)

الفصل الرابع

البطل القومي (٩٩٦- ١٠٣٨ هـ)

الفصل الخامس

المشهد الثقافي والحضاري في عهد شاه عباس الأوّل (٩٩٦- ١٠٣٨ هـ)

الفصل السادس

ملوك وعلماء (١٠٣٨-١٠٧٧هـ)

الفصل السابع

الصراع الفكري: عهد شاه سليمان (١٠٧٧-١١٠٥ هـ)

الفصل الثامن

نحو السقوط: عهد شاه سلطان حسين (١١٠٦-١١٣٥ هـ)

الفصل التاسع

أسباب السقوط